
الأخ الأصغر
كوري دوكتورو

الأخ الأصغر

الأخ الأصغر

تأليف
كوري دوكتورو

ترجمة
أميرة علي عبد الصادق

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد



هنـــداوي

الأخ الأصغر

كوري دوكتورو

Little Brother

Cory Doctorow

رقم إيداع ٤٢٤١ / ٢٠١٤
تدمك: ٠ ٩٩٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

المحتويات

من أفضل ما قِيل عن الرواية

رواية مثيرة عن تمرد المولعين بالتكنولوجيا، تضاهي في أهميتها وخطورتها قضايا مشاركة الملفات، وحرية التعبير، وزجاجات المياه المعبَّأة على متن الطائرات.

سكوت ويسترفيلد، مؤلف روايتي «القبحاء» و«المغمورون»

يمكنني التحدث عن رواية «الأخ الأصغر» من ناحية منظورها السياسي الثاقب أو استخدامها الرائع للتكنولوجيا — وكلاهما يجعل من قراءة هذا الكتاب ضرورة — لكن ما يأسرني حقًّا هو عالمية النضوج الفكري لماركوس وصراعه، وهي الخبرة التي سيدركها أي مراهق في العصر الحالي؛ اللحظة التي تختار فيها معنى حياتك وكيف ستصل إليه.

ستيفن تشارلز جولد، مؤلف روايتي «القافز» و«الانعكاس»

أُوصِي بقراءة رواية «الأخ الأصغر» أكثر من أي كتاب آخر قرأته هذا العام، ولَكَم أودُّ أن أجعله يصل إلى أيدي أكبر عدد ممكن من المراهقين ذوي الثلاثة عشر ربيعًا، ذكورًا كانوا أم إناثًا.

ذلك لأنني أعتقد أن هذا الكتاب من شأنه تغيير حياة من يقرؤه، ولأن بعض الشباب — ربما القليل منهم فقط — لن يصيروا كما كانوا بعد قراءته؛ فربما سيتغيرون على المستوى السياسي أو التكنولوجي، وربما ستكون هذه الرواية الأولى من نوعها التي تنال حبهم أو تخاطب ذواتهم الغريبة التي يخفونها

داخلهم. ربما سيرغبون في النقاش بشأنها والاختلاف معها، وربما سيرغبون في تشغيل أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم ورؤية ما بها. لا أعلم؛ فقد جعلتني هذه الرواية أرغب في العودة لسن الثالثة عشرة ثانيةً وقراءتها للمرة الأولى، ثم الخروج للعالم وجعله مكانًا أفضل أو أكثر غرابة أو أكثر تفردًا.

نيل جايمن، مؤلف رواية «أبناء أنانسي»

إن رواية «الأخ الأصغر» مغامرة واقعية بشكل مخيف، تدور حول كيف يمكن إساءة استغلال تكنولوجيا الأمن القومي للزج بالأمريكيين الأبرياء في السجون ظلمًا وبهتانًا. قرصان كمبيوتر مراهق يتحول فيما بعد إلى بطل يتحدى الحكومة دفاعًا عن حرياته الأساسية. إنه كتاب زاخر بالأحداث التي تتعلق بالشجاعة والتكنولوجيا ومظاهرات العصيان الرقمي، كوسيلة للاحتجاج المدني لمحبي التكنولوجيا.

باني هوانج، مؤلف كتاب «قرصنة الإكس بوكس»

كوري دوكتورو راوٍ نشط متقد الذهن على وعي بجميع تفاصيل ألعاب الواقع البديل، مع تقديمه رؤية جديدة مذهلة حول كيف يمكن لهذه الألعاب أن تفرض نفسها في السياق الزاخر بالمخاطر لهجوم إرهابي. إن «الأخ الأصغر» رواية عبقرية تطرح مناقشة جريئة؛ وهي أن قراصنة الكمبيوتر ومحترفي ألعابه ربما يكونون أكبرَ أملٍ لبلادنا في المستقبل.

جين ماكجونيكال، مصممة لعبة «آي لوف بيز»

الكتاب المناسب في الوقت المناسب بقلم الكاتب المناسب ... ليست مصادفة بحتة أن تكون أفضل رواية لكوري دوكتورو على الإطلاق حتى الآن.

جون سكالزي، مؤلف رواية «حرب العجوز»

إنها رواية عن النضج في المستقبل القريب حيث تستمر الأمور في المضي بالطريق الذي تسير فيه الآن. إنها رواية عن القرصنة كعادة ذهنية، لكنها تتعلق في المقام

الأول بالنضج والتغير والنظر للعالم والتساؤل عما يمكنك فعله بشأن ما يحدث به، وجاء التعبير فيها عن صوت المراهقين صادقًا. لم أتمكن من تركها من يدي حتى انتهيت منها. لقد أحببتها.

جو والتون، مؤلف رواية «فارزينج»

إن رواية «الأخ الأصغر» جديرة بأن تكون الشقيقة الصغرى لرواية جورج أورويل «١٩٨٤» فهي تتسم بالحيوية والنضج الفكري، والأهم أنها مخيفة بعض الشيء.

برايان كيه فون، مؤلف رواية «واي: الرجل الأخير»

تمثل رواية «الأخ الأصغر» تحذيرًا متفائلًا؛ إذ إنها تستقرئ الأحداث الحالية وتستنتج منها لتذكرنا بالتهديدات المتزايدة باستمرار للحرية، لكنها تشير في الوقت نفسه إلى أن الحرية تكمن جوهريًّا في أفعالنا وتوجهاتنا الفردية. وفي ظل عالمنا المتزايد في استبداده، آمل بوجه خاص أن يقرأ المراهقون والشباب الصغار هذه الرواية، ثم يقنعون أقرانهم وآباءهم ومعلميهم بذلك أيضًا.

دان جيلمور، مؤلف كتاب «نحن الإعلام»

إهداء

إلى آليس، التي تكملني.

نبذة حول الإهداءات لمتاجر الكتب

كل فصل من فصول هذه الرواية مُهدًى لمتجرِ كتبٍ مختلف؛ وهو إما متجر أُكنُّ له حبًّا، أو ساعدني في اكتشاف كتب كان لها الفضل في توسيع مداركي، أو أعانني في مسيرتي المهنية. ولم تدفع لي هذه المتاجر أي مبالغ مالية مقابل هذه الإهداءات — بل إنني لم أخبرها بشأنها أيضًا — لكن هذا ما بدا لي صوابًا. وفي النهاية، فإنني أطمح في أن تقرأ هذا الكتاب الإلكتروني، ثم تقرر شراء النسخة الورقية منه؛ لذا من المنطقي أن أقترح عليك بعض الأماكن التي يمكنك العثور عليه فيها!

شكر وتقدير

أدين في هذا الكتاب بفضل كبير للعديد من الكُتَّاب والأصدقاء والمرشدين والأبطال الذين جعلوا منه أمرًا ممكنًا.

لقراصنة الكمبيوتر والمؤمنين بأهمية التشفير في الحفاظ على الأمن والخصوصية: باني هوانج، وسيث شون، وإد فيلتن، وأليكس هالدرمن، وجويدز، وناتالي يريمجينكو، وإيمانويل جولدستين، وآرون سوارتز.

للأبطال: ميتش كابور، وجون جيلمور، وجون بيري بارلو، ولاري ليسيج، وشاري ستيل، وسيندي كون، وفريد فون لومن، وجامي بويل، وجورج أورويل، وآبي هوفمان، وجو تريبي، وبروس شناير، وروس داوسون، وهاري كوبيتو، وتيم أورايلي.

للكُتَّاب: بروس ستيرلينج، وكاثي كوجا، وسكوت ويسترفيلد، وجاستين لاربليستير، وبات يورك، وآنالي نويتس، ودان جيلمور، ودانيال بينكووتر، وكيفين بوسلين، ووندي جروسمن، وجاي ليك، وبن روسينبوم.

للأصدقاء: فيونا روميو، وكوين نورتن، وداني أوبراين، وجون جيلبرت، ودانا بويد، وزاك هانا، وإيملي هيرسون، وجراد كون، وجون هينسون، وآماندا فوبيستر، وشيني جاردين، ومارك فراونفيلدر، وديفيد بيسكوفيتش، وجون باتيل، وكارل ليفيسك، وكيت مايلز، ونيل وتارا-لي دوكتورو، ورايل دورنفيست، وكين سنايدر.

للمرشدين: جودي ميريل، وروز وجورد دوكتورو، وهاريت وولف، وجيم كيلي، وديمون نايت، وسكوت إدلمن.

شكرًا لكم جميعًا على منحي الأدوات التي مكنتني من التفكير في هذه الأفكار والتعبير عنها كتابةً.

مقدمة

جاءت كتابتي لرواية «الأخ الأصغر» في ظل حالة من الحماس الإبداعي المتأجج اعترتني في الفترة ما بين ٧ مايو ٢٠٠٧ و٢ يوليو ٢٠٠٧؛ أي استغرقت كتابتها ثمانية أسابيع بالضبط، بدءًا من اليوم الذي راودتني فيه الفكرة حتى اليوم الذي أنهيت تأليفها فيه (وكان على آليس — التي أُهدي إليها هذا الكتاب — تحمُّلي وأنا أسطر نهاية الفصل الأخير الساعة الخامسة صباحًا بالفندق الذي كنَّا نقيم به في روما للاحتفال بذكرى زواجنا). كنت أحلم أن يخرج الكتاب من بين يدي ويكون في صيغته النهائية دون عرق أو جلبة ... لكن الأمر لم يكن بالقدر نفسه تقريبًا من المتعة التي ظننت أنه سيكون عليها، فوصل عدد ما كتبته من كلمات في بعض الأيام إلى عشرة آلاف كلمة، انحنيت فيها لساعات طويلة على لوحة المفاتيح في المطارات ومترو الأنفاق وسيارات الأجرة وأي مكان يمكنني الكتابة فيه. كان الكتاب يحاول الخروج من رأسي بأي ثمن؛ فصرت لا أنام طويلًا، ولا أتناول الطعام كثيرًا إلى أن بدأ أصدقائي يتساءلون عما إذا كنت على ما يرام أم لا.

عندما كان والدي طالبًا جامعيًّا في ستينيات القرن الماضي، كان ضمن القليلين «المتمردين على الثقافة السائدة» الذين كانوا يرون أن الكمبيوتر شيء جيد، فكان الكمبيوتر في نظر أغلب الشباب آنذاك تجريدًا للمجتمع من صفته البشرية؛ إذ يحوِّل طلاب الجامعات إلى أرقام على بطاقات بيانات مُثقبة مكتوب عليها: «لا تثنِ هذه البطاقة أو تخرمها أو تطوِها أو تتلفها»؛ ما دفع بعض الطلاب لارتداء شارات تحمل عبارة: «أنا طالب: لا تثنِني أو تخرمني أو تطوِني أو تتلفني». كان يُنظَر للكمبيوتر على أنه وسيلة لزيادة قدرة السلطات الحكومية على فرض نظام صارم على الناس وإخضاعهم لإرادتها.

حين كنت في السابعة عشرة من عمري، بدا وكأن العالم في طريقه نحو مزيد من الحرية، فكان حائط برلين على وشك السقوط، وانتشرت أجهزة الكمبيوتر — التي

كانت قبل ذلك الحين بسنوات قليلة شيئًا غريبًا وعجيبًا — في كل مكان، وكان «المودم» الذي كنت أستخدمه للاتصال بأنظمة لوحات النشرات المحلية يصلني آنذاك بالعالم أجمع عبر شبكة الإنترنت وخدمات تجارية إلكترونية، مثل خدمة جيني. وازداد افتتاني — الذي لازمني طوال حياتي — بقضايا النشطاء عندما رأيت كيف أن المشكلة الرئيسية في ممارسة النشطاء عملهم؛ وهي التنظيم، غدت أيسر على نحو يتزايد بسرعة البرق (لا أزال أذكر المرة الأولى التي تحولت فيها لاستخدام قاعدة بيانات بنظام الدمج البريدي من إرسال الرسائل الإخبارية بالبريد مع استخدام عناوين مكتوبة بخط اليد). استُخدِمت كذلك في الاتحاد السوفييتي أدوات الاتصال لتوصيل المعلومات — والثورة — إلى أقاصي أكبر الدول الاستبدادية التي شهدتها الأرض على وجه الإطلاق.

بيد أنه بعد مضي ١٧ عامًا، اختلفت الأمور كليةً؛ فاستوعبت الأنظمة أجهزة الكمبيوتر التي أحبها، وصارت تُستخدَم للتجسس علينا، والتحكم فينا، والوشاية بنا. فتنصَّتت وكالة الأمن القومي الأمريكية على الخطوط الهاتفية بسائر الولايات المتحدة في مخالفة منها للقانون، وأفلتت من العقاب. وتراقبنا كذلك شركات تأجير السيارات وهيئات المرور والنقل العام أينما ذهبنا، وترسل لنا تذاكر مؤتمتة، موشيةً ببياناتنا للمتطفلين ورجال الشرطة والمجرمين الذين يتمكنون من الوصول غير القانوني لقواعد البيانات الخاصة بهذه الجهات. هذا فضلًا عن احتفاظ إدارة أمن النقل الأمريكية بقائمة «للممنوعين من السفر جوًّا» تضم أفرادًا لم تسبق إدانتهم بأية جريمة، ومع ذلك يُعَد سفرهم جوًّا أمرًا بالغ الخطورة. إن الأسماء بالقائمة سرية، والقانون الذي يفرض تطبيقها سري، والمعايير التي تحكم إضافة الأفراد إليها سرية. فتضم هذه القائمة أطفالًا يبلغون من العمر أربعة أعوام وأعضاءً بمجلس الشيوخ الأمريكي ومحاربين قدامى حائزين على أوسمة؛ أي أبطال حرب حقيقيين.

مَن أعرفهم من ذوي السبعة عشر ربيعًا يدركون تمام الإدراك ما يمكن أن ينطوي عليه الكمبيوتر من خطر، فكابوس الاستبداد — الذي شهدته حقبة الستينيات من القرن العشرين — عاود من جديد. إن الصناديق الصغيرة المغرية الموجودة على مكاتب هؤلاء الشباب أو في جيوبهم تراقب جميع تحركاتهم وتطوقهم، مجرِّدةً إياهم على نحو منظم من تلك الحريات الجديدة التي تمتعت أنا بها، وأحسنت استغلالها في مرحلة الشباب.

هذا فضلًا عن الاستغلال الواضح لهؤلاء الشباب كحقل تجارب لدولة تكنولوجية من نوع جديد كلنا نمضي في الطريق نحوها؛ وهي الدولة التي يُعَد فيها التقاط صورة ما

إما قرصنةً لمصنفات الآخرين (في دور السينما أو المتاحف، بل والمقاهي أيضًا)، أو إرهابًا (في الأماكن العامة)، بينما يمكن فيها التقاط صور لنا وتعقبنا وتسجيل ما نفعله مئات المرات في اليوم من جانب أي صاحب متجر أو ضابط أو مسئول بيروقراطي، أو ديكتاتور حقير. إنه عالم يمكن فيه تبرير أي إجراء — بما في ذلك التعذيب — بالتذرُّع بهجمات الحادي عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١ بالولايات المتحدة حتى يصمت المعارضون كافة.

لكن ليس علينا الاستمرار في هذا الطريق.

إذا كنت تحب الحرية، وتعتقد أن الخصوصية تمنح الإنسان كرامته، وكذلك حقه في فعل ما يريد دون تدخل من أحد، وتجربة ما يرِدُ بذهنه من أفكار غريبة شريطة ألا يُلحق الضرر بالآخرين؛ فلديك قضية مشتركة مع أولئك الشباب الذين تُستخدَم برامج تصفح الويب والهواتف المحمولة خاصتهم لتتبعهم وملاحقتهم في كل مكان.

إذا كنت تؤمن بأن الرد على الكلام السيئ هو المزيد من الكلام — وليس الرقابة — فهذه معركتك إذن.

إذا كنت تؤمن بمجتمع قانون يفرض فيه الحكام علينا القواعد، ويخضعون لها في الوقت نفسه، فأنت جزء من الصراع الذي يخوضه هؤلاء الشباب عندما يطالبون بحقهم في العيش وفق ميثاق الحقوق ذاته الذي يخضع له الراشدون.

يَهدُف هذا الكتاب لأن يكون جزءًا من النقاش حول ما يعنيه مجتمع المعلومات: هل يعني المراقبة الكاملة أو حرية لم تُعرَف من قبل؟ إنه ليس اسمًا فحسب، بل فعل ... شيء تفعله.

الفصل الأول

أهدي هذا الفصل لمتجر باكافينيكس بوكس في تورونتو بكندا. هو أقدم متجر لكتب الخيال العلمي في العالم، ويرجع له الفضل فيما أنا عليه الآن. دخلته متجولًا للمرة الأولى في سن العاشرة تقريبًا ملتمسًا النصح بشأن ما يمكنني قراءته. صحبتني يومها تانيا هاف (نعم، تانيا هاف الشهيرة، لكنها آنذاك لم تكن قد أصبحت بعدُ الكاتبة المعروفة آنذاك!) إلى قسم الكتب القديمة، ووضعت في يدي نسخة من رواية «المزغب الصغير» للكاتب هنري بيم بايبر، لتغيِّر بذلك حياتي إلى الأبد. وببلوغي الثامنة عشرة، كنت أعمل في هذا المتجر — حيث اضطلعت بعمل تانيا عند تقاعدها للتفرغ للكتابة — وتعلمت دروسًا لم تفارقني طوال حياتي حول كيفية شراء الناس للكتب ولماذا. ومن وجهة نظري، ينبغي لكل كاتبٍ العملُ في متجر للكتب (وقد عمل بالفعل العديد من الكُتَّاب في متجر باكا على مر السنين! وفي الذكرى الثلاثين للمتجر، جمع القائمون عليه مقتطفات أدبية مختارة للقصص التي ألفها كُتَّاب عملوا به، وهم: ميشيل ساجارا (المعروفة أيضًا باسم ميشيل ويست)، وتانيا هاف، ونالو هوبكينسن، وتارا تالان ... وأنا).

* * *

أنا طالب في السنة النهائية بمدرسة سيزار شافيز الثانوية في حي ميشن المشمس بمدينة سان فرانسيسكو؛ ما يجعلني واحدًا من أكثر الناس خضوعًا للمراقبة في العالم. أُدعَى ماركوس يالو، لكن حينما بدأت هذه القصة، كنت أُعرَف باسم w1n5t0n ويُنطَق «وينستون».

ولا يُنطَق «دابليو وان إن فايف تي زيرو إن»، إلا إذا كُنتَ موظفًا معنيًّا بشئون التأديب يفتقر إلى المعرفة متخلفًا عن ركب المعاصرة، حتى إنك ما زلت تطلق على الإنترنت «طريق المعلومات فائق السرعة».

أعرف شخصًا على هذا القدر من الجهل يُدعَى فريد بينسان، وهو أحد النواب الثلاثة لمدير مدرسة سيزار شافيز، شخص قليل الحيلة للغاية. لكن إذا كان لا بد من سجَّان، فقليل الحيلة أفضل من المدرك جيدًا للأمور.

في صبيحة أحد أيام الجمعة، قال بينسان عبر مكبر الصوت: «ماركوس يالو.» هذا المكبر ليس جيدًا في الأساس، وعند اجتماعه بغمغمة بينسان المعتادة، يكون الصوت الناتج أشبه بشخص يصارع لهضم بوريتو محشو سيئ الصنع، من كونه إعلانًا مدرسيًّا. بيد أن الإنسان يجيد الانتباه إلى اسمه وسط التشوش الصوتي ... إنها إحدى سمات البقاء.

التقطتُ حقيبتي، وأنزلت شاشة الكمبيوتر المحمول لكن ليس للنهاية؛ إذ لم أرد إفساد عمليات التنزيل التي كنت أجريها، وتأهبت لقدري المحتوم.

«احضر إلى مكتب الإدارة فورًا.»

رمقتني السيدة جالفيس، معلمتي لمادة الدراسات الاجتماعية، بنظرة استغراب، فبادلتُها إياها، فكان السبب الذي يعاقبني عليه بينسان دومًا هو اختراقي جدران (نظم) الحماية الإلكترونية للمدرسة ببراعة، وخداعي لبرنامج التعرف على الأفراد بالمشية، وتخريبي لشرائح التتبُّع الإلكترونية التي يتتبعوننا بها. جالفيس طيِّبة القلب، على أية حال؛ فهي لا تتحامل عليَّ لمثل هذه الأفعال أبدًا (لا سيما أنني أساعدها في التعامل مع حساب بريد الويب الخاص بها لتتمكن من التحدث مع أخيها المجند في العراق).

ضربني صديقي داريل على مؤخرتي عند مروري به. أعرف داريل منذ الطفولة، فكنا نهرب معًا من الحضانة، ومنذ ذلك الحين وأنا دائمًا أدخله في مشكلات وأخرجه منها. رفعت ذراعيَّ فوق رأسي كالملاكمين المحترفين، وخرجت من حصة الدراسات الاجتماعية، وبدأت سيري نحو المكتب كالمتهم الموجهة إليه الأنظار.

كنت في منتصف الطريق عندما رنَّ هاتفي. كان ذلك أحد الأمور المحظورة الأخرى — فالهواتف ممنوعة منعًا باتًّا في مدرسة شافيز الثانوية — لكن لماذا يوقفني ذلك عن استخدامها؟ اختفيت عن الأنظار في دورة المياه، وأغلقت الباب على نفسي في الحمام الموجود بالمنتصف (فالأبعد يكون دائمًا الأقذر؛ لتوجه الكثيرين إليه مباشرة أملًا منهم في الهروب من الرائحة الكريهة وما يثير الاشمئزاز؛ لذا فالحمام الموجود بالمنتصف هو الأكثر

نظافة ونفعًا). تحققت من الهاتف؛ فوجدت أن جهاز الكمبيوتر المكتبي الموجود بالمنزل قد أرسل رسالة بالبريد الإلكتروني لهاتفي للتنبيه بأمر مستجد في لعبة «هاراجوكو فان مادنس»، وهي تصادف أن تكون اللعبة الأفضل على الإطلاق.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي؛ فليس هناك ما هو أسوأ من قضاء أيام الجمعة في المدرسة بأية حال؛ ولذلك أسعدني ما تسنى لي من عذر للهروب.

سرت متمهلًا ما تبقى من الطريق إلى مكتب بينسان، ولوحت له بيدي أثناء دخولي سريعًا من الباب.

قال: «أليس اسمك «دابليو وان إن فايف تي زيرو إن»؟» كان فريدريك بينسان — رقم الضمان الاجتماعي ٥٤٥-٠٣-٢٣٤٣، تاريخ الميلاد ١٥ أغسطس ١٩٦٢، اسم الأم قبل الزواج دي بونا، مسقط الرأس بيتلوما — يفوقني طولًا بكثير، فأنا قصير لا يتجاوز طولي نحو مائة وسبعين سنتيمترًا، في حين يبلغ هو من الطول حوالي مترين، وقد مر على ممارسته لكرة السلة في الجامعة فترة طويلة، أسفرت عن ترهل عضلات صدره التي تظهر على نحو مخجل أسفل القمصان قصيرة الأكمام التي يحصل عليها مجانًا عبر الإنترنت. بدا دائمًا بمظهر مَنْ على وشك أن يضربك بقوة على مؤخرتك، وهو على استعداد باستمرار لرفع صوته لإحداث تأثير درامي. وقد بدأت هاتان السمتان في فقدان فعاليتهما بفعل التكرار.

أجبته: «لا، للأسف. لم أسمع من قبل عن شخصية الروبوت الفضائي «الآر تو دي تو» هذه التي تتحدث عنها.»

تهجى الاسم مرة أخرى قائلًا: «دابليو وان إن فايف تي زيرو إن»، ورمقني بنظرة شك قطَّب فيها جبينه، وانتظر مني أن أرتعد خوفًا. كان ذلك اسمي، بالطبع، وطالما كان كذلك لسنوات. إنه الهوية التي استخدمتها عند نشري الأفكار بمنتديات الرسائل التي كنت أساهم عبرها في مجال أبحاث الأمن التطبيقي، مثل هروبي من المدرسة وتعطيلي آلية تعقب المفكرات على هاتفي. لكن بينسان لم يكن يعرف أن ذلك اسمي. لم يعرفه في الواقع سوى عدد قليل من الناس الذين أثق فيهم ثقة عمياء.

قلت له: «امممم ... لا يذكرني بأي شيء.» كنت قد نفَّذت عددًا من العمليات الرائعة بأرجاء المدرسة مستخدمًا هذا الاسم — وما يشعرني بفخر شديد عملي على أدوات للقضاء على شرائح التتبع — وإذا تمكن بينسان من الربط بين الهويتين، فسأقع في مشكلة. لم يناديني أحد من قبل في المدرسة بهذا الاسم، ولا حتى وينستون، بما في ذلك أصدقائي. فاسمي ماركوس فقط.

استراح بينسان على كرسيه خلف المكتب، وضرب بخاتمه الخاص بالتخرج بعصبية على الدفتر الموجود أمامه. كان يفعل ذلك متى بدأت الأمور تسوء بالنسبة له. يطلق لاعبو البوكر على مثل هذه التصرفات «الأمارة»؛ أي الشيء الذي يسمح لك بمعرفة ما يدور برأس شخص آخر. وقد كنت أعلم أمارات بينسان عن ظهر قلب.

«ماركوس، أرجو أن تكون مدركًا مدى خطورة ما نتحدث عنه.»

«سأفعل عندما توضِّح لي ما الذي نتحدث عنه، سيدي.» أقول «سيدي» دائمًا لأفراد السلطة عندما أعبث معهم. وهذه «أمارتي».

هزَّ بينسان رأسه، ونظر لأسفل ... أمارة أخرى. سيبدأ الآن في الصياح بوجهي في أية لحظة. «اسمع، يا فتى! آن الأوان لتواجه حقيقة معرفتنا بما كنت تفعله، وأننا لن نتهاون في هذا. ستكون محظوظًا إن لم تُفصَل قبل انتهاء هذا الاجتماع. هل ترغب في التخرج؟»

«سيد بينسان، لم توضح لي بعدُ المشكلة ...»

ضرب يده بعنف على المكتب، ثم أشار بإصبعه إليَّ، وقال: «المشكلة، يا سيد يالو، هي أنك اشتركت في مؤامرة إجرامية لتخريب نظام المدرسة الأمني، وعرَّفت زملاءك الطلاب بإجراءات مضادة للأمن. أنت تعلم أننا قد فصلنا جراثيلا أوريارتي الأسبوع الماضي لاستخدامها أحد أجهزتك.» كانت أوريارتي بريئة من التهمة التي نُسِبت إليها؛ فقد ابتاعت جهاز تشويش لاسلكيًّا من متجر متخصص في بيع الأدوات التي تهمُّ متعاطي المخدرات يقع بالقرب من محطة بارت بشارع ١٦، وتسبب ذلك الجهاز في إجراءات مضادة للأمن في رواق المدرسة. لم أكن أنا السبب، لكنني شعرت بالتعاطف معها.

«وهل تعتقد أن لي يدًا في ذلك؟»

«لدينا معلومات استخباراتية موثوقة تشير إلى أنك «دابليو وان إن فايف تي زيرو إن».» — تهجى الاسم ثانيةً، وبدأت أتساءل ما إذا لم يكن قد أدرك بعد أن الرقم «وان» يشير إلى الحرف «ي» والرقم «فايف» يشير للحرف «س». استطرد بينسان حديثه: «ونعلم أن هذه الشخصية مسئولة عن سرقة الاختبارات القياسية العام الماضي.» لم أكن أنا المسئول في الحقيقة عن هذه الواقعة، لكنها كانت عملية بارعة، وشعرت بشيء من الإطراء لسماعي أنها منسوبة إليَّ. «ومن ثم، فأنت عرضة للسجن عدة سنوات ما لم تتعاون معي.»

«لديك «معلومات استخباراتية موثوقة»؟ أود أن أراها.»

حملق في وجهي، وقال: «موقفك هذا لن يساعدك.»

«إذا كان لديك دليل، يا سيدي، فأعتقد أن عليك الاتصال بالشرطة، وتسليمي لهم؛ فيبدو الأمر خطيرًا للغاية، ولا أود أن أقف في طريق تحقيق مناسب تجريه السلطات المختصة.»

«أتريدني أن أتصل بالشرطة؟»

«ووالديَّ — على ما أعتقد — فالمصلحة تقتضي ذلك.»

حدق كلٌّ منا في الآخر. من الواضح أنه كان متوقعًا أن أنهار فور إبلاغه إياي هذا الخبر الصادم، لكنني لم أفعل. كان لديَّ أسلوب في الانتصار على أمثال بينسان بالتحديق فيهم؛ فكنت أتوجه بنظري قليلًا ناحية يسار رءوسهم، وأفكر في كلمات أغاني أيرلندية شعبية قديمة من النوعية المكونة من ثلاثمائة بيت. وكان ذلك يجعلني أبدو هادئًا ومتزنًا تمامًا.

«وكان الجناح على الطائر، والطائر على البيضة، والبيضة على العش، والعش على الورقة، والورقة على الغصين، والغصين على الغصن الصغير، والغصن الصغير على الغصن الكبير، والغصن الكبير على الشجرة، والشجرة في المستنقع ... والمستنقع بالوادي ... أووه! يا له من مستنقع جميل! بالوادي ... أووه ...»

قال بينسان: «يمكنك العودة للفصل الآن، وسأستدعيك عندما تكون الشرطة مستعدة للحديث معك.»

«هل ستتصل بهم الآن؟»

«إجراءات الاتصال بالشرطة معقدة. كنت أتمنى أن نتمكن من تسوية الأمر سريعًا وبهدوء، لكن طالما أنك مصمم ...»

قلت له: «بوسعي الانتظار لحين الاتصال بهم، لا مانع لدي في ذلك.»

ضرب بخاتمه ثانيةً، فتأهبت لهجوم عنيف من جانبه.

صاح بينسان: «اذهب! لتخرج من مكتبي أيها الفتى اللعين البائس ...»

خرجت من المكتب، دون أن أبدي أي تعبير على وجهي. لم يكن ينوي الاتصال بالشرطة؛ فلو كان لديه ما يكفي من الأدلة لتقديمها للشرطة، لاتَّصل بهم من البداية. لقد كان يُكِنُّ لي كرهًا شديدًا، وأعتقد أنه قد تناهى إلى سمعه بعض الإشاعات غير المؤكدة عني، ورغب في تخويفي لأؤكدها له.

أخذت أسير في الرواق بنشاط ولامبالاة، مع الحفاظ على مشيتي موزونة ومدروسة مراعاةً لكاميرات التعرف على المشية. جرى تركيب هذه الكاميرات منذ عام واحد، وقد

أحببتها لغبائها المطلق. كان لدينا في السابق كاميرات للتعرف على الوجوه بكل مكان عام تقريبًا في المدرسة، غير أن المحكمة أصدرت حكمًا بعدم دستورية ذلك؛ لذا، أنفق بينسان والكثيرون غيره من الموظفين الإداريين المرضى بجنون الارتياب أموالنا التي دفعناها مقابل الكتب المدرسية على هذه الكاميرات الغبية التي من المفترض أن تميز الأفراد بمشيتهم!

عدت إلى الفصل، وجلست ثانيةً مع ترحيب حار من السيدة جالفيس. أخرجت أدوات المدرسة المعتادة، وعُدت لأجواء الفصل الدراسي. كانت أفضل هذه الأدوات على الإطلاق في التجسس هي أجهزة الكمبيوتر المدرسية المحمولة؛ فهي تسجل كل ضغطة مفتاح، وتراقب كل صور استخدام الشبكة للكشف عن أي كلمات أساسية مريبة، وتحسب كل نقرة، وتتعقب كل فكرة خاطفة تنشرها على الشبكة. حصلنا على هذه الأجهزة في السنة قبل النهائية بالمدرسة، وفقدَتِ الفكرة بريقها بالنسبة لي في غضون بضعة أشهر فحسب؛ فما إن اكتُشِف أن هذه الأجهزة «المجانية» تهدف لتحقيق المصلحة للسلطة — فكانت تعرض أيضًا سلسلة من الإعلانات البغيضة — حتى بدأ الطلاب يشعرون فجأة بأنها ثقيلة ومرهقة جدًّا.

كان اختراق الكمبيوتر المدرسي المحمول الخاص بي سهلًا، فتوفرت صيغة الاختراق على الإنترنت في غضون شهر من ظهور الجهاز، وكانت بسيطة تمامًا، كل ما عليك فعله هو تنزيل صورة قرص فيديو رقمي، ونسخها، ثم إدخالها إلى الكمبيوتر، وتشغيلها أثناء الضغط في الوقت ذاته على مجموعة من المفاتيح المختلفة، وسيتولى قرص الفيديو الرقمي ما تبقى من المهمة؛ فيثبت مجموعة مختلفة من البرامج الخفية على الجهاز، وهي البرامج التي ستظل خفية حتى لمجلس التعليم عند إجرائه فحوص السلامة اليومية عن بُعد للأجهزة. وتوجَّب عليَّ بين الحين والآخر تحديث البرنامج لخداع أحدث اختبارات المجلس، لكنَّ ذلك كان ثمنًا بسيطًا مقابل بعض التحكم في الجهاز.

بدأت برنامجًا اسمه «آي إم بارنويد»، وهو برنامج مراسلات فورية سري كنت أستخدمه عندما أرغب في إجراء محادثة غير مسجلة أثناء الحصص الدراسية. كان داريل متصلًا بالفعل آنذاك.

«اللعبة مستمرة! شيء كبير حدث في لعبة «هاراجوكو فان مادنس»، يا صاح! هل ستأتي معي؟»

«مستحيل! إذا أُمسِك بي للمرة الثالثة وأنا أحاول الهرب، فسأُفصَل. أنت تعلم ذلك! سنذهب بعد دوام المدرسة.»

«أمامك وقت الغداء، ثم قاعة الدراسة، أليس كذلك؟ مجموع ذلك ساعتان؛ أي وقت وفير لاكتشاف ما حدث في اللعبة، والعودة قبل أن يلاحظ أحد غيابنا. سأجعل كل الفريق يخرج معنا.»

«هاراجوكو فان مادنس» هي أفضل لعبة اختُرِعت على الإطلاق. أعلم أنني قد أشرت لذلك مسبقًا، لكنها معلومة تستحق التكرار. إنها إحدى ألعاب الواقع البديل، وتدور فكرتها حول عصابة من المراهقين اليابانيين المعاصرين يكتشفون جوهرة شافية ذات قوة خارقة في معبد في هاراجوكو، وهو المكان الذي ابتكر فيه المراهقون اليابانيون الرائعون كل ثقافة ثانوية مهمة ظهرت في الأعوام العشرة الماضية. يطاردهم رهبان أشرار، والياكوزا (المافيا اليابانية)، وكائنات فضائية، ومفتشو ضرائب، وآباء، وذكاء اصطناعي خبيث. يحل هؤلاء الأعداء رسائل اللاعبين المشفرة التي يلزم علينا فكها، ويستخدمونها للتوصل إلى أدلة تؤدي بدورها إلى مزيد من الرسائل المشفرة والأدلة.

تخيل أنك تقضي أفضل فترة بعد الظهيرة على الإطلاق في التجول بشوارع مدينة ما، متفحصًا غريبي الأطوار، والإعلانات العجيبة التي توزَّع باليد، ومجانين الشوارع، والمحال غير التقليدية. هذا فضلًا عن مطاردة تتطلب منك البحث في أغانٍ وأفلام قديمة عجيبة، وثقافة مراهقين من جميع أنحاء العالم، ومن كل الأزمان والأماكن. وهي مسابقة يحصل الفريق الفائز بها — والمكون من أربعة أفراد — على جائزة رائعة؛ وهي قضاء عشرة أيام في طوكيو، يتنزهون فيها على جسر هاراجوكو، ويستمتعون بأحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا في منطقة أكيهابارا، ويشترون جميع منتجات الطعام التي تحمل صورة شخصية «الفتى أسترو» الكرتونية، غير أنه يُعرَف باسم «الفتى أتوم» في اليابان.

تلك هي لعبة «هاراجوكو فان مادنس». وعندما تحل لغزًا أو اثنين، لن يمكنك التراجع بعد ذلك أبدًا.

«لا، لن أفعل. لا، لا تطلب حتى ذلك ثانيةً.»

«أنا بحاجة إليك يا دي. أنت أفضل رفاقي. أقسم لك بأنني سأحرص على دخولنا وخروجنا دون أن يعلم أحد. أنت تعلم أن ذلك بإمكاني، أليس كذلك؟»

«أعلم أنه بإمكانك.»

«إذن، ستأتي؟»

«كلا!»

«بالله عليك يا داريل! لن تندم إذا مت قبل أن تحضر مزيدًا من الحصص في المدرسة.»

«ولن أندم إذا مت قبل أن أقضي مزيدًا من الوقت في لعب إحدى ألعاب الواقع البديل أيضًا.»

«نعم، لكنك قد تندم إذا لم تقضِ مزيدًا من الوقت مع فانيسا باك، أليس كذلك؟»

كانت فان أحد أعضاء فريقي، وقد التحقت بمدرسة خاصة للفتيات في منطقة إيست باي، لكنني كنت أعلم أنها ستهرب لتنضم إليَّ وتنفذ المهمة معي. كان داريل معجبًا بها لسنوات، حتى قبل أن تتبدى مفاتنها العديدة بوصولها مرحلة البلوغ. وقع داريل في حب عقلها. أمر محزن حقًّا!

«أيها الحقير!»

«ستأتي؟»

نظر إليَّ، وهزَّ رأسه، ثم أومأ بها موافقًا. غمزت بعيني له، ثم بدأت الاتصال بباقي أعضاء الفريق.

لم أكن دائمًا ولِعًا بألعاب الواقع البديل، فلدي سر خطير، وهو أنني اعتدت على ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي. ويعكس هذا الاسم طبيعة هذه الألعاب بالضبط؛ ففيها يجري اللاعب في الأرجاء مرتديًا أزياء التمثيل، ويتحدث بلكنة غريبة، متظاهرًا بأنه جاسوس عظيم أو مصاص دماء أو فارس من القرون الوسطى. وهي تشبه لعبة «الإمساك بالعلم» مع بعض ملامح لعب الأدوار الدرامية وألعاب محاربي التنين، وأفضلها تلك التي لعبناها في مخيمات الكشافة خارج المدينة في سنوما أو شبه الجزيرة. وكان من الممكن أن تصير هذه الملاحم، التي تستمر ثلاثة أيام، خطيرةً للغاية، مع رحلات السير على الأقدام نهارًا، والمعارك الملحمية باستخدام السيوف المصنوعة من الخيزران والمطاط الزبدي، وإلقاء التعاويذ السحرية برمي أكياس صغيرة مملوءة بالحبوب والصياح «كرة نارية!» وهكذا. لعبة ممتعة، وإن كانت بلهاء بعض الشيء. لكنها ليست على القدر نفسه من غرابة التحدث عما يخطط له الجني الصغير الذي تلعب به أثناء جلوسك على مائدة مملوءة بالمشروبات الغازية منخفضة السعرات، والمجسمات الصغيرة الملونة؛ وهي أكثر نشاطًا

بدنيًّا من الدخول في غيبوبة وأنت ممسك بالفأرة أمام لعبة يشترك فيها عدد كبير من اللاعبين في المنزل.

كانت الألعاب المصغرة التي كنا نمارسها في الفنادق هي ما أوقعتني في مشكلات، فمع وصول أي مؤتمر للخيال العلمي إلى المدينة، كان أحد ممارسي ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي يقنع القائمين على المؤتمر بالسماح لنا بممارسة بعض من الألعاب المصغرة التي تبلغ مدتها ست ساعات في المؤتمر، متطفلين على قيمة تأجيرهم للمكان. وكان تواجد مجموعة من الشباب المتحمسين يركضون في الأرجاء مرتدين ملابس تمثيل يضفي حيوية على الحدث، وكنا نستمتع وسط أفراد حتى أكثر انحرافًا من الناحية الاجتماعية منَّا.

لكن عيب الفنادق أن زوَّارها لا يقتصرون على هواة الخيال العلمي فحسب، وإنما تضم كذلك الكثير ممن لا يمارسون هذه الألعاب. أشخاص عاديون، من ولايات تبدأ أسماؤها وتنتهي بحروف متحركة، يقضون إجازاتهم.

وفي بعض الأحيان، يسيء هؤلاء الأفراد فهم طبيعة الألعاب.

لنكتفِ بهذا القدر من الحديث في هذا الشأن، حسنًا؟

انتهت الحصة بعد عشر دقائق، ولم يترك لي ذلك الكثير من الوقت للاستعداد. كانت المهمة الأولى هي التعامل مع كاميرات التعرف على المشية المزعجة. ومثلما أشرت من قبل، كانت هذه الكاميرات في البداية للتعرف على الوجوه، لكن صدر حكم بعدم دستورية استخدامها. وعلى حد علمي، لم تصل محكمة بعدُ إلى قرار بشأن ما إذا كانت كاميرات التعرف على المشية هذه قانونية أم لا. لكن إلى أن تفعل، لا مفر من التعامل معها.

المشية هي الطريقة التي تسير بها، ويبرع الناس في تحديد هذ الطريقة. عند انضمامك لرحلة تخييم المرة القادمة، لاحظ اهتزاز ضوء المصباح اليدوي أثناء اقتراب صديق آتٍ من بعيد نحوك، فمن المرجح أن تتمكن من التعرُّف عليه من حركة الضوء فقط؛ أي الطريقة المميزة التي يهتز بها إلى أعلى وأسفل، والتي يمكن أن تبعث برسالة لعقولنا بأنَّ هناك شخصًا يقترب منَّا.

يلتقط برنامج التعرف على المشية صورًا لحركتك، ويحاول عزلك في الصور كصورة ظلية، ثم مطابقة هذه الصورة الظلية بقاعدة بيانات لمعرفة ما إذا كانت هذه القاعدة ستتعرف على هويتك أم لا. إنه نوع من معرفات القياس الحيوي، مثل بصمات الأصابع، أو مسح شبكية العين، لكنه ينطوي على تناقضات تفوق بكثير هذه المعرفات الأخرى.

ويحدث «تناقض» القياس الحيوي عندما يتطابق القياس مع أكثر من شخص واحد؛ فلا يشترك أحد معك في بصمة إصبعك، أما المشية فيشاركك فيها كثيرون.

ليس تمامًا، بالطبع، فمشيتك بحذافيرها تنفرد بها وحدك، ولا أحد غيرك يشترك معك فيها. بيد أن المشكلة تتمثل في التغيرات التي تطرأ على هذه المشية وفقًا لمدى شعورك بالإرهاق، ومما تتكون الأرضية التي تمشي عليها، وما إذا كنت قد أجهدت كاحلك أثناء لعب كرة السلة، أو استبدلت حذاءك مؤخرًا؛ ومن ثَمَّ، يشوش النظام بشكل ما صورتك الجانبية، باحثًا عن أفراد يسيرون مثلك.

يتشابه الكثير من الناس معك في مشيتهم، أضف إلى ذلك أنه من السهل عليك تغيير الطريقة التي تسير بها، وأبسط مثال على ذلك أن تخلع إحدى فردتي الحذاء. في هذه الحالة، ستسير بالطبع مثلما تفعل دائمًا عند خلع إحدى فردتي حذائك، وبالتالي ستكشف الكاميرات في النهاية عن هويتك. ولهذا، أُفضِّل إضفاء بعض العشوائية على الأسلوب الذي أتبعه في خداع تقنية التعرف على المشية؛ فأضع حفنة من الحصى في كل فردة حذاء. وسيلة فعالة ورخيصة، ولا تبدو فيها خطوتان متماثلتين. هذا إلى جانب حصولك على تدليك رائع للقدمين بتطبيق علم المنعكسات (إنني أمزح! فعلم المنعكسات على القدر نفسه من الفائدة العلمية كتقنية التعرف على المشية).

اعتادت الكاميرات إصدار إنذار في كل مرة يدخل فيها شخص لا تتعرف عليه إلى حرم المدرسة.

لكن ذلك لم يُجدِ نفعًا.

فكان الإنذار يصدر كل عشر دقائق؛ عند مجيء ساعي البريد، وعند وصول أحد أولياء الأمور، وعند ذهاب العمال لإصلاح ملعب كرة السلة، وعند ارتداء أحد الطلاب حذاءً جديدًا.

ومن ثم، فإنها تحاول حاليًّا تعقُّب من يوجد أين ومتى. وإذا خرج شخص ما من بوابات المدرسة أثناء الحصص المدرسية، تُفحَص مشيته لمعرفة ما إذا كانت تطابق مشية أيٍّ من الطلاب. وإن كان الأمر كذلك، يصدُر الإنذار على الفور!

تطوِّق الممرات المغطاة بالحصى مدرسة شافيز الثانوية، وأحب دائمًا الاحتفاظ بحفنتين من هذا الحصى في حقيبة الظهر الخاصة بي، كإجراء احتياطي. مرَّرت لداريل في هدوء عشرًا أو خمس عشرة حصاة صغيرة مستدقة الأطراف، ووضعناها في حذاءينا.

أوشكت الحصة على الانتهاء، وأدركت حينها أنني لم أتحقق بعدُ من موقع لعبة «هاراجوكو فان مادنس» الإلكتروني لمعرفة مكان الدليل التالي! فقد كان تركيزي بالكامل منصبًّا على الهروب، ولم أزعج نفسي باكتشاف المكان الذي سنهرب إليه.

توجهت إلى الكمبيوتر المدرسي المحمول الخاص بي، وضغطت على لوحة المفاتيح. كان مزودًا ببرنامج تصفح الويب الذي علينا استخدامه، وهو إصدار مؤمَّن مزود ببرنامج تجسس من برنامج التصفح «إنترنت إكسبلورر»، ذلك البرنامج الحقير الكثير الأعطال الذي تنتجه شركة مايكروسوفت، والذي لا يستخدمه أحد دون الأربعين عامًا طوعًا.

كانت لدي نسخة من برنامج التصفح «فايرفوكس» على محرك اليو إس بي المُدمَج في ساعة اليد الخاصة بي، لكن ذلك لم يكن كافيًا؛ فقد كان نظام تشغيل الكمبيوتر المدرسي المحمول هو «فيستا فور سكولز»، وهو نظام تشغيل عتيق مصمم لإيهام الإداريين بالمدارس بأنهم يتحكمون في البرامج التي يمكن للطلاب تشغيلها.

لكن نظام التشغيل «فيستا فور سكولز» هو في حد ذاته أسوأ أعدائه؛ فيوجد الكثير من البرامج التي لا يرغب هذا النظام في أن تتمكن من إغلاقها، مثل برامج رصد ضغطات لوحة المفاتيح، وبرامج الرقابة. وهذه البرامج تعمل في وضع خاص يجعلها غير مرئية للنظام، ولا يمكنك التخلص منها لأنك لا تعرف بوجودها في المقام الأول.

أي برنامج يبدأ اسمه بـ \$SYS\$ يكون غير مرئي لنظام التشغيل، فلا يظهر في قوائم محرك الأقراص الصلبة، ولا في أداة مراقبة العمليات؛ لذا، حملَتْ نسخة «الفايرفوكس» التي كنت أستخدمها اسم \$SYS\$Firefox. وبتشغيلي إياها صارت غير مرئية لنظام ويندوز، وبالتالي لبرامج التجسس الموجودة بالشبكة.

صار يعمل على الجهاز الآن برنامج تصفح ويب مستقل، ولزم الحصول على اتصال شبكة مستقل أيضًا؛ فشبكة المدرسة كانت تسجل كل نقرة داخل النظام وخارجه، ما يعد أمرًا سيئًا إذا كنت تخطط لتصفح موقع «هاراجوكو فان مادنس» الإلكتروني للحصول على بعض المتعة بعيدًا عن المنهج الدراسي.

وحلُّ هذه المشكلة شيء بارع اسمه «تور» (أو مُوجِّه الاتصال المجهول). وموجه الاتصال المجهول هو موقع على الإنترنت يتلقى طلبات الوصول لصفحات معينة على الويب، ثم يمررها إلى موجِّهات أخرى من النوع نفسه، وهكذا، حتى يقرر أحد هذه الموجهات أخيرًا الوصول إلى الصفحة وتمريرها عبر الموجهات إلى أن تصل إليك. والانتقال بين موجهات الاتصال المجهول مشفر، ما يعني أن المدرسة لا يمكنها رؤية ما تطلبه،

والموجهات لا يمكنها معرفة هوية من تعمل له. ويوجد العديد من العقد هنا؛ فمَن وضع هذا البرنامج هو المكتب الأمريكي للأبحاث البحرية لمساعدة العاملين به في الإفلات من برامج الرقابة في دول مثل سوريا والصين. ومعنى ذلك أن تصميمه يتلاءم تمامًا مع التشغيل في حدود مدرسة ثانوية أمريكية عادية.

ينجح «تور» لأن المدرسة لديها لائحة سوداء محدودة من العناوين الإلكترونية المحظورة على الطلاب زيارتها، وعناوين العقد تتغير باستمرار؛ ومن ثم ما من سبيل أمام المدرسة لتعقبها كلها. حوَّلني كلٌّ من برنامج «فايرفوكس» و«تور» إلى الرجل الخفي الذي لا يتأثر بتجسس مجلس التعليم، ويتحقق بحرية من موقع لعبة «هاراجوكو فان مادنس»، ويتعرف على ما يستجد به.

ها هو ذا دليل جديد. ومثل جميع أدلة «هاراجوكو فان مادنس»، ينطوي هذا الدليل على مكون مادي، وآخر على الإنترنت، وثالث ذهني. المكون الموجود على الإنترنت هو لغز ينبغي لك حله، ويتطلب البحث عن أجوبة لمجموعة من الأسئلة الغامضة. تضمنت هذه المجموعة عددًا من الأسئلة حول الحبكات الدرامية في الدوجنشي؛ وهي كتب القصص المصورة التي يرسمها هواة المانجا؛ وهي القصص المصورة اليابانية. ويمكن أن تصل الدوجنشي في حجمها لحجم القصص المصورة التي تستلهم أفكارها منها، غير أنها أكثر غرابة منها، مع وجود روايات متداخلة، وفي بعض الأحيان أحداث وأغانٍ سخيفة حقًّا، والعديد من قصص الحب بالطبع؛ فيحب الجميع رؤية شخصياتهم المفضلة في الألعاب وقد وقعوا في الحب.

سيلزم عليَّ حل هذه الألغاز في وقت لاحق، عندما أعود إلى المنزل، فمن الأيسر حلها برفقة الفريق بالكامل، مع تنزيل العديد من ملفات الدوجنشي، وتصفحها سريعًا بحثًا عن أجوبة للألغاز.

كنت قد انتهيت لتوي من تجميع الأدلة كلها في سجل القصاصات حينما دق الجرس، وشرعنا في الهروب. دسست خفيةً الحصى في جانب حذائي البوت القصير، كان حذاءً أستراليًّا من طراز «بلاندستونز» يصل ارتفاعه إلى الكاحل، رائع في الركض والتسلق، وتصميمُه الخالي من الأربطة الذي يساعد في ارتدائه وخلعه يجعله ملائمًا مع أجهزة الكشف عن المعادن المنتشرة في كل مكان الآن.

لزم علينا أيضًا، بالطبع، تجنب المراقبة المادية، بيد أن ذلك يصير أيسر في كل مرة يضيفون فيها طبقة جديدة من أساليب التجسس المادي؛ فكل الأجراس والصفارات

تمنح هيئة المدرسين الحبيبة شعورًا خاطئًا تمامًا بالأمان. أسرعنا بين الجموع التي ملأت الأروقة، متوجهين إلى المخرج الجانبي المفضل لدي. كنا قد تجاوزنا نصف الطريق عندما قال داريل بصوت خفيض: «اللعنة! لقد نسيت. معي في الحقيبة كتاب من المكتبة.»

قلت له وأنا أسحبه إلى أول دورة مياه نمر بها: «أتمزح؟!» كتب المكتبة أمر سيئ؛ فكل كتاب منها مزود بشريحة لتحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، وتكون هذه الشريحة ملصقة بتجليد الكتاب، ما يتيح لأمناء المكتبة التحقق من الكتب بتمريرها على جهاز قارئ لهذه الشرائح، ويسمح لأرفف المكتبة بالتنبيه عندما تكون أحد الكتب الموجودة عليه في غير أماكنها.

لكنها تسمح كذلك للمدرسة باقتفاء أثرك على الدوام، وهي واحدة من الثغرات القانونية؛ فلا تسمح المحاكم للمدارس بتعقب «الطلاب» باستخدام شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، لكن بإمكان المدارس تعقب «كتب المكتبة»، واستخدام السجلات المدرسية لإخبارها مَن على الأرجح يحمل أيًّا من كتب المكتبة.

كنت أحمل في حقيبتي محفظة فاراداي؛ وهي محفظة صغيرة محشوة بشبكة من الأسلاك النحاسية التي تحجب بفاعلية الطاقة اللاسلكية، مبطلةً مفعول شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية. بيد أن هذا النوع من المحافظ صُمِّم لإبطال مفعول بطاقات الهوية وأجهزة الإرسال/الاستقبال المستخدمة في أكشاك تحصيل الرسوم، وليس لكتب من قبيل …

قلت ممتعضًا: «مقدمة في الفيزياء؟» كان الكتاب بحجم القاموس.

الفصل الثاني

أهدي هذا الفصل لموقع أمازون الإلكتروني، أكبر موقع لبيع الكتب على الإنترنت في العالم. إنه مذهل؛ فهو متجر يمكنك الحصول منه فعليًّا على أي كتاب نُشِر على الإطلاق (بالإضافة إلى أي شيء آخر تقريبًا، بدءًا من أجهزة الكمبيوتر المحمول ووصولًا إلى مَباشِر الجبن)، وهو المكان الذي وصل بالتوصيات إلى مستوى كبير، والذي يسمح للعملاء بالتواصل المباشر مع بعضهم البعض، ويقوم بالابتكار الدائم لأساليب حديثة وأكثر فاعلية لربط القُرَّاء بالكتب. ولطالما تعامل معي موقع أمازون على أفضل وجه؛ حتى إن «جيف بيزوس» نفسه — مؤسس الموقع — أرسل مراجعة نقدية كقارئ لروايتي الأولى! كذلك، فإنني مولع بالتسوق على هذا الموقع (بالنظر إلى جداول بياناتي، يتضح أنني أشتري شيئًا ما من موقع أمازون كل ستة أيام تقريبًا). هذا ويعمد الموقع لإعادة ابتكار ما يعتزم أن يكون متجرًا لبيع الكتب يليق بالقرن الحادي والعشرين، ولا يمكنني التفكير في مجموعة أفراد أفضل من القائمين عليه في مواجهة مثل هذه المجموعة الشائكة من المشكلات.

* * *

قال داريل: «أفكر في التخصص في الفيزياء عند ذهابي إلى بيركلي.» كان والده أستاذًا بجامعة كاليفورنيا في بيركلي؛ ما يعني أن داريل سيُعفَى من رسوم التعليم عند التحاقه بالجامعة، وهو الأمر الذي لم يكن قط محل نقاش داخل أسرته.

«حسنًا، لكن لماذا لم تبحث عن هذا الكتاب على الإنترنت؟»

«قال والدي إنه ينبغي لي قراءته، كما أنني لم أخطط لارتكاب أية جرائم اليوم.»

«الهروب من المدرسة ليس جريمة، وإنما مخالفة للقانون، وهما أمران مختلفان كل الاختلاف.»

«ماذا سنفعل يا ماركوس؟»

«حسنًا، لا يمكنني إخفاؤه؛ لذا سيلزم عليَّ وضعه في المايكروويف.» يُعَد القضاء على شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية من الأمور السيئة والمخيفة، فما من صاحب متجر يرغب في أن يتجول زبائن ماكرون بأرجاء متجره، تاركين خلفهم مجموعة من البضائع المبعثرة وقد فقدت الباركود غير المرئي الخاص بها، ومن ثم رفضت الجهات المُصنِّعة تطبيق «إشارة تعطيل» يمكن إرسالها لاسلكيًّا إلى شريحة تحديد الهوية لإيقاف تشغيلها. إلا أنه يمكن إعادة برمجة الشرائح باستخدام الكمبيوتر المناسب، لكنني أكره فعل ذلك بكتب المكتبة. لا يشبه الأمر تمزيق صفحات من الكتاب، لكنه لا يزال فعلًا كريهًا؛ لأن الكتاب ذا الشريحة المُعادة برمجتها لا يمكن وضعه على الأرفف، ولا يمكن العثور عليه. ويصبح بالتالي كإبرة وسط كومة من القش.

لم يعُدْ أمامي بذلك سوى خيار واحد؛ ألا وهو وضع ذلك الشيء في المايكروويف. ثلاثون ثانية بالضبط في المايكروويف من شأنها تدمير أية شريحة تحديد هوية في السوق. وعندما يعيد داريل الكتاب إلى المكتبة، لن تستجيب الشريحة للقارئ على الإطلاق، وما سيكون من المكتبة إلا أن تطبع شريحة جديدة له، وتعيد تشفيرها بمعلومات فهرسة الكتاب، وسينتهي به الأمر نظيفًا وأنيقًا مرة أخرى على الرف.

كل ما احتجنا إليه هو المايكروويف.

قلت لداريل: «دقيقتين وغرفة استراحة المعلمين ستكون خالية.»

نزع داريل كتابه من يدي، وتوجه صوب الباب قائلًا: «لتنسَ الأمر! مستحيل أن أفعل ذلك. سأذهب إلى الفصل.»

أمسكت بمرفقه سريعًا، وسحبته إلى الداخل ثانيةً قائلًا: «لتهدأ يا داريل! سيسير كل شيء على ما يرام.»

«غرفة استراحة المعلمين؟! لعلك لم تنصت إلى حديثي يا ماركوس. إذا أُمسِك بي مرة أخرى فحسب، فسأُفصَل. أتسمع ما أقول؟ أُفصل.»

قلت له: «لن يُمسَك بك.» فآخر مكان يمكن أن يوجد فيه أي معلم بعد هذا الوقت هو غرفة الاستراحة. «سندخل من الجهة الخلفية.» كان بالغرفة مطبخ صغير بأحد جوانبها المزود بمدخل للمعلمين الذين يرغبون في الدخول سريعًا للحصول على كوب من القهوة،

وهنالك كان يوجد المايكروويف — الذي تفوح منه دائمًا رائحة الفشار والحساء المسكوب — أعلى الثلاجة الصغيرة.

همهم داريل مستنكرًا. ففكرت سريعًا، وقلت له: «انظر، ها قد دق الجرس بالفعل، إذا ذهبت إلى قاعة الدراسة الآن، فستحصل على إنذار للتأخير، من الأفضل ألا تظهر على الإطلاق الآن. بوسعي دخول أية غرفة في هذه المدرسة والخروج منها خلسةً يا داريل، لقد رأيتني أفعل ذلك من قبل. سأحميك يا صديقي.»

همهم ثانيةً مستنكرًا. كانت هذه إحدى أمارات داريل؛ عندما يبدأ في الهمهمة، يكون على وشك الرضوخ.

«لننطلق!» قلت ذلك، ومضينا في طريقنا.

نفذنا الخطة بلا أخطاء. تجاوزنا الفصول، ونزلنا على السلالم الخلفية إلى الطابق السفلي، ثم صعدنا السلالم الأمامية الموجودة أمام غرفة استراحة المعلمين بالضبط. ما من صوت داخل الغرفة، أدرت مقبض الباب بهدوء، وسحبت داريل إلى الداخل قبل أن أغلق الباب في هدوء تام.

دخل الكتاب بالكاد في المايكروويف الذي بدا أقل نظافةً مما كان عليه آخر مرة دخلت فيها هنا لاستخدامه. لففت الكتاب بعناية في مناديل ورقية قبل أن أضعه داخل المايكروويف، وأنا أهمس: «يا إلهي! المعلمون قذرون حقًّا.» لم ينطق داريل الذي ظهر على وجهه التوتر والشحوب.

دُمِّرت شريحة تحديد الهوية في وابل من الومضات التي بدت جميلة حقًّا (وإن لم تكن على القدر نفسه من الجمال الذي تراه عند وضع عنب مجمد في المايكروويف، وهو ما ينبغي لك مشاهدته لتصديقه).

والآن، حان وقت الخروج خلسة من المدرسة دون أن يتعرف علينا أحد، والهروب من المكان.

فتح داريل الباب، وشرع في الخروج، وأنا في أعقابه. وبعد ثانية واحدة، كان يقف على أصابع قدمي، ومرفقاه يصدمان صدري بقوة، وهو يحاول الرجوع للخلف للدخول مرة أخرى للمطبخ المشابه للخزانة في حجمه الذي كنا قد تركناه للتو.

همس في إلحاح: «عُد إلى الداخل، سريعًا ... إنه تشارلز!»

لم أكن على وفاق مع تشارلز ووكر. كنا في الصف الدراسي ذاته، ومضى على معرفتي به مثلما مضى على معرفتي بداريل، لكن هذه هي أوجه التشابه الوحيدة بيننا. فطالما

كان ضخم البنيان مقارنة بسنه، وصار الآن أكثر ضخامة بممارسته كرة القدم وحصوله على المنشطات. وقد كان يعاني من مشكلات تتعلق بالتحكم في الغضب؛ فأفقدني إحدى أسناني اللبنية في الصف الثالث. لكنه تمكن من تفادي المتاعب الناجمة عن تلك المشكلات بأن أصبح أكثر الواشين نشاطًا في المدرسة.

يا له من مزيج سيئ! متنمر واشٍ يجد متعة كبيرة في إبلاغ المعلمين بأية مخالفات يكتشفها. كان بينسان يحب تشارلز، وكان تشارلز يدَّعي دومًا أنه يعاني من مشكلة غير محددة في المثانة؛ ما منحه عذرًا جاهزًا للتجول خلسة في أروقة مدرسة شافيز باحثًا عمن يمكنه الوشاية به.

آخر مرة لاحظ فيها تشارلز بعض التراب عليَّ، انتهى الأمر بتوقفي عن ممارسة ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي. ولم يكن لدي استعداد لأن يُمسِك بي تشارلز ثانيةً.

«ماذا يفعل؟»

أجابني داريل وهو يرتعش: «إنه قادم في هذا الاتجاه، هذا ما يفعله.»

فقلت له: «حسنًا، حان وقت التدابير المضادة لحالات الطوارئ.» وأخرجت هاتفي، كنت قد خططت لذلك تخطيطًا جيدًا مقدمًا، ما كان تشارلز ليمسك بي ثانيةً. بعثت برسالة بريد إلكتروني للخادم الموجود بمنزلي، وبدأ في العمل.

وبعد بضع ثوانٍ، جن جنون هاتف تشارلز؛ فقد أرسلت إليه عشرات الآلاف من الرسائل النصية والمكالمات العشوائية المتزامنة؛ ما جعله يطلق كل رنة وطنين يمكنه إصداره، واستمر في ذلك. نُفِّذ الهجوم باستخدام تقنية البوت نت، الأمر الذي شعرت بالسوء حياله، بيد أن الغرض منه كان جيدًا.

والبوت نت هي شبكات تضم أجهزة الكمبيوتر المصابة. فعندما يصاب جهاز كمبيوتر بفيروس أو فيروس متنقل، يبعث برسالة لقناة محادثة على نظام المحادثات عبر الإنترنت (آي آر سي). تخبر هذه الرسالة سيد البوت نت — وهو من نشر الفيروس المتنقل — أن أجهزة الكمبيوتر مستعدة لتنفيذ أوامره. تتمتع هذه الشبكات بقوة هائلة؛ إذ إنها قد تضم الآلاف، بل حتى مئات الآلاف، من أجهزة الكمبيوتر المنتشرة بجميع أنحاء الإنترنت، والمرتبطة باتصالات قوية عالية السرعة، وتعمل على أجهزة الكمبيوتر الشخصية المنزلية السريعة. تعمل أجهزة الكمبيوتر الشخصية بطبيعتها لحساب مالكيها، لكن عندما يطلب منها مهمة سيد البوت نت، تهب لتلبية أوامره كالعبيد.

يعجُّ الإنترنت بأجهزة الكمبيوتر المصابة، حتى إن سعر تأجير ساعة أو اثنتين على إحدى شبكات البوت نت قد هبط هبوطًا شديدًا. تعمل هذه الشبكات في الغالب لصالح مرسلي البريد العشوائي كشبكات بريد عشوائي موزعة رخيصة الثمن، تملأ صندوق بريدك بإعلانات عن أدوية معالجة الضعف الجنسي أو بفيروسات جديدة من شأنها إصابة جهازك وتشغيله كعضو في شبكة البوت نت.

استأجرت عشر ثوانٍ فحسب على شبكة مكونة من ثلاثة آلاف جهاز كمبيوتر شخصي، وجعلت كلًّا من هذه الأجهزة يرسل رسالة نصية أو مكالمة بتقنية نقل الصوت عبر بروتوكول الإنترنت إلى هاتف تشارلز، الذي التقطتُ رقمه من ورقة ملاحظات لاصقة على مكتب بينسان أثناء إحدى زياراتي المشئومة له.

غنيٌّ عن القول أن هاتف تشارلز لم يكن مُعدًّا للتعامل مع ذلك. أولًا، ملأت الرسائل النصية القصيرة ذاكرة هاتفه؛ ما عطل العمليات الروتينية التي كان بحاجة لفعلها، مثل التعامل مع المتصل، وتسجيل كل الأرقام الزائفة لهذه المكالمات الواردة (هل تعلم أنه من «السهل بالفعل» تزييف الرقم المحدد لهوية المتصل؟ يوجد نحو خمسين طريقة لفعل ذلك؛ ابحث فقط على جوجل عن «تزييف هوية المتصل»).

حدق تشارلز في الهاتف مشدوهًا، وأخذ يلكم فيه بعنف، وحاجباه يعقدان ويتلويان أثناء صراعه مع ما أصاب أعز أجهزته الشخصية. كانت الخطة تسير كما ينبغي حتى ذلك الحين، لكنه لم يكن يفعل ما كان من المفترض أن يفعله بعد ذلك؛ فمن المفترض أن يبحث عن مكان يجلس فيه، ويحاول التوصل إلى كيفية لإعادة هاتفه لحالته الطبيعية.

هزَّ داريل كتفي، فأبعدت عيني عن الشق الموجود في الباب.

همس داريل: «ماذا يفعل؟»

«لقد خربت هاتفه، لكن كل ما يفعله هو التحديق فيه بدلًا من أن يتحرك بعيدًا.» لم يكن من السهل إعادة تشغيل ذلك الشيء؛ فما أن تُملَأ الذاكرة عن آخرها حتى يصير من الصعب عليها تحميل الرمز الذي تحتاجه لحذف الرسائل الزائفة، ولم يكن هاتفه مزودًا بخاصية المسح المُجمَّع للرسائل، وبالتالي كان عليه حذف آلاف الرسائل كلها يدويًّا.

دفعني داريل إلى الخلف، وأخذ يحدق من الباب. وبعد لحظات، بدأت كتفاه في الارتعاش. تملكني الرعب؛ إذ اعتقدت أنه قد أصيب بالذعر، لكنني عندما سحبته للخلف، رأيت أنه كان يضحك بشدة، حتى إن الدموع بدأت تسيل على وجنتيه.

«لقد أمسكت به جالفيس للتو لوجوده في الأروقة أثناء الحصص الدراسية، ولإخراج هاتفه ... كان عليك أن ترى انفعالها عليه؛ لقد كانت تستمتع بذلك حقًّا.»

تصافحنا بجدية، وعدنا إلى الرواق، نزلنا على السلالم، ثم خرجنا من الباب الخلفي، وتجاوزنا السياج، لنخرج في النهاية إلى ضوء الشمس الباهر لفترة ما بعد الظهيرة في حي ميشن، لم يبدُ شارع فالينسيا بهذا القدر من الجمال من قبل. نظرت في ساعة يدي، وصِحت:

«هيا لنسرع! سيقابلنا باقي مجموعة الأصدقاء عند الترام بعد عشرين دقيقة!»

لمحتنا فان أولًا. كانت تسير وسط مجموعة من السائحين الكوريين، فيما يُعَد أحد أساليبها المفضلة للتمويه عند هروبها من المدرسة. منذ أن ظهرت المدونات التي يمكن التدوين فيها من خلال الأجهزة المحمولة، والتي تُعنَى بالتغيب عن المدرسة دون إذن، والعالم من حولنا صار مليئًا بأصحاب المتاجر والمتظاهرين بالصلاح المتطفلين الذين يتكفَّلون بالتقاط صور لنا وتحميلها على الإنترنت؛ حيث يمكن للإداريين بالمدارس فحصها بعناية.

خرجت فان من الجمع الذي كانت تسير وسطه، وركضت سريعًا نحونا. كان داريل يكنُّ لفان مشاعر منذ زمن بعيد، وكانت هي على درجة من اللطف جعلها تتظاهر بأنها ليست على علم بمشاعره. عانقتني، ثم انتقلت إلى داريل، وقبَّلته قبلة أخوية سريعة على وجنته جعلت وجهه بالكامل يتورد خجلًا.

كانا ثنائيًّا عجيبًا؛ فداريل ثقيل الوزن بعض الشيء، وإن كان ذلك يليق به، وبشرته وردية تتحول معها وجنتاه للون الأحمر كلما ركض أو أثاره شيء ما. نمت لحيته منذ كان في الرابعة عشرة من عمره، لكنه بدأ — نشكر الرب — في حلاقتها بعد فترة قصيرة تطلق عليها مجموعة الأصدقاء اسم «سنوات لينكن». وكان طويلًا، طويلًا للغاية كلاعبي كرة السلة.

على الجانب الآخر، كانت فان أقصر مني قليلًا، ونحيفةً، وشعرُها أسودَ منسدلًا تضع فيه شرائط عجيبة متقنة الصنع تبحث عنها على الإنترنت. بشرتها نحاسية جميلة، وعيناها سوداوان. تحب الأقراط الزجاجية كبيرة الحجم التي تطقطق وتقرقع معًا عندما ترقص.

تساءلت فان: «أين خولو؟»

سألها داريل بصوت مختنق: «كيف حالك يا فان؟» طالما تتأخر كلماته في أية محادثة تضم فان.

«بأفضل حال يا دي. ماذا عنك؟» يا إلهي، كم كانت قاسية! كاد داريل يفقد الوعي.

أنقذه خولو من خزي اجتماعي بظهوره فجأة في تلك اللحظة، مرتديًا سترة بيسبول جلدية كبيرة المقاس، وحذاء رياضيًّا أنيقًا، وقبعة ذات خلفية شبكية عليها إعلان للمصارع المكسيكي المُقنَّع المفضل لدينا «إل سانتو الابن». خولو هو خوسيه لويس توريز، العضو الرابع والأخير بمجموعتنا. التحق خولو بمدرسة كاثوليكية شديدة الصرامة في منطقة أوتر ريتشموند، ومن ثم لم يكن من السهل عليه الخروج منها، لكنه كان يفعل دائمًا؛ ما كان بيننا مَن هو أفضل في التسلل من خولو صديقنا. أحب خولو سترته لتدليها لأسفل — ما يُعَد ضربًا من الأناقة في هذه الأنحاء من المدينة — ولإخفائها كل الزي السخيف لمدرسته الكاثوليكية، الذي كان هدفًا للحمقى المتطفلين الذين وضعوا مدونة التغيب عن المدرسة كإشارة مرجعية بهواتفهم.

بعد أن تبادل جميعنا التحية، سألتهم: «من مستعد للذهاب؟» أخرجت هاتفي، وعرضت عليهم خريطة «نظام النقل السريع بمنطقة الخليج (بارت)» التي أنزلتها عبر الإنترنت. «وفقًا لما توصلت إليه، علينا التوجه إلى «نيكو» ثانيةً، ثم تجاوزها بمربع سكني واحد وصولًا إلى «أوفيريل»، ونتجه يسارًا بعد ذلك حتى نصل فان نيس، وفي مكان ما هناك، سنعثر على الإشارة اللاسلكية.»

تجهمت فان، وقالت: «هذا مكان خطير بحي تِندرلوين.» ما كان بإمكاني أن أجادلها في ذلك؛ فقد كان حيًّا غريبًا بسان فرانسيسكو، تدخله عبر مدخل فندق هيلتون الأمامي، وبه كل عناصر الجذب السياحية، مثل منعطف الترام ومطاعم العائلات. لكن عندما تدخل إليه من الجانب الآخر، تصبح في مركز أعتى القوَّادين، وأفجر العاهرات، وتاجري المخدرات، والمشردين المحطمين في المدينة. ما كان أيٌّ منَّا في السن المناسبة لتكون له أية علاقة بما يبيعه أو يشتريه هؤلاء الناس (وإن كانت تِندرلوين تضم عددًا من العاهرات في سننا.)

أجبت فان قائلًا: «لننظر إلى الجانب المشرق هنا؛ ما من أحد يرغب في الذهاب لهذا المكان إلا في وضح النهار؛ وبالتالي، لن يقرب أيٌّ من اللاعبين الآخرين المكان حتى الغد باكرًا. هذا ما نطلق عليه في ألعاب الواقع البديل «ميزة الأسبقية».»

رمقني خولو بنظرة غاضبة، وقال: «تتحدث كما لو كان ذلك أمرًا جيدًا!»

أجبته: «هذا أفضل من أكل سوشي قنفذ البحر.»

فقالت فان: «هل سنظل نتحدث أو نفوز؟» كانت فان — من بعدي — أكثر اللاعبين تحمسًا في مجموعتنا بلا منازع، وكانت شديدة الجدية بشأن الفوز.

انطلقنا، أربعة أصدقاء مخلصين، لحل اللغز، وتحقيق الفوز في اللعبة ... وخسارة كل ما اهتممنا به للأبد.

كان المكون المادي لدليل اليوم هو مجموعة من إحداثيات نظام تحديد المواقع العالمي (جي بي إس) — كانت هناك إحداثيات لجميع المدن الرئيسية التي تُمارَس فيها لعبة «هاراجوكو فان مادنس» — حيث سنجد إشارة واي فاي لنقطة الوصول اللاسلكية. كانت هذه الإشارة تعترضها عمدًا نقطة واي فاي أخرى قريبة مخبأة حتى لا يمكن لبرامج البحث عن إشارات الواي فاي المعتادة العثور عليها، وهي الأدلة التي تشير لك بمكانك في نطاق نقطة الوصول المفتوحة لشخص ما، والتي يمكنك استخدامها مجانًا.

سيكون علينا البحث عن نقطة الوصول «المخبأة» من خلال قياس قوة النقطة «المرئية»، والعثور على المنطقة التي تكون فيها أكثر ضعفًا، وهناك سنجد الدليل الآخر. في المرة الأخيرة، كان الدليل في طبق اليوم بمطعم السوشي الراقي «أنزو» في فندق «نيكو» في تِندرلوين. وهذا الفندق مملوك للخطوط الجوية اليابانية، أحد رعاة لعبة «هاراجوكو فان مادنس». أحدث العاملون بالمكان هرجًا ومرجًا عند عثورنا أخيرًا على الدليل، وقدموا لنا حساء الميسو، وجعلونا نجرب السوشي المُعدَّ من قنفذ البحر وله قوام الجُبن السائل، ورائحة روث كلاب سائل. لكن طعمه كان «حقًّا» رائعًا، أو هكذا أخبرني داريل. فما كنت لأتناول هذا الشيء.

باستخدام برنامج العثور على إشارات الواي فاي المُثبَّت بهاتفي، التقطت إشارة الواي فاي على بعد نحو ثلاثة مربعات سكنية من أوفيريل، قبل شارع هايد بالضبط، أمام مركز تدليك آسيوي مريب مُعلَّقة على نافذته لافتة تومض بالضوء الأحمر مكتوب عليها «مغلق». كان اسم الشبكة «هاراجوكو إف إم»، وبالتالي عرفنا أننا في المكان الصحيح.

قال داريل: «إذا كان الدليل بالداخل، فلن أدخل.»

سألتهم: «هل معكم جميعًا أجهزة العثور على إشارات الواي فاي؟»

كان هاتفا داريل وفان مزودَيْن ببرامج مدمجة للعثور على إشارات الواي فاي، في حين كان مع خولو — الذي ما كانت أناقته لتسمح له بحمل هاتف أكبر من خنصر يده — جهاز توجيهي صغير منفصل.

«لتنتشروا إذن، وتذكروا أننا نبحث عن ضعف شديد في الإشارة يزداد سوءًا كلما تحركتم تجاهه.»

تراجعت خطوة للخلف لأجد نفسي واقفًا فوق أصابع قدمٍ ما. تأوَّه صوت أنثوي، فاستدرت قلِقًا من أن أجد أمامي عاهرة مدمنة تطعنني لكسري أصابع قدمها.

لكنني وجدت نفسي وجهًا لوجه مع فتاة في نفس عمري. كان شعرها كثًّا ذا لون وردي فاتح، ووجهها حاد الملامح شبيهًا بالقوارض، وترتدي نظارة شمس كبيرة هي في الواقع مثل النظارات الواقية التي تستخدمها القوات الجوية، وترتدي سروالًا ضيقًا مخطَّطًا تحت فستان أسود قديم الطراز، معلق به الكثير من دُمى الزينة اليابانية الصغيرة لشخصيات كرتونية، وقادة عالميين قدامى، وشعارات لمشروبات غازية أجنبية.

رفعت الفتاة كاميرا، والتقطت صورة لي مع فريقي.

وقالت: «ابتسموا! فأنتم في برنامج الكاميرا الخفية الخاصة بالتغيب عن المدرسة.»

قلت لها: «مُحال! لن ...»

«بل سأفعل. سأرسل هذه الصورة لضابط التغيب عن المدرسة في غضون ثلاثين ثانية، هذا إن لم تبتعدوا أنتم الأربعة عن هذا الدليل، وتفسحوا لي الطريق أنا وصديقاتي للحصول عليه. يمكنكم المجيء إلى هنا بعد ساعة واحدة، وسيكون لكم. أعتقد أن ذلك عادل تمامًا.»

نظرت خلفها، فرأيت ثلاث فتيات أخريات يرتدين ملابس مشابهة؛ إحداهن شعرها أزرق، والثانية أخضر، والثالثة أرجواني. «ومن أنتن؟ فرقة مصاصات الآيس كريم؟»

فأجابتني: «نحن الفريق الذي سيهزم فريقكم شر هزيمة بلعبة «هاراجوكو فان مادنس»، وأنا من سأحمِّل «في هذه اللحظة» صورتكم على الإنترنت، وأجلب عليكم «مشاكل عدة» ...»

شعرت بفان خلفي وهي تتقدم للأمام. اشتهرت مدرسة البنات التي كانت تذهب إليها بالشجارات، وكنت موقنًا بأنها كانت تتأهب لتوجيه لكمة قوية لهذه الفتاة.

في تلك اللحظة، تغير العالم للأبد.

شعرنا أولًا بذلك التمايل المُسبِّب للغثيان للإسمنت تحت أقدامنا، والذي يعرفه بديهيًّا كل شخص يعيش في كاليفورنيا ... إنه «زلزال». كان أول شيء فكرت فيه — كعادتي دومًا — هو الهروب: «عند الوقوع في مشكلة، أو الشعور بالشك، تحرك في دوائر، صِح، واصرخ.» لكن الحقيقة هي أننا كنا جميعًا في أكثر الأماكن أمنًا، وليس في مبنى قد ينهار فوق رءوسنا، أو في منتصف الطريق حيث يمكن لإفريز ما أن يسقط ليسحق جماجمنا.

تكون الزلازل هادئة هدوءًا مخيفًا — في البداية على أية حال — لكن هذا الزلزال لم يكن هادئًا، بل صاخبًا، جلبَتُهُ مدوية على نحو لا يُصدَّق؛ فهو أعلى من أي شيء سمعته

من قبل. وصل الصوت في شدته لدرجة جعلتني أسقط على ركبتيَّ، ولم أكن وحدي في ذلك، فهزَّ داريل ذراعي، وأشار إلى المباني. أبصرنا حينها سحابة سوداء ضخمة تظهر من الجانب الشمالي الشرقي، من اتجاه الخليج.

دوت دمدمة أخرى، وتمددت سحابة الدخان لتتخذ الشكل الأسود المنتشر الذي طالما شاهدناه في الأفلام.

نفَّذ أحدهم تفجيرًا ... تفجيرًا هائلًا.

تبع ذلك المزيد من الدمدمة والارتجاج. وأطلت الرءوس من النوافذ على طول الشارع، وعيوننا جميعًا معلقة بالسحابة الممتدة في صمت.

حينذاك، انطلقت صفارات الإنذار.

سبق لي سماع صفارات مثل هذه من قبل، حينما كانوا يختبرون صفارات الدفاع المدني ظهيرة أيام الثلاثاء. بيد أنني لم أسمعها تنطلق دون موعد محدد من قبل، إلا في أفلام الحرب القديمة وألعاب الفيديو التي يقذف فيها شخصٌ ما آخرَ بالقنابل من فوق. كانت مثل صفارات إنذار الغارات الجوية. بدت غير حقيقية على الإطلاق.

«توجهوا إلى الملاجئ فورًا.» دوى الصوت من كل مكان في اللحظة ذاتها. كانت هناك مكبرات صوت على بعض أعمدة الكهرباء؛ الشيء الذي لم تسبق لي ملاحظته من قبل مطلقًا، وانطلقت جميعها في وقت واحد.

«توجهوا إلى الملاجئ فورًا.» ملاجئ؟ نظر كلٌّ منا إلى الآخر في ارتباك. أية ملاجئ؟ أخذت السحابة تتصاعد، وتتمدد. هل كانت نووية؟ هل كنا نلفظ أنفاسنا الأخيرة؟

جذبت الفتاة ذات الشعر الوردي صديقاتها، وانطلقن أسفل التل، عائداتٍ إلى محطة بارت عند السفح.

«توجهوا إلى الملاجئ فورًا.» صار هناك صراخ الآن، والكثيرون يركضون من حولنا. تفرق السائحون في كل اتجاه — يمكنك دائمًا تحديد السائحين؛ فهم من تعني كاليفورنيا لديهم الدفء، ويقضون عطلاتهم بسان فرانسيسكو متجمدين من البرد وهم يرتدون فانلات وبناطيل قصيرة.

صاح داريل في أذني بصوت يكاد لا يكون مسموعًا وسط دوي الصفارات التي انضمت إليها صفارات الشرطة المعتادة: «علينا أن نرحل!» علت أصوات عشرات سيارات شرطة سان فرانسيسكو وهي تمر بجانبنا.

«توجهوا إلى الملاجئ فورًا.»

صحت في أصدقائي: «لننزل إلى محطة بارت.» فأومَئُوا برءوسهم. اقترب بعضنا من بعض، وشرعنا في التحرك سريعًا إلى أسفل التل.

الفصل الثالث

أهدي هذا الفصل لمتجر بوردرلاندز بوكس، ذلك المتجر المستقل المدهش المتخصص في كتب الخيال العلمي. يقع بوردرلاندز على الجهة المقابلة من مدرسة سيزار شافيز الثانوية الخيالية التي تتناولها هذه الرواية، ولا تقتصر شهرته على ما يقيمه من نوادٍ للكتب وحفلات توقيع وفعاليات رائعة فحسب، وإنما كذلك القطة المصرية الصلعاء المذهلة، ريبلي، التي تحب الجلوس كالتمثال على الكمبيوتر في مقدمة المتجر. يكاد يكون بوردرلاندز أكثر متاجر الكتب المُحبَّبة للقُرَّاء التي يمكن أن تبغيها؛ إذ يمتلئ بالأماكن المريحة للجلوس والقراءة، ويزخر ببائعين واسعي الاطلاع بكل ما له علاقة بالخيال العلمي. هذا فضلًا عن أنهم على استعداد دائمًا لتلقي طلبات الشراء لكتبي (عبر الإنترنت أو الهاتف) وتركها عندهم حتى أوقِّع عليها عند ذهابي إليهم، ثم شحنها داخل الولايات المتحدة مجانًا!

* * *

مررنا بالكثير من الناس في طريقنا إلى محطة بارت بشارع باول، كانوا يركضون أو يسيرون شاحبي الوجوه صامتين، أو يصرخون مذعورين. انكمش المشردون مرتعدين عند المداخل، وأخذوا يشاهدون ما يحدث، في حين صاحت عاهرة سمراء طويلة في شابين بشوارب بشأن شيء ما.

وكلما اقتربنا من محطة بارت، زاد تزاحم الأجساد حولنا سوءًا. وعند وصولنا إلى السلم المؤدي إلى المحطة بالأسفل، احتشد الناس هائجين؛ كانوا يحاولون شق طريقهم لأسفل عبر السلم الضيق. اصطدم وجهي بظهر شخص ما، بينما ارتطم آخر بظهري.

كان داريل لا يزال بجانبي؛ فحالت ضخامة جسده من أن يدفعه الناس. أما خولو، فكان خلف داريل مباشرةً، متشبثًا بمعصمه. لمحتُ فانيسا على بُعد بضعة أمتار وقد حاصرها عدد أكبر من الناس.

سمعتها تصيح خلفي: «عليك اللعنة! أيها المنحرف، ارفع يديك عني!»

جاهدت لأستدير عكس اتجاه الحشد، فرأيت فان تنظر باشمئزاز ناحية رجل أكبر منها سنًّا يرتدي بذلة أنيقة ويبتسم في وجهها ابتسامة متكلفة. كانت تبحث في حقيبتها عن شيء ما أعرفه.

صحت وسط الضجيج: «لا ترشّيه ببخاخ الدفاع عن النفس! فسيصيبنا جميعًا.»

ومع ذكر كلمة «بخاخ الدفاع عن النفس»، بدا الذعر على وجه الرجل، واختفى متراجعًا للخلف، وإن ظل الحشد يدفعه للأمام. رأيت أمامي سيدة في منتصف العمر ترتدي ملابس غريبة، تترنح ثم تسقط. أخذت تصرخ، ورأيتها تحاول جاهدةً النهوض، لكن دون جدوى؛ إذ كان ضغط الحشد قويًّا للغاية. وعندما اقتربتُ منها، انحنيتُ لأعينها على الوقوف، وكدت أسحقها تحتي. وانتهى الأمر بأنْ خطوت فوق بطنها مع دفع الحشد لي متجاوزًا إياها، لكن بحلول ذلك الوقت لا أعتقد أنها كانت تشعر بأي شيء.

لم ينتبنِي مثل هذا الذعر من قبل في حياتي. علا الصراخ في جميع الأرجاء، وتزايد عدد الساقطين على الأرض، والضغط من الخلف متواصل دون رحمة كالجرافة. كان ذلك كل ما بوسعي فعله للبقاء واقفًا على قدميَّ.

كنَّا في الباحة المكشوفة حيث ماكينات بوابة العبور لداخل المحطة. لم يكن الوضع هنا أفضل؛ فالمكان المطوَّق أرجع صدى الأصوات من حولنا في هدير أحدث طنينًا برأسي، كما أصابتني رائحة كل هذه الأجسام والشعور بها برُهاب الأماكن المغلقة الذي لم أكن أعرف أنني عرضة له على الإطلاق.

ظل الزحام متواصلًا على السلالم المؤدية لأسفل، وأعداد أكبر من الناس تشق طريقها بالدفع عبر ماكينات بوابة العبور، ثم على السلالم المتحركة وصولًا إلى أرصفة المحطة. لكن كان من الواضح لي أن النهاية لن تكون سعيدة.

قلت لداريل: «ماذا عن محاولة العودة لأعلى؟»

فأجابني: «نعم، بالتأكيد، فهذا بشع!»

نظرت إلى فانيسا ... كان من المحال أن تتمكن من سماعي. تمكنت من إخراج هاتفي، وأرسلت إليها رسالة نصها:

«سنخرج من هنا.»

أبصرتها وقد شعرت باهتزاز هاتفها، نظرت فيه ثم وجهت بصرها نحوي، وأومأت برأسها بقوة. في تلك الأثناء، كان داريل قد أخبر خولو بالأمر.

صاح داريل في أذني: «ما الخطة؟»

فأجبته صائحًا ومشيرًا إلى الحشد عديم الرحمة: «ينبغي لنا العودة للخلف!»

قال: «هذا مستحيل!»

«وسيزداد استحالة كلما انتظرنا!»

هز كتفيه لامبالاةً. شقَّت فان طريقها وصولًا إليَّ، وتشبثت بمعصمي. أمسكت بداريل الذي أمسك بدوره بخولو بيده الأخرى، وشققنا طريقنا إلى الخارج.

لم يكن الأمر سهلًا. كنا نتحرك حوالي ثلاث بوصات في الدقيقة في أول الأمر، وصرنا أبطأ بوصولنا إلى السلالم. لم يكن الناس الذين مررنا بهم سعداء أيضًا بدفعنا لهم لإفساح الطريق. رشَقَنَا البعضُ بالسباب، وبدا على أحدهم أنه كان سيلكمني إذا تمكن من تحرير ذراعيه. مررنا بثلاثة أفراد دُهِسوا تحت الأقدام، لكن ما كان من سبيل أمامي لمساعدتهم. في تلك اللحظة، لم أكن حتى أفكر في مساعدة أحد؛ فكل ما كان يشغل تفكيري آنذاك هو البحث عن أية مساحات فارغة أمامنا للتحرك عبرها، وقبضة داريل المُحكَمة على رسغي، وتشبثي المستميت بفان خلفي.

تحررنا أخيرًا باندفاعنا للخارج كسدادة زجاجة الخمر بعد فترة بدت كأمد الدهر، وعيوننا تطرف في الضوء الرمادي المفعم بالدخان. كانت صفارات إنذار الغارات الجوية لا تزال تدوي، وصفارات عربات الطوارئ وهي تندفع في شارع ماركت قد علا صوتها أكثر. وخلت الشوارع تقريبًا من الناس؛ فلم يعد بها سوى من يحاولون محاولات يائسة للوصول إلى تحت الأرض. كان أكثرهم يبكون. لمحت مجموعة من المقاعد الخالية — التي دأب السكارى القذرون الجلوس عليها — وأشرت إليها.

تحركنا نحوها، وأكتافنا منحنية للأمام بفعل صفارات الإنذار والدخان. وعند وصولنا إليها، سقط داريل على وجهه.

صرخنا جميعًا، وأمسكت فانيسا به، وأدارته. كان جانب قميصه ملطخًا باللون الأحمر الذي أخذ ينتشر، فرفعت قميصه لتكشف عن جرح عميق وطويل في جانبه القصير البدين.

قال خولو وهو يضم قبضتيه: «طعنه أحدهم في الزحام. يا إلهي، هذا مريع!»

تأوه داريل، ونظر إلينا، ثم إلى جانبه، وتأوه ثانيةً ثم أرجع رأسه للوراء مرة أخرى.

خلعت فانيسا سترتها الجينز، ثم نزعت قميصًا قطنيًّا بقلنسوة كانت ترتديه أسفل السترة، لفَّته وضغطت به على جانب داريل. وجهت حديثها لي قائلةً: «أمسك برأسه، وأبقها مرتفعة.» ثم قالت لخولو: «ارفع قدميه ... لف معطفك أو أي شيء.» وتحرك خولو سريعًا. كانت والدة فانيسا ممرضة، وكانت الفتاة تحصل كل صيف في المخيم على تدريب على الإسعافات الأولية، وقد أحبت مشاهدة الناس وهم يتلقون الإسعافات الأولية بشكل خاطئ في الأفلام السينمائية، والسخرية منهم. أسعدني حقًّا وجودها معنا.

جلسنا هناك لفترة طويلة ممسكين بالقميص بجانب داريل، وظل يصر على أنه بخير، وأن علينا السماح له بالنهوض، في حين ظلت فان تأمره بالصمت وعدم التحرك وإلا ستركل مؤخرته.

قال خولو: «ما رأيكم في الاتصال بالنجدة؟»

شعرت بأنني أحمق، أمسكت بهاتفي سريعًا، وطلبت رقم النجدة، وما حصلت عليه لم يكن حتى إشارة بأن الرقم مشغول، وإنما كان أشبه بأنين صادر عن شبكة الهواتف. لا يُسمَع مثل هذا الصوت إلا إذا كان هناك ثلاثة ملايين شخص يطلبون الرقم نفسه في اللحظة ذاتها. من بحاجة لشبكات بوت نت في وجود إرهابيين؟

سأل خولو: «ماذا عن ويكيبيديا؟»

فأجبته: «لا هاتف، لا بيانات.»

قال داريل، وهو يشير إلى الشارع: «ماذا عنهم؟» نظرت حيث أشار، معتقدًا أنني سأرى شرطيًّا أو مسعفًا، غير أنني لم أجد أحدًا.

قلت له: «لا بأس يا صديقي، لتسترح فقط.»

«لا، أيها الأحمق. ماذا عن هؤلاء ... رجال الشرطة في السيارات؟ هناك!»

كان محقًّا؛ فكل خمس ثوانٍ، كانت سيارة شرطة، أو إسعاف، أو مطافئ تمر بالجوار. يمكن أن يمدونا ببعض المساعدة. كم كنت أحمق!

قلت: «هيا بنا إذن! لنذهب حيث يمكنهم رؤيتك، ونلوح لأحدهم.»

لم يرق الأمر لفانيسا، لكنني رأيت أن أي شرطي ما كان ليقف لشاب يلوح بقبعته في الطريق، ليس في ذلك اليوم، وربما ما كان سيوقفهم هو رؤية داريل ينزف. تجادلت معها لبرهة، ثم حسم داريل الأمر بالوقوف مترنحًا على قدميه، والسير بتثاقل في اتجاه شارع ماركت.

أول سيارة مرت بصفارتها المدوية — وكانت سيارة إسعاف — لم تهدئ حتى من سرعتها ومرت مسرعةً، وكذلك فعلت سيارة الشرطة التي مرت بعدها، وسيارة المطافئ، وسيارات الشرطة الثلاث التالية. لم يكن داريل في حالة جيدة؛ فوجهه شاحب وكان يلهث. وقميص فان غارق في الدماء.

سئمت مرور السيارات أمامي دون توقف، وفي المرة التالية التي ظهرت فيها سيارة بشارع ماركت، تقدمت إلى منتصف الطريق ملوحًا بذراعيَّ فوق رأسي، وأنا أصيح: «قِف!» دارت السيارة لتتوقف، وحينئذٍ فقط لاحظت أنها لم تكن سيارة شرطة، أو إسعاف، أو مطافئ.

كانت سيارة جيب عسكرية، تشبه الهامر المصفحة، غير أنها لم تحمل أية شارة عسكرية عليها. رجعت السيارة بقوة لتتوقف أمامي مباشرةً، فوثبت للخلف، وفقدت توازني لينتهي بي الحال مرتميًا على الطريق. شعرت بالأبواب تُفتَح بجواري، ثم رأيت فوضى من الأقدام المنتعلة أحذية البوت تتحرك بالقرب مني. نظرت لأعلى، فرأيت مجموعة من الأفراد ذوي مظهر عسكري يرتدون أردية سروالية تغطي الجسم بأكمله. كانوا يحملون بنادق ضخمة، ويرتدون أقنعة للوقاية من الغاز مزودة بلوحات للوجه فاتحة اللون.

وقبل أن أتمكن من الإشارة إليهم، كانت هذه البنادق مُصوَّبة نحوي. لم يصوب أحد سلاحًا نحوي من قبل، لكن كل ما سمعته عن هذه التجربة صحيح. إنك تتوقف عن الحراك تمامًا، ويتوقف الزمن، وتدوي ضربات قلبك في أذنيك. فتحت فمي، ثم أغلقته، ثم ببطء شديد، مددت يديَّ أمامي.

أبقى الرجل المُسلَّح المغطى الوجه والعينين سلاحه موجهًا نحوي. لم أتنفس، في حين كانت فان تصرخ بشيء ما، وكان خولو يصيح، نظرت إليهما لثانية، عندئذٍ وضع شخص ما كيسًا خشنًا فوق رأسي، وأغلقه بإحكام حول قصبتي الهوائية. فعل ذلك بسرعة وقوة هائلتين حتى إنه لم يسعني الوقت لأستنشق الهواء قبل أن يُغلَق عليَّ. دُفِعت على نحو قاسٍ وفاتر في الوقت ذاته على بطني، والتف شيء ما مرتين حول معصميَّ، ثم أُحكِم

غلقه. كان له ملمس الأسلاك التي تُحزَم بها الأشياء في رِزَم، ويوجع بشدة. أخذت أصرخ، غير أن صوتي كُتِم بفعل الكيس الذي كان فوق رأسي.

خيم الظلام الدامس حولي، حاولت سماع ما كان يحدث لأصدقائي، فسمعتهم يصرخون عبر قماش الكيس الكاتم للصوت، ثم سُحِبت من معصميَّ لأقف على قدميَّ، وذراعاي مكبَّلان خلف ظهري، وكتفاي متألمتان بشدة.

تعثرت لبضع خطوات، ثم دفعت يدٌ ما رأسي بقوة لأسفل، لأصير بعد ذلك داخل السيارة الهامر. دُفِع كذلك العديد من الأفراد الآخرين بقسوة إلى جانبي.

صحت مناديًا على أصدقائي، فتلقيت ضربة قوية على رأسي آلمتني. سمعت خولو يرد عليَّ، ثم شعرت بأنه تلقى ضربة مماثلة. أخذت رأسي تطِن كالجرس.

أخذت أصيح في الجنود: «اسمعوني! لسنا سوى طلاب بالمرحلة الثانوية، وأردت أن أوقف سيارتكم لأن صديقي ينزف، لقد تعرض للطعن.» لم تكن لدي أدنى فكرة عما كان يُسمَع من هذا الكلام عبر الكيس الكاتم للصوت، لكنني واصلت الحديث: «اسمعوني! ثمة سوء فهم هنا، يلزم نقل صديقي إلى المستشفى …»

وجَّه شخص ما ضربة أخرى على رأسي، وشعرت أنهم يستخدمون هِراوة أو شيئًا من هذا القبيل؛ إذ كانت الضربة أقوى من أية ضربة تلقيتها على رأسي من قبل. زاغت عيناي، واغرورقتا بالدموع، وشعرت حقًّا بعدم القدرة على التنفس. وبعد لحظات، التقطت أنفاسي، لكنني لم أنطق، فقد تعلمت الدرس.

من كان هؤلاء المهرجون؟ إنهم لا يرتدون أية شارات. ربما كانوا إرهابيين! لم أُومن بالإرهابيين حقًّا من قبل قَط … ما أعنيه هو أنه من الناحية النظرية كان هناك إرهابيون في مكان ما بالعالم، بيد أنهم لا يمثلون في الواقع أي خطر علي، فهناك ملايين الطرق التي يمكن أن ألقى حتفي بها في هذا العالم — مثل أن تدهسني سيارة مسرعة يقودها سكير في شارع فالينسيا — وهي الطرق الأكثر احتمالًا ومباشرةً من الإرهابيين. فمن لقوا حتفهم على يد الإرهابيين أقل بكثير ممن ماتوا جرَّاء السقوط في دورات المياه، أو تعرضوا للصعق بالكهرباء على نحو عرضي. فلم يكن الإرهابيون يثيرون قلقي أكثر من التعرض للبرق.

لكن بجلوسي في الخلف بتلك السيارة الهامر، ورأسي داخل ذلك الكيس، ويداي مكبلتان خلف ظهري، وترنحي للأمام والخلف، وتورم الكدمات برأسي؛ بدا الإرهاب فجأة أخطر بكثير.

تأرجحت السيارة للأمام والخلف، وصعدت أعلى التل، واستنتجت أننا متوجهون إلى منطقة نوب هيل، وبدا من الزاوية التي نسير بها أننا نمضي في أكثر الطرق انحدارًا؛ شارع باول على ما أعتقد.

هبطنا بعد ذلك بالقدر نفسه من الانحدار. وإذا صحت خريطتي الذهنية، فقد كنا نتوجه لأسفل باتجاه منطقة فيشرمانز وارف. يمكنك الصعود على متن قارب هناك والهرب، ويناسب ذلك فرضية الإرهاب، لكن لماذا يخطف الإرهابيون مجموعة من طلاب المرحلة الثانوية؟!

تأرجحت السيارة لتقف على منحدر، توقف المحرك، ثم فُتِحت الأبواب، جرَّني شخص ما من ذراعيَّ خارج السيارة، ثم دفعني وأنا أترنح على الطريق المُمهَّد. وبعد بضع ثوانٍ، تعثرت بسلم فولاذي لترتطم قصبتا ساقيَّ به. دفعتني اليدان الموجودتان خلفي مرة أخرى. صعدت السلم بحذر، وأنا غير قادر على استخدام يديَّ. صعدت الدرجة الثالثة، ومددت قدمي للدرجة الرابعة، لكنها لم تكن هناك. كدت أسقط ثانيةً، غير أن يدين أخريين أمسكتا بي من الأمام، وسحبتاني على أرضية فولاذية، ثم دفعتاني للجلوس على ركبتيَّ، وكبلتا يديَّ بشيء ما من خلفي.

مزيد من الحركة، وشعور بأجسام أخرى تُصفَّد بجواري ... تأوهات وأصوات مكتومة ... ضحك، ثم فترة بدت كأمد الدهر من الظلام وعيناي معصَّبتان، أستنشق ما أخرجه من أنفاس، وأسمع صوت أنفاسي في أذنيَّ.

تمكنت في الواقع من النوم في ذلك المكان، جاثيًا على ركبتيَّ وقد انقطعت الدورة الدموية بساقيَّ، والظلام يخيم برأسي داخل الكيس. كان جسمي قد أفرز كمية هائلة من الأدرينالين في مجرى الدم بجسمي خلال ثلاثين دقيقة. ولما كان بإمكان هذه المادة منح الإنسان القوة لفعل أي شيء من أجل إنقاذ أحبائه، والوثب فوق بنايات مرتفعة، فما يسفر عنها يكون دائمًا بشعًا.

استيقظت على يد شخص ما تسحب الكيس من فوق رأسي. لم يكونوا قساة ولا حذرين، وإنما فاترين فحسب، مثل العامل بالمطعم وهو يصنع شطائر البرجر.

كانت الإضاءة بالغرفة ساطعة للغاية؛ ما اضطرني لغلق عينيَّ بقوة، لكنني تمكنت من فتحهما شيئًا فشيئًا إلى أن فُتِحتا عن آخرهما ونظرت حولي.

كنا جميعًا في مؤخرة شاحنة ضخمة ذات ١٦ عجلة. تمكنت من رؤية أماكن العجلات على أبعاد منتظمة بامتداد النظر، لكن مؤخرة هذه الشاحنة كانت قد تحولت إلى شيء

أشبه بسجن أو موقع عسكري متنقل. اصطفت مكاتب فولاذية بجانب الجدران تعلوها شاشات مسطحة مصقولة ترتكز إلى أذرع مزودة بمفاصل تسمح بتغيير مواقعها في دائرة حول مشغليها، وأمام كل مكتب كرسي مكتبي رائع مُحلى بمقابض تُستخدَم من أجل تعديل كل ميليمتر من سطح الجلوس، وكذلك الارتفاع والانحدار والانحراف.

جاء بعد ذلك الجزء الخاص بالسجن. في مقدمة الشاحنة، وبأبعد نقطة عن الأبواب، كانت القضبان الفولاذية المثبتة بمسامير في جانبي العربة، وفي هذه القضبان الفولاذية قُيِّد المساجين.

لمحت فان وخولو على الفور. لعل داريل كان من بين المقيدين الموجودين هنا بالخلف، بيد أن الجزم بذلك كان مستحيلًا؛ إذ إن العشرات منهم جلسوا مترهلين أمامي حاجبين عني الرؤية. ملأت المكان بالخلف رائحة خوف وعرق كريهة.

نظرت فانيسا إليَّ، ولم تبدِ أي رد فعل. ملأها الفزع، شأنها شأني، وكذلك خولو؛ فأخذت عيناه تدوران في كل مكان في اهتياج، وظهر بياضهما. لقد كنت مذعورًا، كما أردت التبول بشدة.

بحثت حولي عن معتقِلينا، كنت قد تجنبت النظر إليهم حتى ذلك الحين، مثلما تتجنب النظر إلى الظلام في الخزانة عندما تتخيل وجود عفريت داخلها، فأنت لا ترغب في أن تعلم أنك على حق.

غير أنه كان عليَّ التحقق على نحو أفضل من أولئك الحمقى الذين اختطفونا، فأردت أن أعرف إن كانوا إرهابيين أم لا. لم أكن أعلم كيف يبدو الإرهابيون، وإن فعلت البرامج التليفزيونية أقصى ما في وسعها لإقناعي بأن الإرهابيين عرب ذوو بشَرة داكنة، ولِحًى طويلة، وطواقٍ مخيطة، وملابس قطنية فضفاضة تتدلى حتى كواحلهم.

لم يكن معتقلونا كذلك؛ فهم أشبه بفرق مشجعي كرة القدم الذين يقدمون عروضًا في استراحة المباريات، فبدَوا أمريكيين على نحو لا يمكنني تعيينه على وجه التحديد: عظام فك جيدة، وقصة شعر قصيرة أنيقة بدت غير عسكرية على الإطلاق. ارتدوا جميعًا، رجالًا ونساءً، ملابس بيضاء وبُنية اللون، وابتسموا دون تحفظ لبعضهم البعض أثناء جلوسهم بالطرف الآخر من الشاحنة، وهم يتبادلون المزاح ويشربون القهوة في أكواب بلاستيكية. ما كان أولئك بعرب من أفغانستان، بل بدوا سياحًا من نبراسكا.

حدقت في شابة ذات بشرة بيضاء وشعر بني والتي بدت في نفس عمري تقريبًا. بدت فاتنة نوعًا ما في الزي العسكري المخيف. إذا حدقتَ في شخص ما لفترة طويلة، فسينظر

ناحيتك في النهاية، وهذا ما فعلته، وتحول وجهها فجأة إلى هيئة مختلفة تمامًا تخلو من المشاعر، بل آلية أيضًا، وتلاشت البسمة في لمح البصر.

خاطبتها قائلًا: «لتسمعيني، لا أعلم ما يحدث هنا، لكنني في حاجة ماسة للذهاب إلى دورة المياه؟»

فأشاحت بوجهها عني كما لو أنها لم تسمعني.

«إنني جاد فيما أقوله، وإذا لم أذهب الآن، فستكون العواقب وخيمة، سيصير المكان هنا كريه الرائحة حقًّا.»

استدارت ناحية زملائها، وكانوا ثلاثة. تبادلوا الحديث بصوت منخفض لم أتمكن من سماعه بسبب مراوح أجهزة الكمبيوتر.

ثم عادت للنظر إليَّ، وقالت: «لتصبر عشر دقائق، وسيذهب كلٌّ منكم لقضاء حاجته.»

«لا أعتقد أن بوسعي الصبر عشر دقائق.» أظهرت شيئًا من الإلحاح في صوتي أكثر مما كنت أشعر به في الحقيقة. «عن جد يا سيدتي! لا بد أن أذهب الآن.»

هزَّت رأسها، ونظرت إليَّ كما لو كنت فاشلًا مثيرًا للشفقة. تشاورت مع أصدقائها ثانيةً، ثم تقدم أحدهم للأمام، كان أكبر سنًّا منها، في بداية الثلاثينيات، عريض المنكبين على نحو يعكس ممارسته للرياضة. بدا صينيًّا أو كوريًّا — فان نفسها لا يمكنها التمييز بين الصينيين والكوريين في بعض الأحيان — لكن هيئته أوحت بأنه «أمريكي» على نحو لا يمكنني تحديده بالضبط.

أزاح معطفه الرياضي جانبًا ليجعلني أرى ما كان يعلقه بجانبه؛ فرأيت مسدسًا، وصاعقًا كهربائيًّا، وبخاخًا للفلفل أو التوابل الحارة، قبل أن ينزل معطفه ثانيةً.

قال: «لا تُثِر المشكلات.»

فأجبته موافقًا: «بالتأكيد.»

لمس شيئًا ما في حزامه، ففُكَّت الأصفاد خلف ظهري، وسقط ذراعاي خلفي فجأة. كان الأمر أشبه بارتدائه حزام الرجل الوطواط متعدد الاستخدامات؛ جهاز لاسلكي للتحكم عن بعد في الأصفاد! أظن أن ذلك كان منطقيًّا؛ فلو كنتَ سجَّانًا، ما كنت لترغب في الانحناء أمام السجناء لتصبح كل هذه المعدات المميتة في مستوى نظرهم؛ إذ قد يسحبون سلاحك بأسنانهم، ويضغطون على الزناد بألسنتهم أو شيء من هذا القبيل.

كانت يداي لا تزالان مكبلتين خلف ظهري بالرباط البلاستيكي، وبعد أن فُكَّت عني الأصفاد، شعرت بأن ساقيَّ قد تحولتا إلى كتلتين من الفلين بمكوثي في وضعية واحدة.

اختصارًا لما حدث، سقطت على وجهي، وأخذت أرفس بوهن في ساقيَّ اللتين ملأهما الوخز، محاولًا الاستناد عليهما لأنهض.

جذبني الرجل بعنف لأقف على قدميَّ، وأخذت أترنح وصولًا إلى أقصى نقطة بمؤخرة الشاحنة حيث وُضِع حمام صغير متنقل. حاولت البحث عن داريل في طريقي، لكنه ربما كان أحد الأفراد الخمسة أو الستة الجالسين بترهل، وربما ليس أيًّا منهم.

قال الرجل: «لتدخل.»

هززت معصميَّ بعنف، وقلت له: «لتنزع هذا، من فضلك!» كانت أصابعي كأصابع السجق أرجوانية اللون جراء ربطها بالأصفاد البلاستيكية لساعات.

لم يحرك الرجل ساكنًا.

فقلت له، محاولًا ألا يبدو في صوتي سخرية أو غضب (ولم يكن ذلك يسيرًا): «انظر، إما أن تفك معصميَّ، أو تدخل معي لتساعدني في قضاء حاجتي؛ فالذهاب لدورة المياه لا يمكن أن يتم دون استخدام الأيدي.» أطلق شخص ما في الشاحنة ضحكة نصف مكبوتة. لم أَرُق للرجل، تمكنت من تبيُّن ذلك من الطريقة التي كان يصرُّ بها عضلات فكيه. يا إلهي! كم كان هؤلاء الناس على أهبة الاستعداد!

مدَّ يده إلى حزامه، وأخرج زردية رائعة متعددة الاستخدامات، أظهر منها سكينًا خَطِر المظهر، وقطع الأصفاد البلاستيكية لتتحرر يداي.

شكرته.

فدفعني داخل دورة المياه. كانت يداي لا فائدة منهما، كما لو كانتا قطعتين من الصلصال في نهاية معصميَّ. وعندما هززت أصابعي بصعوبة، شعرت بوخز فيها، ثم تحول الوخز إلى ألم شديد كدت أصرخ منه. أنزلت قاعدة المرحاض، وخلعت سروالي، ثم جلست، فلم أكن واثقًا أنه بإمكاني الصمود واقفًا على قدميَّ.

تحررت مثانتي، وكذلك عيناي، فأخذت أبكي في صمت وأنا أهتز للأمام والخلف مع نزول الدموع والمخاط على وجهي. كان ذلك كل ما بوسعي فعله لأمنع نفسي من النشيج؛ وضعت يدي على فمي، وكتمت صوتي. لم أرغب في إرضائهم بسماع ذلك.

وأخيرًا، انتهيت من قضاء حاجتي، وكان الرجل يناديني ويضرب الباب بعنف. نظَّفت وجهي قدر الإمكان باستخدام المناديل الورقية، ثم وضعتها في المرحاض، وطردت الماء. بحثت بعد ذلك عن حوض، لكنني لم أجد سوى زجاجة متينة لمُعقِّم يدين مغطاة بلائحة مكتوب عليها بخط صغير الجراثيم التي يعمل على إزالتها. مسحت يديَّ ببعض منه، وخرجت من الحمام.

سألني الرجل: «ماذا كنت تفعل بالداخل؟»

فأجبته: «أستخدم المرحاض.» جعلني أستدير، وأمسك بيديَّ، فشعرت بأصفاد بلاستيكية جديدة توضع حولهما. تورم معصماي منذ فك الأصفاد السابقة منهما، وأوجعت الأصفاد الجديدة بشرتي الحساسة، لكنني أبيت أن أمنحه الرضا بأن أصرخ من الألم.

دفعني حتى وصلت إلى مكاني، وأمسك بالشخص التالي الذي اتضح لي في تلك اللحظة أنه خولو. انتفخ وجهه، وكانت هناك كدمة كريهة على وجنته.

سألته: «هل أنت بخير؟» فوضع الرجل ذو الحزام متعدد الاستخدامات يده على جبهتي، ودفعني بقوة، لترتد رأسي بعد ارتطامها بجدار الشاحنة المعدني محدثةً صوتًا مثل دقِّ الساعة. وقال بينما كنت أحاول جاهدًا إعادة تركيز نظري: «ممنوع الكلام!»

لم يرقني هؤلاء الناس، وقررت في تلك اللحظة أنهم سيدفعون ثمن كل ما يفعلونه.

ذهب جميع السجناء إلى دورة المياه واحدًا تلو الآخر، ثم عادوا إلى أماكنهم. وعند الانتهاء من ذلك، عاد الحارس إلى أصدقائه وتناول كوبًا آخر من القهوة. لاحظت أنهم كانوا يشربون من وعاء ضخم من «ستاربكس» موضوع في خزانة، وأخذوا يتحدثون على نحو يصعب تمييزه تضمن قدرًا كبيرًا من الضحك.

فُتِح بعد ذلك الباب الموجود في مؤخرة الشاحنة، كان الهواء نقيًّا، لا يملؤه الدخان مثل ذي قبل، لكن يشوبه بعض الأوزون. وفي الجزء الذي رأيته بالخارج قبل أن يُغلَق الباب ثانيةً، لمحت الظلام وقد خيم، والسماء تمطر الرذاذ الذي اشتهرت به سان فرانسيسكو، ويشوبه ضباب رقيق.

كان الرجل الذي دخل إلى الشاحنة يرتدي زيًّا عسكريًّا ... زيًّا عسكريًّا أمريكيًّا. ألقى التحية العسكرية على الأفراد في الشاحنة، وردوا له التحية، وعندئذٍ علمت أنني لم أكن سجين بعض الإرهابيين، وإنما سجين الولايات المتحدة الأمريكية.

نصبوا ستارًا صغيرًا في آخر الشاحنة، ثم جاءوا ليأخذونا واحدًا تلو الآخر، فكُّوا أصفادنا وقادونا إلى مؤخرة الشاحنة. ما تمكنت من استنتاجه — وأنا أعد الثواني في رأسي — أن مدة المقابلة مع كلٍّ منَّا استمرت سبع دقائق. ارتجفت رأسي إثر الجفاف وانسحاب الكافيين.

كان دوري الثالث، قادتني السيدة ذات الشعر القصير إلى مكان التحقيق. عن قرب، بدت مرهقة: عيناها منتفختان، وخطوط كالحة تحيط بجانبي فمها.

قلت لها عفويًّا: «شكرًا!» وهي تفك أصفادي باستخدام جهاز التحكم عن بعد، ثم سحبتني لأقف على قدميَّ. كرهت نفسي لهذه الدماثة العفوية، لكنها كانت مغروسة بداخلي.

لم تحرك ساكنًا. سرت أمامها حتى وصلنا إلى مؤخرة الشاحنة، ثم خلف الستار. كان هناك كرسي واحد قابل للطي جلست عليه. نظر إليَّ اثنان من خاطفينا، وهما السيدة ذات الشعر القصير، والرجل ذو الحزام متعدد الاستخدامات. كانا يجلسان على كرسيين مريحين رائعين.

كانت هناك طاولة صغيرة بينهما منثورة عليها محتويات محفظتي وحقيبة الظهر الخاصة بي.

قالت السيدة ذات الشعر القصير: «مرحبًا ماركوس، نريد أن نطرح عليك بعض الأسئلة.»

سألتهما: «هل أنا رهن الاعتقال؟» لم يكن ذلك سؤالًا عديم الجدوى، فإذا لم تكن رهن الاعتقال، فثمة حدود لما يمكن لرجال الشرطة فعله معك وما لا يمكنهم فعله: أولًا، لا يمكنهم احتجازك للأبد دون اعتقالك، مع منحك مكالمة هاتفية، والسماح لك بالتحدث إلى محامٍ. هل كان ذلك ليحدث؟!

قالت وهي تمسك هاتفي: «ما هذا؟» أظهرت الشاشة رسالة الخطأ التي تظهر عند محاولة الوصول إلى بيانات الهاتف دون إدخال كلمة المرور الصحيحة. كانت رسالة بذيئة نوعًا ما — يد متحركة تؤدي حركة غير مهذبة يعرفها الجميع — فأنا أحب تخصيص جهازي.

كررت سؤالي: «هل أنا رهن الاعتقال؟» لا يمكنهم إرغامك على الإجابة عن أية أسئلة إذا لم تكن رهن الاعتقال، وعندما تسألهم ما إذا كنت رهن الاعتقال أم لا، ينبغي لهم الإجابة. هذا ما ينص عليه القانون.

ردَّت السيدة بحدة: «أنت مُحتجَز من قِبل وزارة الأمن الوطني.»

«هل أنا رهن الاعتقال؟»

«ستكون أكثر تعاونًا، يا ماركوس، بدءًا من هذه اللحظة.» لم تستطرد قائلةً: «وإلا ...» لكنَّ ذلك كان مفهومًا ضمنيًّا.

قلت: «أود الاتصال بمحامٍ، وأرغب في معرفة ما أنا متهم به، وأريد أن أرى أي تحقيق هوية لكليكما.»

نظر كلٌّ منهما للآخر.

ثم قالت السيدة ذات الشعر القصير: «أعتقد حقًّا أنه يجدر بك إعادة النظر في أسلوب تعاملك مع هذا الموقف، وأعتقد أن عليك فعل ذلك الآن. لقد عثرنا على عدد من الأجهزة المريبة بحوزتك، ووجدناك وشركاءك بالقرب من موقع أسوأ هجوم إرهابي تعرضت له البلاد على الإطلاق. وبالجمع بين هاتين الحقيقتين، يتضح أن الوضع ليس في صالحك يا ماركوس. يمكنك التعاون معنا، وإلا فستندم أشد الندم. والآن، ما هذا؟»

«هل تظنون أنني إرهابي؟ إنني في السابعة عشرة!»

«هذه هي السن المناسبة تمامًا؛ فتنظيم القاعدة يفضل تجنيد الشباب المثاليين سريعي التأثر. لقد بحثنا عنك على جوجل، ووجدنا أنك نشرت الكثير من الأمور السيئة للغاية على الإنترنت.»

«أريد التحدث إلى محامٍ.»

نظرت إليَّ السيدة ذات الشعر القصير كما لو كنت حشرة، ثم قالت: «إنك تظن خطأً أن الشرطة قبضت عليك لارتكابك جريمة ما، عليك أن تتجاوز هذه الفكرة؛ فأنت محتجز من قِبل حكومة الولايات المتحدة بوصفك مقاتلًا عدوًّا محتملًا. لو كنت مكانك، لبذلت أقصى ما بوسعي للتفكير في كيفية إقناعنا بأنك لست مقاتلًا عدوًا ... أقصى ما بوسعك حقًّا، فثمة أماكن مظلمة يمكن للمقاتلين الأعداء الاختفاء فيها، أماكن بعيدة حالكة الظلام يتغيبون فيها عن الأنظار تمامًا ... للأبد. هل تسمعني أيها الفتى؟ أريدك أن تفتح هذا الهاتف، ثم تفك شفرة الملفات الموجودة في ذاكرته، وأريدك أن تبرر سبب تواجدك في الشارع، وتوضح ما تعرفه بشأن الهجوم الذي تعرضت له هذه المدينة.»

قلت حانقًا: «لن أفتح هاتفي من أجلكم.» تضم ذاكرة هاتفي كافة أنواع الأغراض الخاصة من صور، ورسائل بريد إلكتروني، وبعض برامج القرصنة والألعاب التي كنت قد ثبَّتها. «هذه أغراض خاصة.»

«ماذا تود إخفاءه؟»

«لدي الحق في الخصوصية، وأريد التحدث مع محامٍ.»

«هذه آخر فرصة لك يا فتى، الأمناء ليس لديهم ما يخفونه.»

«أريد التحدث مع محامٍ.» سيدفع والداي أتعابه. الأسئلة المتكررة بشأن أن تكون رهن الاعتقال واضحة في هذه النقطة، كل ما عليك فعله هو المداومة على طلب الالتقاء بأحد المحامين، بصرف النظر عما يقوله الضباط أو يفعلونه؛ فالتحدث مع الشرطة دون

حضور محامٍ لن يفيدك إطلاقًا. قال هذان الاثنان إنهما ليسا شرطيين، لكن إذا لم يكن ذلك اعتقالًا، فماذا يكون؟

ما أدركته بعد ذلك أنه ربما كان ينبغي لي فتح هاتفي لهما.

الفصل الرابع

أهدي هذا الفصل لسلسلة متاجر الكتب الأمريكية بارنز آند نوبل. مع اختفاء متاجر الكتب الصغيرة، شرعت متاجر بارنز آند نوبل في تشييد هذه القلاع الضخمة للقراءة بجميع أنحاء البلاد. ومن خلال احتوائها على عشرات الآلاف من الكتب (لا تضم متاجر الكتب بالمراكز التجارية الكبرى والأرفف الدوارة بمتاجر البقالة سوى نسبة صغيرة من هذا الكم فحسب)، وفتح أبوابها لساعات طويلة تناسب العائلات، والعاملين، وغيرهم من القُرَّاء المحتملين؛ أبقت سلسلة متاجر بارنز آند نوبل على عمل الكثير من الكُتَّاب، بضمها كتبًا لا يمكن للمتاجر الصغيرة تحمُّل تكلفة الاحتفاظ بها على أرففها المحدودة. ولطالما تبنت متاجر بارنز آند نوبل برامج فعالة للتواصل مع المجتمع. هذا وقد أقمت بعضًا من أفضل حفلات التوقيع لكتبي — سواء من ناحية الحضور أو التنظيم — في هذه المتاجر، مثل الحفلات الضخمة التي أقيمت بفرع سلسلة متاجر الكتب في ميدان يونيون بنيويورك؛ حيث عُقِد حفل التوقيع الضخم بعد حفل توزيع جوائز نبيولا، وفرع شيكاجو الذي استضاف الحدث بعد حفل توزيع جوائز نبيولا ببضع سنوات. أهم ما يميز بارنز آند نوبل أن البائعين «الخبراء» يتمتعون بقدر هائل من المعرفة فيما يتعلق بالخيال العلمي، والقصص المصورة الهزلية، وقصص المانجا، والألعاب، وما شابه ذلك من الكتب، ولديهم شغف ومعرفة بهذا المجال، الأمر الذي يتجلى في الاختيار الرائع للكتب المعروضة في واجهات المتاجر.

* * *

قيدوني ثانيةً، ووضعوا الكيس مرة أخرى على رأسي، وتركوني هناك. وبعد فترة طويلة من الوقت، بدأت الشاحنة في التحرك متجهةً أسفل التل، ثم جُذِبتُ لأقف على قدميَّ.

سقطت أرضًا على الفور. كانت ساقاي خَدِرتين تمامًا كما لو كانتا قطعتين من الثلج، فيما عدا ركبتيَّ اللتين تورمتا وصارتا مؤلمتين عند اللمس نتيجة للساعات الطويلة التي ظللت فيها جاثيًا.

جذبتني بعض الأيدي من كتفيَّ وقدميَّ، ورفعتني ككيس البطاطس. سمعت بعض الأصوات من حولي، دون أن أتمكن من تمييزها. كان هناك أحد يبكي وآخر يسبُّ.

حُمِلتُ لمسافة صغيرة، ثم أُنزِلت، وأُعيد تكبيلي بقضيب آخر. لم تقوَ ركبتاي على حملي أكثر من ذلك، فانحنيت للأمام، لينتهي بي الحال ملتويًا على الأرض كبسكويت العُقديَّة، ممددًا عكس اتجاه الأغلال وممسكًا بمعصميَّ.

أخذنا نتحرك ثانيةً، وفي تلك المرة، راودني شعور بأننا لسنا داخل شاحنة؛ فالأرضية تحتي كانت تتمايل برقة، وتهتز بفعل محركات ديزل قوية؛ فأدركت أننا على متن سفينة! شعرت بالهلع، إنني أُرحَّل من الشواطئ الأمريكية إلى مكان «آخر»، ومن يدري ما هذا المكان؟ سبق أن انتابني الفزع من قبل، لكن هذه الفكرة روَّعتني، وأصابتني بالشلل، وعدم القدرة على الكلام. أدركت أنني قد لا أرى والديَّ ثانيةً أبدًا، وشعرت بالفعل ببعض القيء يحترق في حلقي، شعرت بالاختناق داخل الكيس الموجود على رأسي، ولم أعد قادرًا تقريبًا على التنفس، الأمر الذي ازداد نتيجة للوضع الغريب الملتوي الذي كنت عليه.

لكن من رحمة الأقدار أننا لم نمكث طويلًا في الماء. بدا الأمر وكأنه قد مضى ساعة، لكنني أعلم الآن أننا لم نمكث في الماء سوى خمس عشرة دقيقة فحسب، ثم شعرت بأن السفينة ترسو، وبوقع خطوات من حولي على ظهرها، والمساجين الآخرون تُفَك قيودهم ويُحمَلون أو يُقادون بعيدًا. وعندما حان دوري، حاولت الوقوف مرة أخرى، لكنني لم أستطع، فحملوني ثانيةً على نحو قاسٍ مجرد من أي شعور.

وعند رفعهم الكيس من على رأسي ثانيةً، كنت داخل زنزانة.

كانت زنزانة قديمة متهالكة تفوح منها رائحة هواء البحر، احتوت على نافذة واحدة على ارتفاع عالٍ، تؤمنها قضبان صَدِئة. كان الظلام لا يزال يخيم على المكان بالخارج، وعلى أرضية الزنزانة وجِدت بطانية، ومرحاض معدني صغير دون قاعدة ومثبَّت بالحائط. كشَّر الحارس الذي خلع الكيس عن رأسي في وجهي، ثم أغلق الباب الفولاذي الصلب خلفه.

أخذت أدلك ساقيَّ برفق، مُصدِرًا أنينًا خفيضًا والدماء تعود إليهما وإلى يديَّ ثانيةً. تمكنت أخيرًا من الوقوف، ثم السير جيئة وذهابًا. سمعت أناسًا آخرين يتحدثون،

ويبكون، ويصيحون. أخذت أصيح أنا أيضًا: «خولو! داريل! فانيسا!» شرعت أصوات أخرى في مجموعة الزنزانات في الصياح منادين على أسماء أشخاص أيضًا، أو مطلقين السباب، والأصوات الأقرب مني بدت كالسكارى على نواصي الشوارع الذين أفقدتهم الخمر صوابهم، ربما كان ذلك حالي أيضًا.

صاح الحراس فينا لنهدأ، الأمر الذي لم يسفر إلا عن صياحنا بصوت أعلى. وفي النهاية، كنا جميعًا نعوي ونصرخ بكل ما أوتينا من قوة، ولم لا؟ ماذا كان لدينا لنخسره؟!

المرة التالية التي حضروا فيها لاستجوابي، كنت قذرًا، مرهقًا، عطشًا، وجائعًا. ضم فريق الاستجواب الجديد السيدة القاسية ذات الشعر القصير، إلى جانب ثلاثة رجال ضِخام الجثة، وقد أخذوا يديرونني كقطعة لحم. كان أحدهم أسود البشرة، في حين كان الاثنان الآخران أبيضين، وإن كان أحدهما يبدو من أصول لاتينية. وحمل جميعهم أسلحة. إن الأمر كان يشبه إعلانًا لإحدى كبريات شركات الملابس والذي تخلله جزء من لعبة حربية.

أخذوني من زنزانتي، وكبلوا معصميَّ وكاحليَّ. انتبهت لما حولي أثناء سيرنا، فسمعت صوت مياه بالخارج، وظننت أننا ربما نكون في ألكتراز، فهو في نهاية الأمر سجن، وإن تحول إلى معلم سياحي منذ فترة طويلة. إنه السجن الذي تذهب إليه لرؤية المكان الذي قضى فيه آل كابوني وأفراد عصابته المعاصرون له مدة عقوبتهم. لكنني سبق أن زرت سجن ألكتراز في إحدى الرحلات المدرسية، كان قديمًا، صَدِئًا، عتيق الطراز. أما ذلك المكان، فيبدو أن تاريخ تشييده يعود للحرب العالمية الثانية، وليس الحقبة الاستعمارية.

احتوى المكان على رموز باركود مطبوعة بالليزر على أوراق لاصقة، وموضوعة على أبواب الزنزانات. هذا فضلًا عن الأرقام، لكن فيما عدا ذلك، ما من سبيل لمعرفة مَن أو ما يوجد خلف أبواب هذه الزنزانات.

كانت غرفة الاستجواب حديثة الطراز، ومنارة بأضواء فلوريسنت، ومزودة بمقاعد مريحة — ليس أنا من سيجلس عليها، فمقعدي كرسي حديقة بلاستيكي قابل للطي — وطاولة خشبية كبيرة كالمستخدمة في قاعات الاجتماعات. كانت هناك مرآة معلقة على الحائط، مثل المسلسلات البوليسية بالضبط، واستنتجت أن شخصًا ما يراقبنا من خلفها بلا شك. جلبت السيدة ذات الشعر القصير ورفاقها القهوة لأنفسهم من وعاء ضخم موضوع على مائدة بأحد جوانب الغرفة (كان بإمكاني تمزيق عنقها بأسناني، والاستيلاء على القهوة في تلك اللحظة)، ثم وضعت كوبًا بلاستيكيًّا من الماء بجواري، دون تحرير معصميَّ المكبلين خلف ظهري كي أتمكن من الوصول إليه. أمر مضحك حقًّا!

قالت السيدة: «مرحبًا يا ماركوس! ماذا عن نظرتك لوضعك اليوم؟»

لم أنطق.

«أتعلم، ليس هذا أسوأ ما يمكن أن تصل إليه الأمور، وإنما «أفضلها» من الآن فصاعدًا. حتى عندما تخبرنا بما نريد أن نعرفه، وإن نجح ذلك في إقناعنا بأنك كنت في المكان الخطأ في التوقيت الخطأ، فقد صرت مشبوهًا الآن. سنراقبك في أي مكان تذهب إليه، وأي شيء تفعله. لقد تصرفت كما لو كان لديك شيء تخفيه، ونحن لا نحب ذلك.»

كم كان ذلك مثيرًا للشفقة، لكن كل ما كان بوسعي التفكير فيها آنذاك هو عبارة «إقناعنا بأنك كنت في المكان الخطأ في التوقيت الخطأ.» هذا أسوأ ما حدث لي على الإطلاق. لم أشعر مطلقًا بمثل هذا الشعور السيئ أو الخوف من قبل. كانت هذه الكلمات الخمس «المكان الخطأ في التوقيت الخطأ» بمثابة طوق النجاة لي.

طقطقت السيدة ذات الشعر القصير أصابعها أمام وجهي وهي تقول: «ماركوس، أين ذهبت يا ماركوس؟» ارتسمت على وجهها ابتسامة بسيطة؛ ما جعلني أمقت نفسي لسماحي لها برؤية خوفي. «يمكن أن يصير الوضع أسوأ من ذلك بكثير يا ماركوس. ليس هذا أسوأ مكان يمكننا وضعك فيه، هناك ما هو أسوأ بكثير.» مدَّت يدها أسفل الطاولة، وأخرجت حقيبة جلدية، فتحتها وأخرجت منها هاتفي، وجهاز تصيد/تقليد شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، وجهاز البحث عن إشارات الواي فاي، وأجهزة الذاكرة المحمولة. أخذت تضعها على الطاولة واحدًا تلو الآخر.

«إليك ما نريده منك؛ عليك أن تحل شفرة الهاتف لنا اليوم. إن فعلت ذلك، فسنمنحك امتياز الخروج من الزنزانة والاغتسال. سيُسمَح لك بالاستحمام، والسير في أرجاء فناء التريُّض. وغدًا، سنستدعيك ثانيةً، ونطلب منك فكَّ شفرة البيانات المخزنة على أجهزة الذاكرة هذه. إذا فعلت ذلك، فسيُسمَح لك بالأكل في قاعة الطعام. وفي اليوم التالي، سنطلب منك كلمات مرور بريدك الإلكتروني، وبذلك ستُمنَح امتيازات الدخول إلى المكتبة.»

كدت أنطق بكلمة «لا»، كما لو كانت جشأة تحاول الخروج من فمي، لكنها لم تخرج، وجاءت بدلًا منها: «لماذا؟»

«نريد التأكد من أنك ما تبدو عليه بالفعل. هذا من أجل سلامتك يا ماركوس. أنت تقول إنك بريء، ربما تكون كذلك حقًّا، غير أنني لا أفهم لماذا يتصرف شخص بريء كما لو كان لديه الكثير ليخفيه. لكن لنفترض صحة ما تدعيه؛ كان من الممكن أن تكون على ذلك الجسر عند انفجاره، أو والداك، أو أصدقاؤك. ألا ترغب في أن نقبض على من هاجموا بلادنا؟»

الأمر كان مضحكًا، لكن العجيب أنها عندما ذكرت حصولي على «امتيازات»، أصابني خوف دفعني للاستسلام، فشعرت بأنني فعلت «شيئًا ما» جعل الحال ينتهي بي حيث كنت، كما لو كنت أنا المخطئ إلى حد ما، وبوسعي فعل شيء ما لتغيير ما يحدث.

لكن ما إن انتقلت السيدة ذات الشعر القصير للحديث عن ذلك الهراء المتعلق بـ «الأمن» و«السلامة» حتى استعدت قوتي الذهنية، وقلت لها: «إنك تتحدثين، يا سيدتي، عن الاعتداء على بلادي، لكن ما أراه حتى الآن هو أنكم أنتم من اعتديتم عليَّ مؤخرًا. ظننت أنني أعيش في دولة بها دستور حيث أتمتع بـ «حقوق»، وأنتِ تتحدثين عن الدفاع عن حريتي من خلال الضرب بميثاق الحقوق عرض الحائط!»

بدت على وجهها لمحة انزعاج سرعان ما تلاشت. «يا لها من مبالغة يا ماركوس! ما من أحد اعتدى عليك. لقد احتجزتك حكومة بلادك سعيًا منها للحصول على تفاصيل بشأن أسوأ هجوم إرهابي تعرضت له أراضينا. بوسعك مساعدتنا في مجابهة هذه الحرب التي يشنها أعداء أمتنا علينا. أتبغي الحفاظ على ميثاق الحقوق؟ ساعدنا لإيقاف الأشرار من تدمير مدينتنا. والآن، أمامك ثلاثون ثانية بالضبط لفك شفرة هاتفك قبل أن نرسلك إلى زنزانتك مرة أخرى، فعلينا مقابلة كثيرين غيرك اليوم.»

نظرت في ساعة يدها، وحرَّكتُ أنا معصميَّ، فقعقعت الأصفاد التي حالت دون وصولي للهاتف لفك شفرته. نعم، كنت سأفعل ذلك. لقد أخبرتني عن سبيلي للحرية ... للعالم، لوالديَّ ... ومنحني ذلك الأمل، وهددتني الآن بإرسالي للزنزانة ثانيةً، وإبعادي عن ذلك السبيل، فتبدد الأمل، وما سيطر على تفكيري آنذاك هو كيف أحييه من جديد.

فأخذت أحرك معصميَّ لأصل إلى هاتفي، وأفك الشفرة كما أرادت، لكن ما كان منها إلا أن أخذت تنظر إليَّ ببرود، مع التحقق من ساعتها.

أدركت في النهاية ما تريده مني، فقلت: «كلمة المرور هي ...» إنها تريدني أن أنطق بكلمة المرور، هنا، حيث يمكنها تسجيلها ويمكن لزملائها سماعها. لم ترد أن أفك شفرة الهاتف فقط، وإنما أرادت أن تخضعني لها؛ أن أصير بين قبضتيها، وأتخلى عن كافة أسراري، وخصوصيتي. قلت ثانيةً: «كلمة المرور هي ...» ثم أخبرتها بها، ودعوت الله أن يعينني؛ لقد خضعت لإرادتها.

ابتسمت ابتسامة متكلفة يبدو أنها البديل الفاتر لديها لرقصة الانتصار، وقادني الحراس بعد ذلك بعيدًا. وعندما أُغلِق الباب، رأيتها تنحني على الهاتف لتدخل كلمة المرور.

أتمنى القول إنني تنبأت مسبقًا بإمكانية حدوث ذلك، وأنشأت كلمة مرور مزيفة تفتح قسمًا لا ضرر منه على الإطلاق بهاتفي، بيد أنني لم أكن بهذا القدر من جنون الارتياب (أو بالأحرى البراعة) من قبل.

لعلك تتساءل الآن: ما الأسرار الغامضة التي احتوى عليها هاتفي، وأجهزة الذاكرة المحمولة، وبريدي الإلكتروني، فلست سوى شاب في النهاية؟!

الحقيقة أن لدي كل شيء لأخفيه، ولا شيء؛ فباستخدام هاتفي وأجهزة الذاكرة المحمولة خاصتي، يمكن التعرف جيدًا على أصدقائي، ورأيي فيهم، وجميع الحماقات التي قمنا بها. يمكن كذلك قراءة سجلات المجادلات الإلكترونية التي أجريناها، والتسويات التي توصلنا إليها.

كما ترى، أنا لا أحذف أي شيء. ولماذا أفعل ذلك؟ فالتخزين رخيص التكلفة، ولا تدري متى ستحتاج العودة لهذه الأمور، وبخاصة السخيف منها. أتعرف ذلك الشعور الذي ينتابك أحيانًا أثناء جلوسك في مترو الأنفاق، وما من أحد تتحدث معه، ثم تتذكر فجأة شجارًا عنيفًا وقع لك من قبل، وشيئًا رهيبًا قلته، حسنًا، ليس الأمر بالسوء الذي تتذكره عادةً. وإمكانية العودة لتلك الأمور ثانيةً وسيلة رائعة لتذكيرك بأنك لست الشخص البشع الذي تظنه. تجاوزت أنا وداريل الكثير من الشجارات التي لا يسعني إحصاؤها على هذا النحو.

ليس ذلك السبب الوحيد؛ فأنا أعلم أن ثمة خصوصية لهاتفي، وأجهزة الذاكرة المحمولة الخاصة بي، ويرجع ذلك إلى علم التشفير؛ أي تعمية الرسائل. والمنطق الرياضي القائم عليه علم التشفير جيد ووجيه، ونحن جميعًا نصل للتشفير ذاته الذي تستخدمه البنوك ووكالة الأمن القومي. يوجد نوع واحد فقط من التشفير يستخدمه أي شخص، أي تشفير عام يمكن لأي أحد استخدامه، وهكذا تعرف أنه يؤدي وظيفته.

ثمة شيء يشعرك بحريتك حقًّا في أن يكون لديك جانب بحياتك خاص بك «وحدك»، لا يمكن لأحد رؤيته سواك، إنه أشبه بالتعري، أو قضاء الحاجة؛ فكل منا يتعرى بين الحين والآخر، ويتحتم عليه دخول دورة المياه لقضاء حاجته. ما من شيء مخجل، أو منحرف، أو غريب في أيٍّ من هذين الأمرين، لكن ماذا إذا حكمت عليك من الآن فصاعدًا أنك كلما أردت قضاء حاجتك، سيتحتم عليك فعل ذلك في غرفة زجاجية موضوعة في منتصف ميدان تايمز، تتعرى فيها مؤخرتك؟!

حتى وإن لم يكن بجسمك جانب معيب أو غريب — الأمر الذي لا يتمتع به أغلبنا — فستكون غريب الأطوار حقًّا إن راقت لك هذه الفكرة. معظمنا سيهرب من الموقف وهو يصرخ، أو يحاول حبسها في داخله حتى ينفجر.

لا يتعلق الأمر هنا بفعل شيء مخزٍ، وإنما شيء خاص، إنه يتعلق بأن حياتك تخصك وحدك.

كانوا يسلبونني ذلك شيئًا فشيئًا. أثناء عودتي للزنزانة، عاودني ذلك الشعور بأنني أستحق ما يحدث لي؛ فقد خرقت الكثير من القوانين طوال حياتي، وأفلتُّ دون عقاب في أغلب الأحيان. لعل هذه هي العدالة، لعل هذا جزاء ما فعلته في الماضي. في النهاية، ما أتى بي لذلك المكان هو هروبي من المدرسة.

سُمِح لي بالاستحمام، والسير بأرجاء الفناء. علت السماء الفناء الذي فاحت منها رائحة منطقة الخليج، لكن فيما عدا ذلك، لم تكن لديَّ أية فكرة عن المكان الذي كنت احتَجَز فيه. لم أرَ أيًّا من السجناء الآخرين أثناء فترة التريض، وشعرت بضجر شديد أثناء تجولي بلا هدف. حاولت سماع أي صوت قد يساعدني في فهم ماهية ذلك المكان، لكن كل ما سمعته كان صوت مركبة ما بين الحين والآخر، أو محادثات بعيدة، أو طائرة تحط في مكان ما بالجوار.

أعادوني إلى الزنزانة، وقدموا لي الطعام، نصف بيتزا بالببروني من محل «جوت هيل بيتزا» الذي أعرفه جيدًا في حي بتريرو هيل. ذكرتني علبة البيتزا، بما عليها من رسم مألوف ورقم الهاتف ٤١٥، بأنه من يوم واحد فقط كنت حرًّا في بلد حر، وصرت الآن سجينًا. كان يساورني القلق دائمًا بشأن داريل وأصدقائي الآخرين، ربما أبدَوا قدرًا أكبر من التعاون وأُطلِق سراحهم، ربما أخبروا والديَّ بما حدث، فأخذا يجريان اتصالاتهما في جنون.

وربما لا.

خلت الزنزانة من أية محتويات، كانت فارغة كروحي. تخيلت أن الحائط الموجود أمام ما أنام عليه شاشة، وأن بإمكاني ممارسة القرصنة في تلك اللحظة لأفتح باب الزنزانة. تخيلت مكتبي، وما عليه من مشروعات: العلب المعدنية القديمة التي كنت أحوِّلها إلى جهاز لتضخيم الصوت، وكاميرا الطائرات الورقية التي كنت أصممها، وجهاز الكمبيوتر المحمول المُصمَّم في المنزل.

أردت الخروج من ذلك المكان. أردت العودة إلى المنزل واستعادة أصدقائي، ومدرستي، ووالديَّ، وحياتي. أردت أن أكون قادرًا على الذهاب حيثما شئت، ولا أظل أسيرُ جيئة وذهابًا في المكان نفسه.

حصلوا بعد ذلك على كلمات المرور لأجهزة اليو إس بي خاصتي. احتوت تلك الأجهزة على بعض الرسائل المثيرة التي سبق لي تنزيلها من مجموعات النقاش على الإنترنت، وبعض سجلات المحادثات، وأمور ساعدني فيها بعض الأفراد بمنحي المعلومات التي كنت بحاجة إليها لتنفيذ ما كنت أفعله. كل ذلك كان متوفرًا على جوجل بالطبع، لكنني لا أظن أن ذلك في صالحي.

خرجت للتريض مرة أخرى بعد ظهيرة ذلك اليوم، وفي تلك المرة كان هناك بعض الأفراد في الفناء: أربعة رجال وسيدتان، من جميع الأعمار والأعراق. أظن أن كثيرين غيري كانوا ينفذون أوامر ما لِجَنْي «الامتيازات».

سمحوا لي بقضاء نصف ساعة في الفناء، فحاولت تبادل أطراف الحديث مع من بدا أكثر طبيعية بين السجناء الآخرين، والذي كان شابًّا أسود البشرة في نفس سني تقريبًا، وكان شعره قصيرًا مجعدًا. لكن عندما قدمت نفسي له ومددت يدي نحوه، التفتَ على الفور ناحية الكاميرات المعلقة على نحو ينذر بالسوء في زوايا الفناء، وواصل سيره دون أن يبدي أي تغيير على الإطلاق في التعبير المرتسم على وجهه.

لكن حينذاك، وقبل أن ينادوا اسمي، ويدخلوني ثانيةً إلى المبنى، فُتِح الباب وخرجت منه ... فانيسا! لم أسعد من قبل برؤية وجه صديق بهذا القدر. بدت مرهقة وغَضِبة، لكن دون إصابات. عندما رأتني هتفت باسمي، وركضت نحوي. احتضن كلٌّ منَّا الآخر بقوة، وأدركت أنني كنت أرتعد، ثم أدركت أنها ترتعد أيضًا.

قالت وهي تمسك بي على مدى ذراعيها: «هل أنت بخير؟»

فأجبتها: «أنا بخير، قالوا لي إنهم سيطلقون سراحي إذا أخبرتهم بكلمات المرور الخاصة بي.»

«يطرحون عليَّ أسئلة باستمرار بشأنك أنت وداريل.»

دوى صوت في مكبر الصوت، يأمرنا بالتوقف عن الحديث والمشي، لكننا تجاهلناه.

قلت على الفور: «أجيبيهم. أجيبي على كل أسئلتهم، إن كان هذا سيضمن إطلاق سراحك.»

«كيف حال داريل وخولو؟»

«لم أرهما.»

فُتِح الباب بعنف، واندفع منه أربعة حراس ضخام البنية، أمسك اثنان بي، في حين أمسك الاثنان الآخران بفانيسا. دفعاني على الأرض، وأدارا رأسي بعيدًا عن فانيسا، لكنني سمعتها تلقى نفس المعاملة. أعادا تكبيل معصميَّ بالأصفاد البلاستيكية، ثم جذباني لأقف على قدميَّ، وأدخلاني مرة أخرى إلى زنزانتي.

لم أحصل على عشاء في تلك الليلة، ولا فطور أيضًا في الصباح التالي. لم يحضر أحد ويصحبني إلى غرفة الاستجواب لانتزاع المزيد من أسراري. لم تُنتزَع الأصفاد البلاستيكية. شعرت بوجع في كتفيَّ، ثم ألم، ثم تخدر، ثم وجع مرة أخرى، وفقدت شعوري بيديَّ تمامًا.

أردت التبول، لكنني لم أستطع فتح سحاب سروالي، واشتدت حاجتي للتبول.

فتبولت في سروالي.

حضروا بعد ذلك لاصطحابي بعد أن صار البول باردًا دبقًا؛ ما جعل سروالي الجينز — الذي كان قذرًا بالفعل — يلتصق بساقيَّ. جاءوا لاصطحابي، وقادوني عبر الرواق الطويل المصطفة على جانبيه الأبواب، كل باب عليه باركود، وكل باركود يشير لسجين مثلي. ساروا حتى وصلوا بي إلى غرفة الاستجواب، كانت الغرفة أشبه بكوكب مختلف عندما دخلتها، عالم كل الأشياء فيه طبيعية، لا تفوح منها رائحة البول. شعرت بقذارة شديدة وخزي عظيم، وعاودني الشعور بأنني أستحق كل ما يحدث لي.

كانت السيدة ذات الشعر القصير تجلس بالفعل في الغرفة، كان مظهرها مثاليًّا: شعرها مصفف، وقد زينت وجهها ببعض مستحضرات تجميل. شممت رائحة المواد التي وضعتها على شعرها. جعدت أنفها أمامي، وشعرت بالخزي داخلي.

«حسنًا، لقد كنت فتى مشاغبًا للغاية، أليس كذلك؟ ما هذه القذارة؟»

يا للخزي! نظرت لأسفل نحو الطاولة، لم أحتمل النظر لأعلى. أردت إخبارها بكلمة المرور لبريدي الإلكتروني، والابتعاد عن ذلك المكان.

«عما كنت تتحدث مع صديقتك في الفناء؟»

ضحكت وأنا أنظر إلى الطاولة، ثم أجبتها: «أخبرتها أن تجيب عن أسئلتكم ... أن تتعاون معكم.»

«إذن، أنت من يصدر الأوامر؟»

شعرت بالدم يغلي في عروقي، وأجبتها: «بالله عليكِ! نحن نلعب «لعبة معًا»، اسمها «هاراجوكو فان مادنس»، وأنا «قائد الفريق». لسنا إرهابيين، نحن طلاب بالمرحلة الثانوية، وأنا لا أوجِّه لها أية أوامر. لقد أخبرتها بضرورة تحري «الصدق» معكم حتى ندرأ عنا أية شبهات، ونخرج من هنا.»

لم تنطق للحظة.

سألتها: «كيف حال داريل؟»

«مَن؟»

«داريل، لقد ألقيتم القبض علينا معًا، إنه صديقي، وقد تلقى طعنة في محطة بارت بشارع باول؛ لهذا صعدنا لأعلى لإحضار المساعدة له.»

فأجابت: «إذن، فأنا على يقين أنه بخير.»

اضطربت معدتي، وكدت أتقيَّأ. «أنتِ لا تعلمين؟ أليس موجودًا هنا؟»

«من موجود هنا، ومن ليس موجودًا أمر لن نناقشه معك، أبدًا، ما من سبيل لتعرف ذلك. لقد رأيت، يا ماركوس، ما يحدث عندما لا تتعاون معنا، ورأيت ما يحدث عندما تعصي أوامرنا. لقد تعاونت معنا قليلًا، وأوصلك ذلك تقريبًا للمرحلة التي قد تستعيد معها حريتك. إذا أردت تحويل هذا الاحتمال إلى واقع، فعليك أن تلتزم بالإجابة عن أسئلتي.»

لم أنطق.

«بدأت تتعلم، هذا جيد. والآن، لتخبرنا بكلمات المرور لبريدك الإلكتروني، من فضلك.»

كنت مستعدًّا لذلك، أعطيتهم كل شيء: عنوان الخادم، واسم المستخدم، وكلمة المرور. لم يكن لذلك أهمية؛ فأنا لا أحتفظ بأية رسائل بريد إلكتروني على الخادم. لقد أنزلتها كلها، واحتفظت بها على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي في المنزل، والذي ينزل كل بريدي من على الخادم كل ستين ثانية، ويحذفه. لن يحصلوا على أي شيء من بريدي؛ فقد مُسِح من على الخادم، وخُزِّن على جهاز الكمبيوتر المحمول في المنزل.

أعادوني إلى الزنزانة، لكنهم حرروا يديَّ، وسمحوا لي بالاستحمام، ومنحوني سروالًا برتقاليًّا من زي السجن لأرتديه. كان مقاسه كبيرًا للغاية، وتدلى فوق وركيَّ مثل فتى عصابات مكسيكي في حي ميشن. من هنا تأتي صيحة السراويل الفضفاضة المتدلية … من السجن، وهي أقل متعة في الحقيقة عندما لا تكون تعبيرًا عن الموضة.

أخذوا سروالي الجينز بعيدًا، وقضيت يومًا آخر في الزنزانة. كانت الحوائط من الإسمنت المليء بالخدوش فوق شبكة من الفولاذ، اتضح ذلك لأن الفولاذ قد تعرض للصدأ

في الهواء المالح، والشبكة لمعت بلونها البرتقالي المائل إلى الأحمر عبر لون الطلاء الأخضر. كانت تلك النافذة تفصل بيني وبين والديَّ، إنهما بالخارج في مكان ما.

جاءوا إليَّ ثانيةً في اليوم التالي.

«قضينا يومًا في قراءة بريدك حتى الآن، وقد غيرنا كلمة المرور حتى لا يتمكن جهاز الكمبيوتر بمنزلك من الحصول عليه.»

حسنًا، بالطبع فعلوا ذلك، لو كنت مكانهم لفعلت ذلك أيضًا. هذا ما أدركته عندما فكرت في الأمر.

«لدينا معلومات عنك، يا ماركوس، تكفي لسجنك مدة طويلة للغاية، حيازتك لهذه الأشياء ...» وأشارت إلى مجموعة أدواتي الصغيرة ... «والبيانات التي استعدناها من هاتفك وأجهزة الذاكرة الخاصة بك، بالإضافة إلى المواد المخربة التي سنعثر عليها بلا شك إذا هاجمنا منزلك، وحصلنا على جهاز الكمبيوتر الخاص بك. كل ذلك يكفي لسجنك حتى يتقدم بك العمر، هل تفهم ذلك؟»

لم أصدق الأمر لوهلة، لا يمكن لأي قاضٍ القول بأن هذه الأشياء تشكِّل أية جريمة حقيقية، إنها حرية تعبير، ومحاولات ابتكار تكنولوجية، وليست جريمة.

لكن من قال إن هؤلاء الأشخاص سيجعلونني أَمثُل أمام أي قاضٍ؟

«نحن نعلم أين تعيش، ونعلم من هم أصدقاؤك. نحن نعلم كيف تعمل، وكيف تفكر.»

أدركت حينذاك ما كان يحدث؛ سيطلقون سراحي. بدت إضاءة الحجرة في تلك اللحظة أكثر سطوعًا. سمعت صوتي وأنا أتنفس أنفاسًا قصيرة.

«نريد أن نعرف شيئًا واحدًا فقط: كيف وصلت المتفجرات إلى الجسر؟»

توقفت أنفاسي، وأظلمت الغرفة من جديد.

«ماذا؟»

أجابت: «كانت هناك عشرة متفجرات تم نشرها بطول الجسر كله، ولم تكن في صناديق السيارات، لقد تم زرعها هناك، من زرعها هناك؟ وكيف وصلت إلى هناك؟»

قلت ثانيةً: «ماذا؟»

قالت وهي تنظر إليَّ في حزن: «هذه فرصتك الأخيرة يا ماركوس، لقد أبليت بلاءً حسنًا حتى الآن. لتخبرنا بهذه المعلومة، ويمكنك حينها العودة إلى منزلك. يمكنك الحصول على محامٍ، والدفاع عن نفسك في المحكمة. هناك بلا شك ظروف مخففة يمكنك استخدامها لتفسير أفعالك. أخبرنا فقط بهذه المعلومة، وسنطلق سراحك.»

«لا أعلم عما تتحدثين!» أخذت أبكي، ولم أهتم حتى بذلك. خالط دموعي النشيج والنحيب. «ليست لدي أدنى فكرة عما تتحدثين!»

هزت رأسها، وقالت: «أرجوك يا ماركوس، دعنا نساعدك، فأنت تعلم الآن أننا نحصل دائمًا على ما نريد.»

كان هناك صوت ثرثرة في عقلي يقول لي إنهم «مخبولون». لملمت شتات نفسي، وحاولت جاهدًا إيقاف دموعي. «اسمعي يا سيدتي، إن هذا لجنون، لقد بحثتم في أغراضي، واطَّلعتم عليها كلها. أنا طالب بالمرحلة الثانوية في السابعة عشرة من عمري، ولست إرهابيًّا! لا يُعقَل أن تكوني جادة في تفكيرك أنني ...»

هزت رأسها وهي تقول لي: «ألم تدرك بعد، يا ماركوس، أننا جادون؟ إنك تحصل على درجات مرتفعة في دراستك، ظننتك أكثر ذكاءً.» نقرت أصابعها، ورفعني الحراس من إبطيَّ.

عدت إلى زنزانتي، ودارت برأسي أحاديث عدة فيما يطلق عليه الفرنسيون «روح السُّلَّم»؛ أي الردود الدفاعية اللاذعة التي ترد على ذهنك بعد تركك للغرفة ونزولك على السلم. تخيلت أنني قد وقفت أمام تلك السيدة، وواجهتها مخبرًا إياها أنني مواطن أحب حريتي، ما يجعل مني وطنيًّا، ومنها خائنة. وتخيلت أنني قد أخجلتها لتحويلها البلاد إلى معسكر مُسلَّح، وأنني كنت فصيحًا وألمعيًّا في حديثي حتى إنني أبكيتها.

لكنني لم أتذكر أيًّا من هذه الكلمات الرائعة عندما جاءوا لجرِّي من زنزانتي في اليوم التالي، كل ما كنت أفكر فيه هو حريتي ... ووالديَّ.

قالت السيدة: «مرحبًا يا ماركوس، كيف حالك؟»

نظرتُ لأسفل إلى الطاولة، كان قد تكوم أمامها عدد من الوثائق، وإلى جوارها كوب ستاربكس البلاستيكي المُلازِم لها. لمست بعض الراحة في رؤية ذلك الكوب بشكل أو بآخر؛ إذ ذكرني بأن عالمًا حقيقيًّا موجودًا في مكان ما بالخارج، خلف تلك الجدران.

قالت: «لقد انتهينا من التحقيق معك في الوقت الحاضر»، ثم صمتت. ربما ما كانت تعنيه أنها ستطلق سراحي، أو لعلها قصدت إلقائي في هاوية لا قرار لها، ونسيان وجودي للأبد.

وأخيرًا نطقتُ قائلًا: «وماذا أيضًا؟»

«وأريد أن أؤكد لك ثانيةً أننا جادون تمامًا فيما نفعله، لقد تعرضت بلادنا لأسوأ هجوم شهدته أراضيها على الإطلاق. كم من حادث كالحادي عشر من سبتمبر تريدنا أن

نشهد قبل أن يكون لديك استعداد للتعاون معنا؟ إن تفاصيل ما نجريه من تحقيقات أمر سري، ولن ندخر جهدًا للقبض على المجرمين المنفذين لهذه الجرائم المشينة. هل تفهم ما أقوله؟»

تمتمت: «نعم.»

«سنعيدك إلى منزلك اليوم، لكنك رجل مشبوه الآن. لقد توصلنا إلى أنك لست فوق الشبهات، والسبب الوحيد لإطلاقنا سراحك هو أننا قد انتهينا من استجوابك في الوقت الحاضر، لكن من الآن فصاعدًا، أنت مِلْكنا، سنراقبك على الدوام، وننتظر صدور أية زلة منك. هل تفهم أن بإمكاننا مراقبتك عن كثب دومًا؟»

تمتمت: «نعم.»

«حسنًا، لن تنبس ببنت شفة عما حدث هنا لأي أحد على الإطلاق، هذه مسألة أمن قومي. أتعلم أن عقوبة الخيانة في وقت الحرب لا تزال الإعدام؟»

تمتمت: «نعم.»

قالت بصوت خفيض معبِّرةً عن رضاها: «فتى مطيع.» ثم استطردت حديثها: «لدينا بعض الأوراق هنا نريدك أن توقع عليها.» ودفعت كومة الأوراق على الطاولة تجاهي. لُصِق على كلٍّ منها ورقة ملاحظات مطبوع عليها «وَقِّع هنا». فكَّ أحد الحراس أصفادي.

أخذت أتصفح الأوراق، دمعت عيناي ودارت رأسي، لم أستطع فهم أيٍّ منها. حاولت فك شفرة المفردات القانونية. لقد كنت أوقع — على ما يبدو — على بيان بأنني قد احتُجِزت واستُجوِبت طوعًا وبإرادتي الحرة.

قلت: «ماذا سيحدث إذا لم أوقع؟»

انتزعت الأوراق مني، ونقرت أصابعها مرة أخرى، فجذبني الحراس بعنف لأقف على قدميَّ.

صحت: «انتظري! أرجوكِ! سأوقع عليها!» سحبني الحراس إلى الباب، وكان كل ما يمكنني رؤيته هو ذلك الباب، وكل ما بوسعي التفكير فيه هو إغلاقه خلفي.

أضعت الفرصة من بين يديَّ، أخذت أبكي وأتوسل ليُسمَح لي بتوقيع الأوراق. اقترابي إلى هذا الحد من الحرية، وانتزاعها مني فجأة جعلني على استعداد لفعل أي شيء. لا يسعني تذكر عدد المرات التي سمعت فيها شخصًا ما يقول: «يا إلهي! الموت أفضل عندي من فعل هذا أو ذاك»، حتى إنني نفسي ردَّدتها أحيانًا، بيد أن هذه المرة الأولى التي أدركت فيها ما تعنيه حقًّا هذه العبارة؛ كان الموت أفضل عندي من العودة إلى الزنزانة.

أخذت أتوسل وهم يقودونني عبر الرواق، وأردد أنني سأوقع على أي شيء.

فنادت السيدة الحراس، وتوقفوا. جلبوني ثانيةً إليها، وأجلسوني. وضع أحدهم القلم في يدي.

ووقعت، بالطبع، على كل الأوراق.

عندما عدت إلى الزنزانة، وجدت سروالي الجينز والتي شيرت، وقد تم غسلهما وطيهما، فاحت منهما رائحة المُنظِّف، ارتديتهما، وغسلت وجهي، ثم جلست على ما أنام عليه وحدقت في الحائط. لقد سلبوني كل شيء؛ أولًا، حريتي، ثم كرامتي. كنت على استعداد للتوقيع على أي شيء؛ وإن كان اعترافًا باغتيال أبراهام لينكون.

حاولت أن أبكي، لكن يبدو أن عينيَّ قد جف بهما الدمع.

حضروا لاصطحابي مرة أخرى. اقترب مني أحد الحراس بكيس شبيه بالكيس الذي وضعوه على رأسي عندما أمسكوا بنا أول مرة منذ أيام أو ربما أسابيع.

نزل الكيس على رأسي، وأُغلِق بإحكام على عنقي. خيم الظلام الحالك حولي، وكان الجو خانقًا. رُفِعت لأقف على قدمي وسرت عبر الأروقة، ثم صعدت على سلالم، وسرت بعد ذلك على حصى ثم مَعبَر خشبي، ومنه إلى سطح سفينة من الفولاذ. كُبِّلت يداي خلف ظهري في قضيب. جثوت على ظهر السفينة، واستمعت لصوت محركات الديزل.

تحركت السفينة، وتسللت رائحة هواء مالح إلى داخل الكيس. أمطرت السماء رذاذًا، وغمر الماء ملابسي. إنني بالخارج، وإن كانت رأسي داخل كيس. أنا بالخارج، في العالم، وتبعدني عن حريتي لحظات.

جاءوا إليَّ، وقادوني بعيدًا عن السفينة وصولًا إلى أرض غير مستوية. صعدت بعد ذلك ثلاث درجات معدنية. فكوا قيود يديَّ ونزعوا الكيس من على رأسي.

عدت إلى الشاحنة، وكانت السيدة ذات الشعر القصير تجلس هناك أمام المكتب الصغير الذي كانت تجلس أمامه من قبل. حملت في يدها كيسًا بسحَّاب بداخله هاتفي، والأجهزة الصغيرة الأخرى، ومحفظتي، وفكة النقود التي كانت بجيوبي. ناولتني الكيس دون أن تتفوه بكلمة.

وضعت أغراضي في جيوبي، وراودني شعور شديد الغرابة عند عودة كل شيء إلى مكانه المألوف، وارتدائي لملابسي المُعتادة. خارج باب الشاحنة الخلفي، سمعت الأصوات المألوفة لمدينتي التي اعتدتها.

ناولتني إحدى الحارسات حقيبة ظهري، مدَّت يدها نحوي، وما كان مني إلا أن نظرت إلى الحقيبة فقط، فأنزلتها، وابتسمت ابتسامة متهكمة، ثم أشارت بيدها إلى فمها بما يعني أن أغلق فمي تمامًا، وأشارت نحوي، ثم فتحت الباب.

كانت الدنيا نهارًا بالخارج، والسماء ملبدة بالغيوم وتمطر رذاذًا، وكنت أنظر إلى شارع ضيق تندفع فيه السيارات والشاحنات والدراجات سريعًا. وقفت عاجزًا عن الحركة على درجة السلم العليا بالشاحنة، محدِّقًا نحو حريتي.

اهتزت ركبتاي، فعلمت حينها أنهم كانوا يخدعونني مرة أخرى، وسرعان ما سيمسك بي الحراس، ويجرونني ثانيةً إلى الداخل، وسيوضع الكيس على رأسي، وأعود على متن السفينة من جديد، وأُرسَل إلى السجن حيث يُلقَى على سمعي عدد لا نهائي من الأسئلة التي لا جواب لها. منعت نفسي بالكاد من إقحام قبضتي داخل فمي.

أرغمت نفسي بعد ذلك على نزول إحدى درجات السُّلم، ثم درجة أخرى، ثم الأخيرة. خطوت بحذائي الرياضي مُحدِثًا صوتًا فوق القاذورات بأرضية الطريق: زجاج مكسور، إبرة، حصى. أخذت أسير خطوة تلو الأخرى حتى وصلت إلى أول الطريق، وحينها صعدت إلى الرصيف.

لم يمسك بي أحد.

لقد نلت حريتي.

حينذاك، طوقتني ذراعان قويتان؛ فكدت أبكي.

الفصل الخامس

أهدي هذا الفصل إلى متجر سيكريت هيدكوارترز في لوس أنجلوس، ذلك المتجر الخلاب للقصص المصورة الهزلية، والأفضل في نظري على الإطلاق في العالم. إن سيكريت هيدكوارترز متجر صغير ينتقي ما يضمه من كتب. كل مرة أدخله فيها، أخرج محملًا بثلاث أو أربع مجموعات لم أسمع عنها من قبل. يبدو الأمر كما لو كان مالكاه — ديف وديفيد — يتمتعان بقدرة خارقة على التنبؤ بما أبحث عنه بالضبط، فيعرضانه من أجلي قبل ثوانٍ من دخولي المتجر. لقد استكشفت نحو ثلاثة أرباع القصص المصورة الهزلية المفضلة لدي بالتجول في أرجاء هذا المتجر؛ حيث أمسك بقصة مثيرة، وأغوص في كرسي مريح، لأنتقل معها إلى عالم آخر. هذا وعند صدور مجموعتي القصصية الثانية، والتي حملت عنوان «تعدي الميقات»، تعاقد المتجر مع رسام محلي يُدعَى مارتن سينريدا لإعداد قصة مصورة هزلية صغيرة قائمة على القصة الأولى في ذلك الكتاب، والتي حملت عنوان «جريمة طباعة». لقد رحلت عن لوس أنجلوس منذ عام تقريبًا، وأكثر ما أفتقده فيها هو متجر سيكريت هيدكوارترز.

* * *

لكنهما كانتا ذراعي فان، كانت تبكي، وتحتضنني بقوة حتى كدت لا أتمكن من التنفس. لم أهتم، واحتضنتها بدوري، ودفنت وجهي في شعرها.

قالت: «أنت بخير؟»

تمالكت نفسي وأجبتها: «نعم، بخير.»

وأخيرًا، تركتني لتطوقني ذراعان أخريان؛ إنه خولو! كان الاثنان هناك. همس خولو في أذني: «أنت سالم يا أخي»، واحتضنني أقوى مما فعلت فانيسا.

وعندما تركني، نظرت حولي وسألتهما: «أين داريل؟»

نظر كلٌّ منهما للآخر، وقال خولو: «لعله لا يزال في الشاحنة.»

استدرنا، ونظرنا إلى الحافلة الموجودة بنهاية الطريق، كانت شاحنة ذات ١٨ عجلة بيضاء اللون يتعذر وصفها، والسلالم القابلة للطي قد أُعيدت إلى داخل الشاحنة بالفعل، توهجت المصابيح الخلفية لها باللون الأحمر، وسارت للخلف في اتجاهنا، مصدرةً صوتًا متواصلًا.

هتفت أثناء إسراعها نحونا «انتظروا! انتظروا! ماذا عن داريل؟» اقتربت الشاحنة، وواصلت أنا الهتاف: «ماذا عن داريل؟»

أمسك خولو وفانيسا بذراعيَّ وسحباني بعيدًا، قاومتهما وأنا أصيح. خرجت الشاحنة من الطريق الضيق، واستدارت لتدخل إلى الشارع، ثم توجهت أسفل التل، وانطلقت في طريقها. حاولت الركض خلفها، لكن فان وخولو منعاني.

جلست على الرصيف، طوقتُ ركبتيَّ بذراعيَّ، وأخذت أبكي بحرقة لم تشهدها عيناي منذ كنت طفلًا صغيرًا، لم أتمكن من التوقف عن البكاء أو الارتجاف.

أعانني خولو وفانيسا على الوقوف، والتحرك بضع خطوات على الطريق. كانت هناك محطة حافلات بها مقعد؛ فأجلساني عليه. كان الاثنان يبكيان أيضًا، عانق كلٌّ منا الآخر لبعض الوقت، وعلمت حينها أننا كنا نبكي داريل الذي لم يتوقع أيٌّ منا أن يراه ثانيةً أبدًا.

كنا شمال الحي الصيني، حيث يبدأ حي نورث بيتش الذي يمتلئ بعدد من نوادي التعري ذات اللافتات المضاءة بمصابيح النيون، ومتجر الكتب الأسطوري المناهض للثقافة السائدة «سيتي لايتس» حيث تأسست حركة شعر «جيل البِيت» في الخمسينيات من القرن العشرين.

كنت أعرف تلك المنطقة جيدًا؛ إذ تضم المطعم الإيطالي المفضل لدى والديَّ، وهو المطعم الذي أحبَّا اصطحابي إليه لتناول أطباق المكرونة الضخمة، والكميات الهائلة من المثلجات الإيطالية والتين المُحلَّى، ثم القهوة الإيطالية المركزة.

صار المكان مختلفًا الآن؛ فهو المكان الذي تذوقت فيه طعم الحرية لأول مرة منذ ما بدا لي أمدًا بعيدًا.

فتشنا جيوبنا، وعثرنا على ما يكفي من المال لحجز مائدة بمطعم إيطالي افترش موائده على الرصيف تحت مظلة. أشعلت النادلة الجميلة سخان الغاز باستخدام قداحة الشواء، وتلقت طلباتنا، ثم ذهبت إلى الداخل. شعوري بإعطاء الأوامر، والتحكم في مصيري، كان أفضل شعور راودني على الإطلاق.

حدثتهما سائلًا: «كم مضى من الوقت على وجودنا هناك؟»

فأجابت فانيسا: «ستة أيام.»

وقال خولو: «أحصيتهم خمسة.»

«وأنا لم أحصِ.»

سألتني فانيسا: «ماذا فعلوا بك؟» لم أرد التحدث في الأمر، لكن الاثنان كانا ينظران نحوي. وما إن بدأت الحديث حتى تعذر عليَّ التوقف. أخبرتهما بكل شيء، بما في ذلك اضطراري للتبول في سروالي. أخذا يستمعان إلى كل ما أقوله في صمت. توقفت لحظات أثناء تقديم النادلة للمشروبات الغازية، وانتظرت حتى ابتعدت عن مرمى السمع، ثم أنهيت حديثي. كانت الذكريات تتلاشى في ذهني أثناء الحديث، وعند انتهائي، لم يكن بإمكاني القول ما إذا كنت أغالي في التعبير عن الحقيقة، أم أقلل من مدى سوئها. كانت ذكرياتي أشبه بالسمكة الصغيرة التي أحاول الإمساك بها، وتتملص من قبضتي أحيانًا.

هزَّ خولو رأسه وقال: «لقد عاملوك بقسوة يا صديقي.» أخبرنا بما حدث له هناك؛ خضع للاستجواب الذي دار أغلبه حولي، والتزم الصدق معهم، وتحدث بصراحة عما حدث في ذلك اليوم، وعن صداقتنا. جعلوه يعيد ما قاله مرارًا وتكرارًا، لكنهم لم يمارسوا معه الحيل الذهنية كما فعلوا معي. وكان يتناول وجباته في قاعة الطعام مع آخرين، وسُمِح له بقضاء بعض الوقت في غرفة بها تليفزيون حيث عُرِضت أشهر أفلام العام الماضي على شرائط فيديو.

اختلفت قصة فانيسا قليلًا؛ فبعد أن أغضبتهم بسبب حديثها معي، أخذوا ملابسها، وجعلوها ترتدي رداء السجن: السروال البرتقالي اللون، وتركوها في الزنزانة لمدة يومين دون أن يتحدث معها أحد، وإن قدموا لها الطعام بانتظام. باستثناء ذلك كانت قصتها مشابهة لقصة خولو: الأسئلة ذاتها التي أُخذت تُعاد عليها مرارًا وتكرارًا.

قال خولو: «كانوا يبغضونك حقًّا، وقسوا عليك للغاية، فلماذا؟»

لم يمكنِّي تصور السبب وراء ذلك، لكنني تذكرت بعد ذلك عبارة:

«يمكنك التعاون معنا، وإلا فستندم أشد الندم.»

«لأنني لم أوافق على فك شفرة هاتفي لهم في تلك الليلة الأولى؛ ولهذا ميَّزوني عن الآخرين في المعاملة.» لم أصدق ذلك، لكن لم يكن هناك تفسير آخر. كان انتقامًا محضًا. أصابتني الفكرة بدوار؛ فكل ما فعلوه كان عقابًا لي لتحدي سلطتهم.

كنت خائفًا، أما الآن فصرت غاضبًا. قلت بهدوء: «هؤلاء الأوغاد! فعلوا ذلك انتقامًا مني لتعبيري عن رأيي بصوت عالٍ.»

سبَّ خولو، واندفعت فانيسا كذلك في ترديد الشتائم بالكورية، الأمر الذي كانت تفعله فقط عند حنقها بشدة.

قلت هامسًا وأنا أشرع في تناول المشروب الغازي: «سأنال منهم ... سأنال منهم.»

هزَّ خولو رأسه، وقال: «لا يمكنك، أنت تعلم. لا يمكنك مجابهة ذلك.»

لم يرغب أيٌّ منا في التحدث طويلًا عن الثأر آنذاك، وأخذنا نتحدث — بدلًا من ذلك — حول ما سنفعله فيما بعد. كان علينا الذهاب إلى منازلنا. انقطع الشحن عن هواتفنا، وخلا ذلك الحي من هواتف العملة العمومية منذ سنوات. كنا بحاجة للذهاب إلى منازلنا فقط. فكرت حتى في استقلال سيارة أجرة، لكن لم يكن بحوزتنا ما يكفي من المال لفعل ذلك.

ومن ثم سرنا. وعند الزاوية، وضعنا بعض العملات المعدنية في صندوق صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل» وتوقفنا لقراءة الصفحة الأولى. مرت خمسة أيام على التفجيرات، لكن الحدث لا يزال يحتل الصفحة الأولى.

تحدثت السيدة ذات الشعر القصير عن تفجير «الجسر»، وافترضتُ حينها أنها كانت تتحدث عن جسر «جولدن جيت»، لكنني كنت مخطئًا؛ فما فجره الإرهابيون هو جسر «باي».

تساءلت: «لماذا بحق الجحيم يفجرون جسر باي؟ جسر جولدن جيت هو المطبوع على كل البطاقات البريدية.» وحتى من لم تسبق له زيارة سان فرانسيسكو، يعرف على الأرجح شكل جسر جولدن جيت؛ فهو ذلك الجسر المُعلَّق الكبير البرتقالي اللون الذي يمتد من قاعدة عسكرية قديمة تُسمَى «برسيديو» إلى «سوساليتو»؛ حيث تقع بجانب مدن «واين كانتري» الباهرة بما تحويه من معارض فنية ومتاجر الشموع المُعطَّرة. والجسر أشبه بصورة فنية، وهو يكاد يكون رمزًا لولاية كاليفورنيا. إذا ذهبت لمتنزه «ديزني لاند كاليفورنيا آدفنتشر»، فستجد نسخة مُصغَّرة منه على البوابات، مع خط حديد أحادي فوقه.

لذا، كان من الطبيعي أن أفترض أنه إذا كان هناك جسر ليتفجر في سان فرانسيسكو، فسيكون ذلك الجسر.

قال خولو: «ربما أخافتهم الكاميرات وخلافها؛ فيفحص الحرس القومي السيارات دائمًا بطرفي الجسر، وهناك كذلك حواجز الانتحار وغيرها بطول الجسر.» اعتاد الناس الانتحار من على جسر «جولدن جيت» منذ افتتاحه عام ١٩٣٧، وتوقف إحصاء عدد المنتحرين بعد حالة الانتحار الألف في عام ١٩٩٥.

قالت فانيسا: «نعم، هذا فضلًا عن أن جسر باي يؤدي إلى مكان ما بالفعل.» فيمتد جسر باي من وسط سان فرانسيسكو إلى أوكلاند، ومن ثم إلى بيركلي، وهي المناطق الموجودة شرق الخليج ويقطنها الكثير ممن يعيشون ويعملون في المدينة. إنها من المناطق الوحيدة في منطقة الخليج التي يمكن لأي شخص عادي تحمل تكلفة منزل كبير بما فيه الكفاية بها، وهناك كذلك الجامعة، ومجموعة من الصناعات الخفيفة. تشق شبكة بارت طريقها تحت منطقة الخليج، وتصل بين المدينتين أيضًا، لكن الجسر هو ما يشهد أغلب حركة المرور. جولدن جيت جسر رائع إذا كنت سائحًا أو متقاعدًا ثريًّا تعيش في منطقة واين كانتري، لكنه مزخرف إلى حد كبير، في حين أن جسر باي هو — أو كان — عماد سان فرانسيسكو.

فكرت لدقيقة في الأمر، ثم قلت: «أنتما على حق، لكنني لا أظن أن الأمر يقتصر على ذلك فحسب. نحن نفكر دائمًا في أن الإرهابيين يهاجمون المعالم المهمة لأنهم يكرهونها، الإرهابيون لا يكرهون المعالم المهمة أو الجسور أو الطائرات. إن ما يريدونه فقط هو الإفساد، وإخافة الناس؛ أي نشر الذعر، ومن ثم، كان من المنطقي أن يستهدفوا جسر باي بعد أن ملأت الكاميرات جسر جولدن جيت، وصارت الطائرات مجهزة بمعدات الكشف عن المعادن والأشعة السينية.» استغرقت في التفكير أكثر محدقًا بِانْشِدَاهٍ في السيارات المتسارعة على الطريق، وفي الناس الذين يسيرون على الأرصفة، في المدينة بأكملها من حولي. «الإرهابيون لا يكرهون الطائرات أو الجسور، وإنما يحبون الإرهاب.» كيف لم أفكر في ذلك من قبل مطلقًا؟! أعتقد أن التعامل معي كإرهابي لبضعة أيام كان كافيًا لتوضيح أفكاري.

حدق فيَّ خولو وفانيسا. «أنا محق، أليس كذلك؟ كل هذا الهراء المتعلق بالأشعة السينية والتحقق من بطاقات الهوية، كل ذلك لا قيمة له، أليس كذلك؟»

فأومآ برأسهما ببطء.

استطردت حديثي، وقد صار صوتي عاليًا أجشَّ: «بل أسوأ مما لا قيمة له، فقد أدت إلى دخلونا السجن، مع داريل ...» لم أفكر في داريل منذ جلوسنا، عاد الآن إلى ذهني صديقي المفقود الذي لا أثر له. توقفت عن الحديث، وصررت فكيَّ.

قال خولو: «ينبغي لنا إخبار والدينا.»

وردت فانيسا: «يجب أن نقابل محاميًا.»

فكرت في سرد قصتي، وإخبار العالم بما حدث معي، وفي مقاطع الفيديو التي ستظهر لا محالة وأظهر فيها وأنا أبكي كحيوان متذلِّل.

نطقت دون تفكير: «لا يمكننا إخبارهم بأي شيء.»

ردت فانيسا: «ماذا تقصد؟»

فكررت ما قلته: «لا يمكننا إخبارهم بأي شيء. لقد سمعتِ ما قالته تلك السيدة؛ إذا أفصحنا عما حدث، فسيقبضون علينا مجددًا، ويفعلون بنا ما فعلوه مع داريل.»

قال خولو: «أنت تمزح بالتأكيد! أتريدنا أن ...»

قلت له: «أريد مجابهتهم، أريد أن أبقى حرًّا حتى أتمكن من فعل ذلك. إذا أفشينا السر، فسيُقال عنا صبية صغار حديثنا من نسج الخيال. هذا فضلًا عن أننا لا نعلم أين احتُجِزنا! لن يصدقنا أحد، وفي أحد الأيام، سيأتون للقبض علينا.»

«سأخبر والديَّ أنني كنت في أحد المخيمات الموجودة بالجانب الآخر من الخليج، وذهبت للقائكم هناك حيث حوصرنا ولم نتمكن من مغادرة المكان هناك سوى اليوم. تشير الصحف إلى أن الناس ما زالوا يعودون إلى منازلهم من تلك المخيمات حتى الآن.»

قالت فانيسا: «لا يمكنني فعل ذلك. بعد كل ما فعلوه بك، كيف يمكن حتى أن تفكر في ذلك؟»

«لقد حدث ذلك لي، وهنا تكمن الفكرة. الأمر بيني وبينهم الآن، سوف أتغلب عليهم، وسأنقذ داريل، لن أقبل بالهزيمة. أما إذا تدخل أهلنا، فسينتهي الأمر. لن يصدقنا أحد أو يهتم، لكن إذا نفذنا ما أقوله، فسوف يهتم الناس.»

سأل خولو: «ماذا ستفعل؟ وما خطتك؟»

فأجبت: «لا أعلم بعد، أعطني فرصة حتى صباح الغد، على الأقل.» كنت أعلم أنهما إذا أبقيا الأمر سرًّا ليوم واحد، فسيظل كذلك للأبد. ستزداد شكوك أهلنا إن «تذكرنا» فجأة أننا كنا محتجزين في سجن سري، ولم نكن في أحد المخيمات.

نظر خولو وفانيسا كلٌّ منهما للآخر.

قلت: «كل ما أطلبه هو فرصة، وسنتوصل في تلك الأثناء إلى القصة التي سنرويها ونحبكها. امنحاني يومًا واحدًا، يومًا واحدًا فقط.»

أومأ خولو وفانيسا برأسيهما في تجهُّم، وانطلقنا معًا أسفل التل ثانيةً قاصدين منازلنا. كنت أعيش في حي بتريرو هيل، وفانيسا في نورث ميشن، وخولو في نو فالي ... ثلاثة أحياء مختلفة تمام الاختلاف، ولا يبعد كلٌّ منها عن الآخر سوى بضع دقائق سيرًا على الأقدام.

انتقلنا إلى شارع ماركت، وتوقفنا كالذي أصابته صاعقة. طوقت المتاريس الشارع من كل زاوية، وتحولت مفارق الطرق إلى ممر واحد، وملأت الشارع بالكامل شاحنات ذات ١٨ عجلة ليس لها معالم واضحة مثل الشاحنة التي حملتنا والكيس على رءوسنا بعيدًا عن أرصفة السفن وصولًا إلى الحي الصيني.

احتوت كل شاحنة على ثلاث درجات معدنية في الجزء الخلفي منها، وضجت بالنشاط بدخول الجنود ورجال الشرطة ومرتدي البِذَل إليها، وخروجهم منها. حملت البِذَل شارات صغيرة على طياتها والتي كان يتم فحصها من قبل الجنود أثناء دخول حامليها وخروجهم ... شارات ترخيص لاسلكية. عند عبورنا بإحدى تلك الشاحنات، ألقيت نظرة عليها، فرأيت الشعار المُعتاد لوزارة الأمن الوطني. لمحني أحد الجنود أثناء تحديقي في الشاحنة، فرمقني بنظرة مُحدِّقة غاضبة.

أدركت معنى تلك النظرة، فواصلت المسير. انفصلت عن فان وخولو عند فان نيس. تعلق كلٌّ منا بالآخر وبكينا، وتعاهدنا على الاتصال ببعضنا البعض.

كان هناك طريقان للوصول إلى بتريرو هيل؛ أحدهما يَسِر والآخر عَسِر، يمر الطريق العَسِر ببعض من أشد التلال انحدارًا في المدينة، تلك التلال التي تقع عليها مطاردات السيارات في أفلام الحركة والإثارة، والتي تعلق فيها السيارات في الهواء عند تحليقها فوق القمم. كنت دومًا أسلك الطريق العَسِر إلى المنزل، شوارعه جميعها سكنية تضم منازل قديمة من الطراز الفيكتوري يُطلَق عليها اسم «السيدات المتبرجات»؛ لما تتسم به من طلاء صارخ مُتقَن، وحدائق أمامية زاخرة بالحشائش الطويلة والأزهار العَطِرة. تحدق القطط الأليفة فيك أثناء سيرك من خلف سياجات هذه المنازل، وتكاد تخلو الشوارع من أي مُشرَّدين.

خيم الهدوء التام على تلك الشوارع؛ ما جعلني أتمنى لو كنت قد سلكت الطريق الآخر عبر حي ميشن، والذي لعل أفضل ما يوصف به أنه «صاخب»؛ فهو نابض بالحياة

والضجيج، ويعج بالسكارى المشاكسين، ومدمني الكوكايين الحانقين، ومدمني المخدرات فاقدي الوعي، وكذلك العديد من الأسر التي تدفع أمامها عربات أطفال، وسيدات عجائز منهمكات في القيل والقال على أعتاب المنازل، وسيارات منخفضة تسير جنبًا إلى جنب مع سيارات بمكبرات صوت كبيرة. ضمت الشوارع أيضًا شبابًا بوهيميين (هيبيز)، وطلاب موسيقى الإيمو، بل وبعض عازفي موسيقى «البانك روك» القديمة أيضًا، ورجالًا بكروش تبرز من تحت قمصان فرقة «ديد كينيديز» التي يرتدونها. هذا فضلًا عن رجال يرتدون ملابس النساء، وشباب عصابات غاضبين، وفناني جرافيتي، ومطوري المباني القديمة المرتبكين الذين يحاولون تفادي التعرض للقتل أثناء تنفيذ استثماراتهم العقارية.

وصلت إلى حي جوت هيل، ومررت بجانب مطعم «جوت هيل بيتزا» الذي ذكَّرني بالسجن الذي احتُجِزت فيه. اضطررت للجلوس على المقعد الموجود أمام المطعم حتى توقف جسدي عن الارتعاش، أبصرت حينها الشاحنة أعلى التل، شاحنة ذات ١٨ عجلة تنزل من الجانب الخلفي لها ثلاث درجات معدنية. وقفت، وواصلت المسير. شعرت بعيون تراقبني من كل اتجاه.

أسرعت الخطى فيما تبقى من الطريق وصولًا إلى المنزل. لم أنظر إلى المنازل ذات الطلاء الصارخ، أو الحدائق، أو القطط الأليفة؛ فلم أرفع عيني من على الأرض.

وقفت سيارتا والديَّ في الممر أمام المنزل، رغم أننا كنا في منتصف النهار، بيد أنه كان أمرًا منطقيًّا؛ إذ يعمل أبي في منطقة شرق الخليج، وبالتالي لزم المنزل إلى حين الانتهاء من العمل بالجسر. أما أمي ... حسنًا، لم أدرِ لماذا كانت والدتي في المنزل.

لقد كانا في المنزل من أجلي.

قبل أن أنتهي من فتح الباب، سُحِب بقوة من بين يديَّ، وفُتِح على مصراعيه. وقف والداي يحدقان فيَّ، وقد بدا عليهما الشحوب والإنهاك، وانتفخت عيونهما. تسمَّر ثلاثتنا في أماكننا للحظة، ثم اندفعا نحوي، وسحباني إلى داخل المنزل بقوة حتى كدت أقع من بين أيديهما. أخذا يتحدثان سريعًا وبصوت عالٍ، وكل ما كان بإمكاني سماعه هو ثرثرة هادرة لا تتضح فيها الكلمات. احتضناني وبكيا، وبكيت أنا أيضًا. وقفنا على هذه الحال في الردهة الصغيرة ونحن نبكي وننطق بكلمات مبهمة إلى أن أُنهِكت قوانا، وقصدنا المطبخ.

تصرفت كعادتي دومًا عند عودتي إلى المنزل؛ أحضرت لنفسي كوبًا من الماء من الفلتر الموجود في الثلاجة، وأخرجت قطعتين من البسكويت من «علبة البسكويت» التي أرسلتها لنا خالتي من إنجلترا. كان لهذه التصرفات الاعتيادية أثرها على قلبي الذي هدأت دقاته، واستعاد تواصله مع عقلي، وسرعان ما كان ثلاثتنا جالسين على المائدة.

سألاني في اللحظة ذاتها تقريبًا: «أين كُنت؟»

كنت قد فكرت في ذلك في طريق عودتي للمنزل؛ فأجبتهما: «لقد حُوصِرت في أوكلاند. كنت هناك برفقة بعض أصدقائي، نعمل على أحد المشروعات، وأُقيم علينا الحجر الصحي.»

«لمدة خمسة أيام؟»

فأجبت: «نعم، كان أمرًا سيئًا حقًّا.» قرأت عن الحجر الصحي في الصحيفة، واقتبست مما نشرته بلا خجل. واصلت حديثي: «نعم، كل من قُبِض عليه إثر التفجيرات وُضِع في الحجر الصحي؛ فقد اعتُقِد أننا تعرضنا لهجوم بأحد أنواع البكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية؛ فكدسونا داخل حاويات شحن في مناطق إرساء السفن كسمك السردين؛ حرارة ورطوبة شديدتان داخل الحاويات، وقليل من الطعام أيضًا.»

قال أبي: «يا إلهي!» وضرب بكفَّيه على المائدة. يُدرِّس والدي في بيركلي ثلاثة أيام في الأسبوع؛ حيث يعمل مع عدد من الخريجين في برنامج علم المكتبات. أما باقي الوقت، فيقدم استشارات للعملاء في المدينة وفي شبه الجزيرة، من شركات إنترنت الجيل الجديد التي يرتبط عملها كثيرًا بالسجلات. اتسم بالحِلم لطبيعة عمله في أمانة المكتبات، لكنه كان متطرفًا أصيلًا في الستينيات، ومارس المصارعة قليلًا في المدرسة الثانوية. سبق أن رأيته في شدة حنقه من حين لآخر — بل تسببت في مثل هذا الحنق في بعض الأحيان — وعند وصول غضبه إلى أقصى مدى له يمكن أن يفقده صوابه على نحو خطير. في إحدى المرات، قذف بأرجوحة من صنع شركة إيكيا عبر حديقة جدي بسبب تفكُّكها مرات عدة أثناء محاولة تجميعه إياها.

أما أمي، فقالت: «همجيون!» عاشت والدتي في أمريكا منذ مرحلة المراهقة، غير أن أصولها البريطانية تظهر دومًا عند مقابلتها ضباط الشرطة، أو العاملين في الرعاية الصحية، أو أمن المطارات، أو المشرَّدين من الأمريكان. وفي تلك اللحظات، تظهر كلمة «همجيون» وتعود لكنتها البريطانية بقوة. ذهبنا إلى لندن مرتين لزيارة عائلتها، ولا يمكنني القول إن كانت أكثر تحضرًا من سان فرانسيسكو أم لا، لكنها أكثر ازدحامًا.

«لكنهم أفرجوا عنا، ونقلونا بالمراكب إلى هنا اليوم.» وهنا بدأت في الارتجال.

سألتني أمي: «هل أنت موجوع؟ جوعان؟»

«نعسان؟»

«نعم، أنا كل ما قلتماه ... وكذلك «البليد»، و«الرزين»، و«كثير العُطاس» و«الخجول».» اعتدنا تبادل النكات في الأسرة حول قصة الأقزام السبعة. ارتسمت ابتسامة

بسيطة على وجهيهما، لكن عيونهما لا تزال تبللها الدموع. أشفقت عليهما حقًّا، لقد جُنَّا بالتأكيد من القلق، وأسعدتني فرصة تغيير الموضوع. «أود أن أتناول الطعام، بلا شك.»

قال أبي: «سأطلب بيتزا من مطعم جوت هيل.»

فقلت له: «لا، ليس ذاك.» نظرا إليَّ باندهاش شديد، فلطالما عشقت بيتزا جوت هيل؛ فأنا كنت ألتهمها بنهم، أزدردها إلى أن تنتهي أو أشعر بالامتلاء. حاولت أن أبتسم، وقلت في ضعف: «لا أشعر بالرغبة في تناول البيتزا، لنطلب بعض الطعام بالكاري، ما رأيكما؟» حمدًا لله أن سان فرانسيسكو مركز الوجبات السريعة.

ذهبت أمي إلى درج قوائم مطاعم الوجبات السريعة (مزيد من التصرفات الاعتيادية التي كان لها أثر كوب الماء عند نزوله في حلق جافٍّ متوجع)، وأخذت تقلب فيها. قضينا بضع دقائق في حيرة من أمرنا بقائمة أحد مطاعم الوجبات الباكستانية الحلال في شارع فالينسيا، واستقر خياري على مشويات تندوري متنوعة، وسبانخ بالقشدة ممزوجة بالجبن، ومشروب لاسي المانجو المملح (مذاقه أفضل بكثير مما قد يبدو) وبعض المعجنات الصغيرة المقليَّة المحلَّاة في شراب السكر.

ما إن طلبنا الطعام حتى بدأت الأسئلة مجددًا، اتصل والداي بأسر فان وخولو وداريل (بالطبع)، وحاولوا الإبلاغ عن فقداننا. كانت الشرطة تسجل الأسماء، غير أن «الغائبين» كانوا كثُرًا؛ وما كانت الشرطة لتفتح ملفًا لأحد إلا إذا مر على غيابه سبعة أيام.

في تلك الأثناء، ظهرت الملايين من مواقع «البحث عن المفقودين» على الإنترنت، بعضها مواقع قديمة شبيهة بموقع ماي سبيس كانت قد أفلست، ورأت فرصة جديدة في كل الاهتمام المنصب على المفقودين. ففي النهاية، فقدت بعض الأسر من أصحاب رءوس الأموال المغامرة بعض أفرادها في منطقة الخليج، ولعلهم إذا عادوا، فستجذب تلك المواقع بعض الاستثمارات الجديدة. انتزعت كمبيوتر أبي المحمول من بين يديه، وأخذت أتصفح هذه المواقع. وجدتها امتلأت بالإعلانات، بالطبع، وصور المفقودين التي كان أغلبها من حفلات التخرج أو الزفاف أو ما شابه. كان أمرًا بشعًا.

عثرت على صورتي ورأيتها مرتبطة بصور فان وخولو وداريل. كان هناك نموذج صغير لتحديد من عُثِر عليهم، وآخر لتدوين الملاحظات حول الأفراد الآخرين المفقودين. ملأت حقول البيانات لي ولخولو وفان، وتركت الجزء الخاص بداريل فارغًا.

قال أبي: «لقد نسيت داريل.» لم يكن أبي يحب داريل كثيرًا؛ ففي إحدى المرات اكتشف أن شخصًا ما شرب من إحدى الزجاجات الموجودة في خزانة الخمر خاصته،

فأدنتُ داريل؛ ما أشعرني بخزي دائم. الحقيقة هي أننا — بالطبع — كنا نلهو معًا، ونجرب خليط الفودكا بالمياه الغازية أثناء إحدى جلسات اللعب التي استمرت طوال الليل.

أجبت أبي، والكذب طعمه مرير في فمي: «لم يكن معنا.»

قالت أمي: «يا إلهي!» واعتصرت يديها معًا. «لقد افترضنا عند عودتك للمنزل أنكم كنتم جميعًا معًا.»

أجبتها بمزيد من الأكاذيب: «لا، كان من المفترض أن نقابله، لكننا لم نره مطلقًا. لقد حوصِر على الأرجح في بيركلي. كان سيستقل أحد قطارات بارت إلينا.»

أنَّت أمي، وهزَّ أبي رأسه وأغلق عينيه، ثم قال: «ألا تعلم ما حدث في بارت؟»

هززت رأسي، توقعت ما سيفضي إليه هذا الحديث، وشعرت بأن المكان يضيق بي.

قال أبي: «لقد تفجرت، فجَّرها الأوغاد في الوقت نفسه الذي فجروا فيه الجسر.»

لم يرد ذلك في الصفحة الأولى من صحيفة «كرونيكل»، لكن انفجار محطة قطارات تحت الماء ليس بصورة ملفتة للأنظار كصور جسر يتدلى متكسرًا على الخليج. نفق قطارات بارت من محطة إيمباركديرو في سان فرانسيسكو وصولًا إلى محطة ويست أوكلاند غمرته المياه بالكامل.

عدت إلى كمبيوتر أبي، وتصفحت العناوين الرئيسية. أُحصي القتلى بالآلاف، وإن لم يكن ذلك مؤكدًا، ولا تزال الأعداد في تزايد ما بين السيارات التي سقطت إلى عمق ١٩١ قدمًا في البحر، ومن غرقوا في القطارات. ادَّعى أحد الصحفيين أنه قد التقى ب «مزور هويات» ساعد «العشرات» من الناس في الهروب من حياتهم القديمة من خلال الاختفاء بعد الهجمات، والحصول على بطاقات هوية مزورة ليخلصوا بذلك من زيجات سيئة، وديون متراكمة، وحياة بائسة.

بللت الدموع عينَيْ أبي، في حين أخذت أمي تبكي. احتضنني كلاهما مرة أخرى، وأخذا يربِّتان عليَّ بأيديهما كما لو كانا يُطمئنان نفسيهما أنني معهما حقًّا. أخذا يرددان على سمعي أنهما يحبانني، فأخبرتهما أنني أبادلهما الحب.

تناولنا عشاءً صحبته الدموع، وشرب كلٌّ من أبي وأمي بعض كئوس من الخمر، وهو ما يعد كثيرًا مقارنةً بعادتهما. أخبرتهما أنني أشعر بالنعاس — ما كان حقيقة بالفعل — وانسحبت إلى غرفتي بالدور العلوي، لكنني لم أكن ذاهبًا للنوم؛ فقد كنت

بحاجة لتصفح الإنترنت، والتحقق مما كان يحدث. كان عليَّ التحدث إلى خولو وفانيسا، والبدء في البحث عن داريل.

صعدت إلى غرفتي وفتحت الباب، لم أكن قد رأيت سريري منذ ما بدا لي دهرًا. استلقيت عليه، مددت يدي إلى المنضدة المجاورة للسرير، وجذبت الكمبيوتر المحمول الخاص بي. لا بد أنني لم أوصله جيدًا بالكهرباء — الشاحن الكهربائي بحاجة لهزه بعض الشيء — ومن ثم فرغ من الشحن أثناء غيابي. أعدت وضعه في المقبس، وانتظرت دقيقة أو اثنتين ليشحن قبل أن أحاول تشغيله من جديد، واستغللت ذلك الوقت في خلع ملابسي، والإلقاء بها في القمامة؛ لا أرغب في رؤيتها ثانيةً أبدًا. ارتديت تي شيرت، وسروالًا قصيرًا نظيفين. كان للملابس المغسولة الخارجة لتوها من الأدراج ملمس مألوف ومريح، مثل حضن والديَّ.

شغلت الكمبيوتر المحمول، ودسست عددًا من الوسائد خلفي أعلى السرير. اعتدلت في جلستي للخلف، فتحت غطاء الكمبيوتر، ووضعته على فخذيَّ. كان لا يزال في مرحلة بدء التشغيل، بدت الرموز التي تظهر على الشاشة جميلة حقًّا، ظهرت جميعها، ثم بدأ الجهاز في إعطائي تحذيرات بانخفاض الطاقة. تحققت من كابل الطاقة مرة أخرى، وهززته؛ فاختفت التحذيرات. كان المقبس الكهربائي غريب الأطوار حقًّا.

في الواقع، كان الأمر سيئًا لدرجة حالت دون فعلي أي شيء، وفي كل مرة أترك فيها كابل الطاقة من يدي، ينقطع اتصاله بالكمبيوتر الذي يبدأ بدوره في الشكوى من انخفاض طاقة البطارية. فحصته عن كثب.

كان صندوق الكمبيوتر بأكمله قد أُزيح بعض الشيء عن مكانه الأصلي، وعند الشق الذي يفصل جزئيه، كان هناك تجويف بزاوية يبدأ ضيقًا ثم يتسع في اتجاه الخلف.

في بعض الأحيان، ينظر المرء إلى جهاز ما، ويكتشف شيئًا كهذا، فيتساءل: «هل كان ذلك حاله دومًا؟» ربما لم يلاحظه فقط من قبل.

لكنه ليس من الممكن أن يحدث ذلك مع جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي، لقد صممته بنفسي؛ فبعد أن وزع مجلس التعليم علينا جميعًا أجهزة الكمبيوتر المحمولة المدرسية، ما كان والداي ليشتريا لي جهاز كمبيوتر، وإن كان الكمبيوتر المحمول المدرسي لا يخصني فعليًّا، وما كان مسموحًا لي بتثبيت برامج أو إجراء أي تعديل عليه.

كنت قد ادَّخرت بعض المال من وظائف غريبة عملت بها، وأعياد كريسماس، وأعياد ميلاد، وبعض المعاملات التجارية الحكيمة على موقع إي باي. وعند جمعها، صار معي ما يكفي لشراء جهاز حالته مزرية ومضى على استعماله خمسة أعوام.

ومن ثم، صمَّمت مع داريل جهازًا آخر. يمكنك شراء صناديق للكمبيوتر المحمول، مثل صناديق الكمبيوتر الشخصي المكتبي، وإن كانت أكثر تخصصًا من أجهزة الكمبيوتر القديمة العادية. لقد صممت بعض أجهزة الكمبيوتر الشخصية بالتعاون مع داريل على مر الأعوام، بالبحث عن قطعه على موقع كريجزليست وعروض بيع الأغراض المستعملة في المنازل، وشراء بعض الأغراض رخيصة الثمن جدًّا من البائعين التايوانيين الذين عثرنا عليهم على الإنترنت. وقد توصلت إلى أن تصميم كمبيوتر محمول هو أفضل سبيل للحصول على الإمكانيات التي أردتها بالسعر الذي يمكنني تحمُّله.

لتصميم كمبيوتر محمول خاص بك، عليك أولًا شراء «كمبيوتر محمول غير كامل الأجزاء»؛ وهو جهاز لا يحتوي إلا على عدد قليل فقط من الأجزاء، وجميع الفتحات الصحيحة. الجيد في الأمر أنه ما إن انتهيت من تصميمي حتى صار لديَّ جهاز أخف بنحو نصف كيلو جرام من جهاز «ديل» الذي كنت أرغب في شرائه، وأسرع، وتبلغ تكلفته ثلث ما كنت سأدفعه في جهاز «ديل». أما الجانب السيئ، فهو أن تجميع كمبيوتر محمول أشبه بتصميم تلك السفن التي توضع داخل زجاجات؛ فهو عمل دقيق تستخدم فيه الملاقط الصغيرة والنظارات المُكَبِّرة في محاولة لجعل كل قطعة تتلاءم في مكانها داخل ذلك الصندوق الصغير. وعلى عكس الكمبيوتر الشخصي الكامل — الفارغ أغلبه — كل ملِّيمتر مكعب من الكمبيوتر المحمول تشغله قطعة ما. وفي كل مرة أظن أن ثمة مشكلة ما في الجهاز، أفك أجزاءه وأعيدها لأكتشف أن شيئًا ما كان يحول دون إغلاقه بإحكام، فأبدأ في إصلاحه من جديد.

ومن ثم، علمت «بالضبط» ما من المفترض أن يبدو عليه الشق في الكمبيوتر المحمول الخاص بي عندما يكون مغلقًا، وليس هذا هو الشكل الذي من المفترض أن يكون عليه.

أخذت أهز في الشاحن الكهربائي، لكن دون جدوى. ما كانت أمامي فرصة لتشغيل الجهاز دون فكِّ أجزائه. تأففت، ووضعته بجانب السرير. سأفحصه صباحًا.

هذا ما فكرت فيه على أية حال، لكن ما حدث هو أنه بعد مرور ساعتين، كنت لا أزال أحدق في السقف، وأتذكر كل ما فعلوه بي، وما كان ينبغي لي فعله وكل ما أثار ندمي وما كان يجدر بي قوله.

نهضت من السرير. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، سمعت والديَّ يخلدان للنوم في الحادية عشرة. أمسكت بالكمبيوتر المحمول، أفرغت مساحة على مكتبي، ثبَّتُّ مصابيح

الصمامات الثنائية الباعثة للضوء صغيرة الحجم بذراعي النظارة المُكبِّرة، وأخرجت مجموعة من المفكات بالغة الدقة. بعد دقيقة، كنت قد فتحت صندوق الجهاز، وأخرجت لوحة المفاتيح، وأخذت أحدق في مكوناته الداخلية. استخدمت عبوة من الهواء المضغوط في تنظيف المروحة من التراب الذي التقطته، وفحصت الجهاز.

ثمة شيء غير صحيح، لم أستطع تحديده، لكنني تذكرت أنني لم أفتح ذلك الصندوق منذ شهور. ولحسن الحظ، في المرة الثالثة التي فتحته فيها وجاهدت لإغلاقه ثانيةً، كنت أكثر فطنة؛ فالتقطت صورة لمكوناته الداخلية وكل جزء منها في مكانه الصحيح. لكنني لم أكن بالقدر الكافي من الفطنة؛ فأولًا، تركت الصورة على محرك الأقراص الصلبة، ولم يكن بوسعي بالتالي الوصول إليها عندما تكون أجزاء الكمبيوتر المحمول مفكَّكة. لكنني طبعتها بعد ذلك، ووضعتها في درج الأوراق المبعثرة حيث ألقي بجميع بطاقات الضمان، والرسوم البيانية لتوصيل مسامير الدوائر الكاملة. أخذت أقلِّب فيها — بدت أكثر فوضوية مما أتذكر — وأخرجت الصورة. وضعتها بجانب الكمبيوتر، وأخذت أدقِّق النظر في كل الأجزاء محاولًا الوصول إلى ما يبدو في غير مكانه.

حددت المشكلة أخيرًا. لم يكن الكابل الشريطيُّ الذي يصل لوحة المفاتيح باللوحة الأم موصلًا على نحو سليم. كان ذلك غريبًا؛ إذ لم يكن هناك عزم دوران في ذلك المكان، وما كان شيء ليزيح ذلك الكابل عن مكانه أثناء العمل المعتاد للجهاز. حاولت الضغط عليه ليعود إلى مكانه ثانيةً، فاكتشفت أن القابس لم يكن مُثبَّتًا على نحو سيئ فحسب، وإنما كان هناك شيء بينه وبين اللوحة أيضًا. أخرجت ذلك الشيء بالملقط، وسلَّطت عليه الضوء.

كان هناك شيء غريب في لوحة المفاتيح؛ قطعة سميكة صغيرة الحجم يبلغ سمكها ١ / ١٦ فقط من البوصة، وليس عليها أية علامات. كانت موصلة بلوحة المفاتيح؛ بعبارة أخرى، وُضِعت في مكان متميز لتسجيل كل ضغطة مفتاح أثناء كتابتي على الكمبيوتر.

كانت أداة تجسس!

علت ضربات قلبي في أذنيَّ. خيم الظلام والهدوء على المنزل، لكنه لم يكن ظلامًا مريحًا. ثمة عيون بالخارج، عيون وآذان تراقبني. الرقابة التي واجهتها في المدرسة لحقت بي في المنزل، لكن هذه المرة لم يكن مجلس التعليم وحده من يتتبع خطواتي، وإنما انضمت إليه وزارة الأمن الوطني أيضًا.

كدت أُخرِج أداة التجسس، لكنني فكرت أن أيًّا كان من وضعها في ذلك المكان سيعلم بإزالتها، فتركتها حيث وُضِعت، ما أشعرني بالغثيان.

بحثت عن أي آثار عبث أخرى بالجهاز؛ لم أتوصل إلى شيء، لكن هل يعني ذلك عدم وجودها؟ تسلل أحدهم إلى غرفتي، وزرع ذلك الجهاز؛ لقد فكَّ أجزاء الكمبيوتر المحمول الخاص بي وأعاد تجميعها. هناك الكثير من وسائل التنصت يمكن تركيبها بأجهزة الكمبيوتر، وما كان بإمكاني التوصل إليها كلها قط.

أعدت تجميع أجزاء الجهاز بأصابع خَدِرة. لم يُغلَق الصندوق جيدًا تلك المرة، لكن ظل كابل الطاقة بالداخل. شغلت الجهاز، ووضعت أصابعي على لوحة المفاتيح مُعتقِدًا أنني سأجري بعض عمليات الفحص وأرى ما كان يحدث.

لكنني لم أستطع.

اللعنة! لعل الغرفة مزودة بوسائل تنصت. لعل هناك كاميرا تتجسس عليَّ في تلك اللحظة.

لازمني جنون الارتياب منذ عودتي إلى المنزل، لكن في تلك اللحظة، صرت مذعورًا جدًّا. شعرت أنني عدت للسجن، وإلى غرفة الاستجواب، تلاحقني كيانات أخضعتني لسلطتها بالكامل. جعلني ذلك أشعر برغبة في البكاء.

ثمة حل واحد فقط.

ذهبت إلى دورة المياه، ونزعت لفَّة ورق المرحاض، ووضعت بدلًا منها لفَّة أخرى جديدة. لحسن الحظ، كانت القديمة قد قاربت على الانتهاء. تخلصت مما تبقى فيها من ورق، وبحثت في صندوق قطع الغيار الخاص بي إلى أن عثرت على مظروف بلاستيكي صغير مليء بصمامات ثنائية باعثة للضوء ذات لون أبيض شديد السطوع، كنت قد نزعتها من مصباح دراجة قديمة. أدخلت موصلات هذه الصمامات في الأنبوب الكرتونيِّ بعناية، مستخدمًا دبوسًا لصنع الثقوب، ثم جلبت سلكًا، وأوصلتها كلها في سلسلة باستخدام مشابك معدنية. لويت الأسلاك داخل الموصلات وربطتها ببطارية طاقتها تسعة فولتات. وبذلك، صار لديَّ أنبوب مطوق بصمامات ثنائية باعثة للضوء توجيهية شديدة السطوع بإمكاني رفعها أمام عيني والنظر عبرها.

صممت أنبوبًا كهذا العامَ المنصرمَ ليكون مشروعي بمعرض العلوم، الذي طُرِدت منه عندما كشفت عن وجود كاميرات مخبأة في نصف فصول مدرسة شافيز الثانوية. إن كاميرات الفيديو بالغة الصغر أقل تكلفة من وجبة عشاء بمطعم جيد حاليًّا، ومن ثم فهي تظهر في كل مكان. يضعها مختلسو النظر من العاملين في المحلات في غرف تغيير الملابس، أو صالونات اكتساب سمرة البشرة، ويمارسون انحرافهم الجنسي مع

اللقطات التي يسجلونها لعملائهم ... وأحيانًا ينشرونها فقط على الإنترنت. إن معرفة كيفية تحويل لفَّة ورق مرحاض وبعض الأغراض المستعملة تتكلف حفنة من الدولارات إلى جهاز للكشف عن الكاميرات تُعَد ضربًا من الذكاء.

هذه أبسط وسيلة للكشف عن كاميرات التجسس؛ إذ تحتوي هذه الكاميرات على عدسات بالغة الصغر، لكنها تعكس الضوء بقوة. تعمل هذه الوسيلة على أفضل نحو في الغرف المظلمة؛ فعليك بالتحديق في الأنبوب، وفحص الجدران وغيرها من الأماكن التي قد توضع فيها كاميرات ببطء إلى أن ترى ومضة انعكاس، وإذا استمر الانعكاس أثناء تحركك، فتكون هذه عدسة.

خلت غرفتي من أية كاميرات، أو بالأصح خلت من أية كاميرات يمكنني الكشف عنها، ربما احتوت على أجهزة تجسس سمعية، بالطبع، وربما نوع أفضل من الكاميرات، وربما لا شيء على الإطلاق. هل يمكن لأحد أن يلومني على جنون الارتياب الذي انتابني؟

لقد أحببت الكمبيوتر المحمول الخاص بي، وأسميته «سالمجندي»، وهو الذي يعني أي شيء مصنوع من قطع غيار.

عندما تطلق اسمًا على الكمبيوتر المحمول الخاص بك، فاعلم أن ثمة علاقة وثيقة حقًّا بينكما. رغم ذلك، شعرت في تلك اللحظات أنني لا أرغب في لمسه ثانيةً أبدًا، أردت أن ألقي به من النافذة. من يدري ماذا فعلوا به؟ من يدري كيف زرعوا فيه أجهزة التنصت؟

أنزلت الغطاء عليه، ووضعته في أحد الأدراج، ونظرت إلى السقف. كان الوقت متأخرًا، ووجب عليَّ الخلود للنوم، لكن هيهات أن أنام الآن، هناك من يتجسس عليَّ، بل يتجسس على الجميع. لقد تغير العالم للأبد.

حادثت نفسي: «سأجد سبيلًا للانتقام منهم.» كان عهدًا قطعته على نفسي، علمت ذلك عندما سمعته، رغم أنني لم أقطع عهدًا من قبل.

لم أستطع النوم بعد ذلك، هذا فضلًا عن أنني توصلت إلى فكرة ما.

في مكان ما داخل خزانتي، كان هناك صندوق مُغلَّف بغلاف بلاستيكي يشتمل على جهاز «إكس بوكس يونيفرسال» لا يزال في عبوته المُغلَقة. بيعت أجهزة «إكس بوكس» جميعها بسعر أقل بكثير من تكلفتها؛ فشركة مايكروسوفت تجني أغلب أموالها من فرض رسوم على الشركات للحصول على حق بيع ألعاب «إكس بوكس». بيد أن طراز «يونيفرسال» كان الأول من جهاز «إكس بوكس» الذي قررت شركة مايكروسوفت تقديمه دون مقابل على الإطلاق.

في فترة أعياد الميلاد الماضية، انتشرت بجميع الأنحاء مجموعة من الفشلة المثيرين للشفقة يرتدون زي المحاربين بلعبة «هالو»، وأخذوا يوزعون حقائب تحوي أجهزة الألعاب هذه بأسرع ما في وسعهم. وأعتقد أن الأمر قد نجح؛ فيقول الجميع إنهم باعوا عددًا هائلًا من الألعاب. كانت هناك بالطبع إجراءات مضادة للتأكد من أن مَن يحصل على الأجهزة لا يلعب سوى الألعاب التي أصدرتها شركات اشترت تراخيص من شركة مايكروسوفت لصنعها.

ضرب قراصنة الكمبيوتر بهذه الإجراءات المضادة عرض الحائط؛ ففكَّ فتى من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا شفرة جهاز «إكس بوكس»، وألَّف كتابًا حقق أعلى المبيعات حول هذا الموضوع؛ ومن ثم كانت نهاية طراز «٣٦٠»، ومن بعده «إكس بوكس المحمول» الذي لم يدُم طويلًا (والذي كان يزن ثلاثة أرطال!) وكان من المفترض لطراز «يونيفرسال» أن يصمد في وجه هذه الانتهاكات. ومَن فكَّ شفرته طلبة بالمرحلة الثانوية من البرازيل، كانوا قراصنة لنظام لينكس يعيشون في أحد أحياء الفقراء العشوائية.

إياك والاستهانة بعزيمة شاب لديه وفرة في الوقت، ونقص في المال.

ما إن نشر الطلبة البرازيليون صيغة فك الشفرة حتى جُنَّ جنوننا، وسرعان ما ظهرت العشرات من نظم التشغيل البديلة لجهاز «إكس بوكس يونيفرسال»، كان المفضل لديَّ هو «بارانويد إكس بوكس»، وهو أحد صور نظام «بارانويد لينكس». «بارانويد لينكس» هو نظام تشغيل يفترض أن مشغله مراقب من الحكومة (وهو مُعَدٌّ خصوصًا للمعارضين الصينيين والسوريين)، ويفعل كل ما بإمكانه للحفاظ على سرية اتصالاتك ووثائقك، بل إنه ينشئ أيضًا مجموعة من الاتصالات «التافهة» التي من المفترض أن تخفي حقيقة فعلك لأي شيء سري؛ لذا، بينما تتلقى رسالة سياسية كل حرف منها على حدة، يتظاهر نظام «بارانويد لينكس» بتصفح الويب، وملء الاستبيانات، والمغازلة بغرف المحادثة. وفي هذه الأثناء، حرف واحد من بين كل خمسمائة حرف تتلقاه يكون رسالة حقيقية؛ أي إبرة وسط كوم قش.

كنت قد نسخت قرص فيديو رقميًّا لنظام «بارانويد إكس بوكس» عند ظهوره للمرة الأولى، لكن لم تسنح لي الفرصة قط لإفراغ محتويات عبوة جهاز «إكس بوكس» الموجودة في خزانتي، والبحث عن جهاز تليفزيون لتوصيله به، وما إلى ذلك؛ فغرفتي مزدحمة بما فيه الكفاية، وما من حاجة لجعل برامج مايكروسوفت الكثيرة الأعطال تشغل مكان عملي القيِّم.

لكنني سأضحي الليلة. استغرق الاستعداد والتأهب للعمل عشرين دقيقة. كمن الجزء الأصعب في عدم امتلاكي جهاز تليفزيون، لكنني تذكرت في النهاية أن لديَّ بروجيكتور صغيرًا بشاشة إل سي دي مزودة بموصلات آر سي إيه تليفزيونية قياسية في الخلف. قمت بتوصيل جهاز العرض بجهاز «إكس بوكس»، وسلَّطْتُه على الجانب الخلفي لباب الغرفة، وثبَّتُّ نظام «بارانويد لينكس».

وبذلك أكون قد تأهبت للعمل، وبدأ نظام «بارانويد لينكس» في البحث عن أجهزة «إكس بوكس يونيفرسال» أخرى ليتواصل معها. كل جهاز «إكس بوكس يونيفرسال» مزود بنظام لاسلكي مدمج للعب الجماعي، وبذلك يمكنك الاتصال بجيرانك باستخدام الرابط اللاسلكي، وكذلك بالإنترنت إذا كان لديك اتصال إنترنت لاسلكي. عثرت على ثلاثة جيران مختلفين في المجال المحيط بي، منهم اثنان يتصل جهازا «إكس بوكس يونيفرسال» الخاصان بهما بالإنترنت. يفضل نظام «بارانويد إكس بوكس» هذا الإعداد؛ فبإمكانه استراق بعض من اتصالات الإنترنت لدى جيراني، واستخدامها في الدخول على الإنترنت من خلال شبكة الألعاب. ما كان الجيران ليخسروا شيئًا بسبب استراقي لاتصالهم بالإنترنت؛ إذ إنهم يدفعون سعرًا ثابتًا لاتصال الإنترنت، ولا يتصفحون في الغالب الإنترنت في الثانية صباحًا.

أفضل ما في الأمر هو الشعور الذي منحني إياه كل ذلك؛ وهو أنني الممسك بزمام الأمور. التكنولوجيا التي أستخدمها تعمل من أجلي، تخدمني، تحميني، وليست تتجسس عليَّ؛ لهذا أحببت التكنولوجيا: إذا استخدمتها على النحو الصحيح، يمكنها أن تمنحك القوة والخصوصية.

بدأ عقلي يعمل آنذاك بأقصى طاقته، كانت هناك عدة أسباب لتشغيلي نظام «بارانويد إكس بوكس»؛ أهمها أن أي أحد يمكنه صنع الألعاب له. كان هناك بالفعل منفذ لمحاكي أنظمة ألعاب الآركيد المتعددة؛ فيتمكن المرء فعليًّا من ممارسة أية لعبة صُمِّمت على الإطلاق، بدءًا من ألعاب بونج وألعاب أجهزة أبل المنزلية وألعاب نظم كوليكوفيجن وألعاب نظم إن إي إس ودريم كاست وهكذا.

الأفضل مما سبق هو كل الألعاب الرائعة متعددة اللاعبين التي تُصمَّم خصوصًا لنظام «بارانويد إكس بوكس»، وهي ألعاب هواة مجانية يمكن لأي أحد تشغيلها. وعند الجمع بين كل ذلك، يصبح لديك نظام ألعاب مجاني مليء بالألعاب المجانية التي يمكنها منحك وصولًا مجانيًّا للإنترنت.

أما الأفضل على الإطلاق — بقدر ما يعنيني — فهو أن نظام «بارانويد إكس بوكس» مصاب بجنون الارتياب؛ إذ يشفر كل البيانات في الحال، يمكنك استراقه كما تشاء، لكنك لن تصل أبدًا إلى هوية المتحدث، أو عمَّا يتحدث، أو مع مَن. شبكة وبريد إلكتروني ومراسلات فورية مجهولة الهوية، وهذا بالضبط ما كنتُ بحاجة إليه.

كل ما انبغى لي فعله الآن هو إقناع جميع من أعرفهم باستخدامه.

الفصل السادس

أهدي هذا الفصل إلى متجر باولز بوكس، مدينة الكتب الأسطورية الموجودة في بورتلاند بولاية أوريجون. هو أكبر متجر للكتب في العالم، كيان مترامي الأطراف متعدد الطوابق من الأرفف الشاهقة ويعبق برائحة الورق، تعلو أرففه الكتب الجديدة بجوار القديمة — الأمر الذي طالما أحببته — وكل مرة عرَّجت عليه فيها، حوى عددًا هائلًا من كتبي، واتسم القائمون عليه بالكرم الشديد؛ إذ طالما طلبوا مني التوقيع على أعمالي لديهم. الموظفون به ودودون، والكتب مذهلة، هذا فضلًا عن وجود منفذ لهم في مطار بورتلاند؛ ومن ثَمَّ فهو أفضل متاجر الكتب بالمطارات في اعتقادي!

* * *

ما لا يصدقه عقل أن والديَّ أرغماني على الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي، لم يغلبني النوم العميق إلا في الثالثة صباحًا، وفي السابعة كان أبي يقف بجوار السرير يهددني بسحبي من كاحليَّ. تمكنت من النهوض — وكانت الرائحة المنبعثة من فمي قاتلة — والدخول للاستحمام.

جعلت أمي تعطيني قطعة خبز محمص وثمرة موز، وتمنيت بشدة أن يسمح لي والداي بشرب القهوة في المنزل، كان بوسعي الحصول على كوب منها خلسةً في طريقي إلى المدرسة، لكن رؤيتهما وهما يرشفان قهوتهما بينما أجرُّ في قدميَّ بأرجاء المنزل وأنا أرتدي ملابسي، وأضع الكتب في الحقيبة؛ كانت مؤلمة.

سرت إلى المدرسة آلاف المرات من قبل، لكن اليوم كان مختلفًا. صعدت التلال ونزلت من عليها وصولًا إلى حي ميشن حيث ملأت الشاحنات الأرجاء. رأيت أجهزة استشعار جديدة، وكاميرات لمراقبة حركة المرور مثبَّتة في الكثير من علامات التوقف، ورأيت أحد

الأفراد حوله العديد من معدات المراقبة، في انتظار تركيبها مع أول فرصة. كان الهجوم على جسر باي هو كل ما يحتاجونه.

أدى كل ذلك إلى جعل المدينة تبدو أكثر خضوعًا، مثل أن يكون المرء داخل مِصعد ويشعر بالإحراج بسبب تدقيق النظر فيه من المجاورين له، والكاميرات المحيطة به من كل مكان.

أعد لي محل القهوة التركي، الواقع في شارع ٢٤، كوبًا من القهوة التركية والذي تحسَّن به مزاجي. والقهوة التركية سميكة مثل الطين؛ فهي سميكة لدرجة تسمح بإيقاف ملعقة فيها، وتحوي قدرًا من الكافيين أكثر بكثير من المشروبات الخفيفة مثل ريد بول. ومثلما تذكر موسوعة ويكيبيديا، هكذا تحقق النصر على الإمبراطورية العثمانية: فرسان جُنَّ جنونهم تزودوا بالقهوة الداكنة القوية.

أخرجت بطاقة السحب لأدفع ثمن القهوة، لكن تغير وجه صاحب المحل، وقال: «لم نعد نقبل بها.»

«ماذا؟ لِمَ؟» اعتدت دفع ثمن القهوة باستخدام هذه البطاقة لسنوات في هذا المحل، وطالما تشاجر معي هذا الرجل مخبرًا إياي أنني صغير جدًّا على شرب القهوة، وكان يرفض تقديمها لي أثناء ساعات الدوام الدراسي، لاقتناعه بأنني كنت أهرب من المدرسة، لكن على مر السنين، تطور بيني وبينه بعض التفاهم.

هزَّ رأسه في حزن، وقال: «لن تفهم. اذهب إلى المدرسة يا بني.»

ما من وسيلة تجعلني أكثر رغبةً في الفهم من إخباري أنني لن أفهم. تملقته، وطلبت منه أن يخبرني. بدا عليه أنه سيقذف بي إلى الخارج، لكنني عندما سألته ما إذا كان يظن أنني لست جيدًا بشكل كافٍ للتسوق بالمحل، أفصح بما يعلمه.

قال وهو ينظر بأنحاء محله الصغير بما يحويه من أحواض البذور والحبوب الجافة، وأرففه المليئة بالبقالة التركية: «إنه الأمن ... الحكومة تراقبنا جميعًا الآن، ورد ذلك في الصحف. صادق الكونجرس على قانون مكافحة الإرهاب الثاني بالأمس، وصار بإمكانهم الآن مراقبة كل مرة تستخدم فيها بطاقتك، وأنا أرفض ذلك، أرفض أن يساعدهم محلي في التجسس على عملائي.»

فغر فاهي من الدهشة.

«لعلك لا ترى في ذلك مشكلة كبيرة، فما المشكلة في أن تعلم الحكومة بشرائك للقهوة؟ لأنها بهذه الطريقة تعرف أين أنت وأين كنت. لماذا تركت تركيا في اعتقادك؟ عندما تعيش

في مكان تتجسس فيها الحكومة دائمًا على الناس، لا يكون ذلك جيدًا. انتقلت إلى هنا منذ عشرين عامًا بحثًا عن الحرية ... ولن أساعدهم في سلبها.»

انفجرت قائلًا: «ستخسر كثيرًا من المبيعات.» أردت أن أخبره أنه بطل، وأصافحه، لكن هذه الكلمات هي التي خرجت من فمي. «فالجميع يستخدمون بطاقات السحب.»

«لعلهم لن يستخدموها كثيرًا بعد الآن، لعل العملاء سيأتون إلى هنا لأنهم يعلمون أنني أحب الحرية أيضًا. إنني أشير بذلك إلى مخرج، ولعل متاجر أخرى ستتبع نهجي. لقد تنامى إلى سمعي أن الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية سيقاضيهم لما يفعلونه.»

قلت وأنا أعني ما أقوله: «لن أتعامل مع أحد سواك من الآن فصاعدًا.» ووضعت يدي في جيبي، وقلت: «لكنني لا أملك أي أموال سائلة.»

زمَّ شفتيه، وأومأ برأسه، ثم قال: «هذا ما يقوله كثيرون، لا بأس، فلتعطِ ثمن قهوة اليوم للاتحاد الأمريكي للحريات المدنية.»

وفي غضون دقيقتين، كنت قد تبادلت مع البائع التركي حديثًا أطول من أي حديث آخر دار بيننا منذ مجيئي لهذا المحل. لم تكن لدي أدنى فكرة أنه يكِّن كل هذه المشاعر، واقتصرت نظرتي له على أنه تاجر الكافيين الودود في الحي. أما الآن، فقد صافحته وعندما غادرت المحل، شعرت بأننا قد شكَّلنا فريقًا معًا ... فريقًا سريًّا.

تغيبت عن المدرسة يومين، لكن يبدو أنه لم يفُتني الكثير من الدروس؛ فقد أغلقت المدرسة أبوابها في أحد هذين اليومين أثناء محاولة المدينة استرداد أحوالها الطبيعية. أما اليوم التالي، فيبدو أنه قد خُصِّص للحداد على مَن فُقِدوا ومن اعتُقِد أنهم لقوا حتفهم. نشرت الصحف السير الذاتية للمفقودين، وبيانات تذكارية شخصية عنهم. زخر الإنترنت بالنَّعايا المختصرة، الآلاف منها.

المُحرِج في الأمر أنني كنت أحد هؤلاء المنعيين. خطوت إلى داخل فناء المدرسة دون أن أعرف ذلك، ثم سمعت صياحًا وبعد لحظات كان قد التف حولي المئات، يربتون على ظهري بقوة، ويصافحونني، بل وقبَّلتني فتاتان لا أعرفهما، وكانت أكثر من قبلات ودودة فحسب؛ شعرت بأنني نجم روك شهير.

انطبق الحال على معلميَّ إلى حد كبير؛ فبكت السيدة جالفيس بقدر ما بكت أمي، واحتضنتني ثلاث مرات قبل أن تتركني لأذهب إلى مقعدي وأجلس عليه. كان هناك شيء جديد في مقدمة الفصل، إنها كاميرا. لمحتني السيدة جالفيس وأنا أحدق فيها، فأعطتني ورقة إذن مطبوعة على إحدى أوراق المدرسة المُصوَّرة.

كان مجلس سان فرانسيسكو لقطاع المدارس الموحدة قد عقد جلسة طارئة في نهاية الأسبوع، واتفق بإجماع الأصوات على طلب إذن من والدَي كل طفل في المدينة لوضع كاميرات دوائر تليفزيونية مغلقة في كل فصل وكل رواق بالمدرسة. ينص القانون على عدم إرغامنا على الذهاب إلى المدارس وقد ملأتها الكاميرات في كل مكان، لكنه لا يذكر أي شيء بشأن «تطوعنا» للتخلي عن حقوقنا الدستورية. ذكر الخطاب أن المجلس لديه ثقة في أنه سيحصل على موافقة كاملة من الآباء في المدينة، لكنه سيعد الترتيبات لتعليم الطلبة الذين يعترض والداهم على ذلك في مجموعة منفصلة من الفصول «غير الخاضعة للحماية».

لماذا توجد كاميرات في فصولنا الآن؟ الإرهابيون ... بالطبع؛ فتفجير الإرهابيين لأحد الجسور تلميح بأن المدارس ستكون هي الهدف التالي. كانت هذه النتيجة التي توصل إليها المجلس على أية حال.

قرأت هذه المذكرة ثلاث مرات، ثم رفعت يدي.

«نعم يا ماركوس.»

«سيدة جالفيس ... بشأن هذه المذكرة ...»

«نعم يا ماركوس.»

«أليس الهدف من الإرهاب هو بث الرعب في نفوسنا؟ لهذا يُسمَّى إرهابًا، أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك.» حدق الطلبة فيَّ. لم أكن أفضل طلاب المدرسة، لكنني كنت أحب المناقشات الجيدة داخل الفصل، فانتظروا سماع ما كنت سأقوله بعد ذلك.

«إذن، ألسنا ننفذ ما يريده منَّا الإرهابيون؟ ألا يكون النصر لهم إذا فزعنا، ووضعنا كاميرات في الفصول المدرسية، وما إلى ذلك؟»

سمعت بعض الضحكات الفاترة العصبية. رفع طالب آخر يده، وكان تشارلز. سمحت له السيدة جالفيس بالحديث.

«وضع الكاميرات في الفصول يؤمننا، الأمر الذي يقلل من شعورنا بالخوف.»

سألته — دون الانتظار بالسماح لي بالحديث: «يؤمننا من ماذا؟»

فأجاب: «من الإرهاب.» وأومأ الآخرون برءوسهم.

«وكيف يكون ذلك؟ إذا اندفع مفجِّر انتحاري إلى هنا، وفجرنا جميعًا ...»

«يا سيدة جالفيس، إن ماركوس ينتهك سياسة المدرسة. ليس من المفترض أن نمزح بشأن الهجمات الإرهابية ...»

«مَن الذي يمزح؟»

قالت السيدة جالفيس: «شكرًا لكما.» بدت غير سعيدة على الإطلاق. شعرْتُ بالأسف لفرض سيطرتي على فصلها. «أرى هذه المناقشة مثيرة حقًّا، لكنني أود تأجيلها لإحدى الحصص المستقبلية، فأظن أن هذه الأمور مثيرة للانفعال جدًّا بدرجة لا تسمح لنا بمناقشتها اليوم. والآن، لنعد إلى المنادين بحق المرأة في الاقتراع، أيمكننا ذلك؟»

ومن ثم، قضينا ما تبقى من الساعة في التحدث عن المنادين بحق المرأة في الاقتراع، وما ابتكروه من استراتيجيات ضغط جديدة لإيصال أربع سيدات إلى كل عضو من أعضاء الكونجرس، والضغط عليه بإخباره ما سيصير بمستقبله السياسي إذا استمر في إنكاره حق المرأة في الاقتراع. كان ذلك، بطبيعة الحال، ما أحببته حقًّا: أفراد ضعفاء يجبرون الكبار الأقوياء على الصدق. لكنني لم أستطع التركيز في ذلك اليوم، لا بد أن السبب هو غياب داريل. أحب كلانا الدراسات الاجتماعية، كنا نخرج جهازي الكمبيوتر المدرسي المحمول ونتواصل عبر الرسائل الفورية بعد ثوانٍ من جلوسنا لنتحدث معًا عن الدرس.

نسخت عشرين قرصًا لنظام «بارانويد إكس بوكس» الليلة الماضية، وجلبتها كلها في حقيبتي. وزعتها على من كنت أعلم أنهم يعشقون الألعاب حقًّا. امتلك جميعهم جهاز «إكس بوكس يونيفرسال» أو اثنين العام الماضي، بيد أن أغلبهم توقف عن استخدامه؛ فالألعاب باهظة التكلفة وليست على درجة كبيرة من المتعة. كلمتهم على انفراد بين الحصص، وفي فترة الغداء، وفي قاعة الدراسة، وتغنينا بمزايا ألعاب «بارانويد إكس بوكس»؛ فهي ألعاب اجتماعية مجانية ممتعة يسهل إدمانها، يلعبها الكثير من الأفراد الرائعين بجميع أنحاء العالم.

إن التخلي عن شيء ما لبيع آخر هو ما يُطلَق عليه «صفقة شفرات الحلاقة»؛ إذ تمنحك شركات مثل جيليت ماكينات حلاقة مجانًا، ثم تخدعك بتحميلك تكلفة شراء الشفرات. وخراطيش الطابعات أسوأ من ذلك؛ فأغلى أنواع الشامبانيا في العالم تُعَد رخيصة إذا ما قورِنت بحبر الطابعات القاذفة للحبر الذي يكلف الكثير حتى تحصل عليه.

تعتمد صفقات شفرات الحلاقة على عجز المستهلك عن الحصول على الشفرات من جهة أخرى، فإذا كان بإمكان جيليت جني تسعة دولارات من شفرات قابلة للاستبدال يبلغ سعرها عشرة دولارات، فلماذا تُقام شركة منافسة لجني أربعة دولارات فقط من بيع شفرة مماثلة، إن هامش الربح البالغ ٨٠ بالمائة هو ما يبهر أي رجل أعمال ويثيره.

لذا، تبذل الشركات التي تمارس هذا الأسلوب في العمل — مثل مايكروسوفت — جهدًا كبيرًا لجعل المنافسة معها على «الشفرات» صعبة و/أو غير قانونية. وفي حالة

مايكروسوفت، ينطوي كل جهاز «إكس بوكس» على إجراءات مضادة لمنع المستخدم من تشغيل برامج أصدرتها جهات لم تدفع أموالًا لمايكروسوفت مقابل حق بيع برامج «إكس بوكس».

من قابلتهم لم يهتموا كثيرًا بهذا الأمر، وابتهجوا عندما أخبرتهم أن الألعاب غير خاضعة للرقابة؛ فأية لعبة على الإنترنت حاليًّا مليئة بكافة صور الأمور البغيضة. أولًا: هناك المنحرفون جنسيًّا الذين يحاولون إخراجك من منزلك لمكان بعيد لتصير ضحيتهم كما في فيلم «صمت الحِملان»، وهناك أيضًا رجال الشرطة الذين يتظاهرون بالسذاجة للإيقاع بالمنحرفين. لكن الأسوأ هم المراقبون الذين يقضون أغلب وقتهم في التجسس على المحادثات التي نجريها، ويبلغون عنا لانتهاكنا «شروط الخدمة» التي تنص على عدم المغازلة أو السباب أو استخدام «لغة صريحة أو ضمنية تشير على نحو مهين إلى أي جانب يتعلق بالجنس أو التوجه الجنسي.»

لست بالشخص المُثار جنسيًّا دومًا، لكنني شاب في السابعة عشرة أيضًا من عمري والجنس موضوع يطرأ على أية محادثة من حين لآخر، لكنه إذا طرأ على محادثة أثناء اللعب، فليساعدك الرب، إنه يخرب كل شيء. لا تخضع ألعاب «بارانويد إكس بوكس» للرقابة لأنها لا تدار بواسطة شركة؛ فهي ليست سوى ألعاب صممها قراصنة الكمبيوتر من أجلها ذاتها.

ومن ثم راقت الفكرة لهؤلاء الشباب العاشقين للألعاب، تهافتوا على الأقراص، ووعدوني بإعداد نسخ منها لأصدقائهم؛ فالمتعة الأكبر من الألعاب تكون عند لعبها مع الأصدقاء.

وعند عودتي للمنزل، قرأت أن مجموعة من الآباء قد قاضوا مجلس إدارة المدرسة بسبب كاميرات المراقبة في الفصول، لكنهم فشلوا في محاولة الحصول على إنذار قضائي مبدئي ضده.

لا أعلم من ابتكر مصطلح «إكس نت» (الشبكة الموسعة)، لكنه صار شائعًا؛ ففي المواصلات العامة، تسمع الناس يتحدثون عنه. اتصلت بي فان لتسألني عما إذا كنت قد سمعت به، وكدت أختنق عند اكتشافي ما كانت تتحدث عنه؛ إن الأقراص التي بدأت توزيعها الأسبوع الماضي قد تُنوقِلت ونُسِخت حتى وصلت إلى أوكلاند في خلال أسبوعين. جعلني ذلك الخبر أتلفت حولي كما لو كنت قد خرقت قانونًا ما، ووزارة الأمن الوطني ستأتي لاعتقالي للأبد.

مرت الأسابيع عصيبة. كانت محطات بارت قد توقفت تمامًا عن الحصول على الأجرة نقدًا، وتحولت إلى البطاقات «غير التلامسية» التي تعمل بتقنية تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، والتي يلوح بها المستخدم عند ماكينات بوابة العبور الدوَّارة للدخول. كانت رائعة ومريحة، لكن في كل مرة أستخدمها، أفكر في خضوعي للمراقبة. نشر شخص ما على شبكة «إكس نت» رابطًا لتقرير صادر عن مؤسسة الحدود الإلكترونية حول الطرق التي يمكن استخدام مثل هذه البطاقات بها لتعقب الناس، وتضمَّن التقرير قصصًا مختصرة عن بعض الجماعات الصغيرة التي تظاهرت في محطات بارت.

صرت أستخدم شبكة «إكس نت» في كل شيء تقريبًا، فأنشأت عنوان بريد إلكتروني مزيفًا من خلال «حزب القراصنة»، وهو حزب سياسي سويدي يمقت الرقابة على الإنترنت، ويعد بالمحافظة على سرية حسابات البريد من الجميع، بما في ذلك الشرطة. دخلت عليه حصريًّا عبر شبكة «إكس نت»، متنقلًا من اتصال إنترنت لجار للآخر، مع الحفاظ على سرية هويتي — أو هكذا تمنيت — إلى أن وصلت إلى السويد. لم أعد أستخدم اسم «وينستون»؛ فإذا كان بينسان قد تمكن من اكتشافه، يمكن لأي أحد فعل ذلك. كان اسمي المستعار الجديد الذي ارتجلته هو «مايكي». وصلني الكثير من رسائل البريد الإلكتروني من أشخاص سمعوا في غرف المحادثة ومنتديات الرسائل أن بوسعي مساعدتهم في استكشاف الأخطاء بعمليات التهيئة والاتصالات على شبكة «إكس نت» وإصلاحها.

افتقدت لعبة «هاراجوكو فان مادنس»، فقد علَّقت الشركة اللعبة لأجل غير مُسمًّى، وقالت إنها ترى — لأسباب أمنية — أن إخفاء أشياء، ثم إرسال أفراد للبحث عنها، ليس بالفكرة الجيدة. ماذا إذا ظن أحدهم أنها قنبلة؟ ماذا إذا وضع شخص ما قنبلة في المكان ذاته؟

ماذا إذا أصابني البرق أثناء السير ممسكًا بمظلة؟ لنحظر استخدام المظلات إذن! ونهاجم تهديدات البرق!

واصلت استخدام الكمبيوتر المحمول، رغم إصابتي بقشعريرة في بدني في كل مرة أستخدمه فيها. أيًّا كان من يتنصت عليه سيتساءل عن سبب عدم استخدامي له، فتوصلت إلى أن أجري بعض التصفح العشوائي عليه كل يوم، مع تقليل مقدار تصفحي يوميًّا، ليظن بذلك من كان يراقبني بأنني أغيِّر من عاداتي تدريجيًّا، وليس على نحو مفاجئ. وكان ما أفعله في الغالب هو قراءة النعايا المروعة التي نُشِرت على الإنترنت … الآلاف من أصدقائي وجيراني لقوا حتفهم في قاع الخليج.

والحقيقة هي أن ما كنت أؤديه من واجبات مدرسية أخذ يقل بالفعل شيئًا فشيئًا بمرور الأيام؛ إذ كان لدي عمل في مكان آخر. كنت أعد نسخًا جديدة من «بارانويد إكس بوكس» كل يوم، نحو خمسين أو ستين، وأوزعها على ناس في المدينة وقد سمعت برغبتهم في إعداد ستين نسخة بأنفسهم وتوزيعها على أصدقائهم.

لم أقلق كثيرًا بشأن القبض عليَّ لفعل ذلك؛ إذ كان يحميني قدر جيد من التشفير، والتشفير يعني «الكتابة السرية»، ويرجع تاريخه إلى العصر الروماني (بالأصح كان أغسطس قيصر مناصرًا قويًّا للتشفير، وأحب ابتكار شفرات خاصة به، بعضها نستخدمه حاليًّا في تشفير جوهر النِّكات في البريد الإلكتروني).

والتشفير نوع من العمليات الرياضية ... نوع معقد. لن أحاول شرحه بالتفصيل؛ لأنه ليس لديَّ من المعرفة به ما يسمح لي بفهمه جيدًا؛ لذا يمكنك تصفح موسوعة ويكيبيديا إذا أردت معرفته حقًّا.

لكن فيما يلي تعريف التشفير في سلسلة أدلة «كليفس نوتس» الدراسية: بعض العمليات الرياضية يسهل تنفيذها للغاية في اتجاه واحد، في حين يصعب للغاية تنفيذها في الاتجاه المغاير؛ فيسهل ضرب عددين أوليَّين والتوصل إلى عدد ضخم، لكن من الصعوبة بمكان معرفة العددين الأوليَّين اللذين ضُرِبا للحصول على عدد محدد ضخم.

ويعني ذلك أنه إذا كان بإمكانك الوصول إلى طريقة لتشفير شيء ما بضرب أعداد أولية كبيرة في بعضها البعض، يكون من الصعب فك شفرته دون معرفة هذه الأعداد الأولية ... هذا صعب للغاية؛ بمعنى أن تريليون عام من العمل المتواصل لكل أجهزة الكمبيوتر التي اختُرِعت على الإطلاق لن يمكنها فعل ذلك.

تشتمل أية رسالة مُشفَّرة على أربعة أجزاء: الرسالة الأصلية، وتُسمَّى «النص غير المشفر»؛ والرسالة المُشفَّرة، وتُسمَّى «النص المُشفَّر»؛ ونظام التشفير، ويُسمَى «الشفرة». وأخيرًا، المفتاح، وهو الأشياء السرية التي تضعها في الشفرة مع النص غير المشفر لإنشاء النص المُشفَّر.

هذا وقد جرت العادة أن يحاول واضعو الشفرة عدم إطلاع أي شخص على كل ذلك. تمتلك كل هيئة وحكومة الشفرات والمفاتيح الخاصة بها. النازيون والحلفاء لم يرغبوا في أن يعرف الطرف الآخر كيفية تشفيرهم لرسائلهم، ناهيك عن المفاتيح التي يمكن استخدامها في فكِّها. تبدو هذه فكرة جيدة، أليس كذلك؟

خطأ.

في المرة الأولى التي سمعت فيها عن هذا النوع من تحليل العوامل الأولية هذه، قلت على الفور: «كلا، بالطبع هذا هراء. كان ما عنيته هو أنه من الصعب بالتأكيد إجراء مثل هذا التحليل، بغض النظر عن نوعه. بيد أنه كان من المستحيل أيضًا على الإنسان الطيران، أو الصعود للقمر، أو امتلاك محرك أقراص صلبة يسع لأكثر من عدد قليل من وحدات الكيلوبايت. لا بد أن شخصًا ما قد توصل إلى وسيلة لفكِّ شفرة هذه الرسائل.» وتخيلت جبلًا مجوفًا مليئًا بعلماء الرياضيات التابعين لوكالة الأمن القومي وهم يقرءون كل رسالة بريد إلكتروني في العالم ويضحكون ضحكات خافتة.

في الواقع، كان هذا ما حدث إبَّان الحرب العالمية الثانية؛ ولذلك، لا تشبه الحياة كثيرًا لعبة «قلعة ولفنشتاين» التي قضيت أيامًا أطارد فيها النازيين.

الفكرة هي أن الشفرات يصعب الحفاظ على سريتها؛ فهي تنطوي على الكثير من العمليات الرياضية، وإذا استُخدِمت على نطاق واسع، فعلى كل من يستخدمها أن يحافظ على سريتها أيضًا. وإذا غيَّر أحد موقفه، فسيكون عليك العثور على شفرة جديدة.

أُطلِق على شفرة النازيين اسم «إنيجما»، وقد استخدموا كمبيوتر ميكانيكيًّا صغيرًا يُسمَّى جهاز إنيجما لتشفير الرسائل وفكِّ شفرتها. واحتاجت كل غواصة وسفينة ومحطة واحدًا من هذه الأجهزة؛ ومن ثم كان من الحتمي أن يضع الحلفاء في النهاية أيديهم على أحدها.

وعندما فعلوا ذلك، فكُّوا شفرة الجهاز. قاد ذلك العمل بطلي الأول على الإطلاق — وهو رجل يُدعَى آلان تورينج — الذي يرجع له الفضل إلى حد كبير في اختراع الكمبيوتر كما نعرفه اليوم. لكن لسوء حظه، كان مثليًّا؛ لذا، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، أجبرته الحكومة البريطانية الغبية على أن يُحقَن بهرمونات من أجل «علاجه» من المثليَّة، ثم انتحر. أهداني داريل سيرة تورينج الذاتية في عيد ميلادي الرابع عشر — وكانت مغلفة في عشرين طبقة من الورق وموضوعة في لعبة سيارة الرجل الوطواط، كعادته مع الهدايا — وصرت عاشقًا لتورينج منذ ذلك الحين.

وبذلك، امتلك الحلفاء جهاز إنيجما، وصار بإمكانهم اعتراض سبيل الكثير من رسائل النازيين اللاسلكية، الأمر الذي لم يكن مهمًّا؛ إذ إن كل قائد لديه مفتاح سري خاص به. ولما كان الحلفاء لا يمتلكون أي مفاتيح، لم يكن امتلاك الجهاز ليفيدهم.

وهنا تعترض السرية التشفير، فقد كانت شفرة إنيجما معيبة. وما إن فحصها تورينج جيدًا حتى توصَّل إلى أن علماء التشفير النازيين قد ارتكبوا خطأً رياضيًّا.

وبالحصول على جهاز إنيجما، تمكن تورينج من التوصل إلى كيفية فك شفرة أية رسالة نازية، بغض النظر عن المفتاح الذي تستخدمه.

كلَّف ذلك النازيين الحرب. وأعني أن تلك أخبار جيدة، لا تُسِئْ فهمي. لتأخذها كلمة من لاعب محنك في لعبة «قلعة ولفنشتاين»؛ فأنت لن ترغب في أن يحكم النازيون هذا البلد.

وبعد الحرب، قضى علماء التشفير وقتًا طويلًا يفكرون في ذلك. كانت المشكلة أن تورينج أكثر ذكاءً ممن اخترع جهاز «إنيجما». فعند وضع شفرة ما، يكون هناك شخص أكثر ذكاءً يتوصل إلى وسيلة لفكها.

وكلما أطالوا التفكير في ذلك، أدركوا أن أي أحد يمكنه التوصل إلى نظام أمني لا يسعه التوصل إلى كيفية خرقه. لكن ما من أحد يمكنه التوصل إلى ما قد يفعله شخص أكثر ذكاءً.

هذا وينبغي لك نشر الشفرة لتعلم ما إذا كانت تعمل أم لا، وعليك إخبار أكبر عدد ممكن من الناس بكيفية عملها ليتمكنوا من فعل كل ما بوسعهم لاختبار مدى أمنها. وكلما مضى وقت دون أن يعثر أحد على عيب فيها، كنت أكثر أمانًا.

وهذا ما يفيد حاليًّا. إذا أردت أن تكون آمنًا، فيجب ألا تستخدم شفرة فكَّر فيها عبقري ما الأسبوع الماضي، وإنما عليك استخدام ما ظل الناس يستخدمونه لأطول فترة ممكنة دون أن يتوصل أحد إلى كيفية اختراقه. وسواء أكنت مصرفًا، أم إرهابيًّا، أم حكومة، أم مراهقًا، فإنك تستخدم الشفرات ذاتها.

إذا حاولت استخدام شفرتك الخاصة، فثمة احتمال أن يتوصل أحد ما إلى عيب أغفلته، وسيفعل كما فعل تورينج من خلال فك شفرة جميع رسائلك «السرية»، والضحك بينه وبين نفسه على ما تفعله من نميمة ساذجة ومعاملات مالية وأسرار عسكرية.

ومن ثم، علمت أن التشفير سيحميني من المتطفلين، لكنني لم أكن مستعدًّا بعد للتعامل مع المدرجات الإحصائية التكرارية.

نزلت من أحد قطارات محطة بارت، ولوحت ببطاقتي على ماكينة العبور الدوَّارة أثناء توجهي إلى محطة شارع ٢٤. وكالمعتاد، امتلأت المحطة بغريبي الأطوار، والسكارى، وبعض المتعصبين دينيًّا، ورجال مكسيكيين متوترين يحدقون في الأرض، وبعض شباب العصابات. أشحت بوجهي بعيدًا عنهم عند وصولي إلى السلالم، وصعدت إلى السطح.

كانت حقيبتي فارغة الآن بعد توزيعي لأقراص «بارانويد إكس بوكس»؛ ما خفف الحمل عن كتفيَّ، وأسرع من خطاي عند خروجي إلى الشارع. كان المبشرون لا يزالون يمارسون عملهم، ينصحون الناس بالإسبانية والإنجليزية عن يسوع وما إلى ذلك.

اختفى بائعو نظارات الشمس المقلدة، لكن حلَّ محلهم أفراد يبيعون كلابًا آلية تغني النشيد الوطني، وبإمكانها رفع أرجلها إذا أظهرت لها صورة أسامة بن لادن. لا بد أن شيئًا رائعًا كان يجري في عقولها الصغيرة، وعقدت العزم بيني وبين نفسي أن أشتري بعضها وأفككها فيما بعد. كان التعرف على الوجوه أمرًا جديدًا للغاية في الألعاب، وقد انتقل مؤخرًا فقط من الجهات العسكرية إلى نوادي القمار لكشف عمليات الغش … لتنفيذ القانون.

بدأت السير في شارع ٢٤ نحو حي بتريرو هيل والمنزل، كتفاي مائلتان، وأنفي تشم رائحة البوريتو تنبعث من المطاعم، وعقلي يفكر في العشاء.

لا أعلم ما الذي جعلني ألقي نظرة خاطفة خلفي، لكنني فعلت، لعله شيء يتعلق بالحاسة السادسة المتعلقة باللاوعي. لقد علمت أن هناك من يتتبعني.

رأيت رجلين يتمتعان ببشرة بيضاء وبنيان قوي وشوارب خفيفة جعلتني أشعر أنهما إما شرطيان أو مثليَّان يمارسان رياضة ركوب الدراجات صعودًا وهبوطًا في حي كاسترو، بيد أن المثليِّين يقصون شعرهم عادةً على نحو أفضل. ارتديا سترتين قصيرتين مضادتين للمطر بلون الإسمنت القديم، وسراويل من جينز أزرق، مع اختفاء الحزامين. فكرت في كل شيء يمكن أن يضعه شرطي في حزامه، متذكرًا الحزام متعدد الاستخدامات الذي كان يرتديه رجل وزارة الأمن الوطني في الشاحنة. وقد ارتدى كلاهما سماعات رأس بلوتوث.

واصلت المسير، وقلبي ينتفض بين ضلوعي. توقعت ذلك منذ شرعت فيما أفعله. توقعت من وزارة الأمن الوطني اكتشاف أمري. اتخذت جميع الاحتياطات، لكن السيدة ذات الشعر القصير أخبرتني أنها ستراقبني، وأنني شخص مشبوه. أدركت أنني في انتظار إلقاء القبض عليَّ والزج بي في السجن. ولِمَ لا؟ لماذا يكون داريل في السجن، وأنا لا؟ ما الذي أوصلت نفسي إليه؟ إنني لم أملك الشجاعة لإخبار والديَّ — أو والديه — بما حدث لنا حقًّا.

أسرعت الخطى، وأخذت أفكر. ما من شيء يدينني قانونًا في حقيبتي … إلى حد ما على أية حال؛ فالكمبيوتر المدرسي المحمول عليه برنامج الاختراق الذي يسمح لي بإجراء

المراسلات الفورية وما إلى ذلك، لكن نصف طلاب المدرسة لديهم البرنامج نفسه. هذا وقد غيرت كيفية تشفير الأشياء الموجودة على هاتفي؛ فصار لدي الآن بالفعل قسم مزيف يمكن أن أحوله إلى نص غير مشفر بكلمة مرور واحدة، لكن كل الأمور المهمة مخبَّأة، وتحتاج إلى كلمة مرور أخرى لتُفتَح. بدا ذلك القسم المخفي ككم مهمل عشوائي — فعند تشفير البيانات، يصبح من العسير تمييزها عن الأمور المتداخلة العشوائية — ولن يمكنهم مطلقًا العلم بوجودها.

لم تحوِ حقيبتي أية أقراص، وخلا جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي من أي دليل يدينني. لكنهم إذا فكروا، بالطبع، في إجراء فحص دقيق لجهاز «إكس بوكس» الخاص بي، فسينتهي أمري لا محالة.

وقفت في مكاني. لقد فعلت ما في وسعي لتأمين نفسي، وحان الوقت لمواجهة قدري. دخلت أقرب مطعم يبيع البوريتو، وطلبت واحدًا بقطع لحم الخنزير الصغيرة وصلصة إضافية لكي يُقبَض عليَّ ومعدتي ممتلئة. حصلت أيضًا على كوب من مشروب الأورتشاتا، وهو مشروب أرز مثلج يشبه بودينج الأرز السائل شبه المُحلى (مذاقه أفضل من الوصف).

جلست لأتناول الطعام، ونزلت عليَّ السكينة. كنت على وشك دخول السجن لما ارتكبته من «جرائم»، أو ربما لا، فلم تعد حريتي منذ أن اعتقلوني سوى إجازة مؤقتة، ولم أعد أنا وبلادي صديقين، بل صرنا عدوين، وأدركت أنني لن أتمكن أبدًا من الانتصار عليها.

دخل الرجلان إلى المطعم بينما كنت أنهي البوريتو، وأنهض لطلب بعض التشورو — وهي عجائن مقلية جيدًا مضاف إليها سكر مخلوط بالقرفة — للتحلية. أعتقد أنهما كانا ينتظران في الخارج، وتعبا من تضييعي للوقت.

وقفا خلفي عند نافذة البيع يدفعانني. أخذت حلوى التشورو من السيدة العجوز الجميلة، ودفعت لها ثمنها. تناولت قضمتين سريعًا قبل أن أستدير. أردت على الأقل تناول القليل من الحلوى؛ فقد تكون آخر حلوى أحصل عليها لفترة طويلة.

عندما استدرت، كانا على مقربة مني لدرجة جعلتني أرى البثرة الموجودة على وجنة مَن وقف على اليسار، والمخاط الجاف على أنف الآخر.

قلت محاولًا تجاوزهما: «من فضلكما!» فتحرك الرجل ذو المخاط على أنفه ليحجب طريقي.

قال: «أيمكنك الانضمام إلينا والخروج من هنا؟» وأشار إلى باب المطعم.

قلت: «آسف، فأنا آكل»، وتحركت ثانيةً، فوضع هذه المرة يده على صدري. كان يتنفس سريعًا من أنفه؛ ما جعل المخاط الجاف يهتز. أعتقد أن أنفاسي أنا أيضًا كانت قوية، لكن من الصعب الجزم بذلك مع دقات قلبي العنيفة.

فتح الرجل الآخر جيبًا بسترته ليكشف عن شارة شرطة سان فرانسيسكو، وقال: «شرطة! تعالَ معنا، من فضلك.»

قلت له: «دعني أحضر أشيائي فقط.»

فأجابني: «سنهتم بهذا الأمر.» واقترب ذو المخاط الجاف على أنفه مني، ووضع قدمه بين قدميَّ. يُتَّبَع هذا الأسلوب في بعض الفنون القتالية أيضًا؛ إذ يسمح لك بمعرفة ما إذا كان الشخص الذي أمامك ينقل جسمه في استعداد للتحرك أم لا.

لكنني لم أكن أعتزم الهروب؛ فأنا أعلم أنني لا أستطيع الهروب من القدر.

الفصل السابع

أهدي هذا الفصل لمتجر بوكس أوف واندر بمدينة نيويورك، أقدم وأضخم متجر كتب أطفال في مانهاتن. يقع على بُعد بضعة مربعات سكنية من مكاتب «تور بوكس» في مبنى فلاتيرن. وكل مرة أذهب فيها إلى «تور بوكس»، أنسل خلسة دائمًا لزيارة بوكس أوف واندر للاطلاع على ما يزخر به من كتب أطفال جديدة وقديمة ونادرة. أعشق جمع الإصدارات النادرة لقصة «آليس في بلاد العجائب»، ولا يكف متجر بوكس أوف واندر عن إبهاري بإصدار محدود جميل لهذه القصة. ينظم المتجر كذلك عددًا هائلًا من الفعاليات للأطفال، ويتمتع بواحد من أكثر الأجواء جاذبية مقارنةً بأي متجر آخر للكتب دخلته.

* * *

قاداني إلى الخارج حتى وصلنا إلى ناصية الشارع حيث وقفت سيارة شرطة لا تحمل أية علامات، لكن لم يصعب على أحد في ذلك الحي اكتشاف أنها كانت سيارة شرطة؛ فالشرطة وحدها هي التي تقود سيارات «كراون فيكتوريا» كبيرة الآن بعد أن وصل سعر جالون البنزين إلى سبعة دولارات، كما أن رجال الشرطة وحدهم هم الذين يمكنهم الانتظار صفًّا ثانيًا في منتصف شارع فان نيس دون أن تَسحب سياراتهم قُطعان سيارات السحب الضارية الخاصة بالمرور، التي تجوب الأرجاء وتقوم على تطبيق قواعد الانتظار غير المفهومة بسان فرانسيسكو، وجمع الغرامات لإطلاق سراح سيارتك بعد سحبها.

امتخط الرجل الذي كان المخاط الجاف على أنفه. جلست في المقعد الخلفي برفقته. أما زميله، فجلس في المقعد الأمامي، وأخذ يكتب بإصبع واحد على كمبيوتر محمول قديم مُجدَّد

بدا كما لو كان «فريد فلينستون» — الشخصية الكرتونية التي من العصر الحجري — أول مالك له.

فحص الرجل ذو المخاط بطاقة هويتي بعناية ثانيةً، وقال: «لا نريد سوى أن نطرح عليك بعض الأسئلة الروتينية.»

قلت: «هل يمكنني رؤية شارتيكما؟» كان من الواضح أنهما شرطيان، لكن لن يضر أن أجعلهما يعلمان أنني أعرف حقوقي.

لوَّح ذو المخاط بشارته أمامي سريعًا، فلم أستطع أن ألقي نظرة جيدة عليها، لكن زميله ذا البثرة الذي جلس في المقعد الأمامي أتاح لي رؤية شارته جيدًا. رأيت رقم قسمهما، وتذكرت رقم الشارة المكون من أربعة أرقام. كان سهلًا: ١٣٣٧؛ إذ يستخدمه قراصنة الكمبيوتر لكتابة «لييت»؛ أي ما يعني «الصفوة».

اتسم كلاهما بالأدب الشديد، ولم يحاول أيٌّ منهما إرهابي مثلما فعل ضباط وزارة الأمن الوطني عندما كنت رهن الاعتقال.

«هل أنا رهن الاعتقال؟»

قال ذو المخاط: «أنت رهن الاعتقال لمدة قصيرة للغاية لضمان أمنك والأمن العام.»

ناول رخصة القيادة الخاصة بي لصاحب البثرة، الذي نقل ما بها ببطء على الكمبيوتر. رأيته يخطئ في الكتابة، وكدت أصحح له، لكنني رأيت بعد ذلك أنه من الأفضل أن أظل صامتًا.

«هل من شيء تود إخباري به يا ماركوس؟ هل ينادونك مارك؟»

فأجبته: «يمكنك مناداتي ماركوس.» كان ذو المخاط — على ما يبدو — رجلًا لطيفًا، فيما عدا بالطبع اختطافه لي لأدخل سيارته.

«هل هناك أي شيء تود إخباري به يا ماركوس؟»

«مثل ماذا؟ هل أنا رهن الاعتقال؟»

فقال ذو المخاط: «لست رهن الاعتقال الآن، هل تود أن تكون كذلك؟»

فأجبته: «كلا.»

«حسنًا، نحن نراقبك منذ مغادرتك محطة بارت، وبطاقة «فاست باس» الخاصة بك تشير إلى أنك قد ركبت القطار لعدة أماكن غريبة في العديد من الأوقات غير المعتادة.»

أشعرتني كلماته بالارتياح؛ فلم يتعلق الأمر إذن بشبكة «إكس نت» على الإطلاق. لقد كانوا يراقبون استخدامي لمترو الأنفاق، وأرادوا أن يعرفوا سبب اتسامه بالغرابة مؤخرًا. يا له من غباء مطبق!

«إذن، فأنتم تتبعون جميع من يخرج من محطات بارت ولديه تاريخ رحلات غريب؟ لا بد أنكم مشغولون حقًّا.»

«ليس الجميع يا ماركوس. يصلنا تنبيه عندما يخرج أي شخص له تاريخ رحلات غير معتاد، ويساعدنا ذلك في تقييم ما إذا كنا بحاجة للتحقيق في الأمر أم لا. وفي حالتك، جئنا إليك لرغبتنا في معرفة سبب امتلاك فتى ذكي مثلك تاريخ رحلات عجيبًا كهذا.»

هكذا، وبعد أن اختفى شبح دخول السجن الذي كان يلوح أمامي، ازداد غضبي. لا يحق لهؤلاء الناس التجسس عليَّ ... يا إلهي! محطة بارت ليس من حقها «مساعدتهم» في ذلك. أين أبلغت بطاقة مرور مترو الأنفاق خاصتي عن «نمط رحلاتي غير المعتاد»؟

قلت لهما: «أعتقد أنني أرغب في أن يتم اعتقالي الآن.»

رجع الرجل ذو المخاط بظهره إلى الخلف، ونظر إليَّ رافعًا أحد حاجبيه.

«حقًّا؟ وما التهمة؟»

«حسنًا، أنت تعني أن ركوب المواصلات العامة على نحو غير معتاد ليس جريمة؟»

أغمض ذو البثرة عينيه، وفركهما بإبهاميه.

تنهد ذو المخاط على نحو مصطنع، وقال: «انظر يا ماركوس، نحن نؤيدك فيما تقول. إننا نستخدم هذا النظام للقبض على المجرمين والإرهابيين وتجار المخدرات. لعلك أنت نفسك تاجر مخدرات، وبطاقة «فاست باس» وسيلة جيدة للتنقل في أرجاء المدينة دون التعرف على هويتك.»

«ما الخطأ في أن أكون مجهول الهوية؟ لقد استفاد من ذلك الرئيس توماس جيفرسن. وبالمناسبة، هل أنا رهن الاعتقال؟»

قال ذو البثرة: «لنأخذه إلى المنزل، ونتحدث مع والديه.»

قلت: «أعتقد أن هذه فكرة رائعة، فأنا موقن أنَّ والديَّ يتوقان لمعرفة أين تُنفَق أموال الضرائب التي يدفعانها ...»

تماديت في حديثي. كان ذو المخاط يحاول الوصول إلى مقبض الباب، لكنه استدار نحوي، وقد برزت في وجهه أوردته الخافقة. «لماذا لا تخرس الآن ولا يزال ذلك خيارًا أمامك؟ بعد كل ما حدث في الأسبوعين الماضيين، لن يضرك كثيرًا التعاون معنا. أتعلم، لعله ينبغي أن نقبض عليك. يمكن أن تقضي يومًا أو اثنين في السجن بينما يبحث عنك محاميك. والكثير يمكن أن يحدث في ذلك الوقت ... الكثير. ما رأيك؟»

لم أنطق. أصابني الدوار والغضب، وصرت مخبولًا فزعًا.

تمكنت أخيرًا من قول: «أنا آسف»، وكرهت نفسي للمرة الثانية لنطقي بها.

انتقل ذو المخاط إلى المقعد الأمامي، وأدار ذو البثرة السيارة منطلقًا في شارع ٢٤ ثم إلى حي بتريرو هيل. لقد عرفا عنواني من بطاقة هويتي.

فتحت أمي الباب عندما دقَّا الجرس، مع إبقاء السلسلة مغلقة. ألقت نظرة خاطفة من ورائه، فرأتني وقالت: «ماركوس؟! من هذان الرجلان؟»

أجاب ذو المخاط: «شرطة»، وأظهر شارته لها، مع السماح لها بإلقاء نظرة جيدة عليها دون أن يستلها سريعًا على النحو الذي فعله معي. «هل يمكننا الدخول؟»

أغلقت أمي الباب، وفتحت السلسلة، وسمحت لهما بالدخول. قاداني للداخل، ورمقت أمي ثلاثتنا بإحدى نظراتها التي أعرفها.

«ماذا يحدث؟»

أشار ذو المخاط إليَّ، وقال: «أردنا أن نطرح على ابنك بعض الأسئلة الروتينية بشأن تحركاته، لكنه رفض الرد عليها، ورأينا أنه من الأفضل إحضاره إلى هنا.»

«هل هو رهن الاعتقال؟» جاءت لهجة والدتي حادة. أحسنتِ يا والدتي العجوز!

قال ذو البثرة: «هل أنتِ مواطنة أمريكية يا سيدتي؟»

رمقته بنظرة يملؤها الغضب، وقالت بلهجة جنوبية قوية: «بالطبع! هل أنا رهن الاعتقال؟»

تبادل الشرطيان النظر أحدهما للآخر.

بادر ذو البثرة الحديث قائلًا: «يبدو أننا بدأنا بداية سيئة. لقد توصلنا إلى أن ابنك يستخدم المواصلات العامة على نحو غير معتاد، وذلك في إطار برنامج جديد وقائي لتنفيذ القانون، وعندما نحدد أشخاصًا لهم نمط رحلات غير معتاد، أو يتشابه مع شخص مثير للشبهات، نواصل التحقيق في الأمر.»

قالت أمي: «انتظر! كيف علمتم بكيفية استخدام ابني للمواصلات العامة؟»

أجابها قائلًا: «بطاقة «فاست باس»؛ فهي تتعقب الرحلات.»

فقالت والدتي وهي تطوي ذراعيها على صدرها: «فهمت.» وطيُّ والدتي لذراعيها على صدرها علامة سيئة. كان الأمر سيئًا بالفعل لعدم تقديمها الشاي لهما — عند والدتي، كان هذا يعني عدم ترحيبها بهما — لكن طيها لذراعيها كان معناه أن الأمر سينتهي نهاية سيئة لهما. في تلك اللحظة، أردت الذهاب لشراء باقة كبيرة من الورود لها.

«رفض ماركوس إخبارنا بسبب تحركاته على هذا النحو.»

«هل تعنيان أنكما تعتقدان أن ابني إرهابي بسبب نهجه في ركوب المواصلات؟»

قال ذو البثرة: «ليس الإرهابيون وحدهم من نقبض عليهم باتباع هذه الطريقة، هناك أيضًا تجار المخدرات وشباب العصابات، بل وسارقو المتاجر ممن هم بالقدر الكافي من الذكاء لارتكاب جرائمهم في حي مختلف في كل مرة.»

«أتعتقدان أن ابني تاجر مخدرات؟»

شرع ذو البثرة في الحديث: «ليس هذا ما نقوله ...» فصفَّقت والدتي أمامه لإسكاته.

«ماركوس، ناولني رجاءً حقيبة الظهر خاصتك.»

ففعلت.

فتحت والدتي الحقيبة، وفتشتها، بعد أن أدارت ظهرها لنا.

«أيها الشرطيان، أستطيع أن أؤكد لكما الآن أنه ما من مخدرات أو متفجرات أو أية حُليٍّ رخيصة مسروقة في حقيبة ابني. أعتقد بذلك أننا نكون قد انتهينا مما نحن بصدده. أريد الاطلاع على رقمَيْ شارتيكما قبل أن تغادرا، من فضلكما.»

رمقها ذو المخاط بنظرة استهزاء، وقال لها: «يقاضي الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية ثلاثمائة شرطي من جهاز شرطة سان فرانسيسكو يا سيدتي؛ ومن ثَمَّ، عليكِ انتظار دورك.»

أعدت لي أمي كوبًا من الشاي، ووبختني لتناولي العشاء رغم علمي بإعدادها الفلافل. حضر والدي إلى المنزل بينما كنا لا نزال على المائدة، وتناوبتُ مع أمي إخباره بما حدث. هزَّ والدي رأسه.

«إنهما يؤديان عملهما فحسب يا ليليان.» كان لا يزال يرتدي السترة الزرقاء والسروال الكاكي الذين اعتاد ارتداءهما أثناء عمله كمستشار في وادي السيليكون. استطرد حديثه قائلًا: «لم يعد العالم كما كان الأسبوع الماضي.»

أنزلت والدتي كوب الشاي الذي كانت تشربه. «درو، هذا سخف! ابنك ليس إرهابيًّا، واستخدامه لجهاز النقل العام ليس سببًا لاستجواب الشرطة له.»

خلع والدي سترته، وقال: «هذا ما نفعله دومًا في العمل، فهكذا يمكن استخدام الكمبيوتر للوصول إلى كافة الأخطاء والحالات الشاذة والنتائج. نطلب من الكمبيوتر إنشاء ملف تعريفي لسجل عادي في قاعدة البيانات، ثم نطلب منه الكشف عن السجلات الموجودة في قاعدة البيانات البعيدة تمامًا عما هو عادي. إنه جزء مما يعرف بتحليل بايزي، الذي يُستخدم منذ فترة طويلة. ودونه لا يمكننا تصفية البريد العشوائي ...»

سألته: «إذن، فما تقوله هو أن الشرطة يجب أن تفعل بنا مثلما تفعل أداة تصفية البريد العشوائي؟»

لم يغضب والدي قط عند جدالي معه، لكن الليلة بدا توتره في تزايد. رغم ذلك، لم أستطع المقاومة؛ فوالدي يناصر الشرطة!

«ما أقوله هو أنه من المنطقي تمامًا أن تجري الشرطة تحقيقاتها بأن تبدأ بالتنقيب في البيانات، ثم جمع المعلومات حيث يتدخل العنصر البشري للتوصل إلى سبب الخروج عن المعتاد. ولا أرى أن جهاز الكمبيوتر يجب أن يخبر الشرطة بمن تعتقله، وإنما يساعدها فحسب في تفتيش كوم القش بحثًا عن إبرة.»

قلت: «لكن بحصولهم على كل هذا الكم من البيانات من نظام النقل، فإنهم يخلقون كوم القش. إنه كم هائل من البيانات، وما من شيء يستحق البحث عنه فيه، من وجهة نظر الشرطة. إنه مضيعة تامة للوقت.»

«أتفهم عدم رضاك عما تسبب فيه هذا النظام من إزعاج لك يا ماركوس، لكنك من بين كل الناس عليك أن تقدر خطورة الموقف. ما من ضرر وقع، أليس كذلك؟ بل إنهما أوصلاك إلى المنزل أيضًا.»

فكرت في أنهما هدداني بالسجن، لكنني لم أجد داعيًا لذكر ذلك.

«بالإضافة إلى ذلك، فإنك لم تخبرنا بعدُ أين ذهبت ليصبح لك هذا النمط غير المعتاد من التحركات.»

أخرستني هذه الكلمات.

«أعتقد أنك تثق في حُكمي، ولذلك لم تتجسس عليَّ.» كثيرًا ما كان يقول ذلك. «هل تريدني حقًّا أن أفسر كل رحلة قمت بها؟»

ما إن وصلتُ إلى غرفتي حتى التقطتُ جهاز «الإكس بوكس». كنت قد ثبَّتُّ جهاز البروجيكتور بالسقف ليلقي بإضاءته على الحائط فوق سريري (لزم عليَّ إنزال اللوحة الجدارية الرائعة لإعلان موسيقى البانك روك، الذي أزلته من على أعمدة خطوط الهاتف وألصقته على ألواح كبيرة من الورق الأبيض).

قمت بتشغيل جهاز «إكس بوكس»، وشاهدته وهو يظهر على الشاشة. كنت سأرسل بريدًا إلكترونيًّا إلى فان وخولو لأخبرهما بشأن شجاري مع الشرطيين، لكن ما إن وضعت أصابعي على لوحة المفاتيح حتى تراجعت.

تسلل إلى داخلي شعور يشبه ما شعرت به عندما أدركت أنهم حوَّلوا جهاز «سالمجندي» القديم المسكين الخاص بي إلى خائن. وهذه المرة كان شعورًا بأن شبكة «إكس نت» العزيزة قد تشي بموقع كل من يستخدمها لوزارة الأمن الوطني.

والسبب في ذلك الشعور هو ما قاله والدي: «نطلب من الكمبيوتر إنشاء ملف تعريفي لسجل عادي في قاعدة البيانات، ثم نطلب منه الكشف عن السجلات الموجودة في قاعدة البيانات البعيدة تمامًا عما هو عادي.»

كانت شبكة «إكس نت» مؤمَّنة لأن مستخدميها لا يتصلون مباشرةً بالإنترنت، وإنما كانوا يتنقلون من جهاز إكس بوكس لآخر حتى يعثروا على جهاز متصل بالإنترنت، ثم يُدخِلوا ما لديهم كبيانات مُشفَّرة غير قابلة لفكِّ شفرتها. ولا يمكن لأحد أن يحدد حزم بيانات الإنترنت التي تمثل شبكة إكس نت، والأخرى التي لا تمثل سوى اتصالات صريحة للعمليات المصرفية أو التجارة الإلكترونية أو غير ذلك من الاتصالات المشفَّرة. فلا يمكن التوصل إلى من يربط شبكة إكس نت بعضها ببعض، ناهيك عمَّن يستخدمها.

لكن ماذا عن «الإحصائيات البايزية» التي تحدث عنها أبي؟ سبق لي التلاعب بهذه التحليلات من قبل. حاولت أنا وداريل في إحدى المرات إنشاء أداة تصفية بريد عشوائي أفضل خاصة بنا، وعند تصفية البريد العشوائي تحتاج للعمليات الإحصائية البايزية. توماس بايزي رياضي بريطاني عاش في القرن الثامن عشر، لم يُعِره أحد اهتمامًا إلا بعد نحو مائتي عام من وفاته، وذلك عندما أدرك علماء الكمبيوتر أن أسلوبه في تحليل الكميات الهائلة من البيانات إحصائيًّا يمكن أن يكون له فائدة مذهلة مع تلال المعلومات التي نعاصرها الآن.

إليك بعض المعلومات حول كيفية عمل الإحصائيات البايزية. لنفترض أن لديك مجموعة من رسائل البريد العشوائي، تأخذ كل كلمة في هذه الرسائل وتحصي عدد مرات ظهورها. يُعرَف هذا باسم «المدرج الإحصائي لتكرار الكلمات»، ويوضح احتمالية أن تكون أية مجموعة من الكلمات بريدًا عشوائيًّا. والآن، فلتأخذ كمًّا هائلًا من البريد الإلكتروني غير العشوائي، وتكرر ما فعلته من قبل.

انتظر حتى تصلك رسالة بريد إلكتروني جديدة، وأحصِ الكلمات التي تظهر فيها. استخدم بعد ذلك المدرج الإحصائي لتكرار الكلمات في الرسالة المُرشَّحة لحساب احتمالية انتمائها لمجموعة «البريد العشوائي» أو «البريد غير العشوائي»، وإذا اتضح أنها بريد عشوائي، فقم بتعديل المدرج الإحصائي «للبريد العشوائي» وفقًا لذلك. هناك العديد من

الطرق لتحسين هذه التقنية، مثل البحث عن الكلمات في أزواج، مع التخلص من البيانات القديمة، لكن هذا هو جوهر عملها. إنها إحدى تلك الأفكار البسيطة الرائعة التي تبدو واضحة بعد سماعك عنها.

ولها العديد من التطبيقات؛ فيمكنك أن تطلب من الكمبيوتر أن يحصي الخطوط في إحدى الصور، وترى ما إذا كانت أشبه بمدرج إحصائي تكراري لخطوط «قطة» أم «كلب». ويمكن أن تكشف عن مواد إباحية، أو احتيال مصرفي، أو رسائل عدائية في منتدى إلكتروني أو ما شابه ... كلها أشياء مفيدة بالطبع.

وهذا أمر سيئ فيما يتعلق بشبكة «إكس نت»؛ فإذا كنت تتجسس على الإنترنت بالكامل — وهذا بالطبع ما تفعله وزارة الأمن الوطني — فلا يمكنك تحديد من يمرر حزم بيانات «إكس نت» من خلال النظر في محتويات هذه الحزم، وذلك بفضل التشفير.

ما بإمكانك فعله حقًّا هو معرفة من يرسل أكبر نسبة معلومات مشفرة مقارنة بالآخرين؛ فجلسة العمل على الإنترنت للمتصفح العادي يكون على الأرجح ٩٥ بالمائة منها نصًّا غير مشفر، و٥ بالمائة نصًّا مُشفَّرًا؛ ومن ثَمَّ، إذا كان ٩٥ بالمائة مما يرسل به شخص ما نصًّا مُشفَّرًا، فقد تُرسِل شرطيين في نفس معرفة الشرطيين ذي المخاط وذي البثرة بالكمبيوتر لسؤالهما عما إذا كان مستخدم شبكة إكس نت تاجر مخدرات أو إرهابيًّا أم لا.

يحدث ذلك دومًا في الصين. يتوصل أحد المعارضين الأذكياء إلى فكرة بشأن الالتفاف حول «جدار الحماية العظيم» في الصين، وهو الجدار المستخدَم للرقابة على اتصالات الإنترنت في الدولة بأكملها، من خلال استخدام اتصال مُشفَّر بجهاز كمبيوتر في دولة أخرى. ولا يستطيع الحزب الشيوعي هناك تحديد ما يتصفحه المعارض على الإنترنت؛ فربما يكون موادَّ إباحية، أو إرشادات لصنع القنابل، أو رسائل جنسية من صديقته في الفلبين، أو موادَّ سياسية، أو أخبارًا جيدة عن العِلمولوجيا. ليس عليهم أن يعرفوا، كل ما عليهم معرفته هو أن نسبة الاستخدام المشفَّر للشبكة من هذا الشاب أكثر بكثير من جيرانه، عندئذٍ يرسلونه إلى أحد معسكرات العمل القسريِّ ليكون عبرة للآخرين عندما يرون ما يحدث لمن يظنون أنفسهم أذكياء.

حتى ذلك الحين، كنت على استعداد للمراهنة على أن شبكة «إكس نت» خاضعة لرقابة وزارة الأمن الوطني، لكن هذا الحال لن يدوم للأبد. وبعد الليلة، لم أكن متأكدًا من أنني أفضل حالًا من أي معارض صيني. إنني أعرِّض كل من يقومون بالدخول على تلك الشبكة للخطر؛ فالقانون لا يأْبَه بما إذا كنت ترتكب جرمًا حقًّا، ورجاله على استعداد

لوضعك تحت المِجهر لمجرد أنك تتبع نمطًا سلوكيًّا غريبًا إحصائيًّا. وما كان بيدي إيقاف ذلك؛ فبعد تشغيل شبكة «إكس نت»، صارت كيانًا مستقلًّا.

عزمت على إصلاح ذلك بطريقة أخرى.

تمنيت التحدث مع خولو في هذا الشأن. كان خولو يعمل لدى إحدى شركات توفير خدمات الإنترنت تحمل اسم «بيجسبلين نت»، والتي قد وظفته وهو في سن الثانية عشرة؛ ففاقت معرفته بالإنترنت ما أعرفه بكثير. وإذا كان هناك من يعرف كيف نظل بعيدًا عن السجن، فسيكون هو.

لحسن الحظ، خططت أنا وفان وخولو للالتقاء لشرب القهوة الليلة التالية في مكاننا المفضل في حي ميشن بعد الدوام المدرسي. كان ذلك — رسميًّا — موعد الاجتماع الأسبوعي لفريق «هاراجوكو فان مادنس»، بيد أنه مع إلغاء اللعبة وغياب داريل، لم يتعدَّ الأمر كونه تجمعًا أسبوعيًّا للبكاء، تصحبه نحو ست مكالمات هاتفية ورسائل فورية يوميًّا من قبيل: «هل أنت بخير؟ هل حدث ذلك بالفعل؟» كان من الأفضل أن نجد شيئًا آخر نتحدث عنه.

قالت فانيسا: «لقد فقدت صوابك. هل أنت مجنون كليةً، أم ماذا؟»

جاءت فان بزي مدرسة الفتيات الذي كانت ترتديه؛ وذلك لأنه كان من الصعب عليها أن تقطع الطريق الطويل للعودة إلى منزلها في حافلة المدرسة التي تسير بها أعلى جسر سان ماتيو ثم تعود إلى المدينة. لقد كرهت الظهور في أماكن عامة بزي المدرسة الأشبه بزي بطلة قصص المانجا المصورة «سيلور مون» المؤلَّف من تنورة بثنيات، وسترة، وجوارب تصل للركبتين. وقد كانت في حالة مزاجية سيئة منذ وصولها إلى المقهى الذي كان يعج بطلاب موسيقى الإيمو الجذابين الأكبر منها سنًّا، الذين أطلقوا ضحكات خافتة وأنظارهم مثبتة على القهوة التي يشربونها عند دخولها المقهى.

سألتُها: «ماذا تريدينني أن أفعل يا فان؟» بدأ الغضب يتملكني أنا أيضًا. لم تعد المدرسة تُحتمَل الآن بعد إلغاء اللعبة وغياب داريل. وطوال اليوم أثناء الحصص المدرسية، كنت أعزي نفسي بالتفكير في التقائي بفريقي ... أو بالأصح مَن تبقى منه. أما الآن، فنحن نتشاجر.

«أريدك أن تتوقف عن المجازفة يا مايكي.» وقف حينها شعر رأسي من الهلع. كنا نستخدم، بالطبع، دومًا أسماء الفريق في اجتماعاتنا، لكن الآن وبعد أن صار اسمي مرتبطًا أيضًا باستخدامي لشبكة «إكس نت»، أفزعني سماعه على الملأ في مكان عام.

رددت بحدة: «لا تستخدمي هذا الاسم على الملأ ثانيةً.»

فهزت فان رأسها، وقالت: «هذا بالضبط ما أتحدث عنه. قد يكون مآلك السجن لما تفعله يا ماركوس، ولا يقتصر ذلك عليك وحدك، بل العديد من الناس، بعد ما حدث لداريل …»

«أفعل ذلك من أجل داريل!» أدار طلبة موسيقى الإيمو مقاعدهم للنظر إلينا، فخفضت صوتي، واستطردت: «أفعل ذلك لأن البديل هو السماح لهم بالإفلات بكل ما فعلوه.»

«هل تعتقد أن بإمكانك إيقافهم؟ لقد فقدت صوابك. إنهم الحكومة.»

فأجبت: «ولا تزال هذه بلادنا. لا يزال من حقنا فعل ذلك.»

بدت فان وقد أوشكت على البكاء. التقطتْ نفسين عميقين ونهضت، ثم قالت: «آسفة، لا يمكنني فعل ذلك، لا يمكنني مشاهدتك وأنت تفعل ذلك. إنه أشبه بمشاهدة تحطم سيارة بالتصوير البطيء. ستدمر نفسك، وحبي لك يمنعني من مشاهدة ذلك وهو يحدث.»

مالت عليَّ، عانقتني بشدة، وطبعت قبلة قوية على وجنتي اقتربت فيها من فمي، ثم قالت: «اعتنِ بنفسك يا ماركوس.» اشتعلت النار في فمي باقتراب شفتيها منه. قبَّلَتْ خولو أيضًا، لكن على وجنته مباشرةً، ثم غادرت.

حدقت أنا وخولو كلٌّ منا في الآخر بعد رحيلها.

وضعت يديَّ على وجهي، وأخيرًا قلت: «اللعنة!»

ربَّت خولو على ظهري، وطلب لي كوبًا آخر من القهوة، وقال: «سيكون الحال على ما يرام.»

«اعتقدت أن فان — دون كل الناس — ستتفهم.» نصف عائلة فان تعيش في كوريا الشمالية، ولم ينسَ والداها قط العدد الكبير من ذويهم الذين يعيشون في ظل حكم ديكتاتور خَبِل، ولا يملكون الهروب إلى أمريكا مثلما فعلا هما.

هزَّ خولو كتفيه، وقال: «لعل ذلك ما أفزعها؛ فهي تعلم مدى الخطورة التي يمكن أن يصل إليها الأمر.»

علمت ما كان يتحدث عنه؛ زُجَّ باثنين من أعمام فان في السجن، ولم يظهرا ثانيةً مطلقًا.

فقلت: «نعم، أعلم.»

«لماذا لم تكن على شبكة إكس نت ليلة أمس؟»

شعرت بالامتنان لتغيير الموضوع. شرحت له الموضوع بالكامل، بما في ذلك التحليل البايزي وخوفي من عدم تمكننا من استخدام شبكة إكس نت كما اعتدنا دون التعرض للاعتقال. استمع إليَّ باهتمام.

«أفهم ما تقوله. المشكلة أنه لو تضمن اتصال الإنترنت لشخص ما قدرًا كبيرًا من التشفير، فسيُعَد غريبًا. وفي حال عدم استخدام التشفير، يصير من اليسير على الأشرار التجسس عليك.»

«نعم، حاولت طوال اليوم الوصول لحل. ربما يمكننا إبطاء الاتصال، ونشره على عدد أكبر من حسابات الأفراد ...»

فأجابني: «لن يفيد ذلك. لإبطاء الاتصال بالقدر الكافي للاختفاء وسط البيانات المتداخلة، سيكون عليك في الأساس إيقاف تشغيل الشبكة، الأمر الذي لا يُعَد اختيارًا.»

قلت له: «أنت على حق، لكن ماذا بأيدينا فعله غير ذلك؟»

«ماذا إذا غيرنا تعريف كلمة «عادي»؟»

لهذا عينت شركة «بيجسبلين» خولو للعمل معها وهو في سن الثانية عشرة؛ فعندما تكون أمامه مشكلة لها حلَّان سيئان، يتوصل إلى حل ثالث مختلف تمامًا قائم على استبعاد كافة افتراضاتك. أومأت برأسي بقوة، وقلت له: «استمر، هاتِ ما عندك.»

«ماذا إذا كان مستخدم الإنترنت العادي بسان فرانسيسكو ينطوي استخدامه العادي للإنترنت على قدر أكبر من التشفير؟ إذا تمكنا من تغيير التوزيع بحيث تكون نسبة النص غير المشفر إلى النص المُشفَّر متعادلة، فسيبدو مستخدمو شبكة «إكس نت» مثل المستخدمين العاديين.»

«لكن كيف نفعل ذلك؟ لا يأبه الناس كثيرًا بشأن خصوصيتهم بقيامهم بتصفح الإنترنت من خلال رابط مُشفَّر، ولا يرون أهمية في أن يعلم المتجسِّسون ما يبحثون عنه على جوجل.»

«نعم، لكن صفحات الإنترنت تمثل نسبة صغيرة من استخدام البيانات. وإذا جعلنا الناس ينزلون دومًا بضعة ملفات مُشفَّرة ضخمة يوميًّا، فسيبلغ النص المُشفَّر الآلاف من صفحات الإنترنت.»

قلت له: «تتحدث عن شبكة مستقلة.»

فأجابني: «لقد فهمت ما أقصده.»

الشبكة المستقلة هي ما جعل شركة «بيجسبلين نت» واحدة من أكثر شركات توفير خدمات الإنترنت المستقلة نجاحًا في العالم. عندما بدأت كبرى شركات التسجيلات الموسيقية في مقاضاة عملائها لتنزيل المقاطع الموسيقية الخاصة بها، أصاب الذعر الكثير من شركات التسجيلات الموسيقية المستقلة ومن يتعاملون معها من فنانين. فكيف تجني الشركات المال بمقاضاة عملائها؟

توصلت مؤسِّسَة شركة «بيجسبلين» إلى الإجابة عن هذا السؤال؛ فعقدت اتفاقًا مع أي فنان يرغب في التعاون مع معجبيه بدلًا من محاربتهم: إذا أعطيت شركة «بيجسبلين» تصريحًا لتوزيع موسيقاك على عملائها، فسوف تمنحك نسبة من رسوم الاشتراك حسب مدى شعبية موسيقاك. إن المشكلة الكبرى للفنان المستقل ليست القرصنة، وإنما عدم الشهرة؛ بمعنى ألا يهتم أحد بما فيه الكفاية بألحانك لسرقتها.

ونجحت الفكرة؛ إذ وقَّعت المئات من شركات إنتاج الموسيقى والفنانين مع شركة «بيجسبلين». وكلما زادت الموسيقى بالموقع، زاد عدد المعجبين الذين يحصلون على خدمة الإنترنت من شركة «بيجسبلين»، وزاد مقدار المال الذي يحصل عليه الفنانون. وفي خلال عام، حصدت الشركة مائة ألف عميل جديد، وصار لديها الآن مليون عميل؛ أي أكثر من نصف عملاء الاتصالات واسعة النطاق في المدينة.

قال خولو: «عملت على تطوير كود الشبكة المستقلة لشهور الآن. كُتِبت البرامج الأصلية على نحو سريع وسيئ للغاية، ويمكن جعلها أكثر كفاءة بقليل من العمل، لكنني لم أجد الوقت فحسب. تمثلت إحدى أهم المهام في تشفير الاتصالات؛ لأن ترودي تفضل ذلك.» ترودي دو هي مؤسِّسة شركة «بيجسبلين». كانت فيما سبق أسطورة البانك روك في سان فرانسيسكو، المغنية الرئيسية في الفرقة النسوية الفوضوية «سبيدهورز»، وكان لديها ولع بشأن الخصوصية. كان بوسعي تصديق أنها تشفر ما تقدمه من خدمات موسيقية بناءً على مبادئ عامة.

«هل سيكون ذلك صعبًا؟ أعني كم سيستغرق من الوقت؟»

أجاب خولو: «حسنًا، يتوفر قدر هائل من الأكواد المشفَّرة مجانًا على الإنترنت، بالطبع.» وفعل مثلما فعل عند محاولته حل مشكلة كود معقد: شرد بذهنه، ونقر براحتيه على الطاولة، فانسكبت بعض القهوة في صحن الفنجان. شعرت برغبة في الضحك. قد يكون كل شيء مدمرًا ومخيفًا، لكن خولو سيكتب ذلك الكود.

«هل بوسعي المساعدة؟»

نظر إليَّ، وقال: «ماذا؟ أتعتقد أنني غير قادر على تدبر الأمر؟»

«ماذا؟»

«أعني أنك أنهيت العمل على شبكة إكس نت بالكامل دون أن تخبرني … دون أن تتحدث معي. اعتقدت أنك لم تحتج إلى مساعدتي في هذا الأمر.»

أخرستني كلماته، وكررت قولي: «ماذا؟» بدا خولو حانقًا حقًّا الآن. كان من الجلي أن ذلك يعتمل في صدره منذ فترة طويلة. «خولو …»

نظر نحوي، وتمكنت من رؤية غضبه الشديد. كيف لم أنتبه لذلك؟ يا إلهي! أكون مغفلًا حقًّا في بعض الأحيان. قال: «انظر يا صديقي، ليس هذا بالأمر المهم — كان يقصد بشكل واضح أنه مهم للغاية — كل ما هنالك أنك لم تطلب المساعدة قط. إنني أكره وزارة الأمن الوطني، وداريل كان صديقي أيضًا. كان بإمكاني حقًّا المساعدة في ذلك.»

شعرت بخجل شديد من نفسي، وقلت له: «اسمع يا خولو، كان ذلك غباءً مني حقًّا. لقد نفذت الأمر في الثانية صباحًا تقريبًا. كنت خبلًا حينها. إنني …» لم أتمكن من التفسير. نعم، لقد كان على حق، وهذه هي المشكلة. كانت الثانية صباحًا، لكن كان بإمكاني مع ذلك التحدث معه في الأمر في اليوم التالي أو الذي يليه. لم أفعل لأنني كنت أعلم ما كان سيقوله، كان سيقول إنه عمل محفوف بالمخاطر، وإنني بحاجة لإعادة النظر فيه. طالما تمكن خولو من تحويل ما يراودني من أفكار في الثانية صباحًا إلى كود حقيقي، لكن ما كان يتوصل إليه كان دائمًا مختلفًا بعض الشيء عما كنت أتوصل إليه. لقد أردت المشروع لنفسي، وتملكتني شخصية مايكي تمامًا.

قلت أخيرًا: «آسف، إنني آسف حقًّا، فأنت معك كل الحق. لقد فزعت فقط، وكان تصرفي أحمق. إنني بحاجة لمساعدتك حقًّا، ولا يمكنني تنفيذ هذا العمل بدونك.»

«هل تعني ما تقوله؟»

«بالطبع أعنيه. فأنت أفضل مصمم أكواد رأيته. إنك لعبقري حقًّا يا خولو، وسيشرفني أن تعينني في ذلك.»

أخذ ينقر بأصابعه أكثر، ثم قال: «إنه فقط … أنت تعلم. إنك القائد، وفان الشخص الذكي، وداريل كان … نائبك، من ينظم كل شيء ويراقب التفاصيل. أما البرمجة، فهذه كانت مهمتي؛ لذا، شعرت كما لو أنك تقول إنك لست بحاجة إليَّ.»

«يا إلهي! يا لي من أحمق! إنك أكثر من أعرفهم كفاءة — يا خولو — في فعل ذلك. إنني حقًّا، حقًّا …»

«حسنًا، لا بأس. كفى، إنني أصدقك. وضعنا الآن يُرثَى له؛ لذا يمكنك بالطبع المساعدة، وربما يمكننا أن ندفع لك أيضًا مقابل خدماتك؛ فلدي ميزانية صغيرة للمبرمِجين المتعاقِدين من الخارج.»

«حقًّا؟» لم يدفع لي أحد المال مقابل تصميم الأكواد من قبل.

«بالتأكيد، فأنت على الأرجح بالكفاءة التي تؤهلك لذلك.» ابتسم ابتسامة عريضة، ولكمني في كتفي. يتسم خولو بطبع هادئ في أغلب الأحيان؛ ولذلك أفزعني كثيرًا ما حدث بيننا منذ قليل.

دفعت ثمن القهوة، وغادرنا المقهى. اتصلت بوالديَّ، وأعلَمتهما بما كنت أفعله. أصرَّت والدة خولو على إعداد الشطائر لنا. حبسنا أنفسنا في غرفته مع جهاز الكمبيوتر الخاص به وكود الشبكة المستقلة، وبدأنا واحدةً من أعظم عمليات البرمجة في التاريخ. ما إن خلدت أسرة خولو للنوم في الحادية عشرة والنصف تقريبًا حتى تمكنَّا من اختطاف ماكينة القهوة إلى غرفته، وأخذنا نرتشف من مخزون البن السحري.

إذا لم تسبق لك برمجة كمبيوتر، يجدر بك أن تفعل، ما من شيء يضاهيها في العالم أجمع. عندما تبرمج كمبيوتر، فإنه ينفذ ما تمليه عليه بالضبط. إنه أشبه بتصميم ماكينة؛ أيًّا كانت؛ سواء أكانت سيارة، أو صنبورًا، أو مفصل باب، وذلك باستخدام العمليات الرياضية والإرشادات. إن الأمر مذهل حقًّا؛ ويمكن أن يملأ قلبك بالرهبة.

الكمبيوتر أكثر الأجهزة التي قد تستخدمها تعقيدًا على الإطلاق؛ فهو مؤلَّف من البلايين من أجهزة الترانزيستور متناهية الصِّغر التي يمكن تهيئتها لتشغيل أي برنامج قد تتخيله، لكن عندما تجلس أمام لوحة المفاتيح، وتكتب سطرًا من الكود، تنفذ هذه الأجهزة ما تمليه عليها.

معظمنا لن يتسنى له مطلقًا صناعة سيارة، أو نظام طيران، أو تصميم مبنى أو تخطيط مدينة.

فهذه ماكينات أو أشياء معقدة، وتقع خارج نطاق قدرتي وقدرتك، لكن الكمبيوتر أكثر تعقيدًا بكثير، ومع ذلك يرقص على أي نغمة تعزفها. يمكنك تعلم كتابة كود بسيط في فترة وجيزة. لتبدأ بلغة مثل بايثون، وهي اللغة التي كُتِبت لمنح غير المبرمجين وسيلة أيسر لجعل الكمبيوتر يلبي رغباتهم. عليك فعل ذلك، وإن كنت لن تمارس البرمجة إلا ليوم واحد فقط، أو لفترة وجيزة من الوقت. يمكن لأجهزة الكمبيوتر أن تتحكم فيك، أو تخفف من عبء عملك؛ لكنك إذا أردت التحكم في أجهزتك، فعليك أن تتعلم كتابة الأكواد.

أسفرت تلك الليلة عن كتابتنا الكثير من الأكواد.

الفصل الثامن

أهدي هذا الفصل لمتجر بوردرز، ذلك العملاق العالمي لبيع الكتب الموجود في جميع مدن العالم. لن أنسى أبدًا دخول متجر بوردرز الضخم في شارع أورشارد في سنغافورة، واكتشاف رف محمَّل برواياتي! لسنوات عدة، استضاف هذا المتجر في فرعه في شارع أكسفورد بلندن أمسيات بات كاديجان الشهرية للخيال العلمي؛ حيث يقرأ المؤلفون المحليون والزائرون أعمالهم، ويتحدثون عن الخيال العلمي، ويلتقون بمعجبيهم. عندما أكون في مدينة غريبة (وهو ما يحدث كثيرًا)، وأحتاج لكتاب رائع لرحلتي التالية، دائمًا ما أدخل أحد متاجر بوردرز وأجده زاخرًا بالخيارات المذهلة. وأنا متحيز بوجه خاص لفرعه في ميدان يونيون بسان فرانسيسكو.

* * *

لستُ الوحيد الذي عرَّضته المدرجات الإحصائية التكرارية للمشكلات؛ فأنماط التحرك والاستخدام غير طبيعية لدى الكثير من الناس. صار النمط غير الطبيعي هو الشائع، بل إنه أصبح عمليًّا «الطبيعي أو العادي».

امتلأت شبكة «إكس نت» بهذه القصص، وكذلك الصحف ونشرات الأخبار التليفزيونية. أزواج تُكتشَف خيانتهم لزوجاتهم، وزوجات تُكتشَف خيانتهن لأزواجهن، شباب يتضح خروجهم وإقامتهم علاقات غير شرعية مع رفيقات أو رفقاء لهم، شباب لم يخبروا آباءهم بإصابتهم بالإيدز يُكتشَف ذهابهم للمستشفى للحصول على الأدوية.

هؤلاء هم من لديهم شيء يريدون إخفاءه، ليسوا مذنبين، وإنما لديهم أسرار. وهناك عدد أكبر من الناس ليس لديهم ما يخفونه على الإطلاق، لكنهم يستاءون من القبض

عليهم ومساءلتهم. تخيل أن شخصًا ما حبسك في مؤخرة إحدى سيارات الشرطة، وطلب منك إثبات أنك «لست» إرهابيًّا.

لم يقتصر الأمر على المواصلات العامة فحسب. يحتفظ أغلب السائقين في منطقة الخليج ببطاقة مرور «فاستراك» في الواقي من الشمس بسياراتهم. و«فاستراك» هي «محفظة» صغيرة تعمل بالموجات اللاسلكية وتدفع الرسوم بالنيابة عنك عند عبور الجسور، مُجنِّبةً إياك عناء الوقوف في طابور لساعات في ساحات دفع رسوم المرور. وقد زودوا تكلفة الدفع نقدًا ثلاث مرات لتجاوز الجسر (وإن كانوا يتلاعبون بذلك دومًا، من خلال التصريح بأن «فاستراك» أقل تكلفة، وليس أن الدفع نقدًا — الذي يكون دافعه مجهول الهوية — أكثر تكلفة). واختفت المعارضة تمامًا عندما خُفِض عدد حارات الدفع نقدًا إلى حارة واحدة لكل جسر؛ ما ترتب عليه أن طوابير الدفع نقدًا صارت أطول.

ومن ثم، إذا كنت أحد المواطنين المحليين، أو تقود سيارة مؤجرة من وكالة محلية، فستحمل بطاقة «فاستراك». لكن ساحات دفع رسوم المرور ليست المكان الوحيد الذي تُقرَأ فيه بطاقة «فاستراك». لقد وضعت وزارة الأمن الوطني أجهزة لقراءة هذه البطاقات بجميع أنحاء المدينة؛ وعندما تتجاوزها، تسجل الوقت ورقم بطاقة هويتك لتعكس على نحو أفضل مَن ذهب، وأين، ومتى، في قاعدة بيانات تعززها «كاميرات مراقبة السرعة»، و«كاميرات تجاوز الإشارة الحمراء»، وغيرها من كاميرات رصد لوحات أرقام السيارات المنتشرة في كل مكان.

لم يفكر أحد كثيرًا في هذا الأمر. والآن، بعد أن انتبه الناس، بدأنا جميعًا في ملاحظة تفاصيل صغيرة، مثل حقيقة أن «فاستراك» لا يمكن إيقافه.

ومن ثم، إذا كنت تقود سيارة ما، فمن المرجح أن تستوقفك إحدى سيارات شرطة سان فرانسيسكو لتعرف سبب تكرار زيارتك لمتجر هوم ديبو مؤخرًا، وذهابك إلى مدينة سنوما في منتصف الليل الأسبوع الماضي.

أخذت المظاهرات البسيطة، التي اندلعت في أرجاء المدينة في عطلة نهاية الأسبوع، في التزايد؛ فخرج خمسون ألف فرد في مسيرة بشارع ماركت بعد أسبوع من هذه المراقبة. بيد أنني لم أُعِرْ ذلك اهتمامًا؛ فمن احتلوا مدينتي لم يهتموا بما أراده أهلها، إنهم جيش مظفَّر، وقد علموا شعورنا تجاه ذلك.

في صبيحة أحد الأيام، وعند نزولي لتناول الفطور في الموعد المحدد تمامًا، سمعت أبي يخبر أمي أن أكبر شركتين لسيارات الأجرة تقدم «خصمًا» لمن يستخدمون بطاقات

خاصة لدفع الأجرة، والتي من المفترض أن تزيد من أمن السائقين من خلال تقليل كم النقود التي يحملونها. تساءلت عما يمكن أن تُستخدَم فيه المعلومات المتعلقة بمن استقل سيارات الأجرة والمكان الذي توجه إليه.

أدركت مدى اقترابي من الهدف. انتشر عميل الشبكة المستقلة الجديد كتحديث تلقائي مع بدء تدهور الأحوال، وأخبرني خولو أن ٨٠ بالمائة من حركة البيانات التي رآها في شركة بيجسبلين صارت الآن مُشفَّرة. ولعله بذلك يكون قد تم إنقاذ شبكة «إكس نت».

لكن أبي كان يدفعني للجنون.

أثناء تناولنا الفطور في أحد الأيام، أخبرته بشأن الشباب الذين شهدت تفتيش الشرطة لهم بشكل كامل في إحدى محطات بارت في اليوم السابق، فكان رده: «لقد أصبت بجنون الارتياب يا ماركوس.»

«هذا سخف يا أبي، إنهم لا يقبضون على أي إرهابيين، أليس كذلك؟ كل ما يفعلونه هو إرهاب الناس.»

«ربما لم يلقوا القبض على أي إرهابيين بعد، لكنهم يقبضون على الكثير بالتأكيد من المجرمين من الشوارع، ومثال على ذلك تجار المخدرات؛ فيُقال إنه قد أُلقي القبض على العشرات منهم منذ بدء هذه الإجراءات. أتتذكر عندما تعرضتَ للسرقة على يد عدد من مدمني المخدرات؟ إذا لم نقبض على من يبيعون تلك المخدرات لهم، فستزداد الأمور سوءًا.»

كنت قد تعرضت لهجوم العام السابق، لكن من هاجموني اتسموا بالرقي حقًّا؛ فقال لي شاب نحيف رائحته كريهة إنه يحمل سلاحًا، وطلب مني الآخر إعطاءه محفظتي. لكنهما سمحا لي بالاحتفاظ ببطاقة هويتي، وإن أخذا بطاقة السحب وبطاقة «فاست باس». رغم ذلك، أفزعني ذلك الحادث حقًّا، وجعلني أصاب بجنون الارتياب وأنظر خلفي طوال الوقت على مدى أسابيع.

قلت: «لكن معظم من يستوقفونهم لا يفعلون شيئًا خاطئًا يا أبي.» بدأت أنزعج، هل هذا رأي والدي؟! «هذا جنون. في مقابل كل شخص مذنب يلقون القبض عليه، يعاقبون الآلاف من الأبرياء. هذا ليس جيدًا.»

«الأبرياء؟ أزواج خائنون؟ تجار مخدرات؟ تدافع عن هؤلاء، لكن ماذا عن كل الأبرياء الذين لقوا حتفهم؟ إذا لم يكن لديك أي شيء تخفيه ...»

«إذن، فلن يهمك إن استوقفوك دون داعٍ.» أثبتت المدرجات الإحصائية التكرارية الخاصة بوالدي أنها للأسف طبيعية حتى الآن.

أجابني: «سأعتبره واجبي، سأشعر بالفخر، وسيزيد ذلك من شعوري بالأمان.»
القول أيسر من الفعل.

لم تحب فانيسا تحدثي عن هذا الموضوع، لكن فطنتها به جعلت من الصعب عليَّ إبعادها عنه لفترة طويلة. كنا نلتقي دومًا، ونتحدث عن الطقس والمدرسة وغير ذلك، ثم أنتقل بطريقة ما إلى هذا الموضوع. لم تأبه فانيسا عند حدوث ذلك — فهي لم تغضب مني ثانيةً — لكن كان بإمكاني أن أرى أن هذا يزعجها.

ومع ذلك، لم أكف.

«ثم قال أبي: «سأعتبره واجبي»، أيمكنك تصديق ذلك؟ يا إلهي! كدت أخبره بدخولي السجن سائلًا إياه إذا كان يظن أن ذلك «واجبنا»!»

كنا نجلس على النجيل في متنزه «دولوريس» بعد الدوام المدرسي، نشاهد الكلاب وهي تطارد الأطباق الطائرة.

عرجت فان على منزلها، وبدلت ملابسها لترتدي تي شيرت قديمًا لإحدى فرق موسيقى «التكنو بريجا» البرازيلية المفضلة لديها، وهي كيريوكا بروبياديو، والتي تعني الشاب المحظور المولود في ريو دي جانيرو. حصلت على ذلك التي شيرت في إحدى الحفلات التي حضرناها جميعًا قبل ذلك الحين بعامين؛ إذ هربنا حينها لخوض مغامرة مذهلة في ساحة «كاو بالاس». وقد زاد طولها نحو بوصة أو اثنتين منذ ذلك الحين؛ لذا أصبح التي شيرت ضيقًا ويكشف عن بطنها مُظهِرًا سُرَّتها الصغيرة المسطحة.

استلقت فان في الشمس التي ألقت بأشعتها الهادئة على المكان، وأغلقت عينيها خلف نظارتها الشمسية، وأصابع قدميها تهتز في حذائها الخفيف. أعرف فان منذ أمد بعيد، وعندما أفكر فيها، أرى غالبًا الفتاة الصغيرة التي أعرفها، التي ترتدي المئات من الأساور المصنوعة من أجزاء علب المشروبات الغازية وما تحدثه من قعقعة، والتي تعزف على البيانو، ولا يمكنها الرقص وإن توقفت حياتها على ذلك. لكن بجلوسها في ذلك المتنزه، رأيتها فجأة على حقيقتها.

فتاة مثيرة للغاية. كان الأمر أشبه بالنظر إلى صورة مزهريَّة، وملاحظة أنها صورة لوجهين أيضًا. كان بإمكاني رؤية أن فان لم تتغير، لكن بإمكاني أيضًا رؤية كم هي باهرة الجمال، الأمر الذي لم ألحظه قط من قبل.

علم داريل ذلك بالطبع طوال الوقت، وأعتقد أنني شعرت بالحزن عند إدراكي ذلك.

قالت فان: «لا يمكنك أن تخبر والدك، فستعرضنا جميعًا للخطر.» أغلقت عينيها وأخذ صدرها يصعد ويهبط مع أنفاسها، ما كان مشتِّتًا للانتباه على نحو محرج حقًّا.

قلت بوجه عابس: «نعم، لكن المشكلة هي أنني أعلم أنه لا يعني ما يقوله على الإطلاق. إذا ألقيتِ القبض على والدي، وأجبرتِهِ على إثبات أنه ليس متحرشًا بالأطفال، أو إرهابيًّا يتاجر في المخدرات، فسوف يجن جنونه ويصبح خارج السيطرة؛ فهو يكره الانتظار عند اتصاله للاستعلام عن فاتورة بطاقته الائتمانية. واحتجازه في مؤخرة شاحنة واستجوابه لمدة ساعة سيصيبه بتمدد في الأوعية.»

«السبب الوحيد لإفلات من يفعلون ذلك من العقاب هو أن الأفراد الطبيعيين أكثر اعتدادًا بأنفسهم من غير الطبيعيين. إذا قُبِض على الجميع، فستكون كارثة. لن يذهب أحد إلى أي مكان، وسينتظرون جميعًا استجواب الشرطة لهم. ستكون أزمة حقيقية.»

يا إلهي!

قلت لها: «فان، إنكِ عبقرية!»

فقالت: «بالطبع.» ابتسمت ابتسامة هادئة، ونظرت إليَّ بعينين شبه مغمضتين على نحو يكاد يكون رومانسيًّا.

«عن جد، يمكننا فعل هذا. يمكننا التلاعب في ملفات التعريف بسهولة، وسيصبح إلقاء القبض على الناس يسيرًا.»

جلست فان، وأزاحت شعرها عن وجهها، ونظرت إليَّ. شعرت باضطراب بسيط في معدتي، معتقدًا أنها منبهرة بي حقًّا.

قلت لها: «إنها أجهزة نسخ شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية. من اليسير للغاية صنعها. كل ما علينا فعله هو تمرير البرنامج الثابت (الفيرموير) أمام جهاز كتابة/قراءة بثمن عشرة دولارات من متجر «راديو شاك»، وينتهي الأمر. نتجول بعد ذلك بين الناس ونبدل البطاقات بينهم عشوائيًّا، مع تبديل أكواد بطاقات «فاست باس» و«فاستراك» الخاصة بهم. سيجعل ذلك الجميع يبدون غرباء وحمقى، والجميع سيبدون مذنبين؛ ومن ثم تحدث أزمة حقيقية.»

زمَّت فان شفتيها، وأنزلت النظارة الشمسية. أدركتُ حينها أنها وصلت لحالة من الغضب حالت دون تحدثها معي.

قالت وهي تنهض: «وداعًا يا ماركوس.» وقبل أن أدرك ما يحدث، كانت تسير بعيدًا مسرعةً كما لو كانت تركض.

قلت وأنا أنهض وأركض وراءها: «فان! فان! انتظري!»

أسرعتْ في خطاها مُجبِرةً إياي على الركض للحاق بها.

قلت لها وأنا أجذبها من ذراعها: «اللعنة، فان!» أبعدتني عنها بعنف حتى كدت ألكم نفسي في وجهي.

«أنت مريض نفسيًّا يا ماركوس! ستعرض حياة كل من يستخدمون شبكة «إكس نت» التي صممتها للخطر، وفوق كل ذلك، ستحول المدينة بأسرها إلى مشتبه فيهم بتهمة الإرهاب. أليس بوسعك التوقف قبل أن تلحق الضرر بهؤلاء الناس؟»

فتحت فمي وأغلقته مرتين، ثم قلت: «المشكلة ليست فيَّ يا فان، بل فيهم. لست أنا من يقبض على الناس، ويزج بهم في السجون، ويجعلهم يختفون، وزارة الأمن الوطني هي من يفعل ذلك، وأنا أناضل لردعها.»

«كيف؟ بزيادة الأمر سوءًا؟»

«ربما يجب أن يزيد الأمر سوءًا ليتحسن بعد ذلك يا فان. أليس هذا ما قلته؟ إذا قُبِض على الجميع ...»

«لم يكن هذا ما أعنيه، لم أعنِ أنه يجب إلقاء القبض على الجميع. إذا أردت الاحتجاج، فعليك بالانضمام لحركة الاحتجاجات. افعل شيئًا إيجابيًّا. ألم تتعلم أي شيء من داريل؟ أي شيء على الإطلاق؟»

أجبتها وقد بدأت أفقد أعصابي: «بالتأكيد، تعلمت. تعلمت أنه لا يمكن الوثوق في هؤلاء الناس، وأننا نعينهم على ما يفعلونه إذا لم نجابههم، وأنهم سيحولون البلد إلى سجن إذا سمحنا لهم بذلك. ماذا تعلمتِ أنتِ يا فان؟ أن تظلي خائفة دومًا، وتلتزمي الهدوء، وتطأطئي رأسك أملًا في ألَّا يلاحظك أحد؟ هل تعتقدين أن الأمور ستتحسن؟ إذا لم نفعل أي شيء، فسيكون الأمر أسوأ مما نحن عليه الآن، وسيظل يسوء ويسوء من الآن فصاعدًا. أتريدين مساعدة داريل؟ ساعديني إذن في الانتصار عليهم!»

ها هو العهد الذي قطعته على نفسي يظهر من جديد؛ وهو ألا أحرر داريل، وإنما أوقع بوزارة الأمن الوطني بالكامل. إنه ضرب من الجنون، أنا نفسي علمت ذلك. لكن هذا ما خططت لفعله، ولا شك في ذلك.

دفعتني فان بقوة بكلتا يديها. تمتعت بالقوة بفضل الألعاب الرياضية المدرسية — سلاح الشيش، واللكروس، والهوكي، وكافة ألعاب مدارس الفتيات الأخرى — وانتهى بي الأمر على مؤخرتي على أحد أرصفة سان فرانسيسكو القذرة. ابتعدتْ، ولم ألحق بها.

«ليس المهم في أنظمة الأمن كيفية عملها، وإنما كيفية تعطيلها.»

كان هذا السطر الأول في أول مشاركة لي بمدونة «أوبن ريفولت» (أي تمرد صريح)، الموقع الذي أنشأته على شبكة «إكس نت». كتبت باسم «مايكي»، وكنت متأهبًا لخوض المعركة.

«ربما يكون الهدف من الفحص الآلي هو إلقاء القبض على الإرهابيين، ولعله سيفضي إلى ذلك آجلًا أو عاجلًا، لكن المشكلة أنه يلقي القبض علينا نحن أيضًا، رغم أننا لم نرتكب أي جُرم.»

«كلما زاد عدد من يُلقَى القبض عليهم، ازداد هذا النظام ضعفًا. إذا ألقى القبض على عدد كبير جدًّا، فستكون نهايته.»

«هل الفكرة واضحة؟»

شاركت الإرشادات الخاصة بي لتصميم جهاز نسخ شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، وبعض النصائح للاقتراب على نحو كافٍ من الناس لقراءة بطاقاتهم ونسخها. وضعت جهاز نسخ الشرائح الخاص بي في جيب سترة سباقات السيارات الجلدية السوداء الأنيقة خاصتي ذات الجيوب المخفية، وذهبت للمدرسة. تمكنت من نسخ ست بطاقات في الطريق ما بين المنزل ومدرسة شافيز الثانوية.

أرادوا الحرب؛ فها هي الحرب إذن.

في حال عزمت يومًا على ارتكاب حماقة ما كتصميم جهاز كشف آلي عن الإرهاب، فإليك درسًا في الرياضيات ينبغي لك تعلمه أولًا. عنوان الدرس هو: «إشكال النتائج الإيجابية الخاطئة»، وهو درس صعب.

لنفترض أن هناك مرضًا جديدًا اسمه «سوبر إيدز» لا يصاب به سوى واحد في المليون فقط، وطورت اختبارًا للكشف عن هذا المرض تبلغ نسبة دقته ٩٩ بالمائة؛ بمعنى أن نتيجة هذا الاختبار تكون صحيحة في ٩٩ بالمائة من الحالات (تكون النتيجة إيجابية عندما يكون الشخص الخاضع للاختبار مصابًا به، وسلبية عندما يكون سليمًا). وأخضعت مليون شخص للاختبار.

واحد من بين مليون شخص مصاب بسوبر إيدز، وواحد من بين مائة يخضعون للاختبار ستظهر نتيجته «إيجابية خاطئة» (بمعنى أن الاختبار سيشير إلى أنه مصاب

بمرض «سوبر إيدز» رغم عدم إصابته به). هذا ما تعنيه الدقة البالغة ٩٩ بالمائة؛ أي إن واحدًا بالمائة خطأ.

ما نسبة واحد بالمائة من المليون؟

١٠٠٠٠٠٠ / ١٠٠ = ١٠٠٠٠

من بين مليون شخص، هناك شخص واحد مصاب بسوبر إيدز. إذا أخضعت مليون شخص عشوائيًّا للاختبار، فستجد على الأرجح حالة واحدة مصابة بمرض «سوبر إيدز». لكن اختبارك لن يحدد إصابة شخص واحد فقط بالمرض، بل عشرة آلاف شخص.

سيعمل الاختبار، الذي تبلغ نسبة دقته ٩٩ بالمائة، بعدم دقة تبلغ ٩٩,٩٩ بالمائة.

هذا هو إشكال النتائج الإيجابية الخاطئة. عندما تحاول العثور على شيء نادر حقًّا، يلزم أن تتطابق دقة اختبارك مع ندرة الشيء الذي تبحث عنه. وإذا كنت تحاول الإشارة إلى وحدة بكسل واحدة على شاشتك، يعد القلم الرصاص حاد الطرف مؤشرًا جيدًا؛ فطرف القلم الرصاص أصغر بكثير (وأكثر دقة) من وحدات البكسل. لكن طرف القلم الرصاص لا يفيد في الإشارة إلى «ذرة» واحدة في شاشتك. ستحتاج لهذا الغرض إلى مؤشر — اختبار — يبلغ عرض طرفه ذرة واحدة أو أقل.

هذا هو إشكال النتائج الإيجابية الخاطئة، وفيما يلي كيفية تطبيقه على الإرهاب:

الإرهابيون نادرون حقًّا؛ ففي مدينة تعداد سكانها عشرون مليونًا، مثل نيويورك، قد يكون هناك إرهابي أو اثنان، وربما عشرة على الأكثر؛ أي ١٠ / ٢٠٠٠٠٠٠٠ = ٠,٠٠٠٠٥ بالمائة؛ أي واحد على عشرين ألف جزء من المائة في المائة.

هذا نادر للغاية. لنفترض الآن أن لديك برنامجًا يمكنه البحث في جميع السجلات المصرفية، أو سجلات المرور من ساحات دفع الرسوم بالطرق، أو سجلات النقل العام، أو سجلات المكالمات الهاتفية في المدينة، والقبض على الإرهابيين في ٩٩ بالمائة من الحالات.

من بين عشرين مليون شخص، سيتعرف اختبار تبلغ دقته ٩٩ بالمائة على مائتي ألف شخص على أنهم إرهابيون، لكن عشرة منهم فقط سيكونون كذلك. للقبض على الإرهابيين حقًّا، سينبغي القبض على مائتي ألف شخص بريء والتحقيق معهم.

الجدير بالذكر أن اختبارات الكشف عن الإرهابيين لا تقترب في دقتها على الإطلاق من ٩٩ بالمائة؛ فهي تبلغ نحو ٦٠، بل وحتى ٤٠، بالمائة في بعض الأحيان.

يعني كل ذلك أن وزارة الأمن الوطني قد عرَّضت نفسها للفشل الذريع؛ فهي تحاول اكتشاف أحداث نادرة للغاية — تحديد ما إذا كان المرء إرهابيًّا — باستخدام أنظمة غير دقيقة.

ليس من الغريب إذن على الإطلاق أن نتمكن من إحداث مثل هذه الفوضى.

خطوت خارج الباب الأمامي للمنزل وأنا أُصَفِّر صبيحة أحد أيام الثلاثاء بعد أسبوع من عملية «النتائج الإيجابية الخاطئة». كنت أشعر بالاستمتاع الشديد وأنا أستمع لمقطع موسيقي جديد أنزلته من شبكة «إكس نت» الليلة السابقة؛ حيث يرسل الكثيرون إلى «مايكي» هدايا رقمية صغيرة لشكره على بث الأمل في نفوسهم.

انتقلت إلى شارع ٢٣، وسلكت بحذر الطريق الضيق المكون من درجات صخرية الذي تم شقه في جانب التل، وعند نزولي الدرجات، مررت بالسيد «وينر دوج». لم أعرف اسمه الحقيقي، لكنني أراه كل يوم تقريبًا وهو يمشِّي كلابه «الوينر» الثلاثة اللاهثة أعلى الدَّرج وصولًا إلى المتنزه الصغير. والمرور بجانب السيد وينر دوج وكلابه على الدَّرج أمر مستحيل؛ فينتهي بي الحال دومًا عالقًا بسلسلة أحدها، أو داخل إحدى الحدائق الأمامية لمنزل ما، أو جاثمًا على مِصد إحدى السيارات المتوقفة بجوار حاجز على طرف الرصيف.

من الواضح أن السيد وينر دوج شخص مهم؛ فبيده ساعة فاخرة ويرتدي دومًا بذلة أنيقة. افترضت أنه يعمل في وسط المدينة.

ذلك اليوم وعند مروري بالسيد وينر دوج، قمت بتشغيل جهاز نسخ شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية الذي كان موجودًا بالفعل في جيب سترتي الجلدية. نسخ الجهاز الأرقام الموجودة على بطاقات الائتمان الخاصة به ومفاتيح سيارته وجواز سفره والأوراق المالية فئة مائة دولار التي احتوت عليها محفظته.

بيد أن الجهاز — أثناء إجرائه لذلك — كان يُبدِّل هذه الأرقام بأرقام جديدة أُخِذت من أشخاص آخرين مررت بهم من قبل. كان الأمر أشبه بتبديل لوحات الأرقام بين مجموعة من السيارات، لكن بشكل غير مرئي وفوري. ابتسمت ابتسامة اعتذار للسيد وينر دوج، وواصلت نزول الدَّرج. توقفت عند ثلاث سيارات فترة كافية لمبادلة أرقام «فاستراك» الخاصة بها مع الأرقام المأخوذة من جميع السيارات التي مررت بها في اليوم السابق.

قد تظن أنني كنت عدوانيًّا بعض الشيء أثناء فعل ذلك، لكنني كنت حذرًا وحريصًا مقارنةً بالكثير من مستخدمي شبكة «إكس نت»؛ فتوصلت فتاتان تدرسان الهندسة الكيميائية في جامعة كاليفورنيا في بيركلي إلى طريقة تصميم مادة غير ضارة من أدوات المطبخ من شأنها تشغيل أجهزة الكشف عن المتفجرات. نثرتا تلك المادة على سترات

أساتذتهما وحقائبهم، مستمتعتين بما تفعلانه، ثم اختبأتا وأخذتا تراقبان أولئك الأساتذة وهم يحاولون دخول قاعات المحاضرات والمكتبات في الحرم الجامعي، فيوقفهم بعنف رجال الأمن الجدد الذين انتشروا في كل مكان.

رغب آخرون في التوصل إلى كيفية لنثر مواد على أظرف الخطابات تجعل أجهزة الكشف تشير إلى احتوائها على الجمرة الخبيثة، لكن اعتقد الجميع أنهم مجانين. ولحسن الحظ، لم يبدُ أن بإمكانهم فعل ذلك.

مررت بمستشفى سان فرانسيسكو العام، وأومأت برأسي في رضا عندما رأيت الصفوف الطويلة أمام الأبواب الأمامية. كان بها، بالطبع، نقطة تفتيش للشرطة، وكان هناك عدد كافٍ من مستخدمي شبكة «إكس نت» يعملون كأطباء مقيمين وعاملين بالكافيتريات وأية وظيفة أخرى داخل المستشفى؛ ما أسفر عن تعرض شارات الجميع للخلط والتبديل. كنت قد قرأت أن نقاط التفتيش الأمنية أضافت ساعة ليوم عمل الجميع، وهددت النقابات بالاحتجاج ما لم يتصرف المستشفى حيال ذلك.

بعد بضعة مربعات سكنية، رأيت طابورًا أطول لدخول محطة بارت. سار رجال الشرطة جيئة وذهابًا مشيرين للناس للخروج من الطابور وطالبين منهم التنحي جانبًا للاستجواب، وتفتيش الحقائب، والتفتيش الذاتي. ظلوا تُرفَع عليهم القضايا لما يفعلونه، لكن لم يبد أن ذلك يعرقل من خطاهم.

وصلت المدرسة مبكرًا بعض الشيء، وقررت السير لشارع ٢٢ لتناول القهوة. مررت بإحدى نقاط تفتيش الشرطة حيث كانوا يوقِفون السيارات للتفتيش الثانوي.

لم يختلف الحال كثيرًا في المدرسة؛ كان حراس الأمن عند أجهزة الكشف عن المعادن يتحققون من بطاقات هويتنا المدرسية، ويستبعدون الطلاب ذوي التحركات الغريبة ويستجوبونهم. ما من حاجة للقول إن تحركاتنا جميعًا كانت غريبة للغاية، وإن الحصص لم تبدأ إلا بعد ساعة أو أكثر.

سادت الفوضى الفصول. لا أعتقد أن أحدًا كان بوسعه التركيز. سمعت مصادفةً اثنين من المدرسين يتحدثان عن الوقت الطويل الذي استغرقه رجوعهما من المدرسة إلى المنزل اليوم السابق، واعتزامهما التسلل خلسة مبكرًا في ذلك اليوم.

حاولت جاهدًا منع نفسي من الضحك. إشكال النتائج الإيجابية الخاطئة يحقق النجاح للمرة الثانية!

بالتأكيد سمحوا لنا بالمغادرة مبكرًا، فتوجهت للمنزل بأن سلكت الطريق الطويل متجولًا في أرجاء حي ميشن لإلقاء نظرة على الفوضى الشديدة التي عجَّ بها. طوابير

طويلة من السيارات ... أناس اصطفوا حول المربعات السكنية لدخول محطات بارت ... وآخرون يسبُّون عند ماكينات الصرف الآلي لعدم إخراجها المال؛ بسبب تجميد أرصدتهم للتحقق مما إذا كانوا يمارسون نشاطًا مريبًا (وهنا تكمن خطورة ربط حسابك الجاري ببطاقة «فاستراك» أو «فاست باس»!)

وصلت إلى المنزل، أعددت لنفسي شطيرة، ودخلت على شبكة «إكس نت». كان يومًا جيدًا، والناس من جميع أنحاء المدينة مبتهجين بشأن ما حققوه من نجاح. لقد أصبنا مدينة سان فرانسيسكو بالشلل، وأكدت التقارير الإخبارية ذلك، ووصفته بجنون وزارة الأمن الوطني، ملقيةً باللوم على «الأمن» الفاشل الذي من المفترض أن يحمينا من الإرهاب. وخصص قسم «الأعمال التجارية» بصحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل» صفحته الأولى بالكامل لتقدير التكلفة الاقتصادية للإجراءات الأمنية لوزارة الأمن الوطني، والناتجة عن تعطل الاجتماعات وضياع بعض ساعات العمل وغير ذلك. وأشار أحد الاقتصاديين بالصحيفة إلى أن أسبوعًا من هذا الهراء سيكلف المدينة أكثر مما تكبدته من تفجير جسر باي.

لَكَمْ أسعدتني هذه الأخبار!

أفضل ما في الأمر أن والدي عاد متأخرًا تلك الليلة ... متأخرًا للغاية ... لقد تأخر ثلاث ساعات. لماذا؟ لإيقاف الأمن سيارته، وتعرضه للتفتيش والاستجواب ... مرتين.

تعرض لذلك مرتين!

الفصل التاسع

أهدي هذا الفصل إلى كامبَس بوكس/شركة بوكس المحدودة، أقدم متجر كتب مستقل في غرب الولايات المتحدة. أفرعه منتشرة بجميع أرجاء كاليفورنيا في سان فرانسيسكو، وبرلينجيم، وماونتن فيو، وبالو ألتو، لكن الأفضل على الإطلاق هو فرعه الرائع وسط متنزه «داون تاون ديزني» في أناهايم. لديَّ ولع شديد بمتنزه ديزني لاند (عليك الاطلاع على روايتي الأولى «هائم في المملكة الساحرة» لتصدق ما أقوله). وفي كل مرة أقطن في كاليفورنيا، أبتاع لنفسي بطاقة سنوية لدخول ديزني لاند. وفي كل مرة أزوره فيها، أمرُّ على فرع كامبَس بوكس في «داون تاون ديزني». يزخر هذا المتجر بمجموعة رائعة من الكتب المحظورة (بل والخطيرة) عن ديزني، وكذلك بمجموعة رائعة من كتب الأطفال والخيال العلمي، هذا فضلًا عن الكابتشينو الرائع الذي يعده المقهى المجاور له.

* * *

تملَّك الغضب من والدي حتى ظننت أنه سينفجر. سبق أن قلت إنني لم أره يفقد رباطة جأشه إلا فيما نَدر، لكن في تلك الليلة، استشاط غضبًا كما لم يفعل من قبل.

«لن تصدق ما حدث. ذلك الشرطي، الذي لم يتجاوز عمره ثمانية عشر عامًا، أخذ يردد: «لكن، يا سيدي، لماذا كنت في بيركلي البارحة إذا كان عميلك في ماونتن فيو؟» ظللت أشرح له أنني أُدرِّس في بيركلي، فيقول لي: «ظننت أنك تعمل مستشارًا»، ثم نعيد الكرَّة. كان الأمر أشبه بمسلسل كوميدي أصاب فيه شعاع الغباء رجال الشرطة.»

أضاف: «والأسوأ من ذلك أنه أصر على أنني كنت في بيركلي اليوم أيضًا، وظللت أنكر، وهو مُصِر. وبعد ذلك أظهر لي بيان استخدام بطاقة «فاستراك» الخاص بي، والذي أشار إلى أنني قُدتُ سيارتي على جسر سان ماتيو ثلاث مرات في ذلك اليوم!»

أضاف أبي وهو يأخذ نفسًا عميقًا جعلني أعلم أنه يتميز من الغيظ: «لا يقتصر الأمر على ذلك فحسب؛ فلديهم معلومات عن الأماكن التي ذهبت إليها، وهي أماكن ليس بها ساحات لدفع رسوم على السيارات. إنهم يراقبون بطاقة المرور خاصتي في الشارع عشوائيًّا. والنتيجة خاطئة! يا للهول، إنهم يتجسسون علينا جميعًا، ولا يفعلون ذلك حتى بكفاءة!»

كنت قد دخلت إلى المطبخ حيث أخذ أبي يدين بحدة ما حدث له، وصرت الآن أشاهده من المدخل. التقت نظراتي مع نظرات والدتي، ورفع كلانا حاجبيه كما لو كنَّا نقول: «من سيقول له عبارة «سبق أن أخبرتك بذلك»؟» فأومأت برأسي لها. يمكن لأمي استخدام قدراتها كزوجة لامتصاص غضبه على نحو لا أتمتع به كابن.

هتفت أمي باسمه، وأمسكت بذراعه ليتوقف عن السير جيئة وذهابًا في المطبخ ملوحًا بذراعيه كوعَّاظ الشوارع.

أجابها بحدَّة: «ماذا؟»

قالت مع الحفاظ على هدوء صوتها واتزانه: «أظن أنك مدين باعتذار لماركوس.» كنت أنا وأبي الأخرقين في المنزل، أما أمي فاتسمت بالرزانة.

نظر والدي إليَّ وقد ضاقت عيناه لتفكيره دقيقة، ثم قال أخيرًا: «حسنًا، أنتَ على حق. كنت أتحدث عن الرقابة الفعالة، لكن أولئك ليسوا سوى هواة. أنا آسف يا بُني، كنتَ مُحقًّا. كان ذلك سخفًا.» مدَّ والدي يده وصافحني، ثم عانقني عناقًا قويًّا غير متوقع.

«يا إلهي! ما الذي نفعله في هذه البلاد يا ماركوس؟ يستحق جيلك أن يرث ما هو أفضل من ذلك.» عندما انتهى من عناقي، تمكنت من رؤية التجاعيد العميقة في وجهه؛ خطوط لم أرها من قبل قط.

عُدت إلى غرفتي بالدور العلوي، ومارست بعض الألعاب على شبكة «إكس نت». تضمنت الشبكة لعبة قراصنة آلين جيدة متعددة اللاعبين؛ حيث تتلقى طلبًا كل يوم أو يومين لتنشيط جميع أعضاء طاقم سفينتك قبل أن تتمكن من السلب والنهب ثانيةً. كانت من الألعاب التي أمقتها، لكن لا يسعني التوقف عن لعبها؛ إذ تنطوي على طلباتٍ متكررة لا تتحقق من خلالها أية متعة في إكمالها، ونزاعٍ بين اللاعبين (أي شجار لمعرفة

مَن سيصير قبطان السفينة). هذا فضلًا عن عدم تضمنها الكثير من الألغاز الرائعة التي يلزم عليك حلُّها. وممارسة هذه اللعبة في الغالب تجعلني أشعر بالحنين للعبة «هاراجوكو فان مادنس» التي تعني الركض بأرجاء العالم الفعلي، وحل الألغاز على الإنترنت، وإعداد الخطط لفريقك.

أما في ذلك اليوم، فكانت لعبة القراصنة هي كل ما احتجت إليه … ترفيه بدون تفكير.

مسكين والدي!

أنا المُلام فيما حدث له. كان سعيدًا من قبل، واثقًا في أن ما يدفعه من ضرائب يُنفَق للحفاظ على أمنه، وقد دمرت هذه الثقة. لا ريب أنها كانت ثقة في غير محلها، لكنها ساعدته في مواصلة حياته. عند رؤيتي له الآن بائسًا مُحطمًا، أتساءل أيهما أفضل: وضوح الرؤية مع العيش في يأس، أم العيش في عالم الأوهام؟ عاودني الشعور بالخزي — ذلك الشعور الذي ظل يراودني منذ إفصاحي عن كلمات المرور، وإخضاعهم لي — ما أصابني بالفتور والرغبة في الهروب من نفسي فقط.

كنت أؤدي في تلك اللعبة دور ملاح على سفينة القراصنة «زومبي تشارجر»، وقد فقد ذلك الملاح نشاطه بينما كنت غير متصل بالإنترنت؛ ومن ثم، لزم عليَّ الاتصال بباقي اللاعبين على سفينتي بالمراسلة الفورية إلى أن عثرت على مَن لديه استعداد لتجديد نشاطي. ألهتني اللعبة، وراقت لي في الواقع. فثمة شيء رائع بشأن تلقي خدمة من شخص لا تعرفه على الإطلاق. ولما كانت اللعبة على شبكة «إكس نت»، فقد علمت أن جميع الغرباء هم في الواقع أصدقاء، بصورة ما.

«حدد موقعك!»

كانت الشخصية التي جددت نشاطي هي ليزانيتور، وهي أنثى، وإن لم يعنِ ذلك أنها فتاة؛ فالفتيان لديهم ميل غريب للعب أدوار الفتيات.

أجبت على السؤال قائلًا:

«سان فرانسيسكو.»

«لا أيها الغبي! أعني أين أنت في سان فرانسيسكو؟»

«لماذا، هل أنتِ منحرفة جنسيًّا؟»

هذا السؤال من شأنه عادةً إنهاء أية محادثة؛ فأية لعبة تمتلئ، بالطبع، بالمنحرفين جنسيًّا والمائلين جنسيًّا للأطفال، بالإضافة إلى أفراد الشرطة الذين يتظاهرون بأنهم ضحايا لهؤلاء المنحرفين (وإن كنت أطمح — بلا شك — في ألا يكون هناك أي شرطيين على شبكة «إكس نت»!) وأي اتهام كهذا كافٍ لتغيير الموضوع بنسبة تسعين في المائة.

«ميشن؟ بتريرو هيل؟ نوي؟ إيست باي؟»

«أيمكنكِ تجديد نشاطي فحسب؟ شكرًا.»

توقفتْ عن تجديد النشاط، وسألت:

«هل أنت خائف؟»

«وما شأنكِ؟»

«مجرد فضول.»

ارتبت في أمرها، من الواضح أن دافعها لم يكن الفضول فقط. اعتبرني مجنونًا بالارتياب، لكنني سجلت الخروج من اللعبة وأوقفت تشغيل جهاز «إكس بوكس».

نظر إليَّ والدي صبيحة اليوم التالي أثناء جلوسنا على المائدة، وقال: «على الأقل، يبدو أن الأمور في طريقها للتحسن.» وأعطاني صحيفة «كرونيكل» مفتوحة على الصفحة الثالثة.

> «صرح أحد المتحدثين باسم وزارة الأمن الوطني أن مكتب سان فرانسيسكو قد طلب زيادة في الميزانية والموظفين بنسبة ٣٠٠ في المائة من مكتب العاصمة.»

ماذا؟

> «أكد اللواء جرايام ساذرلاند، قائد العمليات بوحدة وزارة الأمن الوطني في شمال كاليفورنيا، الطلب في مؤتمر صحفي أمسِ، مشيرًا إلى أن تزايدًا في الأنشطة المشبوهة بمنطقة الخليج هو الدافع وراء الطلب، وجاء على لسانه: «نتابع ارتفاعًا في الأنشطة والمحادثات السرية، ونعتقد أن المخربين يصممون إنذارات أمنية زائفة لإحباط جهودنا.»»

حدقت في الصحيفة مشدوهًا؛ هذا محال.

«هذه الإنذارات الزائفة هي في الغالب بمثابة تشويش على أجهزة الكشف والتي تهدف لإخفاء الهجمات الحقيقية، والسبيل الوحيد للتغلب عليها هو زيادة أعداد العاملين والمُحلِّلين لنتمكن من التحقيق في كل دليل تحقيقًا شاملًا.»

«أشار سادرلاند إلى أنه يأسف للتأخيرات التي تشهدها المدينة، ويتعهد بالقضاء عليها.»

تخيلت المدينة وقد زاد عدد ضباط وزارة الأمن الوطني فيها أربعة أو خمسة أضعاف، ضباط دفعت بهم الوزارة لتعويض ما تسببت فيه أفكاري الغبية. كانت فان على حق. كلما زادت مقاومتي لهم، ازدادت الأحوال سوءًا.

أشار أبي إلى الصحيفة، وقال: «قد يكون هؤلاء الناس حمقى، لكنهم حمقى منهجيون. لن يكفوا عن الدفع بالموارد المتاحة لحل هذه المشكلة حتى ينجحوا في ذلك. بالتنقيب عن جميع البيانات الخاصة بالمدينة مع تتبع كل دليل، سيلقون القبض على الإرهابيين.»

جن جنوني، وصحت في أبي: «أبي! هل تسمع ما تقوله؟! إنهم يتحدثون عن التحقق من كل فرد في مدينة سان فرانسيسكو!»

فأجابني: «نعم، هذا صحيح، وسيقبضون على كل زوج خائن يحتال في نفقة زوجته، وكل تاجر مخدرات، وكل مجرم حقير، وكل إرهابي. اصبر فقط، وقد يكون هذا أفضل ما يحدث على الإطلاق في هذه البلاد.»

«قل إنك تمزح، أرجوك. هل تعتقد أن ذلك ما وضِع الدستور من أجله؟ ماذا عن ميثاق الحقوق؟»

«ميثاق الحقوق وضِع قبل أن يظهر التنقيب عن البيانات.»

كان هادئًا للغاية ومقتنعًا بأنه على حق. استطرد حديثه قائلًا: «الحق في حرية التجمع أمر جيد، لكن لماذا لا يُسمَح للشرطة بالتنقيب في شبكتك الاجتماعية للكشف عما إذا كانت لك علاقة بإرهابيين أو مرتكبي جرائم اغتصاب جماعي؟»

فأجبته: «لأن في ذلك انتهاكًا لخصوصيتي!»

«وما المشكلة في ذلك؟ هل تفضل الخصوصية على القبض على الإرهابيين؟»

يا إلهي! كم كرهت الجدال مع أبي على هذا النحو! كنت بحاجة لشرب القهوة في تلك اللحظة. قلت له: «بالله عليك يا أبي! سلبُنا خصوصيتنا لن يجعلنا نقبض على الإرهابيين، بل كل ما سيسفر عنه هو إزعاج الناس الأبرياء.»

«كيف لك أن تعرف أنه لن يؤدي للقبض على الإرهابيين؟»

«أين الإرهابيون الذين قُبِض عليهم بفضله؟»

«أنا موقن بأننا سنشهد اعتقالات قريبًا. انتظر وسترى!»

«أبي! ما الذي حلَّ بك منذ ليلة أمس؟ لقد أغضبك بشدة إيقاف رجال الشرطة لك البارحة ...»

«لا تخاطبني بهذه اللهجة يا ماركوس. ما حلَّ بي منذ ليلة أمس هو أن الفرصة قد سنحت لي لإعادة التفكير في الأمر، وقراءة هذا.» وهزَّ الصحيفة، ثم واصل الحديث: «السبب في إيقافهم لي هو أن المجرمين يشوشون على عملهم بفعالية، وهم بحاجة لتعديل أساليبهم في التغلب على هذا التشويش، لكنهم سينجحون، وإلى أن يحدث ذلك، الإيقاف على الطريق بين الحين والآخر ثمن بسيط. ليس الآن بالوقت المناسب للدفاع عن ميثاق الحقوق، وإنما لإجراء بعض التضحيات للحفاظ على أمن مدينتنا.»

لم أتمكن من الانتهاء من تناول الخبز المحمص. وضعت الطبق في غسَّالة الأطباق، وغادرت المنزل متوجهًا إلى المدرسة؛ لزم عليَّ الخروج من هنا.

لم يسعد مستخدمو شبكة «إكس نت» بزيادة رقابة الشرطة، لكنهم ما كانوا ليذعنوا لذلك. اتصل شخص ما بأحد البرامج، التي تسمح بالمداخلات الهاتفية، على محطة «كيه كيو إي دي» التليفزيونية، وقال إن الشرطة تضيع وقتها هدرًا، وإنه بوسعنا إفساد النظام أسرع مما يمكنهم حلُّه. وتصدر تسجيل هذه المداخلة عمليات التنزيل بشبكة «إكس نت» في تلك الليلة.

«تشاهدون الآن برنامج «كاليفورنيا لايف»، ومعنا متصل مجهول يتحدث من هاتف عمومي في سان فرانسيسكو، ولديه معلومات عن حالات التأخير التي شهدناها هذا الأسبوع بجميع أنحاء المدينة. تفضل، أنت على الهواء.»

«ليست هذه سوى البداية فقط، لا يزال عملنا في مهده. ليعينوا ملايين الخنازير، ويقيموا نقطة تفتيش عند كل زاوية. سنشوش على عملهم جميعًا! وما كل هذا الحديث الفارغ عن الإرهابيين؟ لسنا إرهابيين! بالله عليكم! نحن نشوش على النظام لأننا نكره وزارة الأمن الوطني، ونحب هذه المدينة. إرهابيون؟ لا يمكنني حتى تهجئة كلمة «جهاد» ... سلام.»

بدا أحمق، ليس فقط لعدم اتساق كلماته، وإنما للهجته الشامتة أيضًا. بدا كطفل يفخر بنفسه على نحو غير لائق، وقد كان كذلك بالفعل.

احتدم الجدل حول ذلك على شبكة «إكس نت»؛ فرأى كثيرون أن مداخلته عملًا أحمق، في حين وجده آخرون بطلًا. أقلقني احتمال أن تكون كاميرا ما قد صورته أثناء استخدامه للهاتف العمومي، أو مرت بطاقة «فاست باس» الخاصة به على قارئ لشرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، وتمنيت أن يكون بالذكاء الكافي لمسح بصمات أصابعه من على عملة ربع الدولار، وإبقاء القلنسوة على رأسه، وترك كل ما يحتوي على شرائح تحديد الهوية في المنزل. لكنني شككت في ذلك، وفكرت في تلقيه زيارة قريبًا في المنزل من الشرطة للقبض عليه.

كنت أعلم بوقوع حدث مهم على شبكة «إكس نت» عندما أتلقى فجأة الملايين من رسائل البريد الإلكتروني من أشخاص يريدون إطلاع «مايكي» على أحدث المستجدات. كنت لا أزال أقرأ بشأن ذلك الفتى — الذي لا يعرف تهجئة كلمة جهاد — عندما تلقى صندوق بريدي وابلًا من الرسائل. حمل الجميع رسالة لي — رابط للايف جورنال على شبكة «إكس نت» — إحدى المدونات مجهولة الاسم العديدة التي قامت على نظام نشر الوثائق على برنامج «فري نت» الذي استخدمه أيضًا أنصار الديمقراطية الصينيون.

«كادوا يمسكون بنا.»

«عمدنا الليلة إلى إحداث تشويش في منطقة إمباركديرو. تسكعنا في الأنحاء مانحين الجميع كود بطاقة «فاستراك» أو «فاست باس» أو مفتاح باب أو مفتاح سيارة جديدًا، ونثرنا بعض مسحوق البارود الزائف في الهواء. ملأ رجال الشرطة المكان، لكننا كنا أمكر منهم؛ كنا نتردد على ذلك المكان كل ليلة، ولم يُلقَ القبض علينا من قبل.»

«لكنهم أمسكوا بنا الليلة، أخطأنا خطأً أحمق أوقعنا في أيديهم، وهو أن ملابسنا كانت متسخة بمسحوق البارود. ألقى عميل سري القبض على صديقي، ثم علينا جميعًا. كانوا يراقبون مجموعتنا منذ فترة طويلة، وكانت معهم واحدة من تلك الشاحنات بالقرب من المكان. أدخلوا أربعة منا فيها، وفلت الباقون.»

«ازدحمت الشاحنة كعلبة السردين بكافة صنوف البشر: شباب، شيوخ، سود، بيض، أغنياء، فقراء، كلهم مشتبه فيهم، وكان هناك شرطيان يحاولان طرح أسئلة علينا، في حين واصل العملاء السريون جلب المزيد منا إلى الشاحنة. حاول معظم الناس الوصول إلى أول الصف للانتهاء من التحقيق، ومن ثم

أخذنا نتراجع للخلف. استغرق بقاؤنا داخل الشاحنة ساعات، كان الجو شديد الحرارة، والازدحام في ازدياد، وليس العكس.»

«نحو الساعة الثامنة مساءً، تبدلت المناوبة، ودخل شرطيان جديدان الشاحنة ليعنفا الاثنين الآخرين اللذين مرَّ على بقائهما داخل الشاحنة وقت طويل. احتدم الشجار بينهم، ثم رحل الشرطيان القديمان، وجلس الاثنان الجديدان خلف مكتبيهما، وأخذا يتهامسان لبعض الوقت.»

«ثم وقف أحدهما، وأخذ يصيح في الجميع: «لتعودوا جميعكم إلى منازلكم، بإمكاننا فعل ما هو أهم من إزعاجكم بمزيد من الأسئلة. إن كنتم قد ارتكبتم خطأً ما، فلا تكرروه، وليكن ذلك تحذيرًا لكم جميعًا».»

«أثار ذلك استياء شديدًا من عدد من الرجال داخل الشاحنة، فيما يعد موقفًا مضحكًا للغاية؛ إذ إنهم منذ عشر دقائق كانوا يتذمرون من احتجازهم، والآن هم غاضبون من إطلاق سراحهم، كما لو كان لسان حالهم يقول: «فليحدد هؤلاء الضباط موقفهم»!»

«لكننا تفرقنا سريعًا، وخرجنا من الشاحنة، وعدنا إلى منازلنا لنكتب هذه الكلمات: العملاء السريون في كل مكان بحق، إذا كنت تعمل على إحداث تشويش، فتوخَّ الحذر، وتأهب للهروب عند وقوع أية مشكلات. وإذا أُلقي القبض عليك، فتحلَّ بالصبر؛ فهم مشغولون للغاية، وقد يطلقون سراحك على الفور.»

«نحن السبب وراء انشغالهم إلى هذا الحد! كل من كانوا داخل تلك الشاحنة كانوا هناك لأننا تسببنا في التشويش عليهم؛ لذا، لنواصل المسيرة!»

شعرت برغبة في التقيؤ. هؤلاء الأربعة — الشباب الذين لم ألتقِ بهم قط — كادوا يقضون ما تبقى لهم من العمر معتقلين بسبب شيء بدأته.

بسبب شيء أخبرتهم أن يفعلوه. لم أختلف كثيرًا عن الإرهابيين.

حصلت وزارة الأمن الوطني على الموافقة على زيادة الميزانية، وظهر الرئيس على شاشة التليفزيون مع حاكم الولاية ليخبرنا بأن الأمن لا يُقدَّر بثمن. أُجبِرنا على مشاهدة ذلك في اجتماع باليوم التالي في المدرسة. ابتهج أبي، لقد كره الرئيس منذ يوم انتخابه، وكان رأيه

أنه لا يختلف عن الرئيس السابق الذي كان بدوره كارثة محققة. أما الآن، فلا يكف عن الحديث عن مدى حزم ذلك الرئيس الجديد ونشاطه.

قالت لي أمي في إحدى الليالي بعد عودتي من المدرسة: «لتخفف من حدتك في التعامل مع والدك.» عملت أمي من المنزل قدر استطاعتها؛ فهي إخصائية حرة في مجال «تبديل محل الإقامة» تساعد البريطانيين على الاستقرار في سان فرانسيسكو، وكانت المفوضية العليا البريطانية تدفع لها المال مقابل الرد على رسائل البريد الإلكتروني المرسَلة من بريطانيين من جميع أنحاء البلاد حيرتهم طباع الأمريكيين الغريبة. جنت رزقها من تفسير طباع الأمريكيين، وقالت إنه من الأفضل فعل ذلك في الوقت الراهن من المنزل، حيث لا تضطر لرؤية أي أمريكيين أو التحدث معهم.

لست متوهمًا بشأن بريطانيا، ربما تكون أمريكا على استعداد لتجاهل دستورها في كل مرة يهدد فيها أحد الجهاديين البلاد، لكنني تعلمت من مشروعي المستقل في مادة الدراسات الاجتماعية في الصف التاسع أن البريطانيين ليس لديهم دستور، ولكن لديهم قوانين يشيب لها شعر رأسك؛ إذ يمكنهم وضعك في السجن لمدة عام كامل إذا كانوا متأكدين تمامًا من أنك إرهابي، لكنهم لا يملكون أدلة كافية لإثبات ذلك. والسؤال هنا هو كيف يكونون متأكدين إذا لم تكن لديهم أدلة كافية للإثبات؟ كيف وصلوا إلى هذا اليقين؟ هل شهدوا ارتكابك جرائم الإرهاب في حلم أقرب للواقع؟

هذا فضلًا عن أن المراقبة في أمريكا تبدو عمل هواة بجانب نظيرتها في بريطانيا؛ فقاطن لندن العادي تلتقط الكاميرات صورته ٥٠٠ مرة يوميًّا فقط أثناء سيره في الشوارع، وكذلك كل لوحة أرقام تحملها أية سيارة في أي مكان بالدولة. الجميع — بدءًا من البنوك ووصولًا لشركة النقل العام — متحمس لتتبع خطواتك، والوشاية بك إذا ظنوا أنك محل أية شبهة، مهما صغرت.

لكن هذه لم تكن وجهة نظر أمي؛ فقد رحلت عن بريطانيا وهي في المرحلة الثانوية، ولم تشعر قط أن أمريكا وطنها، رغم زواجها من شاب من مدينة بيتلوما وتربيتها ابنًا هنا. ظلت هذه دومًا في نظرها أرض الهمجيين، وبريطانيا هي الوطن.

«أبي مخطئ يا أمي، من المفترض أن تكوني أكثر الناس علمًا بذلك. كل ما يجعل لهذا البلد شأنًا عظيمًا ضُرِب به عرض الحائط، وأبي يوافق على ذلك. هل لاحظتِ أنهم لم يلقوا القبض على أي إرهابيين؟ وكل ما يفكر فيه أبي هو: «نحن بحاجة لأن نتمتع بالأمان»، لكنه يجب أن يعلم أن معظمنا لا يشعر بالأمان، وأن ما يغلب علينا هو الشعور الدائم بالخطر.»

«أعلم كل ذلك يا ماركوس، وصدقني، أنا لا يعجبني ما يحدث لهذا البلد، لكن والدك ...» ثم توقفت لحظات، وتابعت: «عندما لم تعد إلى المنزل بعد الهجمات، ظن ...»

ثم نهضت، وأعدت لنفسها كوبًا من الشاي. كانت هذه عادتها عند شعورها بالانزعاج أو الاضطراب.

استطردت حديثها قائلةً: «ظننا أنك قد لقيت حتفك يا ماركوس. هل تعي ما أقوله؟ أخذنا نبكيك أيامًا. تخيلنا أنك صرت أشلاء في قاع المحيط جراء الانفجار، وأنك قُتِلت لأن حقيرًا ما قرر قتل المئات من الغرباء لإثبات وجهة نظر ما.»

استوعبت ما قالته ببطء، أعني أنني كنت أعي شعورهما بالقلق؛ فقد مات كثيرون في الانفجارات، وتشير التقديرات الحالية أنهم أربعة آلاف. وما من شخص لا يعرف أحدًا لم يعد إلى منزله في ذلك اليوم. في مدرستي، اختفى اثنان.

«كان والدك على استعداد للقتل ... قتل أي أحد. لقد جن جنونه. لم تره من قبل بهذا الحال، وأنا كذلك. فقد صوابه تمامًا. كان يجلس على هذه المائدة، ويستمر في السباب، والنطق بألفاظ سيئة لم أسمعها منه من قبل قط. وفي أحد الأيام — ثالث يوم بعد الأحداث — رنَّ الهاتف، وظن أنك من يتحدث، لكنه كان شخصًا أخطأ في الرقم؛ فألقى والدك بالهاتف بقوة ليتحطم إلى آلاف القطع.» كنت أتساءل بالفعل عن هاتف المطبخ الجديد.

«ثمة شيء انكسر داخل والدك. إنه يحبك، كلانا يحبك. أنت أهم شيء في حياتنا، ولا أعتقد أنك تدرك ذلك. هل تذكر عندما كنت في العاشرة من عمرك، ورحلت أنا إلى لندن فترة طويلة؟ هل تذكر ذلك؟»

أومأت برأسي في صمت.

«كنا نستعد للطلاق يا ماركوس. لا يهم السبب في ذلك الآن. كانت مرحلة سيئة في حياتنا، كتلك التي يمر بها أي اثنين يحبان أحدهما الآخر عندما يتوقف كلٌّ منهما عن الاهتمام بالآخر لبضع سنوات، لكن والدك جاء إلي، وأقنعني بالعودة من أجلك. لم نحتمل فكرة أن نفعل ذلك بك. وعاد الحب بيننا مجددًا، ويرجع السبب إليك في بقائنا معًا اليوم.»

شعرت بغُصَّة في حلقي؛ فهذه أول مرة أعرف فيها ذلك. لم يخبرني أحد بهذا الأمر من قبل.

«لذا، فإن والدك يمر بمرحلة عصيبة الآن، فهو ليس في حالته الذهنية الطبيعية. سيستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يتعافى ويعود الرجل الذي أحببته، ونحن بحاجة لتفهمه حتى ذلك الحين.»

عانقتني بعد ذلك عناقًا طويلًا، ولاحظت حينها كم نحل ذراعاها، وارتخى جلد رقبتها. طالما كانت صورة والدتي في نظري صورة امرأة شابة بشوشة ذات بشرة شاحبة ووجنتين ورديتين، ترمق من أمامها بنظرة حادة من وراء نظارتها ذات الإطار المعدني. أما الآن، فبدت أشبه بسيدة عجوز. أنا من فعلت ذلك بها، وكذلك الإرهابيون، ووزارة الأمن الوطني. كنا جميعًا في جانب، وأمي وأبي وكل من تعرضوا لخداعنا في الجانب الآخر.

لم أستطع النوم في تلك الليلة. ظلت كلمات أمي تتردد في ذهني. كان أبي متوترًا وصامتًا على العشاء، ولم نتحدث تقريبًا؛ إذ لم أثق في ألا يزلَّ لساني، بالإضافة إلى انزعاج أبي بشأن آخر الأخبار؛ وهي أن تنظيم القاعدة هو المسئول دون شك عن التفجيرات. كانت قد أعلنت ست جماعات إرهابية مختلفة مسئوليتها عن الهجوم، غير أن الفيديو الذي نُشِر للقاعدة على الإنترنت هو الوحيد الذي كشف عن معلومات تقول وزارة الأمن الوطني إنها لم تكشف عنها لأحد قط.

استلقيت في السرير، واستمعت لأحد البرامج الإذاعية التي تُبَث في وقت متأخر من الليل وتسمح بالمداخلات الهاتفية. دار موضوع الحلقة حول المشكلات الجنسية، ومقدم البرنامج رجل مثليٌّ أحببت الاستماع إليه. كان يقدم نصائح فجة لكنها جيدة، وكان مضحكًا للغاية.

لكنني في تلك الليلة لم يمكنِّي الضحك. معظم المتصلين أرادوا استشارته في مشكلة عجزهم عن إقامة علاقة مع زوجاتهم منذ وقوع الهجمات. طاردني ذلك الموضوع حتى في البرامج الإذاعية التي تدور حول الجنس.

أوقفت تشغيل الراديو، وسمعت صوت مُحرِّك في الشارع.

تقع غرفتي في الطابق العلوي بمنزلنا، وهو أحد المنازل ذات الطلاء الصارخ. سقف الغرفة سقف عليَّة مائل، وتوجد نافذة بكل جانب من جانبي الغرفة؛ إحداهما تطل على حي ميشن بالكامل، والأخرى تطل على الشارع الموجود أمام منزلنا. كانت السيارات تمر في هذا الشارع طوال الليل، لكن ثمة شيئًا مختلفًا في صوت ذلك المحرك الذي سمعته.

ذهبت إلى النافذة المطلة على الشارع، وسحبت الستائر. رأيت بالأسفل شاحنة بيضاء لا تحمل أية علامات مميزة، ويعلو سقفها أجهزة هوائي لاسلكية فاق عددها أي عدد أجهزة هوائي سبق لي رؤيتها على أية سيارة. أخذت تسير ببطء شديد في الشارع، وطبق صغير أعلاها يدور.

أثناء مشاهدتي للشاحنة، توقفتْ وفُتِح فجأة أحد الأبواب الخلفية بها. خرج منها رجل يرتدي زي وزارة الأمن الوطني؛ صار بوسعي التعرف عليهم على بعد مئات الأمتار. حمل معه جهازًا عكس ضوءًا أزرق على وجهه. أخذ يسير جيئة وذهابًا، مستكشفًا الجيران أولًا مع تسجيل ملاحظات على جهازه، ثم توجه إلينا. كان هناك شيء مألوف في طريقة مشيته وبالنظر لأسفل ...

اكتشفت أنه كان يستخدم جهازًا للعثور على إشارات الواي فاي! وزارة الأمن الوطني تبحث عن عُقَد شبكة «إكس نت». أفلتُّ الستائر من يدي، وبحثت في الغرفة عن جهاز الإكس بوكس. تركته قيد التشغيل أثناء تنزيلي لبعض أفلام الصور المتحركة الرائعة التي صممها مستخدمو شبكة «إكس نت» لخطاب الرئيس الذي تحدث فيه عن أن تحقيق الأمن لا يُقدَّر بثمن. جذبت القابس من الحائط، ثم أسرعت عائدًا إلى النافذة، وأحدثت فتحة صغيرة في الستائر.

أخذ الرجل ينظر في جهاز العثور على إشارات الواي فاي مجددًا، وهو يسير جيئة وذهابًا أمام منزلنا. وبعد لحظات، عاد إلى الشاحنة وقادها مبتعدًا.

أخرجت الكاميرا، والتقطت أكثر عدد ممكن من الصور للشاحنة وما عليها من أجهزة هوائي. وبعد ذلك، فتحت هذه الصور باستخدام برنامج مجاني لتحرير الصور يُسمَّى «جيمب»، وحذفت كل ما في الصور فيما عدا الشاحنة، فمسحت الشارع وأي شيء يمكن أن يحدد هويتي.

ومن ثم، نشرتها على شبكة «إكس نت»، وكتبت كل ما يمكنني كتابته عن الشاحنة. كانوا يبحثون بلا شك عن شبكة «إكس نت»، بوسعي تخمين ذلك.

وبذلك جفاني النوم تمامًا.

ولا علاج لذلك سوى ممارسة لعبة القراصنة. كنت موقنًا بوجود العديد من اللاعبين رغم الساعة المتأخرة من الليل. الاسم الحقيقي لهذه اللعبة هو «كلوك وورك بلاندر»، وكانت مشروع هواة صممه مراهقون من فنلندا مهووسون بموسيقى الديث ميتال. «كلوك وورك بلاندر» مجانية تمامًا، وتقدم من المتعة ما يماثل ما تقدمه أية لعبة أخرى يبلغ اشتراكها ١٥ دولارًا في الشهر، مثل «إندرز يونيفيرس» و«ميدل إيرث كويست» و«ديسكوورلد دانجِنز».

سجلت الدخول مرة أخرى في اللعبة. كنت لا أزال على ظهر سفينة «زومبي تشارجر» في انتظار من يجدد نشاطي. كرهت هذا الجزء من اللعبة.

كتبت مخاطبًا أحد القراصنة:

«يا صاح! هلا تجدد نشاطي؟»

فصمت لحظات، وهو ينظر إلي، ثم قال:

«ولماذا أفعل ذلك؟»

«نحن أعضاء فريق واحد، بالإضافة إلى أنك ستجني نقاط خبرة.»

يا له من أحمق!

«حدد موقعك!»

«سان فرانسيسكو.»

بدأ الأمر يبدو مألوفًا.

«أين في سان فرانسيسكو؟»

سجلت الخروج من اللعبة. ثمة شيء غريب يجري فيها. انتقلت إلى مدونات لايف جورنال، وأخذت أتصفحها. تصفحت نحو ست مدونات قبل أن أعثر على شيء جمَّد الدماء في عروقي.

يحب مدونو شبكة لايف جورنال الاختبارات: ما الشخصية الخيالية التي تشبهك؟ هل أنت محب رائع؟ أي الكواكب أكثر شبهًا بك؟ من الشخصية السينمائية التي تظن أنها تشبهك؟ ما طبيعتك العاطفية؟ فيجيبون عن هذه الأسئلة، وكذلك يفعل أصدقاؤهم، ويقارن الجميع النتائج. هذه متعة لا ضرر فيها.

لكن الاختبار الذي انتشر بجميع المدونات على شبكة «إكس نت» في تلك الليلة هو ما أخافني؛ فقد كان أبعد ما يكون عن «المتعة التي لا ضرر فيها»:

- ما نوعك؟
- ما صفك الدراسي؟
- ما المدرسة التي تذهب إليها؟
- أين تعيش في المدينة؟

عيَّنت الاختبارات النتائج على خريطة عليها دبابيس ملونة للإشارة إلى المدارس والأحياء، مع توصيات تافهة لأماكن شراء البيتزا وغيرها.

لكن انظر إلى تلك الأسئلة، وفكر في إجاباتي عليها:

- ذكر.

- ١٢.
- شافيز الثانوية.
- بتريرو هيل.

لم يكن في مدرستي بأسرها سوى اثنين فقط تتماشى بياناتهما مع هذه البيانات، وينطبق الأمر نفسه على أغلب المدارس. إذا أردت التوصل إلى هوية مستخدمي شبكة «إكس نت»، يمكنك استخدام هذه الاختبارات للعثور عليهم جميعًا.

كان هذا سيئًا بما فيه الكفاية، لكن الأسوأ هو أنه عنى ضمنًا أن شخصًا ما من وزارة الأمن الوطني كان يستخدم شبكة «إكس نت» للوصول إلينا. تعرضت الشبكة لاختراق من جانب وزارة الأمن الوطني.

كان هناك جواسيس بيننا.

أعطيت أقراص «إكس نت» للمئات من الأفراد الذين أعطوها بدورهم لآخرين. عرفت مَن أعطيتهم الأقراص معرفة جيدة، وبعضهم كنت على علاقة وطيدة به؛ فقد عشت في المنزل ذاته طوال عمري، وكوَّنت صداقات مع المئات من الناس على مر السنين، بدءًا بزملائي في الحضانة، وحتى من لعبت معهم كرة القدم، وألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي، ومن التقيت بهم في النادي، ومن عرفتهم من المدرسة. أعضاء فريقي في ألعاب الواقع البديل كانوا الأقرب لي، لكنني عرفت الكثير من الناس ووثقت فيهم بما فيه الكفاية لإعطائهم أقراص «إكس نت».

كنت بحاجة إليهم الآن.

أيقظت خولو من النوم بأن طلبته على هاتفه المحمول، وأغلقت السماعة بعد الرنة الأولى ثلاث مرات متتالية. بعد دقيقة، كان على شبكة «إكس نت» وتمكنَّا من إجراء محادثة آمنة. جعلته يقرأ ما نشرته في مدونتي عن الشاحنات ذات الهوائي اللاسلكي، وعاد لمحادثتي بعد دقيقة مذعورًا.

«هل أنت متأكد من أنهم يبحثون عنا؟»

ولأجيبه عن سؤاله، وجهته للاختبار.

«يا إلهي! لقد قُضي علينا!»

«كلا، ليس الأمر بهذا السوء، لكننا بحاجة لمعرفة من يمكننا الوثوق به.»

«كيف؟»

«هذا ما أردت سؤالك عنه ... كم من الناس يمكنك أن تثق بهم ثقة عمياء؟»

«نحو ٢٠ أو ٣٠.»

«أريد الجمع بين عدد من الأفراد الجديرين بالثقة حقًّا، وإعداد شبكة ثقة لتبادل المفاتيح.»

شبكة الثقة هي إحدى أدوات التشفير الرائعة التي قرأت عنها، لكنني لم أجربها من قبل، وهي وسيلة واقية من الخداع تجعلك تتأكد من أنك تتحدث مع أفراد تثق بهم، ولكن دون أن يتمكن أحد من الاستماع إليكم. المشكلة هي أنها تتطلب منك الالتقاء فعليًّا بالأفراد الموجودين في الشبكة مرة واحدة على الأقل لكي تبدأ.

«فهمت ما تعنيه بالتأكيد. ليست فكرة سيئة، لكن كيف ستجمع الجميع للتوقيع على الشهادات الخاصة بالمفاتيح؟»

«هذا ما أردت سؤالك عنه ... كيف يمكننا فعل ذلك دون أن يُلقَى القبض علينا؟»

كتب خولو شيئًا ما، ثم مسحه، وكتب ثم مسح.

فكتبت:

«داريل كان سيعرف.»

«يا إلهي، كان هذا ما يبرع فيه حقًّا.»

لم يكتب خولو أي شيء، ثم:

«ما رأيك في إعداد حفلة؟»

واستطرد:

«نلتقي جميعًا في مكان ما كما لو كانت حفلة مراهقين، وبذلك يكون لدينا عذر جاهز إذا ظهر أحد يسأل عما نفعله.»

«هذا حل رائع! أنت عبقري يا خولو.»

«أعرف ذلك، وما سيسعدك أكثر أنني أعلم أيضًا أين يمكننا إقامة هذه الحفلة.»

«أين؟»

«مسابح سوترو!»

الفصل العاشر

أهدي هذا الفصل لمتجر آندرسونز بوكشوب، وهو متجر كتب أطفال أسطوري في شيكاجو. آندرسونز متجر قديم تديره عائلة، بدأ كمتجر للأدوية قديم الطراز يبيع الكتب إلى جانب عمله الأساسي. أما الآن، فقد صار إمبراطورية عظيمة لكتب الأطفال متعددة الفروع، ويتمتع بأساليب مبتكرة لبيع الكتب تحقق التواصل بين الأطفال والكتب بأساليب رائعة حقًّا. وأفضل هذه الأساليب معارض الكتب المتحركة التي يقيمها المتجر، وتشحن فيها خزانات كتب ضخمة دوارة، مملوءة بكتب أطفال رائعة، وتتوجه إلى المدارس على شاحنات لتجلب للأطفال معرض كتب جاهزًا بين أيديهم.

* * *

ماذا ستفعل إذا اكتشفت وجود جاسوس في محيطك؟ يمكنك اتهامه، والإمساك به، وإخراجه من ذلك المحيط. لكن، حينئذٍ، قد ينتهي الأمر بمواجهة جاسوس آخر، ويكون أكثر حرصًا من سابقه، ولا تتمكن من القبض عليه بهذه السهولة.

إليك فكرة أفضل: ابدأ باعتراض اتصالات هذا الجاسوس، وزوده هو وقادته بمعلومات خاطئة. لنفترض أن قادته وَجَّهوه لجمع معلومات عن تحركاتك. لتدعه يتتبعك، ويدوِّن كل الملاحظات التي يحتاجها، لكن افتح بالبخار الأظرف التي يرسلها إلى مركز قيادته، وضع تقريرًا وهميًّا آخر بدلًا من التقرير الذي كتبه عن تحركاتك. وإن أردت، يمكنك أن تجعله يبدو غريبًا وغير جدير بالثقة، فيتخلصوا منه. بوسعك أيضًا اصطناع أزمات تجعل أيًّا من الجانبين يكشف عن هويات جواسيس آخرين. باختصار، أنت ستهزمهم.

يُعرَف ذلك بهجوم الدخيل، وإذا فكرت فيه، فستجده مخيفًا للغاية. من يتدخل في اتصالاتك، يمكن أن يخدعك بأساليب لا تُحصَى.

يوجد، بالطبع، وسيلة رائعة للتحايل على هجوم الدخيل؛ ألا وهي استخدام التشفير. بالتشفير، لا يهم إذا كان العدو بوسعه رؤية رسائلك؛ لأنه لن يمكنه فك شفرتها، وتغييرها، وإعادة إرسالها. وهذا أحد الأسباب الرئيسية لاستخدام التشفير.

لكن تذكر: لكي ينجح التشفير، يلزم أن يكون لديك مفاتيح للأفراد الذين ترغب في التحدث معهم. عليك أنت وشريكك في المحادثة تبادل سر أو اثنين؛ أي بعض المفاتيح التي يمكنك استخدامها لتشفير رسائلك وفك هذا التشفير من أجل إبعاد الدخيل عنكما.

ومن هنا جاءت فكرة المفاتيح العامة. وهي فكرة معقدة بعض الشيء، لكنها متميزة للغاية في الوقت نفسه.

في تشفير المفاتيح العامة، يحصل كل مستخدم على مفتاحين؛ وهما سلسلتان طويلتان من الرموز الرياضية الغامضة، ولكن لهما خاصية شبه سحرية؛ وهي أنه أيًّا كان ما تشفره بأحدهما، سيُفَك تشفيره من خلال الآخر، والعكس صحيح. هذا فضلًا عن أنهما المفتاحان الوحيدان اللذان يمكنهما فعل ذلك، فإذا تمكنت من فك شفرة رسالة ما بأحد المفتاحين، فستعلم أن المفتاح الآخر هو الذي شفرها (والعكس صحيح).

ومن ثم، تأخذ أيًّا من هذين المفتاحين (لا يهم أيهما) و«تنشره»؛ أي تجعله علنيًّا تمامًا، وتُعلِم به الجميع. ولهذا لا يخفى لماذا يطلقون عليه «مفتاحك العام».

أما المفتاح الثاني، فتخفيه، ولا تصرح به لأحد، ولا تسمح لأحد أبدًا بأن يعرف ما هو، وهذا ما يُطلَق عليه «مفتاحك الخاص» … أمر منطقي!

لنفترض الآن أنك جاسوس، وترغب في التحدث مع رؤسائك. مفتاحهم العام معروف للجميع، وكذلك مفتاحك العام. في حين لا أحد يعرف مفتاحك الخاص سواك، ولا أحد يعرف مفاتيحهم الخاصة سواهم.

ترغب في إرسال رسالة إليهم. أولًا: ستشفرها باستخدام مفتاحك الخاص. يمكنك إرسالها مباشرةً، وسينجح الأمر لأنهم سيعلمون عند وصولها أنك من أرسلها. كيف؟ لأنهم إذا كان بإمكانهم فك شفرتها باستخدام مفتاحك العام، فمعنى ذلك أنها لا يمكن أن تكون قد شُفرت إلا باستخدام مفتاحك الخاص. ويشبه ذلك وضع ختمك أو توقيعك أسفل رسالة لتقول: «أنا من كتب هذه الرسالة، وليس أحدًا آخر. لا يمكن أن يكون أحد قد عبث بها أو غيَّرها.»

للأسف، لن يحافظ ذلك على سرية رسالتك؛ وذلك لأن مفتاحك العام معروف بالفعل جيدًا لعدد كبير من الناس (لا بد أن يكون كذلك، وإلا فسيقتصر إرسالك للرسائل على العدد الصغير من الناس الذين يعرفون مفتاحك العام). وأي شخص تمر عليه الرسالة سيمكنه قراءتها، لكن لن يمكنه تغييرها وجعلها تبدو كأنك أنت من أرسلها؛ ومن ثمَّ، إذا كنت ترغب في ألا يعلم الآخرون ما تقوله، فستحتاج إلى حل أفضل.

لذا، بدلًا من مجرد تشفير الرسالة باستخدام مفتاحك الخاص، بوسعك أيضًا تشفيرها بمفتاح رئيسك العام، وبذلك يكون قد تم تشفيرها مرتين: التشفير الأول — وهو مفتاح رئيسك العام — لا يفك إلا باستخدام مفتاح رئيسك الخاص، والتشفير الثاني — وهو مفتاحك الخاص — لا يفك إلا باستخدام مفتاحك العام. وبذلك، عندما يتلقى رؤساؤك الرسالة، سيفكون شفرتها باستخدام كلا المفتاحين، وبذلك سيتأكدون من: (أ) أنك من كتبتها، و(ب) أنهم وحدهم يمكنهم قراءتها.

إنه أمر رائع. يوم اكتشفته، تبادلت المفاتيح مع داريل على الفور، وقضينا شهورًا في سعادة غامرة بتبادلنا رسائلنا شديدة السرية التي تعلقت بمكان التقائنا بعد المدرسة، وما إذا كانت فان ستلاحظ اهتمامه بها أم لا.

لكن إذا كنت ترغب في فهم الأمن، فعليك بالتفكير في أكثر الاحتمالات المدفوعة بجنون الارتياب. على سبيل المثال، ماذا إذا جعلتك تظن أن مفتاحي العام هو مفتاح رئيسك العام؟ ستشفر الرسالة باستخدام مفتاحك الخاص ومفتاحي العام، في حين سأفك أنا شفرتها، وأقرؤها، وأعيد تشفيرها باستخدام المفتاح العام الحقيقي لرئيسك، وأرسلها. وكل ما يعرفه رئيسك في العمل هو أنه ما من أحد يمكن أن يكون قد كتب الرسالة سواك، وما من أحد سواه يمكن أن يكون قد قرأها.

وبذلك أكون قد لعبت دور الدخيل، وأجلس كالعنكبوت داخل الشبكة، وتصبح كل أسرارك ملكًا لي.

ومن ثم، فإن أيسر طريقة للتغلب على هذا الاحتمال هي نشر مفتاحك العام على نطاق واسع؛ وذلك لأنه إذا صار من اليسير بالفعل على أي أحد معرفة مفتاحك الحقيقي، فستزداد الأمور صعوبة على الدخيل. غير أن نشر شيء ما، لا يقل صعوبة عن الحفاظ عليه سرًّا. لتنظر مثلًا إلى مليارات الدولارات التي تُنفَق على إعلانات الشامبو وغيرها لإعلام أكبر عدد ممكن من الناس بشيء ما يرغب مُعلِن ما في إعلامهم به.

ثمة طريقة أقل تكلفةً للتغلب على مشكلة الدخيل؛ ألا وهي شبكة الثقة. لنفترض أنك قبل مغادرة مركز قيادتك، جلست مع رؤسائك تحتسون القهوة، وأفصح كلٌّ منكم

للآخر عن مفاتيحه. بذلك، لن يكون هناك أي دخلاء! إذ ستكون متيقنًا تمامًا من هوية أصحاب المفاتيح التي تعلمها؛ لأنهم من أعطوك إياها.

إلى هذا الحد، الأمر جيد تمامًا. لكن ثمة عائقًا طبيعيًّا هنا، وهو: كم من الناس يمكنك الالتقاء بهم فعليًّا وتبادل المفاتيح معهم؟ كم من الساعات في اليوم يمكنك تكريسها لعمل يشبه كتابة دليل هاتف خاص بك؟ كم من هؤلاء الناس يرغبون في تكريس هذا الوقت لك؟

من المفيد التفكير في الأمر من منظور مثال دليل الهاتف، فقد امتلأ العالم من قبل بالعديد من أدلة الهواتف، وكان المرء كلما احتاج رقمًا، بحث عنه في الدليل. لكن في حالة الأرقام العديدة التي ترغب في الرجوع إليها في أي يوم، يلزم عليك إما معرفتها عن ظهر قلب، أو سؤال شخص آخر عنها. وحاليًّا أيضًا، عندما أكون خارج المنزل ومعي هاتفي المحمول، أسأل خولو أو داريل إذا كان لديهما الرقم الذي أبحث عنه، فهذا أسرع وأيسر من البحث عنه على الإنترنت، هذا فضلًا عن أنهما سيكونان أكثر موثوقية أيضًا. إذا كان لدى خولو الرقم، فأنا أثق فيه، وفي الرقم أيضًا. هذا ما يُعرَف بـ «الثقة الانتقالية»؛ أي الثقة التي تنتقل بأنحاء شبكة علاقاتنا.

وشبكة الثقة تشبه ذلك، لكن على نطاق أكبر. لنفترض أنني قابلت خولو، وحصلت على مفتاحه. يمكنني وضع هذا المفتاح في «سلسلة مفاتيحي»؛ أي مجموعة المفاتيح التي وقعت عليها بمفتاحي الخاص. يعني ذلك أنه يمكنك فك تشفير هذا المفتاح باستخدام مفتاحي العام، وتكون متأكدًا من أنني — أو أي شخص لديه مفتاحي — أقول «إن هذا المفتاح يخص هذا الشخص.»

فأعطيك سلسلة مفاتيحي، وإذا كنت تثق فيَّ لتقابلني حقًّا وتتحقق من صحة كل المفاتيح الموجودة فيها، يمكنك أخذها وإضافتها إلى سلسلة مفاتيحك؛ ومن ثم، تقابل شخصًا آخر، وتعطيه سلسلة المفاتيح بأكملها، فتزداد السلسلة كبرًا، وإذا كنت تثق في الرجل التالي في السلسلة، وهو يثق في الشخص التالي في سلسلته، وهكذا، فستكون مؤمَّنًا تمامًا.

وبذلك نصل إلى حفلات توقيع المفاتيح، وهي تعني ما يشير إليه اسمها بالضبط: حفلة يلتقي فيها الجميع، ويوقع كلٌّ منهم على مفاتيح الآخرين. عندما تبادلت أنا وداريل المفاتيح، كان ذلك بمثابة حفل توقيع مفاتيح مصغر لا يحضره سوى اثنين يتسمان بالحزن والولع بالتكنولوجيا. لكن بعدد أكبر من الناس، يتكوَّن أساس شبكة الثقة،

وهكذا تتسع الشبكة. وبخروج كل شخص في سلسلة مفاتيحك إلى العالم والتقائه بمزيد من الناس، يمكنه إضافة المزيد والمزيد من الأسماء للسلسلة. ليس عليك الالتقاء بأناس جدد، عليك فقط الوثوق في أن المفتاح الموقَّع عليه الذي حصلت عليه من الناس في شبكتك صحيح.

لذلك، فإن شبكة الثقة والحفلات لا غنى لإحداهما عن الأخرى.

قلت لخولو: «لتقل لهم فقط إنها حفلة خاصة جدًّا، لا يُسمَح فيها بالدخول إلا للمدعوين فقط، واطلب منهم عدم إحضار أحد معهم، وإلا فلن يُسمَح لهم بالدخول.»

نظر خولو إليَّ من خلف قهوته، وقال: «أنت تمزح، أليس كذلك؟ إذا أخبرت الناس بذلك، فسيحضرون المزيد من الأصدقاء.»

فقلت: «اللعنة!» وقضيت ليلة كل أسبوع في تلك الأثناء عند خولو، لأبقي على الكود محدَّثًا على الشبكة المستقلة. وكانت شركة «بيجسبلين» تدفع لي مبلغًا من المال لفعل ذلك، ما يعد غريبًا حقًّا. لم يخطر ببالي من قبل أنني سأتلقى مالًا مقابل كتابة الأكواد.

«ماذا نفعل إذن؟ لا نريد أن يكون هناك أحد في الحفلة سوى من نثق فيهم فقط، ولا نريد في الوقت نفسه أن نذكر السبب حتى نحصل على مفاتيح الجميع، ونتمكن من مراسلتهم سرًّا.»

بحث خولو عن الأخطاء وصححها، بينما كنت أتابعه. كان يطلق على ذلك اسم «البرمجة القصوى»، وهو الاسم المحرج بعض الشيء. أما الآن، فنطلق عليه «البرمجة» فقط. وشخصان أفضل من واحد في اكتشاف الأخطاء. هناك مقولة في مجال البرمجة تقول «كلما زاد عدد مطوري ومختبري الأكواد، أصبحت أخطاؤها سطحية.»

أخذنا نعمل على تقارير الأخطاء، ونستعد لإنتاج النسخة المُنقَّحة الجديدة. تم تحديث كل شيء آليًّا في الخلفية؛ ومن ثم لن يحتاج مستخدمونا لفعل أي شيء، وإنما سيجدون نسخة أفضل من البرنامج جاهزة بين أيديهم كل أسبوع. كان شعورًا غريبًا للغاية أن أعلم أن الكود الذي كتبته سيستخدمه مئات الآلاف من البشر «غدًا»!

«ماذا سنفعل؟ يا إلهي ليست لدي أية فكرة. أعتقد أننا سنستسلم للأمر الواقع فحسب.»

تذكرت ممارستنا للعبة «هاراجوكو فان مادنس». طالما واجهنا العديد من التحديات الاجتماعية التي تضمنت مجموعات كبيرة من الناس كجزء من اللعبة.

«حسنًا، أنت على حق. لكن دعنا على الأقل نحاول الحفاظ على هذا السر. لتخبر الحضور بأنه بإمكانهم اصطحاب شخص واحد فقط على الأكثر معهم، ويجب أن يكون شخصًا قد مضى على معرفتهم الشخصية به خمس سنوات على الأقل.»

رفع خولو عينيه من على الشاشة، وقال: «يا إلهي! ستنجح هذه الفكرة، أكاد أجزم بذلك. إذا طلبت مني عدم إحضار أحد معي، فكل ما سيرد بذهني: «من يظن نفسه بحق الجحيم؟» لكنك عندما تصيغ طلبك على هذا النحو، فسيبدو أشبه بمغامرة بوليسية مثيرة.»

عثرت على خطأ. احتسينا بعض القهوة. عدت للمنزل، ولعبت لعبة «كلوك وورك بلاندر» لبعض الوقت، محاولًا عدم التفكير في مجددي النشاط ذوي الأسئلة المتطفلة، ثم غططْتُ في نوم عميق.

مسابح سوترو بسان فرانسيسكو عبارة عن أطلال رومانية زائفة. عند افتتاحها في عام ١٨٩٦، كانت أضخم مركز مسابح داخلي في العالم، وهو عبارة عن مشمس زجاجي ضخم على الطراز الفيكتوري يمتلئ بالمسابح وأحواض الاستحمام، بل ومنزلق مائي قديم أيضًا. وقد تدهورت أحوالها في الخمسينيات من القرن العشرين، وأحرقها مالكوها للحصول على مبلغ التأمين في عام ١٩٦٦. ولم يتبق منها سوى متاهة من الصخور المتأثرة بالعوامل الجوية داخل واجهة جرف صلب على شاطئ المحيط. وهي تبدو للعالم أجمع كأطلال رومانية متحطمة وغامضة، وخلفها مجموعة من الكهوف تطل على البحر. وفي المد والجزر الهائجين، تندفع الأمواج عبر الكهوف وفوق الأطلال. وقد عُرِف عنها أنها تُغرِق السائحين الذين يأتون لزيارتها بين الحين والآخر.

يبعد شاطئ المحيط كثيرًا عن متنزه «جولدن جيت»، وهو جرف مقفر تصطف عليه المنازل ذات القباب باهظة التكلفة التي تنحدر على الجرف وصولًا إلى شاطئ ضيق تنتشر عليه قناديل البحر وراكبو الأمواج الشجعان (المجانين). وتوجد صخرة بيضاء ضخمة تنتأ من المياه الضحلة القريبة من الشاطئ، وهي ما يُطلَق عليها «سيل روك» (صخرة الفقمة)؛ إذ كانت دومًا المكان الذي تحتشد فيه أسود البحر إلى أن نُقِلت لبيئة أكثر ملاءمة للسائحين في منطقة فيشرمانز وارف.

ومع حلول الظلام، يخلو المكان تقريبًا من أي مخلوق، ويصير الجو قارس البرودة مع تناثر رذاذ ملحي يمكنه النفاذ إلى عظامك إذا سمحت له بذلك. ويضم المكان صخورًا حادة، وزجاجًا متكسرًا، وإبر مخدرات مستعملة هنا وهناك.

إنه مكان رائع للاحتفال.

كان إحضار الأغطية التي من المشمع وقفازات التدفئة الكيميائية فكرتي. علم خولو من أين سنحضر الجعة؛ فقد كان لأخيه الأكبر خافير صديق يقدم خدمة توصيل المشروبات الكحولية لمن هم دون السن القانونية. كل ما عليك فعله هو دفع ما يكفي من المال له، وسيحضر إلى مكان حفلتك حاملًا صناديق الثلج وكل ما تريده من زجاجات الجعة. أنفقت على ذلك قدرًا كبيرًا من المال الذي حصلت عليه من برمجة الشبكة المستقلة، وحضر الرجل في موعده: الثامنة مساءً، وكانت ساعة جيدة بعد غروب الشمس. أخرج صناديق الجعة المثلجة الستة من شاحنته، ونزل بها إلى أطلال المسابح، وأحضر معه أيضًا صندوقًا إضافيًّا للزجاجات الفارغة.

قال وهو يمسك طرف قبعة رعاة البقر التي كان يرتديها: «والآن، لتتوخوا الحذر أيها الشباب!» كان رجلًا بدينًا من ساموا ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة، ويرتدي قميصًا بدون أكمام يمكنك أن ترى عبره شعر إبطيه وبطنه وكتفيه. أخرجت أوراقًا فئة عشرين دولارًا من رزمة المال التي كانت معي وأعطيته إياها. كان يرفع السعر بنسبة ١٥٠ بالمائة، ما يُعَد ربحًا جيدًا.

نظر إلى رزمة المال التي بين يديَّ، وقال — ولا تزال الابتسامة على وجهه: «أتعلم أنه بوسعي سرقة هذا المال منك بسهولة؛ فأنا مجرم في النهاية.»

وضعت المال في جيبي، ونظرت مباشرةً في عينيه. كان غباءً مني أن أظهر له ما كنت أحمله من مال، لكنني كنت أعلم أنه يلزم مجابهة مثل هذه المواقف في بعض الأحيان.

قال أخيرًا: «إنني أمزح معك. لكن لتتوخَّ الحذر بشأن هذه الأموال؛ لا تظهرها للجميع هكذا.»

فأجبته: «شكرًا لك. لكن الأمن الوطني سيحمون ظهري.»

ازدادت ابتسامته اتساعًا، وقال: «ماذا؟! إنهم لا يتعدون كونهم فرقة بوليسية تعِسة. هؤلاء الخُرقاء لا يعلمون أي شيء.»

نظرت إلى شاحنته، ولمحت من زجاج السيارة الأمامي بطاقة «فاستراك» واضحة للعيان. وتساءلت كم سيمر من الوقت حتى يُلقَى القبض عليه.

«سترافقكم فتيات الليلة، أليس كذلك؟ أهذا هو السبب في أنكم أتيتم بكل هذه الجعة؟»

ابتسمت، ولوحت له بيدي كما لو كان يسير تجاه شاحنته، وهو ما كان عليه فعله بالفعل. أدرك أخيرًا ما كنت ألمح له، فقاد شاحنته مبتعدًا دون أن تغيب عنه الابتسامة للحظة.

ساعدني خولو على إخفاء صناديق المشروبات المثلجة بين الصخور المتحطمة، مستعينين بمصابيح الصمامات الثنائية الباعثة للضوء المثبتة بعصابات الرأس. وما إن صارت الصناديق في مكانها حتى ألقينا بعض سلاسل مفاتيح الصمامات الثنائية الباعثة للضوء البيضاء في كل صندوق، لتتوهج عند رفع الأغطية المصنوعة من الستيروفوم، وتُيسر لك رؤية ما تفعله.

كانت ليلة معتمة غاب عنها القمر، وأنارت لنا بالكاد مصابيح الشوارع القصية. علمت أن كلًّا منا سيبرز كوهج في مدى الأشعة تحت الحمراء، لكن ما كنا لنتمكن من جمع مجموعة من الناس معًا دون أن نُلاحَظ. وبإمكاني قبول فكرة رؤيتنا كمجموعة صغيرة من شباب سكارى يحتفلون على الشاطئ.

لا أُكثِرُ في الشراب في الحقيقة. تضمنت الحفلات التي ارتدتها منذ كنت في الرابعة عشرة من عمري جعة ومشروبات مُسكِرة وعقاقير هلوسة، لكنني كرهت التدخين (وإن كنت مولعًا إلى حد كبير بكعك البراونيز المحشو بالحشيش من حين لآخر)، وعقاقير الهلوسة تستغرق فترة طويلة لتحدث مفعولها؛ فتتطلب عطلة نهاية أسبوع كاملة للانتشاء بها ثم التخلص من مفعولها. أما الجعة، فلا بأس بها لكنني لا أرى ما يميزها. ما أُفضِّله هو مشروبات الكوكتيل القوية كتلك التي تقدم في أواني الخزف على شكل بركان، وتتكون من ست طبقات على النار، وبها قرد بلاستيكي على الحافة. لكن إعجابي بها في الغالب نابع من طريقة تقديمها.

أحب السُّكْر في الواقع، لكنني لا أحب آثاره بعد ذلك، وإن كنت لا أعاني منها أبدًا. لكن ثانيةً ذلك قد يرجع لنوع المشروبات التي تُقدَّم في أواني الخزف التي على شكل بركان.

رغم ذلك، فإنه لا يمكن إقامة حفل دون وضع صندوق أو اثنين من الجعة فوق الثلج، فذلك أمر متوقَّع؛ إذ يحرر الحضور من القيود. يرتكب الناس أفعالًا حمقاء بعد شرب قدر كبير من الجعة، لكن أصدقائي لا يملكون سيارات. كما أن الناس يرتكبون أفعالًا حمقاء على أية حال، سواء أكان السبب هو شرب الجعة أم تدخين الحشيش أو غيرهما، لا يهم.

فتحت أنا وخولو زجاجتي جعة: «آنكُر ستيم» له، و«باد لايت» لي. قرعنا الزجاجتين معًا، وجلسنا على إحدى الصخور.

«أخبرتهم أن الموعد التاسعة مساءً، أليس كذلك؟»

فأجابني: «بلى.»

«وأنا أيضًا.»

شربنا في صمت. كانت «باد لايت» أقل أنواع الجعة في الصندوق تركيزًا في محتواها الكحولي؛ فقد كنت بحاجة لذهنٍ صافٍ في تلك الليلة.

ونطقت أخيرًا: «هل تشعر أحيانًا بالخوف؟»

استدار ناحيتي، وقال: «كلا، لا أشعر أحيانًا بالخوف، وإنما دومًا؛ فالخوف لا يفارقني منذ وقوع التفجيرات. بل إنني أصل إلى درجة من الذعر في بعض الأحيان تجعلني لا أرغب في النهوض من السرير.»

«لماذا تفعل ذلك إذن؟»

ابتسم، وقال: «ربما لن أفعل، أو بالأحرى لن أستمر في ذلك بعد الآن. ما أعنيه هو أن مساعدتك تسعدني حقًّا. كان أمرًا رائعًا بالفعل، ولا أتذكر أي شيء فعلته بهذه الأهمية من قبل. لكن، يا ماركوس، يجب أن أقول لك ...» ثم توقف عن الكلام.

سألته: «ماذا؟» رغم علمي بما كان سيتلو ذلك من قول.

وفي النهاية، قال: «لا يمكنني الاستمرار في ذلك للأبد، ربما حتى لشهر واحد آخر. أعتقد أنني قد انتهيت من ذلك؛ فهو أمر محفوف بالمخاطر. إنها وزارة الأمن الوطني، ولا يمكنك شنُّ حرب عليها، فهو حقًّا ضرب من الجنون.»

قلت له بصوت بدا فيه قدر من المرارة أكثر مما كنت أبغيه: «إنك تتحدث مثل فان.»

«لا أقصد انتقادك يا صديقي، فأنا أرى أن شجاعتك في فعل ذلك أمر عظيم، لكنني لا أتمتع بهذه الشجاعة، ولا يمكنني العيش في رعب دائم.»

«ماذا تعني؟»

«أعني أنني خارج اللعبة. سأصير واحدًا ممن يتظاهرون بأن كل شيء على ما يرام، وأن كل الأمور ستعود لطبيعتها يومًا ما. سأعود لاستخدام الإنترنت مثلما كنت أفعل دومًا، ولا أستخدم شبكة «إكس نت» إلا للألعاب فقط. لن أكون جزءًا من مخططاتك بعد الآن.»

لم أقل أي شيء.

«أعلم أنني بذلك أتركك وحيدًا. لا أريد ذلك، صدقني. وأتمنى أن تتخلى عن هذا الأمر معي. لا يمكنك إعلان الحرب على حكومة الولايات المتحدة. إنه ليس شجارًا ستفوز به. مشاهدتك وأنت تحاول ذلك يشبه مشاهدة طائر يرتطم بالشباك مرارًا وتكرارًا محاولًا الخروج.»

أرادني أن أقول أي شيء، وما كنت أريد قوله هو: «بالله عليك يا خولو! شكرًا جزيلًا على تخليك عني! هل نسيت ما حدث عند اعتقالنا؟ هل نسيت ما كانت عليه بلادنا قبل فرضهم السيطرة عليها؟» لكن ذلك لم يكن ما أراد هو سماعه مني، وإنما:

«أتفهم موقفك يا خولو، وأحترم اختيارك.»

ارتشف ما تبقى في زجاجته، وأخرج واحدة أخرى وفتحها، ثم قال:

«ثمة سبب آخر.»

«ما هو؟»

«لم أكن لأذكره، غير أنني أريدك أن تفهم السبب وراء ما أفعله.»

«بالله عليك يا خولو! ما هو؟»

«أكره أن أقول ذلك، لكنك «أبيض»، وأنا لست كذلك. عند القبض على بيض البشرة وبحوزتهم كوكايين، يقضون بعض الوقت في مراكز إعادة التأهيل، أما ذوو البشرة الداكنة، فعند إلقاء القبض عليهم بنفس التهمة، يُلقَون في السجن عشرين عامًا. يرى البيض الشرطة في الشارع، فيزداد شعورهم بالأمان. أما ذوو البشرة الداكنة، فيتساءلون عند رؤيتهم لرجال الشرطة ما إذا كانوا سيخضعون للتفتيش أم لا. أتزعجك طريقة تعامل وزارة الأمن الوطني معك؟ هكذا كان القانون دومًا معنا في هذه البلاد.»

كان ذلك ظلمًا بيِّنًا؛ فليس لي يد في كوني أبيض البشرة، ولم أظن أنني أكثر شجاعةً لمجرد أنني أبيض، لكنني عرفت ما كان خولو يتحدث عنه. إذا أوقف رجال الشرطة شخصًا ما في حي ميشن وطلبوا الاطلاع على هويته، فعلى الأرجح يكون هذا الشخص ليس أبيض. وأيًّا كانت المخاطر التي أواجهها، فإن خولو يواجه أكثر منها. وأيًّا كانت العقوبة التي سأواجهها، فخولو سيواجه ما هو أشد.

قلت له: «لا أعرف ما يجب أن أقول.»

«ليس عليك قول أي شيء. أردت فقط أن تعرف هذا السبب لتتفهم موقفي.»

رأيت أفرادًا يسيرون في الممر الجانبي في اتجاهنا. كانوا أصدقاء خولو: فتيين مكسيكيين وفتاة أعرفها من الجوار، كانت قصيرة غريبة الأطوار ترتدي دومًا نظارة

«بادي هولي» سوداء جميلة جعلتها تبدو كطالبة فنون في فيلم للمراهقين نبذها مجتمعها ثم عاودت الظهور بعد تحقيق نجاح مبهر.

عرَّفهم خولو عليَّ، وقدَّم لهم زجاجات جعة. لم تأخذ الفتاة الزجاجة، وأخرجت بدلًا منها قارورة فودكا صغيرة فضية اللون من حقيبتها، وقدمتها لي. أخذت رشفة — للفودكا الدافئة مذاق لا تستسيغه من أول مرة — وأثنيت على القارورة المزينة برسم متكرر لشخصيات لعبة الفيديو «بارابا ذا رابر».

قالت لي — بينما كنت أمرر سلسلة مفاتيح أخرى على القارورة: «إنها قارورة يابانية، يزين هؤلاء اليابانيون زجاجات الخمر بشخصيات مستمدة من لعب الأطفال. أمر منحرف تمامًا.»

قدمت نفسي لها، وكذلك هي؛ فقالت: «آنج» وصافحتني. كانت يداها دافئتين جافتين، وأظافرها قصيرة. عرَّفني خولو على صديقيه اللذين عرفهما منذ معسكر الكمبيوتر في الصف الرابع. انضم إلينا المزيد من الناس … خمسة، ثم عشرة، ثم عشرون لتصير المجموعة كبيرة للغاية.

طلبنا من المدعوين الحضور الساعة التاسعة والنصف بالضبط، وانتظرنا حتى الساعة العاشرة إلا الربع لحضور أي شخص آخر. نحو ثلاثة أرباع العدد الذي جاء كان من أصدقاء خولو، أما أنا فدعوت من كنت أثق فيهم حقًّا. لعلي كنت أكثر تمييزًا من خولو أو أقل شعبية. الآن، وبعد أن أخبرني بتخليه عني، جعلني ذلك أعتقد أنه أقل تمييزًا مني. كنت غاضبًا للغاية منه، لكنني حاولت ألا أظهر ذلك بالتركيز على الاختلاط بالآخرين في الحفل. لكنه لم يكن غبيًّا، وعرف ما كان يعتريني، وكان إحباطه جليًّا لي، وهو أمر جيد.

قلت وأنا أتسلق بعض الصخور: «حسنًا، يا شباب!» انتبه لي بعض من كانوا بالقرب مني، أما من كانوا بالخلف فاستمروا في الثرثرة. لوحت بذراعيَّ في الهواء كحُكَّام المباريات الرياضية، لكن الظلام كان دامسًا. وفي النهاية، خطرت ببالي فكرة، وهي أن أضيء سلسلة مفاتيح مصابيح الصمامات الثنائية الباعثة للضوء، وأصوبها تجاه كل من يتحدث في الخلف واحدًا تلو الآخر، ثم تجاهي.

تدريجيًّا، هدأ الجمع.

رحبت بهم، وشكرتهم على الحضور، ثم طلبت منهم الاقتراب لأتمكن من شرح سبب اجتماعنا في ذلك المكان. كان بإمكاني رؤية اهتمامهم بالسرية التي تحيط الأمر، وفضولهم، وتحمسهم بفعل الجعة.

«حسنًا، إليكم السبب في اجتماعنا هذا. تستخدمون جميعًا شبكة «إكس نت»، وظهور هذه الشبكة للنور بعد إحكام وزارة الأمن الوطني سيطرتها على المدينة ليس مصادفة. صممت «إكس نت» منظمة تكرس جهودها للحرية الشخصية بهدف حمايتنا من ضباط وزارة الأمن الوطني، وعملائها السريين.» كنت قد أعددت هذا الخطاب مسبقًا بالتعاون مع خولو. ما كنا لنعترف بمسئوليتنا عن هذا الأمر برمته، ليس لأي أحد؛ فهذا ينطوي على خطورة كبيرة. لكننا سنقول إننا لسنا سوى مجندين في جيش «مايكي» نعمل على تنظيم المقاومة المحلية.

واصلت خطابي قائلًا: «شبكة «إكس نت» ليست مؤمَّنة تأمينًا كاملًا؛ إذ يسهل على الجانب الآخر استخدامها مثلنا بالضبط. نعلم أن هناك جواسيس لوزارة الأمن الوطني تستخدمهم الآن. هم يتبعون أساليب قرصنة الهندسة الاجتماعية بغية جعلنا نفصح عن هوياتنا ليتمكنوا من القبض علينا. وإذا أردنا لشبكة «إكس نت» النجاح، فعلينا معرفة كيف نحول دون تجسسهم علينا. علينا تكوين شبكة داخل الشبكة.»

توقفت لحظات لأمنحهم فرصة لاستيعاب ما قلته. أشار خولو إلى أن العلم بأنك على وشك الدخول في خلية ثورية قد يكون صادمًا بعض الشيء.

«لا أطلب منكم هنا فعل أي شيء؛ ليس عليكم إحداث تشويش أو أي شيء من هذا القبيل. لقد دعوناكم إلى هنا لأننا نعرف أنكم رائعون، وأهل للثقة، وهذه الثقة هي ما أريد مشاركته معكم الليلة. بعضكم على علم بالفعل بشبكة الثقة وحفلات توقيع المفاتيح، لكن لمن لا يعلم فسأوضحها سريعًا ...» وفعلت.

«والآن ما أريده منكم الليلة هو التعارف، ومعرفة إلى أي مدى يمكنكم الوثوق بعضكم في بعض. سنساعدكم في إنتاج أزواج من المفاتيح ومشاركتها فيما بينكم.»

اتسم هذا الجزء بالصعوبة؛ فأن تطلب من الحضور جلب أجهزة الكمبيوتر المحمول الخاصة بهم معهم ما كان لينجح، لكننا ظللنا بحاجة لفعل شيء معقد ما كان لينجح بالورقة والقلم أبدًا.

رفعت لأعلى الكمبيوتر المحمول الذي جَمَّعتُه أنا وخولو الليلة الماضية من الصفر، وقلت: «إنني أثق في هذا الجهاز؛ فكل مكوِّن فيه صنعناه بأيدينا. ويعمل بنسخة ثورية حديثة لنظام «بارانويد لينكس» وُضِع عليه من قرص فيديو رقمي. إذا كان هناك أي كمبيوتر جدير بالثقة في العالم، فقد يكون هذا الجهاز.»

«يوجد على هذا الجهاز برنامج لإنتاج المفاتيح، وعلى كلٍّ منكم المجيء إلى هنا وإدخال أي بيانات عشوائية إليه — اضغطوا على أي مزيج من المفاتيح وحركوا الفأرة — وسوف

يستخدم البرنامج ذلك كأساس لإصدار مفتاح خاص وآخر عام عشوائيَّين لكلٍّ منكم، ويعرضهما على الشاشة. ويمكن لكلٍّ منكم التقاط صورة لمفتاحه الخاص باستخدام كاميرا الهاتف، والضغط على أي مفتاح للتخلص منه إلى الأبد؛ فهو لن يخزن على القرص على الإطلاق، وسيعرض لك بعد ذلك مفتاحك العام. حينئذٍ، تنادي جميع من تبادلهم الثقة هنا، فيلتقطون صورة للشاشة وأنت تقف بجانبها ليعرفوا بذلك صاحب المفتاح.»

تابعت قائلًا: «وعند عودتكم لمنازلكم، عليكم بتحويل الصور إلى مفاتيح. أخشى أن ذلك سيتطلب جهدًا، لكن سيلزم عليكم فعله مرة واحدة فقط، وسيكون عليكم توخي الحذر الشديد في كتابتها؛ خطأ واحد كافٍ لتعرضكم للخطر. لحسن الحظ، لدينا وسيلة تمكننا من معرفة ما إذا كنتم قد نفذتم الأمر كما ينبغي أم لا؛ تحت كل مفتاح هناك رقم أقصر بكثير يسمَّى «البصمة». ما إن تسجل المفتاح حتى يصير بإمكانك إنتاج بصمة منه ومقارنتها بالبصمة الأصلية. وإن كانتا متوافقتين، تكون قد نجحت.»

بدا الجميع مرتبكًا أمامي. حسنًا، كان ما طلبته غريبًا بالفعل، لكن ظل عليهم فعله.

الفصل الحادي عشر

أهدي هذا الفصل لمتجر كتب يونيفرستي بوكستور في جامعة واشنطن، والذي ينافس قسم الخيال العلمي الخاص به العديد من المتاجر المتخصصة في كتب الخيال العلمي. يرجع الفضل في ذلك لمسئول المشتريات المخلص حاد البصيرة، دواين ويلكينز. دواين عاشق للخيال العلمي بمعنى الكلمة؛ التقيت به للمرة الأولى في مؤتمر الخيال العلمي الدولي في تورونتو عام ٢٠٠٣. ويتضح هذا العشق في الاختيارات الانتقائية المستنيرة المعروضة في المتجر. وأحد المؤشرات المهمة لعظمة أي متجر كتب هو جودة الملاحظات النقدية الملصقة على الأرفف؛ وهي قطع صغيرة من الورق المقوَّى مكتوب عليها ملاحظات العاملين في المتجر (بخط اليد غالبًا) تُعدِّد مزايا الكتب التي قد تفوت عليك. استفاد العاملون بالمتجر من توجيهات دواين؛ إذ تُعَد هذه الملاحظات هي الأفضل على الإطلاق.

* * *

نهض خولو، وقال:

«من هنا البداية يا شباب! هكذا نعرف إلى أي فريق تنتمي. قد لا ترغب في الخروج إلى الشوارع، والقبض عليك لما تعتنقه من معتقدات، لكن إذا كانت لديك معتقدات بالفعل، فسيسمح لنا ذلك الإجراء بمعرفتها. سنكوِّن بذلك شبكة ثقة توضح لنا من معنا ومن علينا. إذا أردنا استرجاع بلادنا، ينبغي لنا فعل ذلك ... ينبغي لنا فعل شيء مثل ذلك.»

رفع أحد الحضور يده ممسكًا بزجاجة جعة، كانت آنج.

«لتنعتني بالغباء، لكنني لا أفهم أيًّا مما تقوله. لماذا تريدنا أن نفعل ذلك؟»

نظرت أنا وخولو كلٌّ منا للآخر. بدا كل شيء واضحًا للغاية عند تنظيمنا له. «شبكة «إكس نت» ليست وسيلة فقط لممارسة الألعاب المجانية، وإنما هي شبكة الاتصال الحرة الأخيرة في أمريكا. إنها الوسيلة الأخيرة للتواصل دون تطفل من وزارة الأمن الوطني. ولكي تنجح، علينا التأكد من أن من نتحدث معه ليس متطفلًا؛ أي أن نتأكد من هوية من نرسل إليه الرسائل.

ومن هنا، يأتي دوركم. لقد دعوناكم إلى هنا لأننا نثق فيكم، وأعني هنا ثقة حقيقية؛ أي إننا نأتمنكم على حياتنا.»

همهم البعض مستنكرًا؛ إذ بدا الحديث دراميًّا وغبيًّا.

نهضتُ مرة أخرى، وقلت:

«عند وقوع التفجيرات» — شعرت بانقباض وألم في صدري عند قولي ذلك — «قُبِض عليَّ وعلى أصدقائي في شارع ماركت، ولسبب ما، قررت وزارة الأمن الوطني أن وجودنا في ذلك المكان جعلنا موضع شبهة. غطوا رءوسنا بأكياس، ووضعونا على ظهر سفينة، وظلوا يستجوبوننا لأيام. أهانونا، وتلاعبوا بعقولنا، ثم أطلقوا سراحنا.

أطلقوا سراحنا جميعًا ما عدا شخصًا واحدًا، وهو أعز أصدقائي. كان معنا عند القبض علينا، وقد تعرض لإصابة، وكان بحاجة لرعاية طبية، ولم يظهر ثانيةً قط. أما هم، فنفوا رؤيتهم له مطلقًا، وقالوا إننا إذا أخبرنا أي أحد بما حدث، فسيقبضون علينا ونختفي للأبد.»

ارتعد جسدي من الخزي ... ذلك الخزي اللعين. سلط خولو الضوء عليَّ.

قلت: «يا إلهي! أنتم أول من أخبرهم بذلك. إذا ذاع الخبر، فتأكدوا أنهم سيعلمون من سرَّبه وسيصلون إلي.» أخذت المزيد من الأنفاس العميقة، واستطردت حديثي: «لذلك، تطوعت على شبكة «إكس نت»، وصار محور حياتي من الآن فصاعدًا هو محاربة وزارة الأمن الوطني ... كل نفس ... وكل يوم في حياتي مُكرَّس لهذا الهدف حتى نتحرر من جديد. يمكن لأيٍّ منكم الزج بي في السجن الآن إن أراد.»

رفعت آنج يدها ثانيةً، وقالت: «لن نشي بك، هذا مستحيل. أعرف الجميع هنا حق المعرفة ويمكنني أن أعدك بذلك. لا أعلم كيف أعرف من يمكنني الوثوق به، لكنني أعرف من لا يمكنني الوثوق به؛ وهم كبار السن ... آباؤنا ... البالغون. التجسس لديهم يتعلق دومًا بشخص آخر، شخص سيئ. وعندما يفكرون في شخص قُبِض عليه وأُرسِل إلى سجن سري، يكون ذلك دائمًا شخصًا آخر ... شخصًا ذا بشرة داكنة، شابًّا، أجنبيًّا.»

واستطردت: «إنهم ينسون ما كان عليه الحال عندما كانوا في نفس سننا، وكانوا محل شك دومًا! كم مرة ركبتم فيها حافلة ورمقكم الجميع بنظرة ارتياب على أنكم دائمًا مصدر المشكلات؟

«والأسوأ من ذلك أنهم يتحولون إلى بالغين في سن أصغر كل يوم، فكان يُقال في الماضي: «إياك والوثوق في أحد يبلغ من السن أكثر من ٣٠ عامًا». وأنا أقول: «إياكم والوثوق في أي وغد يزيد عمره عن ٢٥ عامًا».»

أثار هذا التعليق ضحك الحضور، وضحكت هي أيضًا معهم. كانت جميلة على نحو غريب تظهر في ملامحها مشابهة للخيول بوجهها وفكها الطويلين. «إنني لا أمزح حقًّا. فلنتأمل الموضوع معًا: من انتخب هؤلاء المهرجين؟ من سمح لهم باحتلال مدينتنا؟ من صوَّت لوضع الكاميرات في الفصول المدرسية وتتبعنا باستخدام شرائح التجسس الكريهة في السيارات وبطاقات المرور الخاصة بنا؟ لم يفعل ذلك شخص يبلغ من العمر ١٦ عامًا. قد نكون أغبياء أو صغار السن، لكننا لسنا حثالة.»

حينئذٍ قلت: «أريد طباعة هذه الكلمات على تي شيرت.»

فقالت الفتاة: «فكرة جيدة!» وابتسم كلٌّ منا للآخر.

ثم سألت، وهي تخرج هاتفها: «أين أذهب للحصول على مفتاحيَّ؟»

«سنقوم بذلك هناك في البقعة المنعزلة الموجودة عند الكهوف. سأصحبك إلى هناك، وأعد لكِ الكمبيوتر، ثم تفعلين ما يتوجب عليك فعله، وتأخذين الكمبيوتر إلى أصدقائك لالتقاط الصور لمفتاحك العام حتى يتمكنوا من توقيعه عند العودة لمنازلهم.»

ثم رفعت صوتي قائلًا: «يا إلهي! ثمة شيء آخر! لا أصدق أنني كنت سأنسى ذلك! «عليكم بمسح هذه الصور بمجرد أن تسجلوا المفاتيح!» آخر ما نبغيه هو سلسلة من الصور لنا جميعًا أثناء الاتفاق على خطتنا على موقع فليكر.»

سمعت بعض الضحكات الخافتة العصبية سليمة النية، ثم أطفأ خولو النور، وحال الظلام المفاجئ دون رؤيتي لأي شيء. تكيفت عيناي تدريجيًّا، وبدأت في التوجه ناحية الكهف. كان هناك شخص يتحدث خلفي ... إنها آنج. استدرت وابتسمت لها، فبادلتني الابتسام ولمعت أسنانها في الظلام.

قلت لها: «شكرًا على ما قلتِه. كان ذلك رائعًا.»

«هل عنيت حقًّا ما قلته بشأن الكيس الذي وضِع على رأسك وما إلى ذلك؟»

فأجبتها: «نعم، لقد حدث ذلك بالفعل. لم أخبر أحدًا به من قبل، لكنه حدث.» فكرت لحظة، ثم تابعت الحديث: «أتعلمين، مع مرور الوقت دون الإفصاح عما حدث، بدأ يبدو

ككابوس. كانت تجربة عصيبة حقًّا.» توقفت، وصعدت إلى الكهف. «يسعدني البوح بذلك أخيرًا. لو ظل حبيسًا بداخلي أكثر من ذلك، لكنت قد بدأت أشك في صحتي العقلية.»

وضعت الكمبيوتر المحمول على صخرة جافة، وبدأت تشغيله باستخدام قرص الفيديو الرقمي وهي تراقبني. «سأعيد التشغيل مع كل شخص. هذا قرص نظام «بارانويد لينكس» قياسي، لكن أظن أنكم ستثقون بكلمتي هنا.»

قالت الفتاة: «الأمر كله يتعلق بالثقة، أليس كذلك؟»

فأجبتها: «بلى ... إنها الثقة.»

تراجعتُ بضع خطوات أثناء تشغيلها لبرنامج إنتاج المفاتيح، مستمعًا لصوت كتابتها على لوحة المفاتيح واستخدامها للفأرة لإحداث نوع من العشوائية، ولصوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ، ولضوضاء الاحتفال حيث توجد الجعة.

خرجت الفتاة من الكهف حاملةً الكمبيوتر المحمول الذي ظهر على شاشته بحروف مضيئة بيضاء مفتاحُها العام، وبصمتها، وعنوان بريدها الإلكتروني. رفعت الشاشة بجوار وجهها، وانتظرت حتى أخرجت هاتفي.

ابتسمتْ، فالتقطتُ صورة لها ثم وضعت الهاتف في جيبي ثانيةً. توجهت إلى المعربدين بالحفل، وجعلت كلًّا منهم يلتقط صورة لها وللشاشة. اتسم الأمر بالبهجة والمرح. تمتعت تلك الفتاة بشخصية فاتنة حقًّا ... تجعلك لا ترغب في الضحك عليها، وإنما معها. يا إلهي، كان الأمر مرحًا حقًّا! لقد أعلنا حربًا سرية على الشرطة السرية. من كنا نظن أنفسنا؟

وعلى مدار الساعة التالية أو نحوها، أخذ الجميع يلتقطون الصور ويصممون المفاتيح. كان عليَّ الالتقاء بكل شخص في الحفل. كنت على معرفة بالكثير منهم — فبعضهم دعوته بنفسي — والآخرون أصدقاء أصدقائي أو مقربون لهم. لزم علينا أن نكون جميعًا أصدقاء مقربين. وهكذا كان الحال بالفعل في نهاية الليلة؛ كانوا جميعًا أفرادًا صالحين.

ما إن انتهى الجميع حتى ذهب خولو لتصميم مفتاحه، ثم استدار مبتعدًا ومبتسمًا في وجهي ابتسامة خجولة، لكنني كنت قد تجاوزت غضبي منه؛ فكان يفعل ما ينبغي له فعله. كنت أعلم أنه مهما قال، فسيظل دائمًا موجودًا لمؤازرتي. لقد دخلنا سجن وزارة الأمن الوطني معًا، وكذلك فان. ومهما حدث، فسيظل ذلك الحدث يربط بيننا للأبد.

صممت مفتاحي، ودرت على الحضور ليلتقط لي كلٌّ منهم صورة. وبعد ذلك، صعدت إلى البقعة العالية التي تحدثت من فوقها قبل قليل، وطلبت من الجميع الانتباه.

«أظن أن كثيرين منكم قد لاحظوا وجود خلل خطير في هذا الإجراء، ألا وهو: ماذا إذا كان هذا الكمبيوتر المحمول لا يمكن الوثوق فيه؟ ماذا إذا كان يسجل سرًّا توجيهاتنا؟ ماذا إذا كان يتجسس علينا؟ ماذا إذا كنت أنا وخوسيه لويس غير جديرين بالثقة؟»

سمعت المزيد من الضحكات الخافتة سليمة النية التي عكست قدرًا أكبر من الألفة وتأثير الجعة.

«أعني ما أقوله حقًّا. إذا لم نسر على الطريق السليم، يمكن أن يوقعنا ذلك جميعًا — يوقعكم جميعًا — في مشكلات لا حصر لها قد يكون من بينها السجن.»

صارت الضحكات الخافتة أكثر عصبية.

واصلت حديثي: «ولذلك، سأفعل هذا»، رفعت مطرقة كنت قد جلبتها من صندوق أدوات والدي. وضعت الكمبيوتر المحمول بجانبي على الصخرة، ولوَّحت بالمطرقة في حين سلط خولو ضوء سلسلة مفاتيحه عليَّ أثناء التلويح. هشمت الجهاز … لطالما حلمت بتحطيم كمبيوتر محمول بالمطرقة، وها أنا ذا أفعل ذلك. غمرني شعور رائع … وسيئ في الوقت نفسه.

طراخ! تنهار الشاشة إلى ملايين القطع الصغيرة لتكشف عن لوحة المفاتيح. واصلت الضرب إلى أن تحطمت لوحة المفاتيح لتكشف عن اللوحة الأم ومحرك الأقراص الصلبة. طراخ! صوبت هذه المرة مباشرة على محرك الأقراص الصلبة، ضاربًا إياه بكل ما أوتيت من قوة. ضربته ثلاث مرات قبل أن ينفلق الصندوق ليكشف عن الوسائط الدقيقة داخله. واصلت الضرب إلى أن لم يتبق به شيء أكبر من قداحة السجائر، ثم وضعت كل هذا الحطام في كيس قمامة. أخذ الجمع يهتف بقوة، وعلا الصوت لدرجة أقلقتني من أن أحدًا في مكان ما بأعلى قد يسمع صوتنا الذي علا على صوت الأمواج، فيطلب الشرطة.

هتفت فيهم: «حسنًا! والآن، إذا أردتم مصاحبتي، فسآخذ هذا الكيس للشاطئ، وأتركه في الماء المالح لعشر دقائق.»

لم يستجب أحد لدعوتي في البداية، ثم تقدمت آنج وأمسكت بذراعي في يدها الدافئة، وهمست في أذني: «كان ذلك جميلًا»، ثم سرنا معًا تجاه البحر.

كان الظلام دامسًا عند البحر، ويوحي بالخطر حتى مع أضواء سلاسل المفاتيح التي كانت معنا. الصخور حادة وزلقة يصعب السير عليها، ناهيك عن محاولة التوازن بكيس

بلاستيكي مملوء بستة أرطال من الإلكترونيات المحطمة. زلَّت قدمي مرة، وظننت أنني سأجرح نفسي، لكنها أمسكت بي بقبضة قوية على نحو مدهش، وساعدتني في الحفاظ على اتزاني. قرَّبني ذلك منها لحد سمح لي بأن أشم رائحة عطرها الذي شابه رائحة السيارات الجديدة. أحببت تلك الرائحة.

قلت لها: «شكرًا»، وأنا أنظر في عينيها الكبيرتين اللتين بدتا أكبر عبر نظارتها ذات الإطار الأسود والطابع الرجالي. لم أستطع تحديد لونهما في الظلام، لكنني خمنت أنهما داكنتان بناءً على شعرها الداكن وبشرتها الخمرية. بدت من المنطقة المتوسطية، ربما يونانية أو إسبانية أو إيطالية.

جثمتُ وأنزلت الكيس في البحر تاركًا الماء المالح يغمره. أنزلت قدمي قليلًا وغمرت حذائي في الماء. سببتُ، فضحكتْ. لم ننطق تقريبًا بأية كلمة منذ بدأنا السير نحو البحر. كان ثمة شيء ساحر في صمتنا ذلك.

لم أكن آنذاك قد قبَّلت في حياتي سوى ثلاث فتيات فقط، هذا فضلًا عن الفتيات التي قبلتني لحظة عودتي للمدرسة واستقبالي استقبال الأبطال. ليس ذلك برقم هائل، لكنه ليس بالصغير أيضًا. كانت لدي قدرة معقولة على استشعار ما تريده الفتيات، وأظن أنه كان بوسعي تقبيلها. لم تكن مثيرة بالمعنى التقليدي، لكنْ ثمة شيء يوحي به اجتماع فتاة وشاطئ وليل. هذا بالإضافة إلى أنها كانت ذكية، وعاطفية، ومخلصة.

لكنني لم أقبِّلها أو أمسك يدها. أمضينا — بدلًا من ذلك — لحظات لا أجد لها وصفًا سوى أنها روحانية. الأمواج المتكسرة، والليل، والبحر، والصخور، وأنفاسنا. طالت اللحظات، وتنهدتُ. يا لها من رحلة شاقة! كان لا يزال أمامي الكثير لأفعله من كتابة في تلك الليلة، ووضع كل هذه المفاتيح في سلسلة مفاتيحي، وتوقعيها ثم نشرها، لتبدأ بذلك شبكة الثقة.

تنهدت الفتاة أيضًا.

قلت لها: «هيا لنذهب!»

فقالت: «نعم، هيا!»

عدنا للحفل. كم كانت جميلة تلك الليلة!

بعد انقضاء الحفل، انتظر خولو صديق أخيه ليأتي ويأخذ صناديق البيرة. سرت مع باقي الحضور على الطريق وصولًا لأقرب محطة حافلات، وصعدت على متن إحداها. لم

يستخدم أيٌّ منا، بالطبع، تذكرة رسمية. كان مستخدمو «إكس نت» قد اعتادوا نسخ تذاكر حافلات أشخاص آخرين ثلاثًا أو أربع مرات يوميًّا، وانتحال هوية جديدة في كل مرة يركبون فيها الحافلات.

كان من الصعب البقاء هادئين في الحافلة. كنا جميعًا سكارى بعض الشيء، والنظر في وجوهنا في أضواء الحافلة البراقة كان مدعاة للضحك. علا صوتنا كثيرًا، واستخدم السائق نظام الاتصال الداخلي ليطلب منا خفض أصواتنا مرتين، ثم أخبرنا في النهاية بأن نخرس وإلا فسيتصل بالشرطة.

أثار ذلك ضحكنا مرة أخرى، ونزلنا من الحافلة وسط مجموعة من الأفراد الآخرين قبل أن يتصل بالشرطة بالفعل. وصلنا آنذاك لحي نورث بيتش؛ حيث كان الكثير من الحافلات وسيارات الأجرة ومحطة بارت في شارع ماركت والمقاهي والنوادي ذات اللافتات المضاءة بمصابيح النيون؛ ما فرَّق جمعنا، وذهب كلٌّ منا في طريق.

وصلت إلى المنزل، وقمت بتشغيل «إكس بوكس» الخاص بي. بدأت تسجيل المفاتيح من شاشة هاتفي. كان عملًا مملًّا ويبعث على النوم. كنت شبه سكران، وأصابني ذلك بالنعاس.

كان رأسي قد أوشك على السقوط عندما ظهرت نافذة رسالة فورية جديدة على الشاشة.

«أيها البطل!»

لم أتعرف على الاسم المستعار — سبيكسجريل — لكنني خمنت من يكون المتحدث. كتبت بحذر:

«مرحبًا!»

«هذه أنا، من حفل الليلة.»

ثم لصقت مجموعة تشفير في نافذة المحادثة. كنت قد أدخلت بالفعل مفتاحها العام في سلسلة مفاتيحي؛ لذلك طلبت من عميل المراسلة الفورية أن يحاول فك تشفير الكود باستخدام هذا المفتاح.

«هذه أنا، من حفل الليلة.»

لقد كانت هي!

«من الغريب لقاؤك هنا.»

كتبتْ، ثم شفرت ما كتبته بمفتاحي العام، وأرسلته.

«سعدت للغاية بلقائك.»

«وأنا كذلك، فقلما ألتقِي شابات ذكيات يتمتعن في الوقت نفسه بالجاذبية والوعي الاجتماعي. يا إلهي! إنك لا تعطين الفتيات فرصًا كثيرة.»

دقَّ قلبي بقوة بين أضلعي.

«مرحبًا، هل من أحد هنا؟ إنني أهرم هنا. لا تنسَ إعطاء النادلات بقشيشًا؛ فهن يجتهدن في عملهن. سأظل هنا طوال الأسبوع.»

ضحكت بصوت مرتفع، وأجبتها:

«أنا هنا ... أنا هنا! لم أتمكن من الكتابة فقط بسبب الضحك الشديد.»

«على الأقل، حس الدعابة في المراسلات الفورية لدي لا يزال قويًّا.»

امممم.

«سعدت بلقائك أيضًا للغاية.»

«نعم، أعلم ذلك. إلى أين ستصحبني؟»

«أصحبك؟»

«في مغامرتنا التالية؟»

«ليست لدي أية خطط في الحقيقة.»

«حسنًا، سأصحبك أنا إذن. يوم السبت ... متنزه دولوريس ... حفل موسيقي غير قانوني في الهواء الطلق. إن لم تذهب، فأنت مُعقَّد.»

«انتظري! ماذا؟»

«ألم تطَّلع على شبكة «إكس نت»؟ الموضوع منتشر للغاية. هل سمعت من قبل عن فرقة «سبيدهورز»؟»

كدت أختنق؛ فقد كانت هذه فرقة ترودي دو، وترودي دو هي المرأة التي دفعت لي ولخولو المال لتحديث كود الشبكة المستقلة.

«نعم، سمعت عنها.»

«ستقيم هذه الفرقة حفلًا ضخمًا، وقد تمكنت من التعاقد مع نحو خمسين فرقة لإحياء الحفل. سيقيمونه على ملاعب التنس، ويجلبون شاحناتهم المحملة بمكبرات الصوت ليشعلوا الليلة حماسًا.»

شعرت أنني مغيَّب عما يدور حولي. كيف فاتني ذلك؟ كان هناك متجر كتب يتسم بالفوضوية في شارع فالينسيا اعتدت المرور عليه أحيانًا في طريقي إلى المدرسة. علَّق ذلك المتجر ملصقًا لصورة إحدى الثائرات تُدعَى «إيما جولدمان» وتحتها تعليق: «إن لم يمكنِّي الرقص، فلا أريد أن أكون جزءًا من ثورتكم.» بذلت كل طاقاتي في البحث عن كيفية لاستخدام شبكة «إكس نت» في تنظيم مناضلين مخلصين يتمكنون من التشويش على جهود وزارة الأمن الوطني، لكن ذلك كان أكثر تميزًا. حفل موسيقي ضخم ... لم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية إقامة حفل كهذا، لكنني سعدت بأن أحدًا ما تمكن من ذلك.

الآن، وبعد أن فكرت في الأمر، شعرت بفخر شديد لاستخدامهم شبكة «إكس نت» في فعل ذلك.

كنت مرهقًا للغاية في اليوم التالي. فقد استمرت محادثتي مع آنج — بالأحرى مغازلتي لها — حتى الرابعة صباحًا. ولحسن حظي، كان يوم السبت وتمكنت من النوم حتى وقت متأخر. لكن نظرًا لتأثير الخمر وعدم النوم الجيد، كنت بالكاد أستطيع ترتيب أفكاري.

بحلول وقت الغداء، نهضت من السرير، ونزلت إلى الشارع. تهاديت وصولًا إلى مقهى التركي لشراء قهوتي. اعتدت في تلك الأيام شراء قهوتي من هناك عندما أكون وحدي، كما لو كنت أنا والتركي قد صرنا عضوين في تنظيم سري.

في طريقي إلى المقهى، مررت بالكثير من رسوم الجرافيتي حديثة الإنشاء. أحببت الجرافيتي في حي ميشن؛ إذ كان يتمثل عادةً في جداريات ضخمة مزخرفة أو رسوم تهكمية يطبعها طلاب الفنون بالإستنسل. ما أعجبني هو استمرار الرسامين الجداريين في حي ميشن فيما يفعلونه رغم مراقبة رجال وزارة الأمن الوطني، وهو ما أظنه صورة أخرى من صور استخدام شبكة «إكس نت»؛ فلا بد أنهم امتلكوا كافة السبل لمعرفة ما كان يحدث، ومن أين يأتون بالطلاء، وما الكاميرات التي كانت تعمل. وقد لاحظت أيضًا أن بعض الكاميرات قد رُشَّت بالطلاء.

لعلهم استخدموا شبكة «إكس نت»!

على جانب سور إحدى ساحات السيارات، طُبِعت عبارة: «لا تثق في أحد أكبر من ٢٥ عامًا» بحروف تقطر بالطلاء ويبلغ ارتفاعها عشر أقدام.

توقفت، وأخذت أفكر: هل غادر أحد «حفلتي» الليلة الماضية، وجاء إلى هنا بعلبة طلاء؟ فقد كان الكثير من الحضور يقطنون ذلك الحي.

حصلت على قهوتي، وتجولت بأنحاء المدينة. أخذت أفكر فيما إذا كان عليَّ الاتصال بأحد ومعرفة ما إذا كانوا يريدون الحصول على فيلم أو أي شيء آخر. هكذا كان الحال في أيام السبت المليئة بالكسل. لكن بمن سأتصل؟ فان لا تتحدث معي، ولا أظن أنني كنت على استعداد للتحدث مع خولو، وداريل ...

حسنًا، لا يمكنني الاتصال بداريل.

أخذت قهوتي، وعدت للمنزل، وبحثت قليلًا على مدونات «إكس نت». تلك المدونات مجهولة المؤلِّف لا يمكن تتبع كُتَّابها، إلا إذا كان المؤلف على قدر من الغباء ليضع اسمه عليها. ويوجد عدد كبير منها، وأغلبها لا علاقة له بالسياسة، لكن الكثير منها لم يكن كذلك حقًّا؛ فتناولت موضوعات عن المدارس وما تشهده من ظلم، ورجال الشرطة، والرسم على الجدران.

اكتشفت أن خطط الحفل في المتنزه قد انتشرت على الشبكة منذ أسابيع؛ إذ تناقلتها المدونات لتتحول إلى حركة متكاملة دون أن ألاحظها. وحمل الحفل اسم: «لا تثق في أحد أكبر من ٢٥ عامًا.»

وهذا يفسر من أين أتت آنج بتلك العبارة. كانت شعارًا جيدًا.

صبيحة يوم الإثنين قررت التحقق من متجر الكتب الفوضوي مجددًا، وأرى ما إذا كان بإمكاني الحصول على أحد ملصقات إيما جولدمان. كنت بحاجة لذلك التذكير.

مررت بشارع ١٦ وحي ميشن في طريقي للمدرسة، ثم شارع فالينسيا وعبرته. وجدت المتجر مغلقًا، لكنني عرفت مواعيده؛ إذ كانت مكتوبة على الباب وتأكدت من أن الملصق لا يزال معلقًا به.

اندهشت أثناء سيري في شارع فالينسيا من كمِّ المرات التي رأيت فيها شعار «لا تثق في أحد أكبر من ٢٥ عامًا»؛ فقد عرض نصف المتاجر بضائع عليها الشعار؛ من علب غذاء، وتي شيرتات، ومقالم أقلام رصاص، وقبعات. أما متاجر الهيبيز، فكانت أسرع

بالتأكيد في هذا الشأن. وبانتشار الأفكار الجديدة على الإنترنت في غضون يوم أو اثنين، صارت المتاجر أفضل في عرض بضائعها في واجهات العرض لتتماشى مع هذه الأفكار، فربما يهبط مقطع فيديو طريف على موقع يوتيوب لرجل ينطلق بمركبات نفاثة من ماء الصودا ليهبط في صندوق بريدك يوم الإثنين، وبحلول يوم الثلاثاء، تتمكن من شراء تي شيرتات عليها مشاهد من هذا الفيديو.

لكنه من المذهل أن ترى شيئًا ينتقل من شبكة «إكس نت» إلى متاجر بيع الأدوات التي تهم مستخدمي المخدرات. وتوجد سراويل جينز مستعملة مكتوب عليها بعناية الشعار بقلم الحبر الجاف المستخدَم في المدارس الثانوية بعناية، فضلًا عن البادجات التي يتم وضعها على الملابس.

تنتشر الأخبار السعيدة سريعًا.

كان ذلك مكتوبًا على السبورة عند دخولي حصة الدراسات الاجتماعية للسيدة جالفيس. جلسنا جميعًا على مقاعدنا، وابتسمنا لِما كان مكتوبًا، وشعرت كما لو كانت الكلمات تبادلنا الابتسام. كان هناك شيء مبهج للغاية في فكرة أنه بإمكاننا جميعًا الوثوق في بعضنا البعض، وأن العدو يمكن تحديده. كنت أعلم أن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا، لكنه لم يكن خاطئًا تمامًا أيضًا.

دخلت السيدة جالفيس، ملَّسَت على شعرها، ووضعت الكمبيوتر المحمول المدرسي الخاص بها على مكتبها، وقامت بتشغيله. التقطت الطبشورة، واستدارت لتواجه السبورة؛ فضحكنا جميعًا … بسلامة نية، لكننا ضحكنا.

استدارت لنا، وكانت تضحك هي أيضًا. قالت: «يبدو أن الغرور قد أصاب كاتبي الشعارات في هذه البلاد. كم منكم يعلم من أين أتت هذه العبارة؟»

نظر كلٌّ منا للآخر، وقال أحدنا: «الهيبيز؟» فضحكنا. ينتشر هؤلاء الهيبيز في جميع أنحاء سان فرانسيسكو، سواء النوع القديم منهم من متعاطي المخدرات ذوي الذقون القذرة والتي شيرتات المصبوغة، أو النوع الجديد الأكثر تأنقًا، والذين يهتمون بممارسة ألعاب تافهة أكثر من احتجاجهم على أي شيء على أرض الواقع.

«حسنًا، إنهم الهيبيز. لكننا عندما نفكر في الهيبيز الآن، لا نفكر إلا في الملابس والموسيقى. والملابس والموسيقى من الأمور الثانوية التي منحت لحقبة الستينيات أهميتها.

لقد سمعتم عن حركة الحقوق المدنية التي هدفت للقضاء على التمييز العنصري. شباب أمثالكم من البيض والسود استقلوا حافلات إلى الجنوب لدعم حق السود في

الانتخاب، والاحتجاج على التمييز العرقي الرسمي للدولة. كانت كاليفورنيا إحدى المناطق الرئيسية التي ظهر فيها قادة الحقوق المدنية. كنا دومًا أكثر اهتمامًا بالسياسة من باقي الدولة. هذا فضلًا عن أننا أيضًا الجزء الذي تمكن فيه السود من الحصول على وظائف بالمصانع التابعة للنقابات العمالية مثل البيض؛ ومن ثم كانوا أفضل حالًا بعض الشيء من السود في الجنوب.

كان الطلاب في بيركلي يرسلون باستمرار أعدادًا كبيرة من الرُّكاب الأحرار إلى الجنوب، وكان اختيارهم يتم من طاولات استعلامات خاصة في الحرم الجامعي عند تقاطع شارعي بانكروفت وتيليجراف. ولعلكم لاحظتم وجود هذه الطاولات حتى يومنا هذا.

حاولت الجامعة إيقافهم، ومنع رئيس الجامعة العمل السياسي في الحرم، لكن شباب الحقوق المدنية ما كانوا ليتوقفوا. حاولت الشرطة إلقاء القبض على طالب سابق بالجامعة كان يوزع منشورات من إحدى هذه الطاولات، ووضعوه في عربة الشرطة، لكن ٣٠٠٠ طالب حاصروا الشاحنة ورفضوا أن تتزحزح من مكانها. لم يدعوهم يأخذون الشاب إلى السجن. وقفوا على سقف العربة، وأخذوا يلقون الخُطَب عن «التعديل الأول للدستور» و«حرية التعبير».

أثار ذلك «حركة حرية التعبير»، وكانت تلك بداية الهيبيز، لكنها كانت أيضًا مصدر ظهور المزيد من الحركات الطلابية المتطرفة، مثل جماعات القوة السوداء من قبيل «بلاك بانثرز» (الفهود السود)، وما ظهر بعد ذلك من الجماعات الحقوقية للشواذ جنسيًّا مثل «بينك بانثرز» أيضًا، وكذلك الجماعات النسائية المتطرفة، مثل «المنشقات السحاقيات» اللاتي أردن القضاء على الرجال تمامًا! واليبيز ... هل سمع أيٌّ منكم من قبل عن اليبيز؟»

فقلت: «أليس هم من رفعوا البنتاجون؟» شاهدت فيلمًا وثائقيًّا ذات مرة عن ذلك.

فضحكت السيدة جالفيس، وقالت: «كنت قد نسيت ذلك، لكن نعم إنهم هؤلاء! كان اليبيز أشبه بهيبيز شديدي الاهتمام بالسياسة، لكنهم لم يكونوا جادين بشأن السياسة مثلما نفكر فيها حاليًّا. فكانوا مرحين للغاية ومبتكرين للمزح. ألقوا بالمال في بورصة نيويورك، وأحاطوا بالبنتاجون بآلاف المتظاهرين، ونطقوا بتعويذة سحرية كان من المفترض أن ترفعه وتحلق به في الهواء. اخترعوا نوعًا تخيليًّا من عقار هلوسة يمكن رشه على الناس باستخدام مسدسات الرش، وأخذوا يصوبونه تجاه بعضهم البعض، ويتظاهرون بأنهم تحت تأثير المخدرات. كانوا مضحكين، ومادة تليفزيونية رائعة؛ قام

أحدهم، ويُدعَى «وايفي جرافي»، بجعل المئات من المتظاهرين يرتدون زي سانتا كلوز لتُظهِر الكاميرات إلقاء ضباط الشرطة القبض على سانتا كلوز وجرَّهم له في الأخبار، وقد حشدوا الكثير من الناس.

وكانت أهم اللحظات في تاريخهم المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي في عام ١٩٦٨؛ حيث دعوا لمظاهرات للتنديد بالحرب على فيتنام؛ فتوافد على شيكاجو كل يوم الآلاف من المتظاهرين الذين ناموا في المتنزهات، ورابطوا أمام مقر المؤتمر. نفذوا العديد من الأعمال المثيرة الغريبة ذلك العام، مثل ترشيح خنزير يدعَى بيجسس للانتخابات الرئاسية. وقعت مصادمات بين الشرطة والمتظاهرين في الشوارع، وكان ذلك قد حدث عدة مرات من قبل، لكن شرطة شيكاجو لم تكن بالذكاء الكافي بحيث لا تتعرض للمراسلين الصحفيين، فأوسعوا المراسلين ضربًا، وانتقم المراسلون منهم بأن أظهروا ما حدث حقًّا في تلك المظاهرات؛ ومن ثم شاهد المواطنون في جميع أنحاء البلاد أبناءهم وهم يتعرضون لاعتداء ضارٍ من شرطة شيكاجو، وأطلقوا على ذلك «شغب الشرطة».

كانت عبارة «لا تثق في أحد أكبر من ٣٠ عامًا» من المقولات المفضلة لدى الييبيز، وقصدوا بها أن من ولِدوا قبل وقت معين — وهو عندما كانت أمريكا تحارب أعداء مثل النازيين — ما كانوا ليفهموا أبدًا ما يعنيه حبك لبلادك بقدر يجعلك ترفض محاربة الفيتناميين. وكانوا يرون أنه ببلوغ سن الثلاثين، تتبلد مواقفك ويصير من الصعب عليك فهم سبب نزول الشباب إلى الشوارع، وتركهم العمل، وقيامهم بأعمال جنونية.

كانت سان فرانسيسكو نقطة الانطلاق لتلك الأحداث. تأسست الجيوش الثورية هنا، وفجَّر بعضها مباني أو نهب بنوكًا دفاعًا عن قضاياهم. صار الكثير من أولئك الشباب بعد ذلك أكثر أو أقل نضجًا، في حين انتهى المآل بآخرين منهم في السجن، وحقق بعض من لم يكملوا تعليمهم الجامعي منهم إنجازات مدهشة، مثل ستيف جوبز وستيف وازنياك اللذين أسسا شركة أبل لأجهزة الكمبيوتر واخترعا الكمبيوتر الشخصي.»

أثار ذلك انتباهي حقًّا. كنت على علم ببعض منه، لكنني لم أستمع لأحد يتحدث عن الأمر كذلك من قبل، أو لعله لم يهمني من قبل مثلما هو الآن. وفجأة، بدا أن مظاهرات الشوارع البسيطة غير المثيرة أو المجدية التي أقامها البالغون ليست غير مجدية مثلما ظننت، ولعل لها مكانًا في حركة «إكس نت».

رفعت يدي، وسألت: «هل نجحوا؟ هل نجح الييبيز؟»

نظرت إليَّ طويلًا، كما لو كانت تفكر في الإجابة. لم ينطق أحد، وترقبنا جميعًا سماع ما ستقوله.

قالت: «إنهم لم يفشلوا، لكنهم انهاروا داخليًّا بعض الشيء؛ فدخل بعضهم السجن بتهمة المخدرات أو أمور أخرى، وبعضهم غيَّر موقفه، وصاروا مواليين للنظام، ويذهبون للمحاضرات ليخبروا الجميع كم كانوا أغبياء فيما فعلوا، ويتحدثون عن مدى جشعهم وغبائهم.

لكنهم غيَّروا العالم بالفعل؛ فوضعت حرب فيتنام أوزارها، وفقدت الطاعة العمياء والامتثال — التي أسماها الناس وطنية — بريقها إلى حد كبير، وشهدت حقوق السود والمرأة والمثليين تقدمًا كبيرًا، هذا فضلًا عن حقوق الأمريكيين ذوي الأصول المكسيكية، وحقوق المعاقين، والمفهوم الشامل للحريات المدنية الذي نشأ أو تعزز على يد هؤلاء الأفراد. وحركة الاحتجاجات الحالية هي نِتاج مباشر لهذه الصور من النضال.»

قال تشارلز: «لا أصدق أنكِ تتحدثين عنهم بهذا الشكل.» كان يستند على كرسيه حتى صار شبه واقف، ووجهه النحيل الحاد الملامح قد تحول للَّون الأحمر. كانت له عينان كبيرتان لامعتان، وشفتان كبيرتان، وعند إثارة مشاعره، كان يشبه السمكة بعض الشيء.

تسمرت السيدة جالفيس قليلًا، ثم قالت: «واصلْ حديثك يا تشارلز.»

«إن من وصفتِهم لتوِّك إرهابيين ... إرهابيون حقيقيون؛ لقد فجروا منشآت، وفقًا لقولك. حاولوا تدمير البورصة. ضربوا رجال الشرطة، ومنعوهم من القبض على من كانوا يخرقون القانون. لقد هاجمونا!»

أومأت السيدة جالفيس برأسها ببطء. كان بوسعي أن أرى أنها تفكر في الكيفية التي ستتعامل بها مع تشارلز الذي بدا وكأنه على وشك الانفجار. قالت: «يطرح تشارلز نقطة مهمة؛ لم يكن اليبيبز عملاء أجانب، بل مواطنين أمريكيين. عندما تقول «لقد هاجمونا»، عليك أن تحدد من «هم» ومن «نحن». عندما يكون من يفعل ذلك هم شركاؤك في الوطن ...»

صاح فيها مقاطعًا، وقد نهض من على مقعده: «هراء! كانت البلاد في حالة حرب آنذاك، وهؤلاء الناس قدموا يد العون والدعم للعدو. من اليسير تحديد من «هم» ومن «نحن»: إذا كان المرء يدعم أمريكا، فهو «منا»، وإن كان يدعم من يطلقون النار على الأمريكيين، فهو «منهم».»

«هل من أحد آخر يريد التعليق على هذا؟»

ارتفع العديد من الأيدي، وطلبت السيدة جالفيس منهم التحدث. أشار البعض إلى أن السبب وراء إطلاق الفيتناميين النار على الأمريكيين هو أن الأمريكيين قد ذهبوا إلى

فيتنام، وأخذوا يحاربون على أراضيها. على الجانب الآخر، رأى البعض أن تشارلز كان على حق في أنه يجب عدم السماح للناس بارتكاب ما يخالف القانون.

تبادل الجميع نقاشًا مثمرًا فيما عدا تشارلز الذي لم يفعل شيئًا سوى الصياح في الآخرين، ومقاطعتهم عند محاولتهم التعبير عن آرائهم. حاولت السيدة جالفيس جعله ينتظر دوره في التحدث عدة مرات، لكنه لم يستجب لأيٍّ منها.

كنت أبحث عن شيء بالكمبيوتر المدرسي المحمول الخاص بي، شيء عرفت أنني كنت قد قرأته من قبل.

وجدته، فنهضت واقفًا. نظرت إليَّ السيدة جالفيس مترقبة ما كنت سأفعله. تابع الآخرون في الفصل نظرتها المحدِّقة، وهدَءُوا. تشارلز نفسه نظر إليَّ بعد فترة قصيرة، وعيناه الكبيرتان اللامعتان تقدحان كراهية نحوي.

قلت: «أريد قراءة شيء ما عليكم، إنها فقرة قصيرة: «تنشأ الحكومات بين الناس مستمِدَّة سلطاتها العادلة من موافقة المحكومين، وإنه عندما يصبح أي شكل من أشكال الحكم في أي وقت من الأوقات هادمًا ومدمرًا لهذه الغايات، يصبح من حق الشعب أن يغيِّره أو يطيح به ويشكِّل حكومة جديدة مقيمًا أساسها على المبادئ، ومنظمًا سلطاتها وفق الكيفية التي تبدو له أفضل ملاءمة لتحقيق سلامته ورفاهيته».»

الفصل الثاني عشر

أهدي هذا الفصل إلى فوربيدن بلانِت، سلسلة متاجر كتب الفانتازيا والخيال العلمي والألعاب والمجلات الهزلية وأفلام الفيديو. تنتشر هذه السلسلة في جميع أنحاء المملكة المتحدة، هذا فضلًا عن منافذها بالقرب من الساحات الرياضية في مانهاتن ودبلين بأيرلندا. ودخول هذه المتاجر أمر خطير؛ إذ نادرًا ما أخرج منها دون المساس بمحفظتي. ولا ريب أن هذه السلسلة تتمتع بالريادة حقًّا فيما يتعلق بتحقيق التواصل بين الجمهور العريض للخيال العلمي المعروض في الأفلام والمواد التليفزيونية من ناحية وكتب الخيال العلمي من الناحية الأخرى، ما له أهمية بلا شك لمستقبل هذا المجال.

* * *

ارتسمت على وجه السيدة جالفيس ابتسامة عريضة، وسألت:

«هل يعلم أحد مصدر هذه الفقرة؟»

نطق مجموعة من الطلاب في آنٍ واحد: «إعلان الاستقلال الأمريكي.»

فأومأت برأسي.

«لماذا قرأت علينا ذلك يا ماركوس؟»

«لأنه بدا لي أن مؤسسي هذه البلاد قد قالوا إن الحكومات يجب ألا تستمر إلا إذا رأينا أنها تعمل لصالحنا، وإذا لم نعد نراها كذلك، فعلينا إسقاطها. هذا ما ينص عليه الإعلان، أليس كذلك؟»

هز تشارلز رأسه، وقال: «كان ذلك منذ مئات السنين! وقد تغير الحال الآن!»

«ما الذي تغير؟»

«حسنًا، لم يعد لدينا ملك مثلًا. إنهم يتحدثون عن حكومة تأسست لأن الجد الأكبر لأحد الحمقى آمن بأن الرب قد كلفه بالمسئولية، وقتل جميع معارضيه. أما الآن، فلدينا حكومة منتخَبة ديمقراطيًّا ...»

قلت له: «أنا لم أنتخب هذه الحكومة.»

«وهذا يمنحك الحق إذن بتفجير المنشآت؟»

«ماذا؟ من تحدث عن تفجير أية منشآت؟ إن اليبيز والهيبيز وكل هؤلاء الناس رأوا أن الحكومة لم تعد تصغي إليهم ... انظر إلى الطريقة التي عومِل بها من حاولوا دعم حق الناخبين في الإدلاء بأصواتهم في الجنوب! لقد تعرضوا للضرب والاعتقال ...»

قالت السيدة جالفيس: «والقتل في بعض الأحيان»، ثم رفعت يديها، وانتظرت مني أنا وتشارلز أن نجلس، وقالت: «كاد وقتنا ينتهي لهذا اليوم، لكنني أريد أن أثني عليكم جميعًا لواحدة من أفضل الحصص التي درَّستها. كانت هذه مناقشة رائعة، وتعلمت منكم جميعًا الكثير فيها، وآمل أن تكونوا قد تعلمتم من بعضكم البعض أيضًا. شكرًا لكم جميعًا على مشاركاتكم.

وأريد أن أعطي واجبًا بدرجات إضافية لمن يرغب منكم في بعض التحدي، أريد منكم كتابة بحث يقارن بين رد الفعل السياسي تجاه حركات الحقوق المدنية والحركات المناهضة للحرب في منطقة الخليج من ناحية، وردود الأفعال السياسية الحالية لجهات الحقوق المدنية تجاه الحرب على الإرهاب من ناحية أخرى. البحث لا يقل عن ثلاث صفحات، لكن يمكن أن يزيد عن ذلك كما تشاءون. أتطلع من الآن لرؤية ما ستتوصلون إليه.»

دقَّ الجرس بعد لحظات، وغادر الجميع الفصل، لكنني تخلفت عنهم، وانتظرت أن تلاحظني السيدة جالفيس.

«نعم يا ماركوس؟»

«كان ذلك رائعًا. لم تكن لدي كل هذه المعلومات عن حقبة الستينيات.»

«والسبعينيات أيضًا. كان هذا المكان دومًا مكانًا مثيرًا للعيش فيه وذلك في أوقات مفعمة بالأحداث السياسية. لقد أعجبني كثيرًا اقتباسك من إعلان الاستقلال؛ كان ذلك في منتهى الذكاء.»

«شكرًا لكِ. وردت الفكرة على ذهني فجأة، فلم أقدِّر قط المعنى الحقيقي لهذه الكلمات قبل اليوم.»

قالت وهي تصافحني: «حسنًا يا ماركوس، هذا كلام يحب أي معلم أن يسمعه. لا يسعني الانتظار حتى أقرأ بحثك.»

اشتريت ملصق «إيما جولدمان» في طريقي إلى المنزل، وألصقته فوق مكتبي وثبَّته على ملصق أسود أنيق. اشتريت كذلك تي شيرت مطبوعةً عليه عبارة «لا تثق في أحد أكبر من ٢٥ عامًا»، وصورة لشخصيتَي «شارع سمسم»؛ جروفر وإيلمو، وهما يطردان البالغَين جوردن وسوزان. أضحكني ذلك، واكتشفت فيما بعد أنه كان هناك نحو ست مسابقات للرسوم ببرنامج «فوتوشوب» لتصميم شعار على الإنترنت على مواقع مثل فارك، وورث ١٠٠٠، وبيتا. وانتشرت المئات من الصور الجاهزة والتي يمكن وضعها على كافة السلع.

رفعت أمي حاجبها عند رؤيتها التي شيرت، في حين هزَّ أبي رأسه، وطلب مني ألا أقحم نفسي في أية مشكلات، وأشعرني رد فعله بأن ما أفعله مبرَّر بعض الشيء.

وجدتني آنج متاحًا على الإنترنت ثانية، وأخذنا نتغازل عبر الرسائل الفورية حتى وقت متأخر من الليل مرة أخرى. عادت الشاحنة البيضاء ذات أجهزة الهوائي، فأغلقت جهاز «إكس بوكس» إلى أن رحلت الشاحنة. اعتدنا جميعًا فعل ذلك.

تحمست آنج بشدة لهذا الحفل الذي من المتوقع أن يكون مذهلًا، وقد اشترك فيه عدد كبير للغاية من الفِرق، حتى إنه قيل إنهم سيقيمون مسرحًا ثانيًا للعروض الثانوية.

«كيف سيحصلون على تصريح لما سيحدثونه من صخب طوال الليل في ذلك المتنزه؟ المنازل تحيط به من كل جانب.»

«تصريح؟ أي تصريح؟ لتحدثني عن تصريحك في أن تكون إنسانًا.»

«في هذا مخالفة للقانون؟»

«ماذا؟! هل أنت قلق حقًّا بشأن مخالفة القانون؟»

«معكِ حق.»

«ههههههههه.»

لكنني شعرت بشيء من العصبية، فأنا أصطحب تلك الفتاة الرائعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى في موعد غرامي في عطلة نهاية الأسبوع — أو بمعنى أدق، هي من كان يصطحبني — إلى حفل صاخب غير قانوني مقام وسط حي مزدحم.

وكان من المفترض أن يكون الأمر ممتعًا على الأقل.

ممتع.

بدأ الناس يتدفقون على متنزه دولوريس طوال فترة ما بعد الظهيرة الطويلة ليوم السبت، وقد برزوا من بين لاعبي الأطباق الطائرة، ومن يتجولون بكلابهم، وبعضهم لعب بالأطباق الطائرة أو تجول بالكلاب. لم يكن من الواضح حقًّا كيف سيسير الحفل، لكن كان هناك الكثير من رجال الشرطة والعملاء السريين في المكان. كان من الممكن تحديد العملاء السريين؛ لأنهم مثل الضابطين اللذين أمسكا بي منذ أيام؛ فاتسموا بقصة شعر كاسترو وبنية جسم قوية: رجال قصار القامة بدناء ذوو شعر قصير وشوارب غير مهذبة. تجولوا في المكان بمظهر أخرق غير مريح في بناطيلهم القصيرة الكبيرة وقمصانهم الفضفاضة، التي أخفت خلفها — بلا شك — ترسانة من الأسلحة المعلقة فيما بين صدورهم وخصورهم.

كان متنزه دولوريس جميلًا مشمسًا يضم نخيلًا، وملاعب تنس، والعديد من التلال والأشجار المنتظمة التي يمكن الركض فيها أو الاسترخاء عندها. ينام المشردون هناك ليلًا، لكن هكذا كان الحال أيضًا في أي مكان آخر في سان فرانسيسكو.

قابلت آنج في الشارع عند متجر الكتب الفوضوي، كان ذلك اقتراحي. أدركت فيما بعد أنني ظهرت بمظهر من يحاول أن يبدو شابًّا معاصرًا أمام تلك الفتاة، لكنني كنت لأُقسم حينها أنني قد اخترت ذلك المكان لأنه مناسب للمقابلة. عند وصولي إلى هناك، وجدتها تقرأ في كتاب اسمه «ارفع يديك على الحائط أيها السافل».

قلت لها: «عنوان لطيف! هل هذه لغة تحدثك مع والدتك؟»

فأجابت: «ولغتك أنت أيضًا. في الحقيقة، هذا كتاب يتحدث عن تاريخ إحدى الجماعات المشابهة للييبيز، لكنها من نيويورك. استخدم جميع أفراد تلك الجماعة كلمة «السافل» كاسم أخير لهم، مثل: «بِن السافل». قامت الفكرة على تكوين جماعة تصنع الأحداث، لكن باسم لا يمكن نشره في الصحافة على الإطلاق، وذلك للتلاعب بوسائل الإعلام الإخبارية. أمر مضحك حقًّا.» أعادت الكتاب لمكانه على الرف، وأخذت أفكر هل من المفترض أن أعانقها أم لا؛ فالناس في كاليفورنيا يعانقون بعضهم البعض دومًا عند التلاقي أو الوداع، ويقبِّلون بعضهم البعض أيضًا أحيانًا على الوجنتين. كنت متحيرًا للغاية بشأن ذلك.

فحسمتْ هي المسألة بأن جذبتني نحوها لتعانقني، وشدَّت رأسي لأسفل لأصل إليها، وقبَّلتني بقوة على وجنتي، ثم دغدغت عنقي بشفتيها. ضحكت ودفعتها بعيدًا.

سألتها: «هل ترغبين في تناول البوريتو؟»

«هل هذا سؤال أو إعلام بما سنفعله؟»

«لا هذا ولا ذاك، إنما أمر.»

اشتريت بعض الملصقات اللطيفة التي تحمل عبارة «هذا الهاتف مُراقَب»، والتي هي مصمَّمة بحجم يتناسب مع وضعها على سماعات الهواتف العمومية التي لا تزال تصطف في شوارع «ميشن»، وهو الحي الذي يمكن أن تصادف فيه أناسًا غير قادرين على تحمل تكلفة شراء هاتف محمول.

سرنا معًا، ونسيم الليل يحفنا. أخبرت آنج بما رأيته في المتنزه عند رحيلي.

قالت: «أراهن على أن هناك المئات من الشاحنات التابعة لهم متوقفة بجميع أرجاء الحي. أفضل الشاحنات للقبض عليك.»

نظرت حولنا، وقلت: «تمنيت أن تقولي شيئًا من قبيل: «حسنًا، لا يمكنهم فعل أي شيء».»

«لا أظن أن هذه هي الفكرة حقًّا، وإنما الفكرة هي وضع الكثير من المدنيين في وضع يكون على رجال الشرطة فيه اتخاذ القرار فيما إذا كانوا سيتعاملون مع هؤلاء الأفراد العاديين على أنهم إرهابيون أم لا. الأمر أشبه قليلًا بالتشويش، لكن باستخدام الموسيقى بدلًا من الأدوات الإلكترونية. تمارس التشويش، أليس كذلك؟»

أنسى أحيانًا أن جميع أصدقائي لا يعلمون أن ماركوس ومايكي شخص واحد. أجبتها: «بلى، قليلًا.»

«يشبه ذلك التشويش باستخدام مجموعة من الفرق الموسيقية الرائعة.»

«فهمت ما تعنيه.»

البوريتو في حي ميشن تقليد؛ فهو يتسم بثمنه الرخيص، وكِبر حجمه، ومذاقه الشهي. تخيل لفائف بحجم البازوكا محشوَّة بلحم مشويٍّ حار، وجواكامولي، وصلصة مكسيكية حارة، وطماطم، وفاصوليا مقلية بعد طهيها، وأرز، وبصل، وكزبرة. إن العلاقة بين البوريتو ومطاعم «تاكو بيل» مثل العلاقة بين سيارات اللعبة «هوت ويلز» وشركة سيارات «لامبورجيني».

يوجد نحو مائتي مطعم للبوريتو في حي ميشن، جميعها كريه للغاية، والمقاعد فيها غير مريحة، وتكاد تخلو من الديكور — خلا بعضَ الملصقات السياحية المكسيكية الكئيبة والصور الثلاثية الأبعاد المضاءة المؤطرة ليسوع وأمه — وتُعزَف فيها الموسيقى

المكسيكية الصاخبة. لعل أهم ما يميزها هو نوع اللحم الغريب الذي يملئون به اللفائف. والمطاعم الجيدة حقًّا تقدم المخ واللسان، وهما طلبان لا أطلبهما أبدًا، لكن من الجيد أن تعرف أنهما موجودان.

المكان الذي ذهبنا إليه كان يقدم المخ واللسان؛ ولكننا لم نطلب أيًّا منهما. طلبت شرائح لحم بقري، في حين طلبت هي شرائح دجاج، وحصل كلانا على كوب كبير من الأورتشاتا.

ما إن جلسنا حتى فتحتْ لفافة البوريتو، وأخرجت من حقيبتها زجاجة صغيرة، كانت علبة من الفولاذ الذي لا يصدأ، بدت أشبه ببخاخ للفلفل للدفاع عن النفس. وجهت الزجاجة ناحية محتويات الملفوف، ورشته بمادة زيتية حمراء صافية، وصل بعض منها إلي، فانسد حلقي ودمعت عيناي.

«بالله عليكِ، ماذا تفعلين في هذا الملفوف المسكين؟»

نظرت إليَّ بابتسامة شريرة، وقالت: «أنا مدمنة للطعام الحار، وهذا زيت كابسيسين في بخاخ.»

«كابسيسين ...»

«نعم، المادة الموجودة في بخاخ الفلفل. يشبه ذلك ما تحتويه هذه العلبة، لكنه مخفف قليلًا، ومذاقه أفضل بكثير، لتفكر به كقطرة حارة كاجونية للعين.»

شعرت بالتهاب في عيني لمجرد التفكير في ذلك.

قلت لها: «أنت تمزحين بالتأكيد. لن تأكلي ذلك.»

رفعت حاجبيها، وقالت: «أتتحداني يا بني؟ فلتشاهدني فحسب.»

أعادت لف خبز البوريتو بعناية مثل متعاطي المخدرات الذي يلف سيجارة، مع ثني الطرفين إلى الداخل، ثم إعادة لفِّها في ورق الفويل. أزالت الورق من أحد الطرفين، ورفعته إلى فمها مع موازنته على شفتيها.

وإلى أن قضمته، لم أكن أصدق أنها ستفعلها؛ فما وضعته على طعامها هو في الواقع سلاح للدفاع عن النفس.

قضمت، مضغت، بلعت، وعبرت بكل ما لديها عن تناولها عشاء شهيًّا.

قالت في براءة: «أترغب في قضمة؟»

فأجبتها: «نعم»، فأنا أحب الطعام الحار، وأطلب دومًا مع الطعام بنكهة الكاري أربع ثمرات فلفل حار في المطاعم الباكستانية.

أعدت الورق على الملفوف، وتناولت قضمة كبيرة.

وكان ذلك خطأً كبيرًا.

أتعرف ما تشعر به عندما تتناول قضمة كبيرة من الفجل الحار أو الفجل الياباني أو أي شيء من هذا القبيل، وتشعر بانسداد في جيوبك الأنفية وقصبتك الهوائية، وامتلاء رأسك بهواء شديد السخونة يحاول الخروج عبر أنفك المرتشحة وعينيك المبللتين بالدموع؟ والشعور كما لو أن بخارًا على وشك الخروج من أذنيك مثل الشخصيات الكرتونية؟

كان ذلك أسوأ بكثير.

فهو أشبه بوضع يدك على موقد ساخن، لكن الفارق هنا هو أنك لا تضع يدك، وإنما الجزء الداخلي بالكامل من رأسك والمريء وصولًا إلى معدتك. تبلل جسمي بالكامل بالعرق، وبدأت أختنق.

دون أن تنطق آنج بكلمة، مررت لي مشروب الأورتشاتا، وتمكنت من وضع الشفاطة في فمي، وأخذت أمص بقوة، متجرعًا نصف المشروب مرة واحدة.

«هناك مقياس يُسمَّى مقياس سكوفيل نستخدمه نحن عشاق الطعام الحار لتعيين مدى المذاق الحار للفلفل. الكابسيسين الصافي يبلغ نحو ١٥ مليون وحدة سكوفيل، والتاباسكو حوالي ٥٠٠٠٠. أما رذاذ الفلفل، فهو صحي ويبلغ ثلاثة ملايين. وهذه المادة لا تتعدى ٢٠٠٠٠٠؛ أي مثل فلفل «سكوتش بونيت» لطيف، عملت على إعدادها لمدة عام تقريبًا. وبعض المواد القوية قد تصل إلى مليون أو نحو ذلك؛ أي أقوى عشرين مرة من التاباسكو، وذلك حار للغاية. ومع هذه الدرجات من الطعام الحار، يغمر مخك الإندورفين تمامًا، وهو أفضل في تخدير الجسم من الحشيش، ويعود عليك بالنفع.»

بدأ الشعور يعود إلى جيوبي الأنفية مجددًا، وتمكنت من التنفس دون لهاث.

قالت لي وهي تغمز بعينها: «تشعر بمثل هذه النار، بالطبع، عند دخولك دورة المياه.»

يا إلهي!

قلت لها: «أنت مجنونة.»

«حديث جيد من رجل هوايته تركيب أجهزة الكمبيوتر المحمول، وتحطيمها.»

قلت لها: «أصبتِ»، ولمست جبهتي.

أخرجت البخاخ، وقالت: «أترغب في القليل؟»

قلت سريعًا لدرجة جعلت كلينا يضحك: «مرريه!»

عند مغادرتنا للمطعم، وتوجُّهنا إلى متنزه دولوريس، طوقت خصري بذراعها، واكتشفت أن طولها يتناسب مع وضع ذراعي حول كتفيها. وهذا شيء جديد؛ فلم أكن بالشاب الطويل قط، وجميع من واعدتهن كن في نفس طولي؛ الفتيات المراهقات يكبرن أسرع من الشباب، ما يعد قسوة من الطبيعة. كان ذلك لطيفًا، ومَنَحني شعورًا جيدًا.

انعطفنا إلى شارع ٢٠، وسرنا نحو متنزه دولوريس، وقبل أن نتقدم خطوة واحدة، شعرنا بالطنين، كان أشبه بطنين مليون نحلة. تدفق الكثير من الناس إلى المتنزه، وعندما نظرت إليه، رأيت أن ازدحامه قد زاد مئات المرات عما كان عليه أثناء توجهي للقاء آنج.

أثارني ذلك المشهد. كانت ليلة جميلة، وكنا على وشك الاحتفال، الاحتفال بحق بالأكل والشرب والابتهاج كما لو أنه لن يكون هناك غد.

هرولنا سريعًا دون أن ينطق أحدنا بكلمة. امتلأ المكان برجال الشرطة ذوي الوجوه المتوترة، لكن ما كان بإمكانهم فعل أي شيء؛ فأعداد الناس في المتنزه كبيرة. لست جيدًا في حصر أعداد الحشود، لكن الصحف أشارت فيما بعد إلى أن المنظمين قالوا إن عدد الحضور بلغ ٢٠٠٠٠، في حين قال رجال الشرطة إنه كان ٥٠٠٠، ولعل ذلك يعني أنهم كانوا ١٢٥٠٠.

وأيًّا كان العدد، فقد كان أكبر عدد من الناس وقفت بينه في إطار حدث غير قانوني، وغير محدد موعده، وغير حاصل على تصريح بإقامته.

كنا بينهم في لحظة. لا أعتقد أن ذلك الجمع قد ضم أي أحد أكبر من ٢٥ عامًا، وإن كنت لا أستطيع الجزم بذلك. كان الجميع يبتسم. وقد ضم أيضًا بعض صغار السن ممن لا تتجاوز أعمارهم ١٠ أو ١٢ عامًا؛ ما زاد شعوري بالارتياح، فما كان أحد ليفعل أي شيء أحمق وهناك أطفال في هذه السن في المكان. لا أحد يرغب في أذى أطفال صغار. وكان من المتوقع فقط أن يكون حفلًا ربيعيًّا عظيمًا.

اكتشفت أن ما يجب فعله هو التوجه إلى ملاعب التنس. شققنا طريقنا بحذر وسط الجمع، ولكي نبقى معًا أمسك كلٌّ منا بيد الآخر. لم يتطلب بقاؤنا معًا تشابك أصابعنا. كان ذلك للمتعة فقط، وقد كان ممتعًا للغاية.

كانت الفِرق الموسيقية كلها داخل ملاعب التنس، ومعها الآلات من الجيتار وأجهزة مزج الصوت والأورج والطبول. اكتشفت فيما بعد على شبكة «إكس نت» مجموعة من الصور على موقع فليكر توضح تهريب هذه المعدات إلى داخل المتنزه، قطعة تلو الأخرى، في حقائب الملابس الرياضية، وتحت المعاطف. هذا بالإضافة إلى مكبرات الصوت الضخمة،

مثل التي تراها في أماكن إمدادات السيارات، وبينها كومة من بطاريات السيارات. ضحكت، فيا لها من براعة! هكذا كانوا سيزودون معداتهم بالطاقة. من حيث وقفت، رأيت أنها بطاريات سيارة هجينة طراز «بريس». أخرج أحدهم محتويات سيارة صديقة للبيئة لتوفير الطاقة اللازمة للحفل. امتدت البطاريات إلى خارج الملاعب، وتكومت قبالة السور، وقُيِّدت بالكومة الأساسية بأسلاك مع ربطها بحلقة السلسلة. أحصيتها ... مائتا بطارية! يا للهول! بلغ وزن هذه الأشياء طنًّا.

لا يمكن أن يكونوا قد نظموا ذلك دون بريد إلكتروني، ومواقع ويكي، وقوائم بريدية، ولا يمكن لأفراد بمثل هذا الذكاء فعل ذلك على شبكة الإنترنت العامة. لقد تم كل ذلك على شبكة «إكس نت»، أراهن بعمري على ذلك.

أخذنا نتنقل بين الجموع لفترة من الوقت أثناء استعداد الفِرق الموسيقية وتشاورها مع بعضها البعض. رأيت ترودي دو على بُعد في ملاعب التنس. بدت وكأنها في قفص، مثل مصارع محترف. كانت ترتدي فانلة مقطعة بدون أكمام، وشعرها عبارة عن ضفائر طويلة ذات لون وردي براق تصل إلى خصرها، وترتدي سروالًا عسكريًّا مموَّهًا، وحذاء ضخمًا عالي الرقبة بجزء معدني فوق الأصابع. وبينما كنت أشاهدها، أمسكتْ بسترة درجات بخارية ثقيلة ارتدتها كدرع، ولعلها كانت درعًا بالفعل، كما فهمت بعد ذلك.

حاولت التلويح لها، ربما لأترك انطباعًا لدى آنج، لكنها لم ترني، وبدوت كالأحمق بعض الشيء، فتوقفت. كانت الطاقة التي سرت في الحشد مذهلة. نسمع عادةً عن «الذبذبات» و«الطاقة» التي تسري في المجموعات الكبيرة من الناس، لكنك ستظن على الأرجح أن ذلك صورة بلاغية إلى أن تجربه بنفسك.

لكنه ليس صورة بلاغية؛ فالابتسامات على كل وجه كبيرة وتستشري كالعدوى. الأجسام جميعها تتحرك قليلًا مع إيقاع غير مسموع، والأكتاف تهتز. الناس يتمايلون في سيرهم، يتمازحون ويضحكون. الأصوات كلها يشوبها التوتر والحماس، كما لو كانت ألعابًا نارية على وشك الانطلاق. ولا يسعك فعل أي شيء سوى أن تكون جزءًا مما يحدث ... لأنك كذلك بالفعل.

عندما بدأت الفرق الموسيقية في العزف، غلب عليَّ تأثير الحشد المتزاحم. العرض الأول كان نوعًا من الموسيقى الشعبية الصربية لم أعرف كيفية الرقص على إيقاعها. أعلم كيف أرقص على نوعين بالضبط من الموسيقى: الترانس (أجر قدميَّ في المكان، وأدع الموسيقى تحركني)، والبانك (أرقص وأضرب الأرض بقوة حتى تؤلمني قدماي أو أشعر

بالإرهاق أو يحدث كلاهما). والعرض التالي كان لمجموعة من فناني «الهيب هوب» من أوكلاند، يدعمهم فرقة ثراش ميتال. وصعدت بعدها فرقة موسيقى بابل جم بوب، ثم فرقة سبيدهورز، وأمسكت ترودي دو بالميكروفون.

«اسمي ترودي دو، ومن يثق بي، فهو أحمق. أبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، وبذلك أكون قد تجاوزت سن الأهلية للثقة. لقد ضعت، وأنا محاصرة بالطريقة القديمة للتفكير؛ فلا أزال أرى حريتي أمرًا مفروغًا منه، وأسمح للآخرين في الوقت نفسه بسلبي إياها. أنتم أول جيل يشبُّ في أمريكا وقد تحولتْ إلى ما هو أشبه بمعسكرات عمل قسري أو سجون، وتعلمون قيمة حريتكم تمامًا!»

هتفت الجماهير بقوة، وأخذت ترودي تعزف بسرعة وعصبية على أوتار الجيتار، في حين كانت عازفة الباس المصاحبة لها — وهي فتاة بدينة ضخمة البنيان تقص شعرها كالمثلَّثات، وترتدي حذاء بوت أضخم من حذاء ترودي، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة للغاية — تعزف معها بسرعة وقوة. أردت أن أقفز في مكاني، فقفزت، وكذلك فعلت آنج. أخذنا نتصبب عرقًا طيلة المساء، وقد امتلأ الأفق برائحة عرق أجسامنا ودخان الماريجوانا؛ فالأجسام الدافئة كانت تتدافع من جميع الأنحاء حولنا، وأخذت تثب لأعلى أيضًا.

صاحت ترودي: «لا تثق في أحد أكبر من ٢٥ عامًا!»

فأخذنا نردد وراءها أكثر من مرة في صوت أشبه بصوت حيوان ضخم يزأر.

عزفت ترودي بعنف على أوتار الجيتار الذي كانت تمسك به، في حين انضمت إليها عازفة الجيتار الأخرى، وهي فتاة ضئيلة الحجم يمتلئ وجهها بثقوب الأقراط، وعلت بصوت موسيقاها إلى أعلى طبقة.

«هذه مدينتنا! وهذه بلادنا، لا يمكن لإرهابي أن يسلبنا إياها ما دمنا أحرارًا. وإذا فقدنا هذه الحرية، يكون النصر للإرهابيين. لنستعِدْ حريتنا! لنستعِدْ حريتنا! فأنتم على درجة كافية من صغر السن والتهور لتعرفوا أنه بإمكانكم الانتصار، وحدكم يمكنكم قيادتنا للنصر! لنستعِدْ حريتنا!»

هتفنا بقوة: «لنستعِدْ حريتنا!» وهي تعزف بقوة على الجيتار. رددنا وراءها، وعلا الصوت ليهزَّ أرجاء المكان.

رقصتُ إلى أن بلغت من الإرهاق درجة عجزت معها عن الرقص لأية خطوة أخرى، ورقصت آنج بجواري. كنا، في حقيقة الأمر، نحك جسدينا المبللين بالعرق أحدنا بالآخر

لعدة ساعات، لكن ذلك لم يثرني على الإطلاق، ولك أن تصدق ذلك أو لا تصدقه. واصلنا الرقص، وضِعنا وسط الإيقاع الرائع، والموسيقى، والصياح ... «لنستعِدْ حريتنا! لنستعِدْ حريتنا!»

عندما لم أعد قادرًا على الرقص، سحبتها من يدها وأحكمت هي قبضتها على يدي كما لو كنت أنقذها من السقوط من سطح أحد المباني. سحبتني إلى خارج الحشد حيث كان الهواء أكثر برودة وانتعاشًا. وهناك، على أطراف متنزه دولوريس، وقفنا في الهواء البارد والعرق على جسدينا صار باردًا كالثلج في الحال. سرت القشعريرة في جسدينا، فألقت بذراعيها حول خصري، وقالت آمرة: «لتدفِّئني!» لم أكن بحاجة لتلميح. عانقتها، دوت ضربات قلبها بإيقاع النغمات المتسارعة على المسرح، والتي سارت الآن سريعة عنيفة لا تصاحبها أية كلمات.

فاحت منها رائحة العرق، رائحة نفاذة قوية رائعة. كنت أعلم أن الرائحة نفسها فاحت مني. كان أنفي عند قمة رأسها، ووجهها أمام الترقوة لدي بالضبط. حرَّكتْ يديها إلى عنقي وجذبتْه نحوها.

قالت: «انزل إلى هنا، فلم أحضر معي سلمًا»، حاولت الابتسام، لكن من الصعب فعل ذلك أثناء التقبيل.

كما قلت من قبل، لم أقبِّل في حياتي سوى ثلاث فتيات، منهن اثنتان لم تُقبِّلا أحدًا من قبل، والثالثة اعتادت المواعدة منذ كانت في الثانية عشرة من عمرها، وكانت تعاني من مشكلات نفسية.

لم تشبه قبلة آنج قبلة أيٍّ منهن؛ فقد جعلت فمها كله ناعمًا، مثل القلب الناضج لأية ثمرة، ولم تقحم لسانها في فمي، بل دسَّته برقة، ومصت شفتيَّ إلى داخل فمها في الوقت ذاته، فشعرت كما لو أن فمي وفمها قد صارا كيانًا واحدًا. سمعت نفسي أتأوه، جذبتها نحوي واحتضنتها بقوة أكبر.

بهدوء ورقة، نزلنا على الحشائش. رقدنا على جانبينا، تعلق كلٌّ منَّا بالآخر ونحن نتبادل القُبل. اختفى العالم من حولنا، ولم يبقَ سوى القبل.

وصلت يداي إلى مؤخرتها، خصرها، ثم طرف قميصها ... بطنها الدافئة وسرتها الناعمة، ثم ارتفعت يداي لأعلى ببطء. تأوهت هي الأخرى.

قالت: «ليس هنا، لننتقل إلى هناك.» وأشارت إلى الجانب الآخر من الشارع؛ حيث كنيسة كبيرة بيضاء هي التي منحت متنزه «ميشن دولوريس» وحي ميشن اسمهما.

أمسك كلٌّ منا بيد الآخر، وتحركنا سريعًا عابرين الطريق إلى الكنيسة. اصطفت أمامها أعمدة ضخمة. دفعتني لأستند بظهري على أحد هذه الأعمدة، وسحبت وجهي إليها ثانيةً. امتدت يداي في سرعة وجرأة إلى قميصها، ورفعته لأخلعه عنها.

همست في فمي: «تُخلَع من الخلف.» أثارني ذلك بشدة. مددت يدي إلى ظهرها القوي العريض، وعثرت أصابعي المرتعشة على الإبزيم. تحسسته قليلًا في ارتباك، متذكرًا كل النكات حول مدى سوء الرجال في فك صدرية النساء. وقد كنت سيئًا بالفعل، لكنها فُكَّت فجأة، فلهثَتْ في فمي. مررت يديَّ على جسمها متحسسًا نداوة إبطيها — ما كان مثيرًا وليس مثيرًا للاشمئزاز لسبب ما — ثم جانبَي نهديها.

حينئذٍ، انطلقت صفارات الإنذار.

كان صوتها أعلى من أي شيء سمعته من قبل، صوت أشبه باهتياج بدني، كما لو أن شيئًا يخلعك من مكانك ... أعلى صوت يمكن لأذنيك أن تتعامل معه، بل وأعلى.

علا صوت مدوٍّ: «تفرقوا في الحال!»

«هذا تجمع غير قانوني. تفرقوا في الحال!»

توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف، وتغير ضجيج الحشد في الاتجاه المقابل من الشارع. شعروا بالذعر والغضب.

سمعت صوت طقطقة عند تشغيل مكبرات الصوت في السيارات، وبطاريات السيارات في ملاعب التنس.

«لنستعِدْ حريتنا!»

كان هتافًا متحديًا يشبه صوت الصياح عند ركوب الأمواج أو السقوط من أعلى جرف.

«لنستعِدْ حريتنا!»

هدر الجمع بصوت اقشعرَّ له بدني، وأخذوا يرددونه مرارًا وتكرارًا.

تحركت قوات الشرطة في صفوف حاملين دروعًا بلاستيكية، ومرتدين خوذات كخوذة دارث فيدر في فيلم حرب النجوم التي تغطي الوجه بالكامل، وحمل كلٌّ منهم هراوة سوداء ونظارة للأشعة تحت الحمراء. بدَوْا كجنود في فيلم حربي تدور أحداثه في المستقبل. تقدموا خطوة للأمام معًا، وضرب كلٌّ منهم بهراوته على الدرع التي كانت معه ليطلق صوت طقطقة كانشقاق الأرض. ومع كل خطوة، طقطقة أخرى. وصاروا بذلك يحاصرون المتنزه من كل جانب، وأخذوا يقتربون.

علا الصوت المدوي ثانيةً: «تفرقوا في الحال!» حينذاك حلقت مروحيات فوق المكان، لكن دون أضواء غامرة. لم يكن ارتداء قوات الشرطة لنظارات الأشعة تحت الحمراء دون داعٍ، فقد كانت هناك أجهزة منظار بالأشعة تحت الحمراء في السماء أيضًا. سحبتُ آنج قبالة بوابة الكنيسة لنختفي عن نظر رجال الشرطة والمروحيات.

دوى صوت في مكبرات الصوت قائلًا: «لنستعِدْ حريتنا!» كان صوت صياح ترودي دو الثوري، وسمعت صوت أوتار جيتارها، ثم عَزْف الطبول، ومن بعده صوت باس عميقًا.

ردد الحشد: «لنستعِدْ حريتنا!» وخرجوا من المتنزه ليصلوا إلى صفوف الشرطة.

لم أشهد حربًا من قبل، لكنني علمت في تلك اللحظات ما تكون عليه بالتأكيد. علمت ما يكون عليه الحال عندما ينطلق شباب خائف في هجوم عبر ميدان القتال تجاه قوة معادية، وهم يعلمون ما سيحدث لهم، لكنهم يركضون في وجه العدو رغم ذلك ويصيحون في حماس.

علا الصوت المدوي: «تفرقوا في الحال!» كان صادرًا من الشاحنات المتوقفة حول المتنزه، وهي الشاحنات التي دخلت إلى المكان خلال الثواني القليلة الماضية.

كان ذلك عندما غشي المكان ما يشبه الضباب الرقيق والذي صدر عن المروحيات، وكنا على حافته. تسبب هذا الشيء في شعوري بأن أعلى رأسي على وشك الانفجار، وبوخز في الجيوب الأنفية، وتورم ودموع في عينيَّ، وانسداد في حلقي.

كان كرذاذ الفلفل، وقوته لا تبلغ ٢٠٠ ألف وحدة سكوفيل، وإنما مليونًا ونصفًا. لقد استخدمته الشرطة ضد الحشد.

لم أر ما حدث بعد ذلك، لكنني سمعت ما طغى على صوت اختناقي أنا وآنج، وتعلق كلٌّ منا بالآخر. أولًا صوت اختناق ومحاولة تقيؤ، ثم توقُّف صوت الجيتار والطبول والباس، ثم سعال.

تلا ذلك صوت صراخ.

استمر الصراخ طويلًا، وعندما تمكنت من النظر ثانيةً، وجدت الشرطة قد سلطت أجهزة المنظار على جباه الشباب، والمروحيات قد غمرت متنزه دولوريس بالأنوار حتى صار الوقت أشبه بالصباح. توجهت الأنظار كلها إلى المتنزه، ما كان أمرًا جيدًا؛ لأنه مع كل هذه الأضواء، صرت أنا وآنج مرئيين تمامًا.

قالت آنج: «ماذا سنفعل؟» كان صوتها مكتومًا خائفًا. لم أثق في قدرتي على التحدث للحظة، وأخذت أبتلع ريقي عدة مرات.

أجبتها: «نبتعد، هذا كل ما يمكننا فعله: الابتعاد عن هنا، كما لو كنا نمر بالمكان فحسب. ونتوجه إلى المتنزه، ثم نستدير يسارًا حتى نصل إلى شارع ١٦، كما لو كنا مارين فقط، ولا علاقة لنا بما يحدث.»

«لن ينجح ذلك أبدًا.»

«هذا كل ما يمكنني التفكير فيه.»

«ألا تعتقد أنه يجدر بنا الركض؟»

«كلا، إذا ركضنا فسيطاردوننا، لكننا إذا سرنا فربما سيعتقدون أننا لم نرتكب أي جرم، ويدعوننا وشأننا. هناك الكثير ممن عليهم اعتقالهم. سيشغلهم ذلك طويلًا.»

امتلأ المتنزه بالأفراد الذين أخذوا يلهثون وينبشون بأظافرهم وجوه رجال الشرطة. سحبتهم القوات من آباطهم، ثم وضعت الأغلال البلاستيكية في معاصمهم، ودفعتهم إلى داخل الشاحنات كما لو كانوا دُمًى.

سألتها: «حسنًا؟»

فأجابت: «حسنًا.»

وهذا ما فعلناه بالضبط. أمسك كلٌّ منا بيد الآخر، وسرنا سريعًا على نحو يظهر أننا في عجلة من أمرنا، كما لو كنا اثنين يرغبان في تجنب مشكلات يحدثها آخرون. وهي الطريقة نفسها التي تتبعها عندما تحاول التظاهر بأنك لم تر متسولًا ما، أو لا ترغب في التورط بأحد الشجارات في الشارع.

ونجحنا.

وصلنا إلى ناصية الشارع، وتابعنا المسير. لم يجرؤ أيٌّ منَّا على التحدث حتى تجاوزنا مربعين سكنيين. وأخيرًا، أخرجت نفسًا لم أكن أعلم أنني كنت أحبسه.

بلغنا شارع ١٦، وانعطفنا نحو شارع ميشن. كان ذلك الحي، في المعتاد، مخيفًا للغاية في الثانية صباحًا يوم السبت، لكنه في تلك الليلة، بعث على الراحة بمن يملئونه من مدمني المخدرات وتجارها، والعاهرات، والسكارى. لم يكن به رجال شرطة بهراوات أو قنابل غاز.

سألتها، ونحن نستنشق هواء الليل: «أترغبين في بعض القهوة؟»

فأجابت: «المنزل. ما أرغب فيه الآن هو العودة للمنزل، والقهوة فيما بعد.»

وافقتها الرأي. كانت تعيش في شارع هايز فالي. وقعت عيني على سيارة أجرة كانت تمر أمامنا، فصحت محاولًا إيقافها. كانت هذه معجزة إلى حد ما؛ فمن الصعب العثور على سيارة أجرة عند الحاجة إليها في سان فرانسيسكو.

«هل معكِ ما يكفي من المال لدفع الأجرة؟»

فردَّت بالإيجاب. نظر قائد السيارة إلينا من النافذة. فتحت الباب الخلفي للسيارة حتى لا يرحل.

قلت لها: «تصبحين على خير.»

وضعت يديها خلف رأسي، وجذبت وجهي نحوها. قبَّلتني بقوة في فمي، لم تكن قبلة مثيرة جنسيًّا، لكنها حميمية.

همست في أذني: «تصبح على خير»، ودخلت السيارة سريعًا.

توجهت إلى المنزل، وقد أصابني الدوار، وكانت عيناي تدمعان، ومزقني الشعور بالخزي؛ لتركي كل أولئك المستخدمين لشبكة «إكس نت» تحت رحمة رجال وزارة الأمن الوطني وشرطة سان فرانسيسكو.

صبيحة يوم الإثنين، كان فريد بينسان يقف خلف مكتب السيدة جالفيس.

وما إن جلسنا على مقاعدنا حتى قال: «السيدة جالفيس لن تدرس لكم هذه المادة من الآن فصاعدًا.» تمتع بينسان بنبرة صوت تنم عن الثقة بالنفس، وهي ما لاحظته على الفور. انحنيت للأمام لأتحقق مما يفعله تشارلز، فوجدته يبتسم كما لو كان اليوم عيد ميلاده، وحصل على أفضل هدية في العالم.

رفعت يدي، وسألت:

«لماذا؟»

فأجاب دون حتى أن يحاول إخفاء مدى سعادته: «تنص سياسة المجلس على عدم مناقشة شئون الموظفين مع أحد فيما عدا الموظف نفسه ولجنة التأديب.»

وواصل الحديث قائلًا: «سنبدأ وحدة جديدة اليوم حول الأمن الوطني. تحتوي أجهزة الكمبيوتر المحمولة التي معكم على النصوص الجديدة. افتحوها، رجاءً، وانتقلوا إلى الشاشة الأولى.»

كانت الشاشة الأولى مزينة بشعار وزارة الأمن الوطني، والعنوان التالي: «ما يجب على كل أمريكي معرفته بشأن الأمن الوطني.»

أردت إلقاء الكمبيوتر على الأرض.

رتبت لقاءً مع آنج بعد دوام المدرسة في مقهى بالحي الذي تعيش فيه. قفزت في أحد قطارات بارت، ووجدت نفسي جالسًا خلف رجلين يرتديان بذلتين. كانا ينظران في صحيفة

«سان فرانسيسكو كرونيكل» التي خصصت صفحة كاملة لخبر «شغب الشباب» في متنزه ميشن دولوريس. كانا يتهامسان حول الخبر، ثم قال أحدهما للآخر: «إنهم كمن تعرضوا لغسيل مخ أو ما شابه. يا إلهي! هل كنا يومًا بهذا الغباء؟»

نهضت، وانتقلت لمقعد آخر.

الفصل الثالث عشر

أهدي هذا الفصل إلى سلسلة متاجر كتب بوكس-إيه-مليون الضخمة التي تنتشر في جميع أنحاء الولايات المتحدة. كانت بداية معرفتي بهذه السلسلة أثناء إقامتي في أحد الفنادق في مدينة «تيرا هوت» في إنديانا (كان من المخطط أن ألقي خطابًا لاحقًا في ذلك اليوم بمعهد روز هولمان للتكنولوجيا). كان المتجر بجوار الفندق، وكنت بحاجة حقًّا لشيء أقرؤه، مرَّ على سفري على الطريق شهر كامل، وقرأت كل ما كان في حقيبتي رغم أنه كان لا يزال أمامي خمس مدن أخرى عليَّ زيارتها قبل أن أعود لدياري. عندما حدقت في الأرفف، عرضت عليَّ إحدى الموظفات في المتجر المساعدة. كنت آنذاك قد سبق لي العمل في متاجر للكتب، وعلمت أن موظفًا مطلعًا في متجر للكتب أمر رائع للغاية؛ لذا قلت لها: «بالتأكيد»، وبدأت أشرح لها ذوقي، طارحًا أسماء المؤلفين الذين أستمتع بكتاباتهم، فابتسمت وقالت: «لدي الكتاب الذي تبحث عنه.» وذهبت لتحضر لي نسخة من روايتي الأولى «هائم في المملكة الساحرة». أخذت أضحك، وقدمت لها نفسي، وتبادلنا أطراف حديث رائع عن الخيال العلمي حتى إنني تأخرت على موعد الخطاب الذي كنت سألقيه!

* * *

قالت آنج في اشمئزاز: «عاهرات، بل في الواقع هذه إهانة للعاهرات الكادَّات في كل مكان، إنما هم نفعيون.»

كنا ننظر في مجموعة من الصحف التي اشتريناها وجلبناها إلى المقهى. تضمنت جميعها أخبارًا عن الحفل في متنزه دولوريس جعلته يبدو كحفل لمجموعة من الشباب المعربدين السكارى الذين هاجموا الشرطة. وصفت صحيفة «يو إس إيه توداي» ما أسفر

عنه «الشغب» من تكلفة، وتضمن ذلك تكلفة تنظيف مخلفات رذاذ الفلفل الناتجة عن قنابل الغاز، وأزمات الربو التي ملأ المصابون بها غرف الطوارئ بمستشفيات المدينة، هذا فضلًا عن تكلفة التعامل مع ٨٠٠ «مثير للشغب» أُلقي القبض عليهم.

لم تناصرنا أية صحيفة.

قلت لها: «الحقيقة على شبكة إكس نت.» كنت قد حفظت مجموعة من المدونات ومقاطع الفيديو والصور على هاتفي، فعرضتها عليها. تضمنت تلك المواد روايات لشهود عيان ضُرِبوا وتعرضوا لقنابل الغاز. وأوضح الفيديو أننا كنا نرقص، ونلهو، ونلقي خطبًا سياسية سلمية، ونهتف بعبارة «لنستعِدْ حريتنا!» وترودي دو تحدثنا عن أننا الجيل الوحيد الذي يمكن أن يؤمن بالصراع من أجل نيل حريته.

قالت: «علينا تعريف الناس بذلك.»

فأجبتها باكتئاب: «نعم، هذه نظرية جيدة.»

«حسنًا، لماذا في اعتقادك لا تتخذ الصحافة جانبنا مطلقًا؟»

«لأن من بها عاهرات، كما قلتِ.»

«نعم، لكن العاهرات يفعلن ما يفعلن من أجل المال، ويمكن للصحافة بيع المزيد من الصحف والإعلانات إذا عرضوا خلافًا ما، لكن كل ما يعرضونه الآن هو جريمة، أما الخلاف فهو أكبر بكثير.»

«حسنًا، فهمت ما تقصدينه. لماذا إذن لا يفعلون ذلك؟ يكاد الصحفيون لا يبحثون في المدونات، ناهيك عن تتبع شبكة «إكس نت»؛ فهي ليست بالمكان الملائم للبالغين.»

قالت: «نعم، يمكننا تغيير ذلك، أليس كذلك؟»

«ماذا؟»

«اكتب كل شيء، وضعه في مكان واحد، مع كل الروابط. مكان واحد يمكنك الرجوع إليه يهدف لأن تصل إليه الصحافة، وتتضح لها الصورة كاملة. وصِله بتعليمات الاستخدام على شبكة إكس نت. يمكن لمستخدمي الإنترنت الوصول إلى الشبكة، شريطة ألا يكونوا يهتمون بمعرفة وزارة الأمن الوطني لما يتصفحونه.»

«أتعتقدين أن ذلك سينجح؟»

«نعم، وإن لم ينجح، ففعله أمر إيجابي.»

«ولماذا سيستمعون إلينا؟»

«ومن لا يستمع إلى مايكي؟»

أنزلت القهوة من يدي، أمسكت بهاتفي، ووضعته في جيبي. نهضت من مكاني، ورحلت سريعًا. خرجت من المقهى، واخترت اتجاهًا عشوائيًّا، وواصلت المسير. توتر وجهي، وتدفق الدم إلى معدتي التي اضطربت بدورها.

أخذت أفكر: «إنهم يعلمون من أنتَ. يعلمون من هو مايكي.» إذا اكتشفت آنج ذلك، فمعناه أن وزارة الأمن الوطني قد توصلت إليه أيضًا. لقد هلكت. علمت منذ إطلاق سراحي من شاحنة وزارة الأمن الوطني أنه سيأتي اليوم الذي يلقون القبض فيه علي، ويقصونني للأبد بإرسالي إلى حيث ذهب داريل.

لقد انتهى كل شيء.

كادت آنج تمسك بي عند وصولي إلى شارع ماركت، وكانت تلهث بشدة، وبدا عليها الغضب الشديد.

قالت: «اللعنة، ماذا حدث؟»

أبعدتها عني، وواصلت السير. لقد انتهى كل شيء.

أمسكت بي ثانيةً، وقالت: «توقف يا ماركوس، إنك تخيفني. بالله عليك، لتتحدث إليَّ.»

توقفت، ونظرت إليها. اهتزت صورتها أمام عينيَّ. لم يمكنِّي التركيز على أي شيء، وشعرت برغبة في القفز إلى منتصف الطريق أمام إحدى عربات الترام التي كانت تمر سريعًا بجوارنا؛ إذ كنت أفضل الموت على القبض علي مرة أخرى.

صاحت آنج باسمي، ثم فعلت شيئًا لا أرى الناس يفعلونه إلا في الأفلام؛ لقد صفعتني ... صفعتني صفعة قوية على وجهي، وقالت: «فلتجِبْني، عليك اللعنة!»

نظرت إليها، ووضعت يدي على وجهي الذي شعرت فيه بوخز شديد.

قلت لها: «ليس من المفترض أن يعلم أحد بهويتي، هذا كل ما في الأمر ببساطة. إذا علمتِ بهويتي، فقد انتهى كل شيء. بمجرد أن يعلم الآخرون بهويتي، فقد انتهى كل شيء أيضًا.»

«يا إلهي! أنا آسفة. السبب الوحيد وراء معرفتي بهويتك هو ابتزازي لخولو. بعد الحفل، تتبعتك قليلًا في محاولة لمعرفة ما إذا كنت شخصًا لطيفًا حقًّا كما بدا عليك أم أنك قاتل متخفٍّ. مضى على معرفتي بخولو فترة طويلة، وعندما سألته عنك، أخذ يتحدث عنك كما لو كنت أحد العظماء، لكنني استشعرت أن ثمة شيئًا يخفيه عني، فقد مضى على معرفتنا فترة طويلة، وكان يواعد أختي الكبرى في معسكر الكمبيوتر عندما كان صغيرًا في السن. كنت أعلم عنه بعض الأمور السيئة، فأخبرته أنني سأفضح أمره إذا لم يخبرني.»

«وبالتالي أخبركِ.»

«كلا، أخبرني أن أذهب للجحيم. ثم أطلعته على شيء يتعلق بي لم أخبره لأحد من قبل قط.»

«ما هو؟»

نظرت إليَّ، ثم حولنا، ثم إليَّ ثانية، وقالت: «حسنًا، لن أجعلك تقسم على الحفاظ على السر لأن ذلك لا معنى له؛ فأنا إما أثق بك وإما لا.»

«العام الماضي ...» توقفت لحظات، ثم استطردت قائلةً: «العام الماضي، سرقت الاختبارات القياسية، ونشرتها على الإنترنت. كان لهوًا لا أكثر، فقد كنت أسير مصادفةً بجوار مكتب الناظر، ورأيت الاختبارات في خزينته، والباب مفتوح، فدخلت سريعًا إلى المكتب حيث كانت ست نسخ، وضعت إحداها في حقيبتي، وغادرت المكان. وعندما وصلت إلى المنزل، مسحتها ضوئيًّا، ورفعتها على أحد خوادم حزب القراصنة في الدنمارك.»

«هل أنتِ من فعل ذلك؟»

تورد وجهها خجلًا، وقالت: «نعم.»

«يا للهول!» كان ذلك خبرًا مذهلًا؛ فقد صرح مجلس التعليم أن اختبارات قانون «تحسين تعليم الأطفال» قد تكلف وضعها عشرات الملايين من الدولارات، وسيضطر المجلس لإنفاق هذا المبلغ ثانية بعد تسرب الاختبارات، ووصفوا الحادث بأنه «إرهاب تعليمي». واستمرت التنبؤات بلا نهاية في الأخبار بشأن الدوافع السياسية لمُسرِّب الاختبارات، وما إذا كان ذلك احتجاجًا من أحد المدرسين، أو كان المسئول أحد الطلاب، أو لصًّا، أو متعهدًا حكوميًّا ساخطًا.

«هل «أنتِ» من فعل ذلك؟»

«نعم، أنا.»

«وأخبرتِ خولو بذلك ...»

«لأنني أردته أن يتأكد من أنني سأحافظ على السر. وإذا اطلع على سري، فسيكون لديه ما يمكنه استخدامه ضدي للزج بي في السجن إذا فتحت فمي. شيء مقابل شيء، كما ورد في حوار في فيلم «صمت الحملان».»

«فأخبركِ.»

«كلا، لم يفعل.»

«لكن ...»

«أخبرته بعد ذلك بمدى إعجابي بك، وما كنت أنويه من أن أجعل من نفسي أضحوكة بفرض نفسي عليك. حينذاك، أخبرني.»

لم أتمكن من قول أي شيء آنذاك. نظرت لأسفل على أصابع قدمي، فجذبت آنج يديَّ، وضغطت عليهما.

«أعتذر عن ضغطي على خولو لاستخلاص هذه المعلومات منه. قرار اطلاعي عليها كان لك، هذا إن اتخذت أنتَ هذا القرار على الإطلاق. فما كان لي أن ...»

قلت لها، وقد بدأت أهدأ بعد أن عرفت كيف علمت بهويتي: «كلا، من الجيد أن تعرفي ... أنتِ.»

فقالت: «أنا ... كما عهدتني.»

«حسنًا، يمكنني تقبل ذلك. لكنْ ثمة شيء آخر.»

«ما هو؟»

«ما من سبيل لقول ما سأقوله دون أن أبدو أحمق، فسأقوله وحسب. يتواعد الناس — أو أيًّا كان ما نفعله — ثم ينفصلون. وعندما ينفصلون، يغضبون من بعضهم البعض، ويصل الأمر لحد الكراهية في بعض الأحيان. التفكير في حدوث ذلك بيننا نوع من برود المشاعر حقًّا، لكن — كما تعلمين — علينا التفكير في هذا الاحتمال.»

«أعدكَ بصدق ألا أفشي سرك مهما كان ما ستفعله معي ... أيًّا كان ذلك: خيانتي مع فريق مشجعات على سريري وأمي شاهدة على ذلك ... إرغامي على سماع بريتني سبيرز ... تدمير الكمبيوتر المحمول الخاص بي، وتحطيمه بالمطارق، وإغراقه في ماء البحر. أعدك بذلك، أيًّا كان ما ستفعله معي على الإطلاق.»

تنفست الصعداء، وقلت: «حسنًا.»

فقالت: «يمكنك تقبيلي الآن»، ورفعت وجهها لأعلى.

كان المشروع المهم التالي لمايكي على شبكة «إكس نت» هو إعداد ملخص للروايات الخاصة بحفل «لا تثق في أحد أكبر من ٢٥ عامًا» في متنزه دولوريس. صممت أكبر وأفضل موقع يمكنني تصميمه، وخططت فيه أقسامًا توضح الحدث مع تحديد الموقع والوقت والتصنيف (مثل: عنف الشرطة، رقص، في أعقاب الحفل، غناء). وحمَّلت الحفل الغنائي بأكمله.

وكان ذلك ما فعلته طوال ما تبقى من تلك الليلة، والليلتين التاليتين.

ملأت الاقتراحات صندوق بريدي من صور التقطها المُرسِلون بما معهم من كاميرات وهواتف. وصلت إليَّ بعد ذلك رسالة بريد إلكتروني من اسم أعرفه، وهو دكتور إيبيفل، أحد القائمين الرئيسيين على تحديث نظام «بارانويد لينكس». وكان نصها كالتالي:

«مايكي»

«لقد تابعت تجربتك على شبكة «إكس نت» باهتمام شديد. وهنا في ألمانيا، لدينا خبرة كبيرة فيما يحدث عندما تخرج الحكومة عن السيطرة.»

«ثمة شيء يجب أن تعرفه، وهو أن كل كاميرا لها «بصمة ضوضاء» مميزة يمكن استخدامها فيما بعد لربط إحدى الصور بكاميرا ما. ويعني ذلك أن الصور التي تعيد نشرها على موقعك الإلكتروني يمكن استخدامها للتعرف على مصوريها، إذا قُبِض عليهم فيما بعد لتهمة أخرى.»

«لحسن الحظ، استبعاد البصمات ليس صعبًا، إذا اهتممت بفعل ذلك. ثمة أداة في «بارانويد لينكس» لفعل ذلك يمكنك استخدامها ... اسمها «فوتونوماس» (أي صورة مجهولة). ستجدها بالمسار التالي: usr/bin/. لمعرفة المزيد عنها، اطلع على صفحات الدليل. لكنها سهلة الاستخدام.»

«حظًّا سعيدًا فيما تفعله. احرص على ألا يُقبَض عليك. حافظ على حريتك. حافظ على جنونك.»

«دكتور إيبيفل»

ألغيت البصمات من على جميع الصور التي نشرتها، ثم رفعتها ثانيةً على الموقع، مع إضافة ملاحظة توضح ما أخبرني به دكتور إيبيفل، منبهًا الجميع إلى ضرورة فعل ذلك أيضًا. كان لدينا جميعًا نظام «بارانويد إكس بوكس» الأساسي؛ ومن ثم كان بإمكاننا جميعًا جعل صورنا مجهولة المصدر. لكن لم يكن بإمكاني فعل أي شيء للصور التي تم تنزيلها بالفعل وتخزينها بالذاكرة المؤقتة، لكن من الآن فصاعدًا سنكون أكثر فطنة.

كان ذلك كل ما فكرت فيه تلك الليلة إلى أن نزلت لتناول الفطور في الصباح التالي، وفتحت أمي الراديو للاستماع إلى أخبار الصباح من شبكة الإذاعة العامة الوطنية.

قال المذيع أثناء شربي لعصير البرتقال: «تعرض وكالة الأخبار العربية «الجزيرة» صورًا ومقاطع فيديو وروايات لشهود عيان بشأن شغب الشباب الذي شهده متنزه ميشن دولوريس نهاية الأسبوع الماضي.» تمكنت بالكاد من منع نفسي من إلقاء العصير من فمي عبر الغرفة، لكنني اختنقت به قليلًا.

«أشار مراسلو الجزيرة إلى أن هذه الروايات قد نُشِرت على شبكة سرية اسمها «إكس نت» يستخدمها طلبة ومتعاطفون مع تنظيم القاعدة في منطقة الخليج. وقد انتشرت الشائعات حول وجود هذه الشبكة منذ فترة طويلة، لكن اليوم هو أول مرة تُذكَر فيها بوسائل الإعلام.»

هزَّت أمي رأسها، وقالت: «هذا ما كان ينقصنا! كما لو كان فساد الشرطة ليس كافيًا، يتظاهر الشباب بأنهم في حرب عصابات، مانحين الشرطة بذلك الفرصة لقمعهم حقًّا.»

«تضمنت المدونات على شبكة «إكس نت» المئات من الروايات وملفات الوسائط المتعددة المقدمة من شباب حضروا حادث الشغب، ويدَّعون أن تجمُّعَهم كان سلميًّا إلى أن هاجمتهم الشرطة. وإليكم إحدى الروايات:

«لم نفعل شيئًا سوى الرقص. جلبت أخي الصغير معي، وعزفت الفرق الموسيقية، وتحدثنا حول الحرية وفقداننا لها لصالح الأوغاد الذين يدَّعون كرههم للإرهابيين، ومع ذلك يهاجموننا رغم أننا لسنا إرهابيين، وإنما نحن أمريكيون. أعتقد أنهم يكرهون الحرية، لا يكرهوننا نحن.

أخذنا نرقص والفِرق تعزف، وكان كل شيء ممتعًا حقًّا. بدأت بعد ذلك قوات الشرطة في الصياح فينا لنتفرق، فهتفنا بأننا سنستعيد حريتنا! هذا يعني أنه ينبغي لنا استعادة أمريكا من قبضتهم. فرشونا برذاذ الفلفل. أخي في الثانية عشرة من عمره، ومنعه ما حدث من الذهاب للمدرسة لمدة ثلاثة أيام. أبي وأمي الأحمقان يلومانني على ما حدث. ماذا عن الشرطة؟ هل ندفع لهم رواتبهم ليوفروا لنا الحماية — كما هو مفترض — فيرشوننا بالرذاذ بدلًا من ذلك دون أي سبب وجيه، يرشوننا كما يرشون جنود الأعداء؟»

يمكن الاطلاع على روايات مشابهة، سواء مسموعة أو مرئية، على موقع الجزيرة الإلكتروني وشبكة «إكس نت». وللتعرف على كيفية الدخول على هذه الشبكة، ارجع للصفحة الرئيسية لموقع شبكة الإذاعة العامة الوطنية على الإنترنت.»

نزل أبي من الدور العلوي.

سألني: «هل تستخدم شبكة «إكس نت»؟» وأطال النظر في وجهي. شعرت بحرج شديد.

فأجبته: «أستخدمها لممارسة ألعاب الفيديو، هذا ما يفعله أغلب الناس. ليست سوى شبكة لاسلكية، وهذا ما يفعله الجميع بأجهزة «إكس بوكس» التي حصلوا عليها مجانًا العام الماضي.»

حملق فيَّ، وقال: «ألعاب؟ يا ماركوس، إنك لا تدرك ما تفعله، لكنك تحمي مَن يخططون للهجوم على بلادنا وتدميرها. لا أريدك أن تستخدم هذه الشبكة بعد الآن. هل ما أقوله واضح؟»

أردت أن أجادله. يا إلهي، كم أردت أن أهز كتفيه بيديَّ. لكنني لم أفعل. وما كان مني إلا أن نظرت بعيدًا، وقلت له: «بالطبع يا أبي»، ثم ذهبت إلى المدرسة.

في البداية، شعرت بالراحة عندما علمت أن السيد بينسان لن يستمر في تولي مسئولية حصة الدراسات الاجتماعية، لكن من وقع عليها الاختيار لتحل محله كانت بمثابة أسوأ كابوس لي.

كانت صغيرة السن، حوالي ٢٨ أو ٢٩ عامًا، وجميلة من كافة النواحي، شقراء تتحدث بلكنة جنوبية رقيقة عندما قدمت نفسها لنا على أنها السيدة آندرسن. دقَّ ذلك أول جرس إنذار على الفور؛ فلم أعلم أية سيدات تقل أعمارهن عن الستين يقدمن أنفسهن بلقب سيدة.

لكنني كنت على استعداد للتغاضي عن ذلك. فقد كانت صغيرة السن، جميلة، وبدت لطيفة؛ ومن ثم، فما من مشكلة.

لكن الحقيقة أنه كانت هناك مشكلة بالفعل.

سألتنا السيدة آندرسن، وهي تستدير للسبورة لتكتب صفًّا من الأرقام من واحد إلى عشرة: «ما الظروف التي يجب بموجبها أن تقوم الحكومة الفيدرالية بإيقاف العمل بميثاق الحقوق؟»

أجبت دون أن أنتظر الإذن بالحديث؛ فقد كانت الإجابة واضحة: «ليس تحت أي ظرف، فالحقوق الدستورية مطلقة.»

نظرت في مخطط أسماء الطلاب، وقالت: «ليس ذلك بالرأي المحنك. لنفترض، يا ماركوس، أن أحد رجال الشرطة أجرى تفتيشًا على نحو غير صحيح؛ فتجاوز — على سبيل المثال — ما هو موضح في مذكرة التفتيش، واكتشف دليلًا قويًّا يشير إلى أن مجرمًا ما قد قتل والدك، وكان ذلك الدليل الوحيد المتوفر ضده، فهل من المفترض أن يُترَك المجرم حرًّا طليقًا؟»

كنت أعلم الإجابة على هذا السؤال، لكنني لم أتمكن من شرحها حقًّا، ونطقت — أخيرًا — قائلًا: «نعم، لكن الشرطة يجب ألا تجري تفتيشًا على نحو غير ملائم ...»

فقاطعتني قائلة: «خطأ! الرد المناسب على سوء تصرف الشرطة هو الإجراء التأديبي لرجال الشرطة، وليس معاقبة المجتمع بأسره بسبب خطأِ شرطيٍّ واحد.» ثم كتبت تحت الرقم واحد على السبورة: «الإدانة الجنائية».

«هل من ظروف أخرى يمكن مخالفة ميثاق الحقوق فيها؟»

رفع تشارلز يده، وقال: «نشر الإشاعات الكاذبة في وقت الأزمات.»

تحققت من مخطط الأسماء ثانيةً، وقالت: «أحسنت يا تشارلز. هناك العديد من الأحوال التي لا يكون فيها التعديل الأول ملزِمًا، لنذكر المزيد منها.»

رفع تشارلز يده ثانية، وقال: «تعريض أحد المسئولين عن تفعيل القانون للخطر.»

فقالت، وهي تكتب على السبورة: «نعم، الكشف عن هوية رجل شرطة أو ضابط مخابرات متخفٍّ. ممتاز! هل من أحوال أخرى؟»

اندفع تشارلز مجددًا دون أن ينتظر سماع اسمه، وقال: «الأمن الوطني، والتشهير، والفحش، وفساد القُصر، وأفلام الأطفال الإباحية، ووصفات صنع القنابل.» كتبت السيدة آندرسن سريعًا على السبورة، لكنها توقفت عند «أفلام الأطفال الإباحية»، وقالت: «أفلام الأطفال الإباحية هي إحدى صور الفحش.»

شعرت بالاشمئزاز. ليس هذا ما تعلمته أو آمنت به عن بلادي. رفعت يدي.

«نعم يا ماركوس؟»

«لا أفهم ذلك! ما تقولينه يجعل من ميثاق الحقوق أمرًا اختياريًّا. إنه الدستور، ومن المفترض أن نتبعه بكل ما فيه.»

ردَّت علي، وهي تتظاهر بالابتسام، قائلةً: «هذه مبالغة معتادة في تبسيط الأمور، لكن الحقيقة هي أن من وضعوا الدستور قد هدفوا لأن يكون وثيقة حية تُعدَّل بمرور الزمن، وقد أدركوا أن الجمهورية لن تتمكن من الاستمرار للأبد إذا لم تتمكن الحكومة من الحكم وفقًا لاحتياجات العصر الذي توجد فيه. لم يكن هدفهم مطلقًا أن يُنظَر للدستور على أنه عقيدة دينية؛ فهم في النهاية قد جاءوا إلى هذه الأرض هربًا من العقيدة الدينية.»

هززت رأسي، وقلت لها: «ماذا؟ كلا. لقد كانوا تجارًا وحرفيين اتسموا بالولاء للملك إلى أن وضع سياسات تضر بمصالحهم، وفرضها عليهم بقسوة. أما اللاجئون الدينيون، فجاءوا قبل ذلك بفترة طويلة.»

قالت: «بعض واضعي الدستور تعود أصولهم للاجئين دينيين.»

«وميثاق الحقوق ليس بالشيء الذي ننتقي ونختار منه. ما بغضه واضعو الدستور هو الاستبداد، وهو ما جاء ميثاق الحقوق ليمنعه. لقد كانوا جيشًا ثوريًّا، وأرادوا وضع

مجموعة مبادئ يمكن للجميع الاتفاق عليها: الحياة، الحرية، البحث عن السعادة، حق الشعب في الإطاحة بمستبديه.»

قالت وهي تلوح لي: «نعم، نعم ... لقد آمنوا بحق الشعب في التخلص من ملوكهم، لكن ...» علت وجه تشارلز ابتسامة عريضة ازدادت اتساعًا عندما قالت هذه الكلمات.

«لقد وضعوا ميثاق الحقوق لأنهم رأوا أن التمتع بحقوق مطلقة أفضل من أن نواجه خطر انتزاعها من قبل أي شخص. يتضح ذلك في التعديل الأول؛ فمن المفترض أن يحمينا من خلال منع الحكومة من إنشاء نوعين من الخطاب: الخطاب المسموح به، والخطاب الإجرامي. فلم يرغبوا في مواجهة خطر أن يتخذ أحمق ما قرارًا بأن ما لا يستسيغه غير قانوني.»

ثم استدارت وكتبت: «الحياة، والحرية، والبحث عن السعادة.»

«لقد تقدمنا بعض الشيء في الدرس، لكن من الواضح أنكم مجموعة متفوقة.» ضحك الطلاب بعصبية.

«دور الحكومة هو أن تؤمن لمواطنيها الحق في الحياة والحرية والبحث عن السعادة، بهذا الترتيب. إذا أرادت الحكومة فعل شيء ما من شأنه التقليل من سعادتنا، أو سلبنا بعض حريتنا، فلا بأس، شريطة أن يكون الهدف من ذلك هو إنقاذ حياتنا؛ ولهذا، يمكن للشرطة احتجازك إذا رأت أنك تمثل خطرًا على نفسك أو الآخرين، فتسلبك حريتك وسعادتك لتحمي حياتك. وإذا كانت لديك حياة، يمكنك أن تحظى بالحرية والسعادة فيما بعد.»

رفع البعض أيديهم. «ألا يعني ذلك أن الشرطة بإمكانها فعل ما تبغيه إذا رأت أنها تمنع بذلك شخصًا ما من إيذائنا في المستقبل؟»

فقال طالب آخر: «نعم، يشير ما تقولينه إلى أن الأمن الوطني أهم من الدستور.»

شعرت بفخر شديد حينذاك بزملائي، وقلت: «كيف يمكنك حماية الحرية بتعليق العمل بميثاق الحقوق؟»

هزَّت رأسها كما لو كنا أغبياء للغاية، وقالت: «إن المؤسسين «الثوريين» أعدموا الخونة والجواسيس رميًا بالرصاص. لم يؤمنوا بالحرية المطلقة، لم يؤمنوا بها عندما هددت الجمهورية. والآن، لتنظروا إلى مستخدمي شبكة «إكس نت» مثلًا ...»

حاولت جاهدًا ألا يبدو عليَّ الانزعاج.

«... هؤلاء الذين يُطلَق عليهم المشوشون والذين ذكرتهم النشرات الإخبارية هذا الصباح. بعد تعرض هذه المدينة للهجوم من جانب أناس أعلنوا الحرب على بلادنا،

عمد هؤلاء المشوشون إلى تخريب الإجراءات الأمنية التي وُضِعت للقبض على المجرمين، ومنعهم من تكرار فعلتهم. وقد فعلوا ذلك عن طريق تعريض المواطنين الآخرين للخطر والمشكلات ...»

قلت — أو بالأحرى صحت، فقد أثارت غضبي بشدة: «لقد فعلوا ذلك ليوضحوا أن حقوقنا قد سُلِبت منا بحجة حمايتنا! لقد فعلوا ذلك لأن الحكومة كانت تعامل الجميع كما لو كانوا إرهابيين مشتبهًا فيهم.»

صاح تشارلز: «وأرادوا بالتالي أن يثبتوا أنه يجب عدم معاملتهم كإرهابيين، فتصرفوا كإرهابيين، وأرهبوا الآخرين.»

تميَّزت غيظًا.

«بالله عليك، أرهبوا الآخرين؟! لقد أوضحوا أن الرقابة العامة أخطر من الإرهاب. انظر ماذا حدث في المتنزه في عطلة نهاية الأسبوع الماضي، كان هؤلاء الشباب يرقصون ويستمعون إلى الموسيقى. كيف يكون ذلك إرهابًا؟»

تحركت المعلمة عبر الفصل، ووقفت أمامي إلى أن توقفت عن الحديث. قالت: «يبدو، يا ماركوس، أنك تظن أنه ما من شيء تغير في هذا البلد. ينبغي أن تفهم أن تفجير جسر باي قد غير كل شيء. ترقد جثث الآلاف من أصدقائنا وأقاربنا في قاع الخليج. هذا وقت الوحدة الوطنية في وجه الهجوم الغاشم الذي تعرضت له بلادنا ...»

نهضت واقفًا، لقد نلت كفايتي من هذا الهراء المتعلق بأن كل شيء قد تغير، قلت: «وحدة وطنية؟ الفكرة التي تقوم عليها أمريكا هي أننا دولة يُرحَّب فيها بالانشقاق. نحن دولة المنشقين والمقاتلين ومن لم يكملوا تعليمهم الجامعي وأصحاب الرأي الحر.»

تذكرت درس السيدة جالفيس السابق، والآلاف من طلاب بيركلي الذين أحاطوا بسيارة الشرطة عندما حاول الضباط القبض على شخص ما لتوزيعه منشورات عن الحقوق المدنية. لم يحاول أحد إيقاف هذه الشاحنات عندما ابتعدت حاملةً كلَّ من كانوا يرقصون في المتنزه. أنا أيضًا لم أحاول، وفررت.

لعل كل شيء قد تغير بالفعل.

قالت السيدة آندرسن موجهة خطابها إليَّ: «أعتقد أنك تعرف مكان مكتب السيد بينسان. ستذهب إليه في الحال؛ فأنا لن أسمح بأي سلوك غير محترم في فصولي. رغم ادعائك أنك تحب حرية التعبير، فأنت على استعداد بلا شك لإخراس أي أحد لا يوافقك الرأي.»

حملت الكمبيوتر المحمول المدرسي، وحقيبتي، واندفعت خارج الفصل. كان الباب هيدروليكيًّا؛ ومن ثم كان من المحال أن يُغلَق بعنف، وإلا فكنت قد فعلت.

أسرعت إلى مكتب السيد بينسان، والتقطَتِ الكاميرات صورتي أثناء ذلك. سُجِّلت مشيتي، وشرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية التي احتوت عليها بطاقة هويتي بعثت بهويتي لأجهزة الاستشعار الموجودة في الرواق. كان الأمر أشبه بالتواجد داخل سجن.

قال السيد بينسان: «أغلق الباب يا ماركوس.» وأدار شاشة جهازه لأتمكن من مشاهدة ما سجله الفيديو في حصة الدراسات الاجتماعية. لقد كان يشاهد ما يحدث.

«ماذا لديك لتدافع به عن نفسك؟»

«لم يكن ذلك تعليمًا، وإنما كان ترويجًا لفكر ما. لقد أخبرتنا السيدة آندرسن أن الدستور لا أهمية له!»

«كلا، إنما قالت إنه ليس عقيدة دينية، وقد هاجمتها كالمتطرفين، ما أثبت وجهة نظرها. يا ماركوس، أنت من بين كل الناس يجب أن تكون مدركًا أن كل شيء قد تغير عند تفجير الجسر. فصديقك داريل ...»

قاطعته وقد تملك الغضب مني: «إياك أن تنطق بكلمة عنه، فلست أهلًا للتحدث عنه. نعم، أنا أدرك بالفعل أن كل شيء قد تغير الآن؛ فقد كنا أحرارًا من قبل في هذه البلاد، ولم نعد كذلك.»

«ماركوس، هل تعلم ما يعنيه مصطلح «عدم التسامح»؟»

تراجعت؛ فكان بإمكانه فصلي من المدرسة بحجة «السلوك التهديدي»، وهي الحجة التي من المفترض استخدامها مع أطفال العصابات الذين يحاولون إرهاب معلميهم، لكنه بالطبع ما كان ضميره ليؤنبه إذا استخدمها معي.

فأجبته: «نعم، أعلم.»

فقال: «أظن إذن أنك مدين لي بالاعتذار.»

نظرت إليه. حاول جاهدًا إخفاء ابتسامته السادية. أراد جزءٌ مني التذلل له لكي يسامحني رغم ما شعرت به من خزي، لكنني قمعت ذلك الجزء، وقررت أنني أُفضِّل الفصل على أن أعتذر له.

قلت له ما تذكرت كل كلمة منه: «تنشأ الحكومات بين الناس، مستمدةً سلطاتها العادلة من موافقة المحكومين. وإنه عندما يصبح أي شكل من أشكال الحكم في أي وقت

من الأوقات هادمًا ومدمرًا لهذه الغايات، يصبح من حق الشعب أن يغيِّره أو يطيح به ويشكِّل حكومة جديدة مقيمًا أساسها على المبادئ، ومنظمًا سلطاتها وفق الكيفية التي تبدو له أفضل ملاءمة لتحقيق سلامته ورفاهيته.»

فهزَّ رأسه، وقال: «تَذكُّر الأشياء شيءٌ وفهمها شيءٌ آخر يا بني.» وانحنى على جهاز الكمبيوتر الخاص به، ونقر عليه بضع نقرات، فصدر عن الطابعة صوت. أعطاني ورقة دافئة من أوراق خطابات المدرسة مكتوب عليها أنني مفصول لمدة أسبوعين.

«سأبعث برسالة بريد إلكتروني إلى والديك. إذا ظللت موجودًا في المدرسة بعد ثلاثين دقيقة، فسيُقبَض عليك بتهمة التعدي على الممتلكات.»

نظرت إليه.

فواصل حديثه قائلًا: «ليس من مصلحتك أن تعلن الحرب عليَّ في مدرستي؛ فهذه حرب لا يمكنك الانتصار فيها. والآن لتخرج من هنا!»

فغادرت المكتب.

الفصل الرابع عشر

أهدي هذا الفصل إلى المتجر الذي لا مثيل له مِستيرياس جالاكسي في سان دييجو بولاية كاليفورنيا. يدعونني القائمون على ذلك المتجر لتوقيع كتبي هناك في كل مرة أذهب فيها إلى سان دييجو لحضور مؤتمر ما أو للتدريس (يقع مقر «ورشة عمل كلارين للكتاب» في جامعة كاليفورنيا بسان دييجو في لاهويا بولاية كاليفورنيا). وفي كل مرة أذهب إليها، يحشدون أكبر عدد من القراء؛ فلهذا المتجر قاعدة عريضة من القراء المخلصين الذين يعلمون أنهم سيحصلون دائمًا على توصيات ممتازة وأفكار رائعة فيه. في صيف عام ٢٠٠٧، اصطحبت أفراد ورشة عمل الكتاب من كلارين إلى المتجر بمناسبة حفل منتصف الليل الذي أقيم لإصدار الجزء الأخير من سلسلة «هاري بوتر»، ولم أشهد مثل ذلك التجمع الممتع المرح في أي متجر من قبل.

* * *

خلت شبكة «إكس نت» من المرح في منتصف الدوام الدراسي؛ إذ يكون جميع مستخدميها في المدرسة. كنت قد طويت الورقة ووضعتها في جيب بنطالي الجينز الخلفي، ثم ألقيت بها على مائدة المطبخ عندما وصلت إلى المنزل. جلست في غرفة المعيشة، وفتحت التليفزيون. لم أكن أشاهده قط، لكن والديَّ كانا يفعلان؛ فالتليفزيون والراديو والصحف هي المصدر الذي حصلا منه على كل ما لديهما من أفكار بشأن العالم.

كانت الأخبار بشعة، وهناك العديد من الأسباب للفزع. جنود أمريكيون يلقون حتفهم بجميع أنحاء العالم. ولا يقتصر الأمر على الجنود فحسب، بل رجال الحرس الوطني أيضًا الذين ظنوا أنهم أُرسِلوا للمساعدة في إنقاذ الناس من الأعاصير؛ فقد بُعِثوا إلى الخارج لأعوام طويلة في حرب لا نهاية لها.

أخذت أتنقل بين شبكات الأخبار التي تنقل الأخبار على مدار الأربع والعشرين ساعة، واحدة تلو الأخرى، وظهر بجميعها مسئولون يخبرون المشاهدين لماذا يجب أن يفزعوا، ومجموعة من صور التفجيرات بجميع أنحاء العالم.

أخذت أقلب إلى أن وجدتني أنظر في وجه مألوف لي، كان الرجل الذي دخل إلى الشاحنة، وتحدث مع صاحبة الشعر القصير عندما كنت مقيدًا في خلفية الشاحنة. ارتدى زيًّا عسكريًّا، والتعليق على الشاشة عرَّفه بأنه اللواء جرايام سادرلاند، القائد الإقليمي بوزارة الأمن الوطني.

رفع مجموعة من الكتيبات، وقال: «أحمل في يدي كتيبات كانت توزع فعليًّا فيما كانوا يدعون أنه حفل غنائي في متنزه دولوريس عطلة نهاية الأسبوع الماضي.» أتذكر بالفعل وجود العديد من موزعي الكتيبات في الحفل. أينما وُجِدت مجموعة من الناس في سان فرانسيسكو، توزع كتيبات.

«أريدكم أن تنظروا لحظات لهذه الكتيبات. دعوني أقرأ لكم عناوينها: «دون موافقة المحكوم: دليل المواطن للإطاحة بالدولة.» هذا أحدها، وهناك أيضًا: «هل وقعت تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر فعلًا؟» هذا آخر، «كيف تستخدم إجراءاتهم الأمنية ضدهم؟» توضح هذه الكتيبات الهدف الحقيقي من التجمع غير القانوني ليلة السبت؛ فلم يكن تجمعًا غير آمن فحسب للآلاف من الأفراد دون احتياطات مناسبة، أو حتى دورات مياه، وإنما كان حشدًا للناس في صف العدو. لقد كان محاولة لإفساد الشباب بجعلهم يعتنقون فكرة أن أمريكا لا يجب أن تؤمن نفسها.

لتنظروا إلى هذا الشعار: «لا تثق في أحد أكبر من ٢٥ عامًا.» هل من وسيلة أفضل لضمان استبعاد أية مناقشة مدروسة ومتوازنة وعاقلة عن رسالتك المروجة للإرهاب من إقصاء البالغين، وقصر مجموعتك على شباب سريعي التأثر؟

عندما ذهبت الشرطة إلى هناك، رأت عملية حشد لأعداء أمريكا، وكان التجمع قد سبَّب بالفعل إزعاجًا للمئات من قاطني المنطقة التي أقيم فيها، والتي لم يُستشَر أيٌّ منهم في التخطيط لتلك الحفلة الصاخبة التي استمرت طوال الليل.

فأمرتهم الشرطة بالتفرق — وهذا ما يتضح في جميع مقاطع الفيديو — وعندما حاول المعربدون مهاجمة قوات الشرطة بتشجيع من الموسيقيين الموجودين على المسرح، أخضعتهم القوات باستخدام الأساليب السلمية لفضِّ التجمعات.

ومَن قُبِض عليهم كانوا من زعماء الفتنة، والمُحرِّضين على الشغب الذين دفعوا الآلاف من الشباب السريع التأثر لمهاجمة صفوف الشرطة. ٨٢٧ منهم حُجِزوا، والعديد من هؤلاء

كانت لديهم سوابق. أكثر من مائةٍ صدرت أوامر بالقبض عليهم، ولا يزالون قيد الحجز إلى الآن.

أيها السيدات والسادة، إن أمريكا تواجه حربًا على جبهات عدة، لكن أكبر خطر تواجهه هنا، على أرضها، سواء أكان ذلك بما يشنه الإرهابيون علينا من هجمات أو من يتعاطفون معهم.»

رفع أحد الصحفيين يده سائلًا: «سيادة اللواء ساذرلاند، أنت لا تقصد بالتأكيد أن هؤلاء الشباب متعاطفون مع الإرهابيين لأنهم حضروا حفلًا في متنزه؟»

«بالطبع لا أقصد ذلك، لكن عندما يقع الشباب تحت تأثير أعداء البلاد، من اليسير أن تكون نهايتهم سيئة؛ فكم يرغب الإرهابيون في تجنيد صف خامس لتولي الحرب على الجبهة الداخلية بالنيابة عنهم. لو كان هؤلاء الشباب أبنائي، لكنت قلقت عليهم قلقًا بالغًا.»

قاطعه صحفي آخر قائلًا: «لم يكن ذلك سوى حفل في الهواء الطلق سيادة اللواء، فما كانوا يتدربون على استخدام البنادق.»

أخرج اللواء مجموعة من الصور، وبدأ في رفعها لأعلى: «هذه صور التقطها الضباط بكاميرات الأشعة تحت الحمراء قبل الهجوم.» حملها بجانب وجهه، وأخذ يقلبها واحدة تلو الأخرى. عرضت الصور أناسًا يرقصون رقصًا عنيفًا، بعضهم دُهِس وداست عليه الأقدام. وانتقلت بعد ذلك لجنس مورِس بين الأشجار: فتاة وثلاثة شباب، وشابان يتعانقان. «حضر الحفل أطفال في سن العاشرة، ووُجِد به خلطات قاتلة من المخدرات، وترويج لأفكار، وموسيقى أسفرت عن عشرات الإصابات. ومن الغريب ألا تكون هناك أية وفيات.»

أغلقت التليفزيون. يجعلون الأمر يبدو وكأنه شغب. إذا ظن والداي أنني كنت في ذلك الحفل، فسيقيدانني في سريري لمدة شهر، ولن يسمحا لي بالخروج بعد ذلك إلا وحول رقبتي طوق للتتبع.

وبمناسبة ذكر والديَّ، فسيغضبان بشدة عندما يعلمان أنني موقوف عن الدراسة.

لم يتقبلا الخبر تقبلًا حسنًا، فأراد أبي معاقبتي بمنعي من الخروج، لكنني أقنعته أنا وأمي بتغيير رأيه.

قالت أمي: «أنت تعلم أن نائب المدير يتوعد لماركوس منذ سنوات. آخر مرة التقينا به، أخذتَ تسبه لمدة ساعة بعد اللقاء، وأظن أنك ذكرت مرارًا وصف «أحمق بغيض».»

هزَّ أبي رأسه، وقال: «إن تعطيل فصل دراسي للدخول في جدل ضد وزارة الأمن الوطني ...»

فقاطعته قائلًا: «إنها حصة الدراسات الاجتماعية يا أبي.» لم أكن أهتم، لكنني شعرت أنه إذا كانت أمي ستساندني، يتوجب عليَّ مساعدتها. «وكنا نتحدث عن وزارة الأمن الوطني. أليس من المفترض أن النقاش أمر صحي؟»

فأجابني: «انظر يا بني»، لقد اعتاد مناداتي بلفظ «يا بني» كثيرًا؛ ما جعلني أشعر أنه قد توقف عن التفكير فيَّ كشخص ناضج، وبدأ — بدلًا من ذلك — في التفكير فيَّ كيرقة حشرة لم تتكون بعد وبحاجة للإرشاد لتخرج من طور المراهقة، وقد كرهت ذلك. واصل حديثه قائلًا: «عليك أن تتعلم التأقلم مع حقيقة أننا نعيش في عالم مختلف الآن. لا ريب أن لديك الحق كاملًا في التعبير عن رأيك، لكن عليك أن تكون مستعدًّا لما يسفر عنه ذلك من نتائج. عليك مواجهة حقيقة أن هناك أشخاصًا يتعرضون للأذى، ولا يرغبون في مناقشة أدق تفاصيل القانون الدستوري بينما حياتهم على المحك. نحن في قارب نجاة الآن، وعندما تكون في قارب نجاة، لا يرغب أحد في سماع حديث عن مدى وضاعة القبطان.»

منعت نفسي بالكاد من أن أدير عينيَّ في استهزاء مما يقوله.

«لقد عُهِد إليَّ بأسبوعين من الدراسة الحرة، أكتب فيهما بحثًا في كل مادة من المواد التي أدرسها، مع الاعتماد على المدينة كأساس لي (بحثًا في التاريخ، وآخر في الدراسات الاجتماعية، وفي اللغة الإنجليزية، وفي الفيزياء). وذلك أفضل بكثير من البقاء في المنزل ومشاهدة التليفزيون.»

نظر إليَّ والدي شزرًا، كما لو كان يشك في أنني أنوي فعل شيء ما، ثم أومأ برأسه. ألقيت عليهما تحية المساء وذهبت إلى غرفتي. قمت بتشغيل جهاز «إكس بوكس»، وفتحت برنامجًا لمعالجة الكلمات، وبدأت أدوِّن ما يرد على ذهني من أفكار بشأن الأبحاث التي كنت سأكتبها. ولم لا؟ فكان ذلك أفضل بالفعل من الجلوس فحسب في المنزل.

انتهى بي الحال لأراسل آنج على برنامج المراسلات الفورية لوقت طويل في تلك الليلة. تعاطفت معي بشأن كل شيء، وأخبرتني أنها ستساعدني في أبحاثي إذا قابلتها بعد دوام المدرسة الليلة التالية. كنت أعرف مكان مدرستها؛ إذ كانت تذهب إلى المدرسة ذاتها التي تذهب إليها فان، وكانت هذه المدرسة في الطريق إلى «إيست باي»، المكان الذي لم أذهب إليه منذ وقوع التفجيرات.

كنت متحمسًا للغاية لفكرة رؤيتها ثانيةً؛ ففي كل مرة أخلد فيها للنوم منذ الحفل، لا أفكر إلا في شيئين: منظر الشباب وهو يتقدم لمجابهة الشرطة، وملمس جسدها أثناء اتكائنا على العمود. كم كانت مذهلة! لم أصادق من قبل فتاة بهذا القدر من الشراسة. كنت أنا دائمًا من أتقدم ناحية الفتيات، وهن يصددنني. وكان لدي شعور بأن آنج لديها نفس ما لدي من رغبة جنسية، وكانت هذه فكرة شديدة الإثارة بالنسبة لي.

نمت نومًا عميقًا في تلك الليلة، وأحلام مثيرة راودتني عما يمكنني أن أفعله أنا وآنج إذا وجدنا أنفسنا في بقعة منعزلة بمكان ما.

في اليوم التالي، بدأت العمل في أبحاثي. سان فرانسيسكو مكان يصلح للكتابة عنه. إذا كنا نتحدث عن التاريخ، فهي تزخر بذلك بالتأكيد، بدءًا من حمى الذهب (أي تدفق الناس الشديد على مواطن اكتشاف الذهب بالمدينة)، ووصولًا إلى ورش بناء السفن أثناء الحرب العالمية الثانية، ومعسكرات الاعتقال اليابانية، وغير ذلك الكثير. يضم كذلك متحف إكسبلوراتوريم أفضل المعروضات مقارنةً بأي متحف آخر ذهبت إليه، وقد أعجبتني فيه على نحو غريب معروضات إسالة التربة أثناء الزلازل العنيفة. أما عن مادة اللغة الإنجليزية، فهناك جاك لندن، وشعراء بيت، وكتاب الخيال العلمي مثل بات مورفي ورودي راكر. وفيما يتعلق بالدراسات الاجتماعية، فهناك حركة الخطاب الحر، وسيزار شافيز، وحقوق المثليِّين، والحركة النسائية، وحركة مناهضة الحرب ... إلخ.

أحببت دومًا التعلم من أجل التعلم؛ أي لأكون أكثر وعيًا بالعالم من حولي، ويمكنني فعل ذلك بالسير في أنحاء المدينة فحسب. قررت أن أكتب بحثًا في مادة اللغة الإنجليزية عن «جيل البِيت» أولًا. احتوى متجر «سيتي لايتس» على مكتبة رائعة في أحد الأدوار العلوية؛ حيث ألَّف آلان جينزبرج ورفاقه قصائدهم المتطرفة. كانت القصيدة التي قرأناها في حصة اللغة الإنجليزية هي «عواء»، والتي لن أنسى يومًا أبياتها الأولى التي اقشعر لها بدني:

> رأيتُ أفضل العقول في جيلي وقد دمرها الجنونُ، يتضوَّرون عراةً في حالة هيستيرية،
> يجرجرون أنفسهم عبر شوارع زنجيةٍ في الفجر باحثينَ عن إبرةِ مخدِّرٍ ساخطة.
> هيبيز برءوس ملائكةٍ، يتحرقون للوصال السماويِّ العتيق، بالدينامو المرصع بالنجوم
> في ماكينة الليل ...

أعجبتني طريقة جمعه لهذه الكلمات معًا «يتضوَّرون عراةً في حالة هيستيرية»، فأنا أعلم ما يكون عليه ذلك الشعور. وعبارة «أفضل العقول في جيلي» جعلتني أمعن في التفكير؛

فذكَّرتني بالمتنزه والشرطة وقنابل الغاز. قُبِض على جينزبرج بتهمة الفحش بسبب تلك القصيدة؛ وذلك بسبب بيت عن المثليين، والذي ما كان لتطرف له عين اليوم. لقد أسعدني ذلك بصورة ما؛ إذ علمت أننا قد حققنا بعض التقدم؛ فقد كانت القيود على هذه الأمور أكثر مما هي عليه الآن.

نسيت نفسي في المكتبة مع قراءة تلك الإصدارات القديمة الجميلة من الكتب. غرقت في قراءة رواية جاك كيرواك «على الطريق»، وهي الرواية التي اعتزمت قراءتها منذ وقت طويل. أومأ أحد الموظفين — الذي جاء ليتفقد حالي — برأسه مستحسنًا ما أفعله، وأحضر لي نسخة رخيصة من الرواية وباعها لي مقابل ستة دولارات.

سرت إلى الحي الصيني، وتناولت بعض الكعك المحلى والنودلز مع الصوص الحار الذي كنت أعتبره حارًّا للغاية في السابق، لكن لن يكون كذلك ثانيةً أبدًا، ليس بعد أن ذقت وصفة آنج الخاصة.

بحلول فترة ما بعد الظهيرة، استقللت قطار بارت، ثم إحدى الحافلات التي تقطع جسر سان ماتيو ذهابًا وإيابًا لأصل إلى منطقة إيست باي. أخذت أقرأ النسخة التي حصلت عليها من رواية «على الطريق»، وألتفت بين الحين والآخر للمناظر الطبيعية التي تمر سريعًا بجانبي. «على الطريق» رواية تشبه السيرة الذاتية لجاك كيرواك، وهو كاتب سكير مدمن للمخدرات كان يسافر متطفلًا بجميع أنحاء أمريكا، ويعمل في وظائف تافهة، يتسكع في الشوارع ليلًا ويقابل أناسًا وينفصل عنهم: هيبيز، ومتشردين بوجوه واجمة، ومخادعين، ولصوصًا، وحقراء، وملائكة. ما من حبكة في الواقع للرواية؛ فمن المفترض أن كيرواك قد كتبها في ثلاثة أسابيع على مجموعة أوراق كبيرة بينما هو غائب عن الوعي بفعل المخدرات، لكنها مجموعة من الأحداث المذهلة المتتالية؛ فهو يقيم صداقات مع أشخاص ذات نزعة لتدمير الذات، مثل دين موريارتي الذي ورطه في مخططات غريبة لم تنجح قط في الواقع، لكنها نجحت في الوقت نفسه إذا كنت تعلم ما أعنيه.

حملت الكلمات إيقاعًا لغويًا كدت أسمعه في رأسي، جعلني أرغب في الاستلقاء في صندوق شاحنة نصف نقل، والاستيقاظ في مدينة صغيرة مغبرة في مكان ما بوسط الوادي على الطريق إلى لوس أنجلوس، أحد تلك الأماكن التي تضم محطة بنزين ومطعمًا بسيطًا، ثم أخرج بعد ذلك إلى الحقول، وألتقي بأناس، وأشاهد أشياء، وأفعل أشياء أخرى.

كانت الرحلة طويلة بالحافلة، ولا بد أنني قد غفوت قليلًا. البقاء مستيقظًا لوقت متأخر من الليل للمراسلة الفورية مع آنج كان مرهقًا لي بناء على جدول مواعيد نومي؛

إذ كانت أمي لا تزال تتوقع نزولي لتناول الفطور معها هي ووالدي. استيقظت من النوم، ركبت حافلة أخرى، ووصلت سريعًا إلى مدرسة آنج.

خرجت آنج من البوابة مرتدية زيها المدرسي. لم أرها من قبل في هذا الزي، كان لطيفًا على نحو غريب، وذكرني بفان وهي مرتدية الزي نفسه. عانقتني طويلًا، وقبَّلتني بقوة على وجنتي.

قالت: «مرحبًا!»

«مرحبًا!»

«ماذا تقرأ؟»

كنت أنتظر ذلك السؤال، وميزت الفقرة. قلت لها: «اسمعي ذلك: «أخذا يرقصان في الشوارع كالمجانين السعداء، ومشيت بخطى متثاقلة خلفهما مثلما كنت أفعل طوال حياتي؛ أتتبع من يثيرون اهتمامي؛ لأن مَن أعتبرهم أناسًا بحق هم المجانين، من لديهم من الجنون ما يجعلهم يعيشون ويتحدثون ويُنقَذون ويرغبون في كل شيء في الوقت نفسه ولا يتثاءبون أبدًا أو يقولون شيئًا معتادًا، بل يحترقون ويحترقون مثل الألعاب النارية الصفراء الخلابة التي تتفجر كالعناكب بين النجوم، وفي وسطها ترى انفجارًا للضوء الأزرق، ويصيح الجميع متحمسين».»

أمسكت بالكتاب، وقرأت الفقرة بنفسها، ثم قالت: «يا إلهي! المجانين السعداء! لكم أحببت ذلك! هل الكتاب كله على هذا النحو؟»

أخبرتها بالأجزاء التي قرأتها، ونحن نسير بتمهل على الرصيف تجاه محطة الحافلات. وبمجرد أن انعطفنا عند الناصية، وضعتْ ذراعها حول خصري، في حين علَّقتُ ذراعي حول كتفيها. سرت في الشارع مع فتاة — رفيقتي بالتأكيد، ولم لا؟ — نتحدث عن هذا الكتاب الرائع. كنت في الجنة بالتأكيد؛ فقد جعلني ذلك أنسى مشاكلي لفترة قصيرة.

«ماركوس؟»

استدرت، فوجدت فان. توقعت ذلك في عقلي الباطن، وقد علمت ذلك لأن عقلي الواعي لم يندهش كثيرًا. المدرسة ليست كبيرة، وخرجت جميع الطالبات في الوقت ذاته. مضت أسابيع منذ آخر مرة تحدثت فيها مع فان، وتلك الأسابيع بدت شهورًا؛ إذ اعتدنا التحدث كل يوم.

قلت لها: «مرحبًا، فان!» وكبحت رغبتي في إنزال ذراعي عن كتفي آنج. بدت فان مندهشة، لكنها ليست غاضبة. كانت أكثر شحوبًا وتوترًا. نظرت إلينا بإمعان.

«آنجيلا؟»

فقالت آنج: «مرحبًا فانيسا.»

«ما الذي تفعله هنا؟»

قلت — محاولًا أن أحافظ على نبرة صوتي الحيادية: «جئت للقاء آنج.» شعرتُ بإحراج مفاجئ لرؤية فان لي مصطحبًا فتاة أخرى.

قالت فان: «أوه! حسنًا، سعدت بلقائك.»

قالت آنج، وهي تديرني لتوجهني ناحية محطة الحافلات ثانيةً: «سعدنا بلقائك أيضًا يا فانيسا.»

ثم قالت لي: «هل تعرفها؟»

«نعم، منذ أمد بعيد.»

«هل كانت رفيقتك؟»

«ماذا؟ كلا! مطلقًا! كنا أصدقاء فقط.»

«كنتما؟»

شعرت كما لو أن فان كانت تسير خلفنا، وتتنصت علينا، رغم أنه بالسرعة التي كنا نسير بها، سيكون عليها الركض لتلحق بنا. قاومت رغبتي الملحة في النظر خلفي قدر ما استطعت، ثم فعلت في النهاية. سار خلفنا الكثير من طالبات المدرسة، لكن ليس من بينهن فان.

«كانت برفقتي أنا وخوسيه لويس وداريل عند إلقاء القبض علينا. اعتدنا ممارسة ألعاب الواقع البديل معًا. جمعت بيننا نحن الأربعة صداقة حميمة.»

«وماذا حدث؟»

قلت مخفضًا صوتي: «لم ترُق لها فكرة شبكة «إكس نت»، ورأت أنها ستجلب علينا المتاعب، وأنني سأوقع الآخرين في مشكلات.»

«ولذلك، لم تعودا صديقين؟»

«ابتعد كلٌّ منا عن الآخر فقط.»

سرنا بضع خطوات، ثم سألتني آنج: «هل ترافقتما؟»

فأجبتها: «كلا!» كان وجهي ساخنًا، وشعرت أنني أبدو كاذبًا، رغم صدقي.

توقفت آنج، وأوقفتني وأخذت تتطلع وجهي.

«هل كنتما كذلك بالفعل؟»

«كلا! صدقًا! كانت علاقة صداقة فحسب؛ فهي وداريل ... حسنًا، ليس بالضبط، لكن داريل كان معجبًا بها، وما كان يمكن أبدًا ...»

«لكن لولا إعجاب داريل بها، لكنت فعلت، صحيح؟»

«كلا، يا آنج، كلا. لتصدقيني، رجاءً، وتنسي الأمر. كانت فانيسا صديقة مقربة، ولم نعد كذلك الآن، وهذا ما يزعجني، لكنني لم أكن معجبًا بها على هذا النحو قط، حسنًا؟»

استرخت آنج قليلًا، وقالت: «حسنًا، حسنًا! أنا آسفة! فأنا لست على وفاق معها في الحقيقة، ولم نكن كذلك طوال السنوات التي عرف كلٌّ منا الآخر فيها.»

هكذا عرفت كيف عرف خولو آنج طوال هذه الفترة، ولم ألتقِ بها من قبل قط؛ فلم تكن على وفاق مع فان، ومن ثم لم يردها خولو أن تتردد علينا.

عانقتني طويلًا، وتبادلنا القبل. مرت مجموعة من الفتيات بجوارنا، وأخذن يصفرن؛ فاستقمنا، وتوجهنا إلى محطة الحافلات. كانت فان تسير أمامنا الآن، ولا بُدَّ أنها مرت بنا أثناء تقبيلنا أحدنا للآخر. شعرت بالغباء المطبق.

وقفت بالطبع في المحطة، وصعدت معنا الحافلة دون أن ينطق أيٌّ منا بكلمة. حاولت التحدث مع آنج طوال الطريق، لكن ذلك كان غريبًا.

ما خططنا له هو الذهاب لشرب القهوة، ثم التوجه لمنزل آنج لقضاء الوقت معًا، و«الدراسة»؛ أي التناوب على استخدام جهاز «إكس بوكس» الخاص بها للاطلاع على شبكة «إكس نت». كانت والدتها تعود للمنزل متأخرةً يوم الثلاثاء؛ إذ كان ذلك موعد درس اليوجا والعشاء مع رفيقاتها. أما شقيقة آنج، فكان لديها موعد مع رفيقها؛ ومن ثم لم يكن معنا أحد في المنزل، وراودتني أفكار منحرفة بشأن ذلك منذ خططنا لما سنفعله.

وصلنا إلى منزلها، صعدنا مباشرةً إلى غرفتها، وأغلقنا الباب. كانت غرفتها في حالة كارثية؛ إذ غطَّتها طبقات من الملابس والمفكرات وأجزاء من أجهزة الكمبيوتر الشخصي التي تخترق قدميك بما عليهما من جوارب كالنباتات الشائكة. ومكتبها أسوأ من الأرضية؛ إذ تكدست عليه أكوام من الكتب والمجلات الهزلية، ومن ثم انتهى بنا الحال على سريرها؛ الأمر الذي كان مناسبًا تمامًا لي.

تلاشى بعض الشيء الحرج الذي شعرت به بسبب رؤيتي لفان. قمنا بتشغيل جهاز «إكس بوكس» الخاص بآنج، والذي كان في منتصف مجموعة متشابكة من الأسلاك، بعضها يصل إلى هوائي لاسلكي ربطته بالنافذة حتى تتمكن من استخدام شبكة الواي فاي الخاصة بجيرانها. اتصلت بعض هذه الأسلاك بشاشتي كمبيوتر محمول قديمتين

حولتهما إلى شاشتين منفصلتين تستندان إلى حاملين وتحيط بهما إلكترونيات مكشوفة. ووُضِعت كل شاشة على كومود بجوار السرير، ما يعد وضعًا رائعًا لمشاهدة الأفلام أو المراسلة الفورية أثناء الاستلقاء على السرير … فيمكنها إدارة الشاشتين على جانبيهما، والاستلقاء على جانبها، وبذلك تكون الشاشة في زاوية معتدلة، مهما كان الجانب الذي تستند عليه.

كلانا عرف السبب الحقيقي لوجودنا في ذلك المكان، ونحن جالسان أحدنا بجوار الآخر، أمام الكومود المجاور للسرير. كنت أرتعش قليلًا، ومدركًا تمامًا لدفء ساقها وكتفها الملتصقتين بساقي وكتفي، لكنني أردت التركيز في حركات تسجيل الدخول على شبكة «إكس نت»، والتحقق من رسائل البريد الإلكتروني التي وصلتني، وما إلى ذلك.

وجدت رسالة من شاب قد اعتاد أن يبعث لي بمقاطع فيديو مضحكة سجلتها كاميرات الهواتف لرجال الأمن الوطني بعد أن جن جنونهم. كان آخر فيديو يعرض تفكيكهم لعربة أطفال بعد أن أظهر أحد الكلاب البوليسية الخاصة بالكشف عن القنابل اهتمامًا بها، وذلك باستخدام المفكات في الشارع بمرسى السفن، بينما الأغنياء يسيرون بجوارهم، يحدقون ويتعجبون من غرابة ما يفعلون.

أعددت رابطًا للفيديو، وتهافت الناس على تنزيله. كان ذلك الشاب قد وضع الفيديو على مرآة أرشيف الإنترنت بمكتبة الإسكندرية في مصر، حيث يعرضون أي شيء مجانًا طالما أنك تستخدمه وفق ترخيص المشاع الإبداعي الذي يسمح لأي أحد بإعادة استخدامه ومشاركته. والأرشيف الأمريكي — الذي كان في حي بريسيديو الذي لا يبعد عنا سوى بضع دقائق — أُجبِر على التوقف عن عرض كل مقاطع الفيديو هذه بحجة الأمن الوطني. أما أرشيف الإسكندرية، فقد استقل في إدارته، وكان يعرض أي شيء يحرج الولايات المتحدة.

أرسل إليَّ ذلك الشاب — واسمه كاميراسباي — مقطع فيديو أفضل من ذلك هذه المرة، وهو مقطع يسجل حدثًا وقع عند مدخل مبنى مجلس المدينة في مركز المدينة، وهو مبنى أبيض ضخم تغطيه التماثيل في المداخل الصغيرة والزخارف والأوراق ذهبية اللون. أمَّنت وزارة الأمن الوطني محيط المبنى، وعرض الفيديو لقطة رائعة لنقطة التفتيش حيث اقترب شخص يرتدي زي ضابط، وأوضح بطاقة هويته، ووضع حقيبته على سير الأشعة السينية.

كان كل شيء يسير على ما يرام إلى أن رأى أحد رجال وزارة الأمن الوطني شيئًا ما لم يرق له في الأشعة السينية، فسأل عنه الجنرال الذي أدار عينيه مستهزئًا، ونطق بشيء غير

مسموع (فقد التُقِط الفيديو من الجهة الأخرى للطريق، على ما يبدو، باستخدام عدسة تقريب مخبأة مصنوعة في المنزل؛ ومن ثم كانت أغلب الأصوات في الفيديو لأناس يمرون في الشارع وضوضاء السيارات).

دار جدال بين الجنرال ورجال وزارة الأمن الوطني، وكلما طال جدالهم، ازداد عدد رجال الأمن الوطني الذين تجمعوا حولهم. وأخيرًا، هزَّ الجنرال رأسه في غضب، ولوح بإصبعه نحو صدر ضابط الأمن الوطني، ورفع حقيبته، وبدأ يسير مبتعدًا. صاح فيه ضباط الأمن الوطني، لكنه لم يبطئ خطاه، ولغة جسده تصرِّح بأنه غاضب للغاية.

ثم حدث ما حدث! ركض الضباط خلف الجنرال. أبطأ كاميراسباي الفيديو عند ذلك المشهد حتى نتمكن من المشاهدة بالإيقاع البطيء منظرًا تلو الآخر. استدار الجنرال بعض الشيء، وارتسمت على وجهه نظرة مفادها: «لن أسمح لكم بأي حال أن تقبضوا عليَّ»، ثم تحولت إلى نظرة فزع بتوجيه ثلاثة ضباط أمن وطني ضخام البنية الضرب إليه ليسقط على الرصيف، ثم الإمساك به من المنتصف، كالإمساك بالخصم في مباراة كرة قدم لتنهي حياته المهنية. سقط الجنرال — كان أشيب في منتصف العمر، يعلو وجهه الجلال والتجاعيد — بعنف على الأرض، وارتد مرتين. اصطدم وجهه بالرصيف، ونفر الدم من أنفه.

قيَّد ضباط الأمن الوطني قدمي الجنرال، مع ربط كاحليه ومعصميه. أخذ الجنرال يصيح بقوة، ووجهه تحول للَّون الأرجواني والدم يتدفق من أنفه. أوضحت اللقطات المقربة مرور الأقدام بجواره. نظر المارة للرجل في زيه العسكري وقد قُيِّد، وكان بإمكانك أن ترى من النظرة التي ارتسمت على وجهه أن ذلك كان أسوأ ما في الأمر؛ الإذلال وسلب الكرامة. وكانت هذه نهاية المقطع.

قلت وعيناي لا تزالان معلقتين بالشاشة بعد أن انتهى الفيديو، ويدي تعيد تشغيله: «يا إلهي!» وكزت آنج، وعرضت عليها المقطع. شاهدته دون أن تنطق بكلمة، وفغرت فاها.

قالت: «لتنشر ذلك! لتنشره! لتنشره!»

نشرته. استطعت بالكاد كتابة تعليق على الفيديو وأنا أنشره، وأضفت ملاحظة أسأل فيها ما إذا كان أحد يمكنه التعرف على الرجل العسكري الموجود في الفيديو، وإن كان أحد يعلم أي شيء بخصوص هذه الحادثة.

ضغطت بعد ذلك على زر «نشر».

شاهدنا الفيديو ثانيةً.

وصلتني حينذاك رسالة بريد إلكتروني.

> «أعرف ذلك الرجل جيدًا ... يمكنك أن تجد سيرته الذاتية على موسوعة ويكيبيديا. إنه الجنرال كلود جايست، قائد البعثة المشتركة لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في هايتي.»

تحققت من السيرة الذاتية. تضمنت صورة للجنرال في مؤتمر صحفي، وملاحظات حول دوره في بعثة هايتي العسيرة، وكان من الواضح أنه نفس الشخص الموجود في مقطع الفيديو.

حدَّثت ما نشرته.

من الناحية النظرية، كانت تلك فرصتي أنا وآنج للمغازلة، لكن ذلك لم يكن ما انتهى بنا الحال لفعله. أخذنا نتنقل بين مدونات شبكة «إكس نت»، باحثين عن المزيد من الروايات عن ضباط الأمن الوطني وهم يفتشون الناس، ويلقون القبض، ويعتدون عليهم. اعتدت تلك المهمة؛ إذ فعلت ذلك مع جميع المواد المصورة والروايات المتعلقة بالشغب في المتنزه، وبدأت فئة جديدة بمدونتي حول ذلك بعنوان «انتهاكات السلطة»، واحتفظت بهذه الأمور فيها. ظلت آنج تقترح عليَّ مصطلحات بحث جديدة، وبحلول موعد عودة والدتها للمنزل، تضمنت الفئة الجديدة بالمدونة سبعين تدوينة، وحملت عنوان «إذلال الجنرال جايست في مجلس المدينة».

عملت على بحثي عن «جيل البِيت» طوال اليوم التالي في المنزل، فأخذت أقرأ رواية كيرواك وأتصفح «إكس نت». كنت أخطط للقاء آنج في المدرسة، لكنني تراجعت عندما فكرت أنني سأرى فان ثانيةً؛ فأرسلت إلى آنج رسالة أعتذر فيها عن عدم اللقاء بحجة العمل على البحث.

وردت إليَّ اقتراحات رائعة عن «انتهاكات السلطة» بكافة صورها؛ المئات من المواد البسيطة والمهمة، صور ومقاطع صوتية. كانت الفكرة تنتشر.

وانتشرت بالفعل. في صباح اليوم التالي، كان هناك المزيد. أنشأ شخص ما مدونة جديدة باسم «انتهاكات السلطة» ضمت المئات من المواد الأخرى. وأخذت الأعداد تتزايد. تنافسنا في العثور على أكثر القصص ثراءً، والصور جنونًا.

كان اتفاقي مع والديَّ أن أتناول معهما الفطور صباح كل يوم، وأتحدث معهما عن المشروعات التي كنت أعمل عليها. أحبا قراءتي لكيرواك. كان كتابًا مفضلًا لدى كليهما، واكتشفت أن خزانة الكتب في غرفتهما احتوت على نسخة منه. جلبها لي أبي، وقلبت في صفحاتها. كانت هناك فقرات محددة بقلم جاف، وصفحات مطوية، وملاحظات في الهوامش. لقد أحب أبي ذلك الكتاب حقًّا.

ذكرني ذلك بوقت كان الحال فيه أفضل من تلك الأيام، وذلك عندما كان بإمكاني التحدث مع والدي لخمس دقائق دون أن يصيح كلٌّ منا في وجه الآخر حول الإرهاب. تبادلنا أطراف حديث رائع على الفطور حول حبكة الرواية، وكافة المغامرات المجنونة بها.

لكن صبيحة اليوم التالي على الفطور، التصق كلاهما بالراديو.

««انتهاكات السلطة» ... آخر صور الجنون على شبكة «إكس نت» سيئة السمعة بسان فرانسيسكو، والتي أسرت انتباه العالم. تتألف حركة «انتهاكات السلطة» من «إخوة صغار» يراقبون إجراءات وزارة الأمن الوطني لمكافحة الإرهاب، موثقين تجاوزاتها وإخفاقاتها. ما أثار الأمر مقطع فيديو منتشر للجنرال كلود جايست، وهو جنرال متقاعد حاصل على ثلاث نجوم، وضباط الأمن الوطني يضربونه على الرصيف أمام مجلس المدينة. لم يدلِ جايست بأي تصريح عن الحادث، لكن التعليقات من الشباب الغاضبين بسبب ما يلقونه من معاملة جاءت سريعة وغاضبة.

أكثر ما يثير الانتباه هو الاهتمام العالمي الذي أثارته هذه الحركة، فاحتلت الصور المأخوذة من فيديو جايست الصفحات الأولى بالصحف في كوريا، وبريطانيا العظمى، وألمانيا، ومصر، واليابان، وأذاعت المحطات التليفزيونية بجميع أنحاء العالم مقطع الفيديو في النشرات الإخبارية الرئيسية، ووصل الأمر إلى ذروته الليلة الماضية عندما قدم برنامج «ناشونال نيوز إيفنينج» بهيئة الإذاعة البريطانية تقريرًا خاصًّا عن عدم تغطية أية وكالة أخبار أو محطة تليفزيونية أمريكية للخبر. وأشار المعلقون على موقع بي بي سي الإلكتروني إلى أن نسخة البرنامج في قناة بي بي سي أمريكا لم تنقل التقرير.»

أذاعوا بعد ذلك بعض اللقاءات مع عدة شخصيات: مراقبين لأداء الإعلام البريطاني، وشاب من حزب القراصنة السويدي يبدي ملاحظات ساخرة حول الصحافة الأمريكية الفاسدة، ومذيع أخبار أمريكي متقاعد يعيش في طوكيو. وأذاعوا بعد ذلك مقطعًا قصيرًا من قناة الجزيرة مع مقارنة بين رواية الصحافة الأمريكية ورواية وسائل الإعلام الإخبارية القومية في سوريا.

شعرت بأن أبي وأمي يحدقان فيَّ، وأنهما يعلمان ما كنت أفعله. لكنني عندما حملت أطباقي من على المائدة، رأيت أنهما كانا ينظر كلٌّ منهما للآخر.

كان أبي يمسك فنجان القهوة بصعوبة؛ نظرًا لاهتزاز يديه، وأمي تنظر إليه.

قال أبي أخيرًا: «إنهم يحاولون تشويه سمعتنا، يحاولون تخريب الجهود التي تهدف لحمايتنا.»

فتحت فمي، لكن أمي نظرت إلي، وهزَّت رأسها، فصعدت إلى غرفتي، وعملت على بحث كيرواك. وما إن سمعت صوت إغلاق الباب مرتين حتى بدأت تشغيل جهاز «إكس بوكس»، ودخلت على شبكة «إكس نت».

«مرحبًا مايكي! أنا كولين براون. أعمل منتجًا بالبرنامج الإخباري «ذا ناشونال» بهيئة الإذاعة الكندية. نعد تقريرًا عن شبكة إكس نت، وقد بعثنا مراسلًا إلى سان فرانسيسكو لتغطية الخبر من هناك. هل تهتم بإجراء لقاء معنا للمناقشة حول جماعتك وأنشطتها؟»

حدقت في الشاشة. يا إلهي! إجراء لقاء معي بشأن «جماعتي»؟!

«لا، شكرًا؛ فالأولوية لدي للسرية، وهذه ليست «جماعتي». لكن شكرًا لإعدادكم هذا التقرير!»

بعد دقيقة واحدة، رسالة أخرى.

«يمكن أن نضع قناعًا على وجهك، ونضمن ألا يعلم أحد بهويتك. تعلم أن وزارة الأمن الوطني سيسعدها أن يظهر معنا المتحدث باسمها، وأنا أهتم بأن أوضح الموضوع من جانبك.»

حفظت الرسالة. كان محقًّا، لكن فعل ذلك كان ضربًا من الجنون؛ فأنا على يقين أنه أحد رجال الأمن الوطني.

جمعت المزيد من المعلومات عن كيرواك. وصلت رسالة أخرى تحمل الطلب نفسه من وكالات إخبارية مختلفة: «كيه كيو إي دي» أرادت الالتقاء بي وتسجيل لقاء إذاعي معي، ومحطة في البرازيل، وهيئة الإذاعة الأسترالية، وإذاعة صوت ألمانيا. تتابعت الطلبات الصحفية، ورفضي لها بأدب طوال اليوم.

لم أقرأ الكثير في رواية كيرواك في ذلك اليوم.

قالت آنج: «فلتعقد مؤتمرًا صحفيًّا»، عند جلوسنا في المقهى المجاور لمنزلها مساء ذلك اليوم، فلم تعد لدي رغبة في الذهاب إليها في المدرسة بعد ذلك، والصعود على متن الحافلة نفسها مع فان مرة أخرى.

«ماذا؟ هل فقدتِ صوابك؟»

«فلتفعل ذلك في لعبة «كلوك وورك بلاندر». اختر فقط مركزًا تجاريًا لا يُسمَح فيه بالمنافسات بين اللاعبين، وحدد موعدًا. يمكنك تسجيل الدخول من هنا.»

بعض أجزاء لعبة «كلوك وورك بلاندر» كانت أرضًا محايدة؛ ما يعني أنه كان بإمكاننا من الناحية النظرية إحضار عدد هائل من الصحفيين غير المتمرسين دون القلق من أن يقتلهم ممارسو اللعبة في منتصف المؤتمر الصحفي.

«ليست لدي أية فكرة عن المؤتمرات الصحفية.»

«لتبحث عنها على جوجل فقط. من المؤكد أن ثمة شخصًا قد كتب مقالًا عن كيفية إقامة مؤتمر صحفي ناجح. إذا تمكن الرئيس من فعل ذلك، فأنا موقنة أنه بوسعك فعله، فيبدو أنه يتمكن بالكاد من عقد رباط حذائه دون مساعدة.»

طلبنا مزيدًا من القهوة.

قلت: «أنت فتاة ذكية للغاية.»

فقالت: «وجميلة.»

«وذلك أيضًا.»

الفصل الخامس عشر

أهدي هذا الفصل إلى سلسلة متاجر الكتب الكندية الوطنية العملاقة تشابترز/إينديجو. لقد كنت أعمل في باكا — متجر كتب الخيال العلمي المستقل — عندما فتحت سلسلة تشابترز أول متجر لها في تورونتو، وعلمت أن شيئًا عظيمًا كان يحدث في هذا الوقت؛ لأن اثنين من أفضل عملائنا وأكثرهم اطلاعًا مرًّا عليَّ في باكا لإخباري بأنه قد تم تعيينهما لإدارة قسم الخيال العلمي هناك. ومن البداية، رفعت تشابترز المعيار لما يجب أن يكون عليه متجر كتب ضخم، بمدِّ ساعات العمل فيه، وإضافة مقهى لطيف بالمكان، والعديد من المقاعد، وتخصيص أماكن للخدمة الذاتية داخل المتجر، وضم مجموعة متنوعة مذهلة من الكتب.

* * *

أعلنت عن المؤتمر الصحفي بالمدونة، حتى قبل أن أرسل الدعوات للصحافة. كان بوسعي أن أرى أن جميع هؤلاء الصحفيين يريدون أن يجعلوا مني قائدًا أو جنرالًا أو زعيمًا لحرب عصابات، وتوصلت إلى أن أحد سبل إصلاح ذلك هو أن يكون معي مجموعة من مستخدمي شبكة «إكس نت» للإجابة عن الأسئلة أيضًا.

بعثت بعد ذلك برسائل بريد إلكتروني إلى الصحافة، وتنوعت الردود ما بين حيرة وتحمس. مراسلة واحدة فقط من قناة «فوكس» استشاطت غضبًا لوقاحتي في أن أطلب منها أن تلعب لعبة لأظهر في برنامجها التليفزيوني، أما الباقون، فبدوا سعداء بالفكرة، وإن أراد العديد منهم الكثير من الدعم الفني لتسجيل الدخول في اللعبة.

حددت الموعد الساعة الثامنة مساءً، بعد العشاء. ظلت أمي تؤنبني على الأمسيات التي كنت أقضيها خارج المنزل إلى أن صارحتها أخيرًا بعلاقتي بآنج؛ الأمر الذي جعلها

تبدو غريبة الأطوار، وظلت تنظر لي نظرة الأم السعيدة بابنها الذي يكبر أمام عينيها. أرادت لقاء آنج، واستغللْتُ الأمر بأن قطعت وعدًا لأمي بأن أُحضِر آنج الليلة التالية إذا تمكنت من الذهاب للسينما معها تلك الليلة.

كانت والدة آنج وشقيقتها بالخارج ثانيةً (ما كانتا تبقيان في المنزل كثيرًا في الواقع)، وبذلك كنت أنا وآنج وحدنا في غرفتها مع جهاز إكس بوكس الخاص بكلٍّ منا. فصلت إحدى الشاشتين الموجودتين بجوار السرير، وأوصلتها بجهاز إكس بوكس الخاص بي، لنتمكن من تسجيل الدخول معًا في آن واحد.

كان الجهازان متوقفين عن العمل، ومسجلًا فيهما الدخول على لعبة «كلوك وورك بلاندر». لقد كنت أُسرِع.

قالت آنج: «ستسير الأمور على ما يرام.» حدقت في شاشتها، وواصلت الحديث قائلةً: «يتضمن سوق «باتش آي بيت» ٦٠٠ لاعب الآن!» لقد اخترنا ذلك السوق لأنه الأقرب لميدان القرية؛ حيث يظهر اللاعبون الجدد. إذا لم يكن الصحفيون لاعبين بالفعل في لعبة «كلوك وورك بلاندر»، فذلك هو المكان الذي سيظهرون فيه. في التدوينة بمدونتي، طلبت من الناس بوجه عام الانتظار في الطريق بين «باتش آي بيت» وبوابة دخول اللاعبين الجدد، وتوجيه أي شخص يبدو كصحفي يجهل المكان إلى السوق.

«يا إلهي! ماذا سأقول لهم؟»

«لتجب عن أسئلتهم فحسب. وإذا لم يعجبك أي سؤال، فلتتجاهله. يمكن لأحد آخر الإجابة عنه. ستسير الأمور على ما يرام.»

«هذا جنون.»

«هذا رائع يا ماركوس. إذا أردت الانتقام من وزارة الأمن الوطني حقًّا، فعليك إحراجها. وليس معنى ذلك أن تتفوق على رجالها في إطلاق النار، وإنما سلاحك الوحيد هو القدرة على جعلهم يبدون كالحمقى.»

استلقيت على السرير، وضعت آنج رأسي في حجرها، وأخذت تمرر يدها برفق على شعري. غيَّرت قصة شعري عدة مرات قبل التفجيرات، وصبغته بكافة الألوان الغريبة. لكن منذ أن خرجت من السجن، لم أعد أهتم؛ فصار طويلًا وأشعث، فدخلت إلى الحمام، وقصصته بماكينة قص الشعر ليصل طوله إلى نصف بوصة من كافة الأنحاء، وهكذا لم يعد يتطلب مجهودًا في العناية به، وجعلني غير ملحوظ عندما كنت أعمل على التشويش ونسخ شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية.

فتحت عينيَّ، وحدقت في عينيها البُنِّيتين الكبيرتين من خلف نظارتها. كانتا مستديرتين، صافيتين، معبرتين. كانت تبرزهما للخارج عندما تريد إضحاكي، أو تجعلهما رائقتين وحزينتين، أو ناعستين على نحو يجعلني أذوب فيهما.

وكان ذلك ما تفعله في تلك اللحظة.

استقمت في جلستي بهدوء، وعانقتها. بادلتني العناق، وقبَّل كلٌّ منا الآخر. كانت مذهلة في التقبيل. أعلم أنه سبق أن قلت ذلك، لكنها معلومة تستحق التكرار. تبادلنا القبل كثيرًا، لكن لسبب ما كنا نتوقف دائمًا قبل أن نتمادى لما هو أكثر من ذلك.

أما الآن، فقد أردت التمادي لما هو أكثر. عثرت يدي على حافة التي شيرت الذي كانت ترتديه، فرفعته. وضعت يديها على رأسها، وانحنت للوراء قليلًا. كنت أعلم أنها ستفعل ذلك، كنت أعلم منذ ليلة المتنزه. لعل ذلك هو السبب وراء عدم تمادينا لما هو أكثر في المرات السابقة؛ كنت أعلم أنني لا أستطيع الثقة في أنها ستتراجع، الأمر الذي أخافني قليلًا.

لكنني لم أكن خائفًا في تلك اللحظات. المؤتمر الصحفي الذي أوشك على الانعقاد، الشجارات مع والديَّ، الاهتمام العالمي، الشعور بتحركات نشطة حول المدينة، كل ذلك جعلني أشعر بالإثارة الشديدة.

هذا فضلًا عن أنها جميلة، وذكية، وماهرة، وخفيفة الظل، وبدأت أحبها.

انسل التي شيرت الذي كانت ترتديه، وقد ساعدتني حتى أخلعه عنها. وضعت يديها خلف ظهرها وقامت بشيء، وكانت النتيجة أنني قد وجدت حمالة الصدر وهي تسقط. حملقت مشدوهًا ولم أستطع الحركة أو التنفس، ثم قامت هي بشد التي شيرت الخاص بي ونزعته عني، ثم جذبتني ووضعت صدري العاري في مقابل صدرها.

تدحرجنا ببطء على السرير، والتصق كلٌّ منا بالآخر، واعتصر كل منا جسد الآخر وتأوَّهنا. قبَّلَتْ كل مكان في صدري وكذلك فعلتُ أنا. لم أستطع التنفس، لم أستطع التفكير، كل ما استطعت فعله فقط هو التحرك والتقبيل واللمس.

زادت جرأتنا وتجاوزنا هذا. قمت بخلع بنطالها عنها تدريجيًّا، وفعلت هي كذلك بي. وفي لحظة، كنا نحن الاثنان مجردَين من الملابس، فيما عدا جوربي الذي قمت بخلعه بأصابع قدميَّ.

حينذاك، وقعت عيناي على الساعة التي توضع بجانب السرير والتي تدحرجت منذ وقت طويل على الأرض وظلت هناك تعكس نورها علينا.

صِحت: «اللعنة! سيبدأ بعد دقيقتين!» لم أكد أصدق أنني سأتوقف عما أوشكت فعله، أعني أنه لو أن أحدًا سألني: «يا ماركوس، أنت على وشك ممارسة الجنس لأول

مرة في حياتك على الإطلاق، هل ستتوقف عن فعل ذلك إذا فجَّرت هذه القنبلة النووية في الغرفة التي ستفعله فيها؟» فستكون إجابتي «لا» بيِّنة لا لبس فيها.

لكن الحقيقة هي أننا توقفنا بالفعل من أجل هذا.

أمسكت آنج بي، وجذبت وجهي نحو وجهها، وأخذت تقبلني إلى أن ظننت أنني سأفقد وعيي. أمسكنا بعد ذلك بملابسنا، وارتديناها، ثم أمسكنا بلوحتي المفاتيح والفأرتين وتوجهنا إلى سوق «باتش آي بيت».

كان بإمكانك تحديد الصحفيين بسهولة؛ فهم غير المتمرسين الذين بدوا كسكارى مترنحين، يتمايلون للأمام والخلف، ولأعلى وأسفل، محاولين استيعاب كل شيء، ويضغطون أحيانًا على مفتاح خاطئ، ويقدمون للغرباء جزءًا من مخزون سلعهم أو كله، أو يعانقونهم أو يركلونهم بين الحين والآخر.

كان من اليسير تحديد مستخدمي شبكة إكس نت أيضًا؛ فكنا جميعًا نلعب لعبة «كلوك وورك بلاندر» متى كان لدينا وقت فراغ (أو لم تكن لدينا رغبة في تنفيذ الواجبات المنزلية)، ولنا هيئة مزينة؛ إذ نحمل أسلحة أنيقة وأشراكًا على المفاتيح تبرز من ظهورنا لتمسك بأي شخص يحاول خطفها لإنفاد طاقتنا.

عندما ظهرت، عرضت رسالة النظام العبارة التالية: «دخل مايكي سوق «باتش آي بيت»: مرحبًا أيها الملاح، نحن نقدم صفقة عادلة مقابل الغنيمة الجيدة.» توقف جميع اللاعبين على الشاشة عن الحركة، ثم تجمعوا حولي، وانهالت المحادثات. فكرت في تشغيل الترحيل الصوتي، واستخدام سماعة رأس، لكنني عندما رأيت عدد الناس الذين كانوا يحاولون التحدث في آن واحد، أدركت كم سيكون الأمر مربكًا. كانت الرسائل النصية أيسر في تتبعها، ولا يمكنهم الاقتباس منها على نحو خاطئ.

استكشفت الموقع من قبل مع آنج، كان اللعب معها أمرًا عظيمًا؛ إذ كان بوسع كلٍّ منا تجديد نشاط الآخر. كان هناك موقع مرتفع على مجموعة من صناديق مؤن الملح يمكنني الوقوف عليها، ويراني الجميع من كل مكان في السوق.

> مساء الخير، وشكرًا لكم جميعًا على الحضور. اسمي مايكي، ولست زعيمًا لأي شيء. حولكم في كل مكان مستخدمو شبكة إكس نت الذين لديهم ما يقولونه عن سبب وجودنا هنا مثلي تمامًا. إنني أستخدم شبكة إكس نت لأنني أُومن بالحرية ودستور الولايات المتحدة الأمريكية. إنني أستخدم شبكة إكس نت لأن

وزارة الأمن الوطني قد حولت مدينتي إلى دولة شرطية جميعنا فيها إرهابيون مشتبه فيهم. إنني أستخدم شبكة إكس نت لأنني أرى أنه لا يمكن حماية الحرية بالاعتداء على ميثاق الحقوق. لقد عرفت معلومات عن الدستور في مدرسة بكاليفورنيا، ونشأت على حب بلادي لحريتها. وإن كانت لدي فلسفة، فهي ما يلي:

«تنشأ الحكومات بين الناس، مستمدةً سلطاتها العادلة من موافقة المحكومين. وإنه عندما يصبح أي شكل من أشكال الحكم في أي وقت من الأوقات هادمًا ومدمرًا لهذه الغايات، يصبح من حق الشعب أن يغيِّره أو يطيح به ويشكِّل حكومة جديدة مقيمًا أساسها على المبادئ، ومنظِّمًا سلطاتها وفق الكيفية التي تبدو له أفضل ملاءمة لتحقيق سلامته ورفاهيته.»

«ليس ذلك من تأليفي، لكنني أُومن به. وزارة الأمن الوطني تحكمني دون موافقتي.»

«شكرًا لكم.»

كنت قد كتبت هذه الكلمات في اليوم السابق، ووصلت إلى صيغتها النهائية بعد عدد من المسودات بالتشاور مع آنج. إن وضعها على اللعبة لم يستغرق سوى ثانية واحدة، وبضع ثوانٍ لكل من في اللعبة لقراءتها. هتف الكثير من مستخدمي إكس نت مهللين، وارتفعت السيوف وصدحت الببغاوات وطارت فوق الرءوس.

تدريجيًّا، اطلع الصحفيون على هذه الكلمات أيضًا، وانهالت المحادثات سريعًا لدرجة تكاد تحول دون قراءتها، والعديد من مستخدمي شبكة إكس نت يرددون عبارات من قبيل «بالضبط!» و«أمريكا، فلتحبها أو تتركها!» و«رجال الأمن الوطني، فلترحلوا!» و«أمريكا تخرج من سان فرانسيسكو»، كل الشعارات التي تناقلتها مدونات إكس نت.

«مايكي، معك بريا راجنيش من بي بي سي. تقول إنك لست زعيمًا لأية حركة، لكنك تؤمن بأن هناك حركة بالفعل؟ هل تُسمَّى إكس نت؟»

هناك العديد من الإجابات؛ فبعض الناس يقولون إنه لم تكن هناك حركة، والبعض يقول العكس، وتتعدد الأفكار بشأن اسم هذه الحركة: إكس نت، الإخوة الصغار، الأخوات الصغيرات، واسمي المفضل «الولايات المتحدة الأمريكية».

أخذت الأفكار تدور في رأسي، أطلقت العنان لها، محاولاً الوصول إلى ما يمكنني قوله، وما إن توصلت إليه حتى كتبت ما يلي:

«أعتقد أن ذلك يجيب عن سؤالك، أليس كذلك؟ قد تكون هناك حركة واحدة أو أكثر، وقد يكون اسمها «إكس نت» أو لا.»

«مايكي، اسمي داج كريستينسين من «واشنطن إنترنت دايلي». في رأيك ماذا تفعل وزارة الأمن الوطني لمنع وقوع هجوم آخر على سان فرانسيسكو، إذا لم يكن ما تفعله مجديًا؟»

مزيد من الأفكار المتداخلة. قال كثيرون إن الإرهابيين والحكومة واحد؛ سواء بالمعنى الحرفي للكلام أو بمعنى أنهما على الدرجة نفسها من السوء. وقال البعض إن الحكومة عرفت كيف تقبض على الإرهابيين، لكنها فضلت عدم فعل ذلك لأن «رؤساء الحرب» أعيد انتخابهم.

«لا أعلم.»

كتبت أخيرًا:

«لا أعلم حقًّا. أسأل نفسي هذا السؤال كثيرًا لأنني لا أرغب في أن أتعرض للتفجير، أو تتعرض مدينتي لذلك. وإليكم ما توصلت إليه: إذا كانت مهمة وزارة الأمن الوطني هي الحفاظ على أمننا، فهي فاشلة في ذلك؛ فكل الهراء الذي تفعله لن يحول دون تفجير الجسر مرة أخرى: تعقُّبنا بأرجاء المدينة، سلبنا حريتنا، زرع الشك والعداء في نفوسنا بعضنا تجاه البعض، إطلاق صفة الخائنين على المعارضين، الإرهاب يهدف لترهيب الناس، وهذا ما تفعله بي وزارة الأمن الوطني.»

«ليست لدي أية فرصة للتعبير عن رأيي فيما يفعله الإرهابيون بي، لكن إذا كانت هذه دولة حرة، يجب أن أكون قادرًا على الأقل على أن أقول رأيي فيما يفعله رجال الشرطة بي. يجب أن أكون قادرًا على منعهم من إرهابي.»

«أعلم أن هذه ليست إجابة جيدة. آسف!»

«ماذا تعني بقولك إن وزارة الأمن الوطني لن توقف الإرهابيين؟ كيف تعلم بذلك؟»

«من أنت؟»

«أعمل لدى صحيفة «سيدني مورنينج هيرالد».»

«أبلغ من العمر ١٧ عامًا، ولست بالطالب المتفوق على الدوام أو أي شيء من هذا القبيل. رغم ذلك، فقد توصلت إلى عمل شبكة تواصل لا يمكن لأحد التجسس عليها، وتوصلت أيضًا لكيفية التشويش على ما تستخدمه الوزارة من تقنية لتتبع الناس؛ فتمكنت بذلك من تحويل أبرياء إلى مشتبه فيهم، ومذنبين إلى أبرياء في نظر الوزارة، ويمكنني بذلك أيضًا إدخال مواد معدنية على الطائرات أو التحايل على قائمة الممنوعين من السفر. اكتشفت ذلك عن طريق البحث على الإنترنت والتفكير. وإذا كان بإمكاني فعل ذلك، فبإمكان الإرهابيين أيضًا. لقد أخبرونا بأنهم سلبوا حريتنا لتحقيق الأمن لنا، فهل تشعر بالأمان؟»

«في أستراليا؟ بالطبع. نعم، أشعر بالأمان.»

ضحك جميع القراصنة.

طرح مزيد من الصحفيين أسئلة، بعضهم كان متعاطفًا، والبعض الآخر كان عدائيًّا، وعندما شعرت بالتعب، أعطيت لوحة المفاتيح لآنج، وتركتها تلعب دور مايكي لفترة من الوقت. لم أعد أشعر في الحقيقة بأنني ومايكي شخص واحد؛ فمايكي شاب يحادثه الصحفيون الدوليون، ومؤسس حركة. أما ماركوس، فهو طالب مفصول من المدرسة، يتشاجر مع والده، ويتساءل ما إذا كان جديرًا بفتاته الرائعة أم لا.

بحلول الساعة الحادية عشرة مساءً، كنت قد نلت كفايتي من ذلك المؤتمر، هذا فضلًا عن توقع والديَّ عودتي للمنزل قريبًا. سجلت الخروج من اللعبة، وكذلك فعلت آنج، واستلقينا هناك للحظات. أمسكت بيدها، وضغطت عليها بقوة، وتعانقنا.

قبَّلتني، وهمست بشيء ما.

سألتها: «ماذا؟»

فأجابت: «قلت لك إنني أحبك. ماذا؟ أتريد مني أن أرسلها إليك في تلغراف؟»

«يا إلهي!»

«هل فاجأتك إلى هذا الحد؟»

«لا، لكنني فقط ... كنت سأصارحك بذلك أيضًا.»

قالت: «بالتأكيد، كنت ستفعل.» وعضَّت طرف أنفي.

فقلت لها: «كل ما في الأمر أنني لم أقلها لأحد من قبل؛ لذلك كنت أتأهب لها.»

«أنت لم تقلها بعد. لا تظن أنني لم ألاحظ ذلك. نحن الفتيات نركز في هذه الأمور.»

قلت لها: «أحبك يا آنج كارفيلي.»

«وأنا أيضًا أحبك يا ماركوس يالو.»

أخذنا يقبِّل كل منا الآخر حتى كادت تنقطع أنفاسنا. حينذاك، طرقت أمها الباب.

قالت: «آنجيلا، أعتقد أنه قد حان وقت عودة صديقك لمنزله، أليس كذلك؟»

قالت وهي تلوح بيدها كما لو كانت تلوح ببلطة: «نعم يا أمي.» وأثناء ارتدائي للجورب والحذاء، همست قائلةً: «سيقولون كم كانت آنجيلا فتاة مطيعة، من كان يتوقع حدوث ذلك. لطالما قضت أوقاتها في الفناء الخلفي تساعد والدتها في شحذ تلك البلطة.»

ضحكتُ، وقلت لها: «ليست لديكِ فكرة عن مدى الحرية التي تتمتعين بها هنا، فما من سبيل أن يتركنا والداي وحدنا في غرفة نومي حتى الساعة الحادية عشرة.»

فقالت وهي تنظر في ساعتها: «١١:٤٥».

صحت: «اللعنة!» وربطت حذائي.

قالت: «ارحل، اركض، تحرر! انظر يمينًا ويسارًا قبل عبور الطريق! وداعًا، اتصل بي في أقرب وقت، لا تتوقف حتى لعناق! إذا لم تخرج من هنا قبل رقم عشرة، فستقع في مشكلات سيدي. واحد، اثنان، ثلاثة.»

أسكتها بأن زحفت على السرير، وقبَّلتها إلى أن توقفت عن محاولة العدِّ. نزلت على الدَّرج وجهاز إكس بوكس تحت ذراعي، راضيًا بما حققته من نصر.

وقفت والدتها عند نهاية الدرج. لم أقابلها سوى مرات معدودة. كانت صورة من ابنتها آنج، لكن أطول وأكبر سنًّا، وترتدي عدسات لاصقة بدلًا من النظارات. قالت آنج إن والدها كان أقصر منهما. بدت وقد صنفتني على نحو متردد كفتى صالح، وقدَّرت ذلك منها.

قلت: «تصبحين على خير سيدة كارفيلي.»

فأجابت: «تصبح على خير سيد يالو.» اعتدنا تبادل التحية على هذا النحو منذ أن ناديتها بلقب سيدة كارفيلي في لقائنا الأول.

وجدت نفسي أقف قلقًا عند الباب.

سألتني: «ماذا هناك؟»

فأجبتها: «شكرًا لاستضافتي هنا.»

«مرحبًا بك دومًا في منزلنا أيها الشاب.»

وقلت أخيرًا: «وشكرًا على آنج.» كرهت كم بدا ذلك مبتذلًا، لكنها ابتسمت ابتسامة عريضة، وعانقتني.

قالت: «على الرحب والسعة.»

أخذت أفكر وأنا في الحافلة طوال طريقي إلى المنزل في المؤتمر الصحفي، ومغازلتي لآنج، ووالدتها التي تبتسم في وجهي وهي تقودني إلى الباب.

كانت أمي تنتظر قدومي للمنزل. سألتني عن الفيلم، وأجبت عليها بالإجابة التي كنت قد أعددت لها مسبقًا، مقتبسًا من المقال النقدي الذي كُتِب عن الفيلم في صحيفة «باي جارديان».

عندما استغرقت في النوم، عادت الأحلام تراودني عن المؤتمر الصحفي. كنت فخورًا به حقًّا؛ فمن الرائع أن يظهر كل أولئك الصحفيين المهمين في اللعبة، وأن أجعلهم يستمعون إليَّ وإلى كل من آمنوا بما كنت أُومن به. نمت والابتسامة ترتسم على شفتيَّ.

كان ينبغي لي أن أكون أكثر وعيًا.

زعيم شبكة إكس نت: «يمكنني إدخال مواد معدنية على الطائرات.»

«وزارة الأمن الوطني تحكمني دون موافقتي.»

شباب شبكة إكس نت: «الولايات المتحدة تخرج من سان فرانسيسكو.»

كانت هذه هي العناوين «الجيدة». أرسل إليَّ الجميع المقالات الصحفية كي أضعها على المدونة، لكن ذلك كان آخر شيء أرغب في فعله.

لقد أفسدت الأمر، بشكل أو بآخر. لقد حضرت الجهات الصحفية المؤتمر الصحفي، وتوصلت إلى أننا إرهابيون أو أدوات في أيديهم. أسوأ ما حدث كان من مراسلة من فوكس نيوز ظهرت على الشاشة، وخصصت عشر دقائق للتعليق علينا، متحدثةً عن «خيانتنا الجنائية». كانت عبارتها الأهم التي وجدتها تتكرر بجميع الجهات الإخبارية هي:

«يقولون إنه لا اسم لهم، وقد وجدت لهم اسمًا؛ فلنطلق على هؤلاء الشباب المُدلَّل اسم «قاعدة كاليفورنيا»؛ فهم يؤدون عمل الإرهابيين في الجبهة الداخلية. وعندما تتعرض — أقصد عندما تتعرض وليس إذا تعرضت — كاليفورنيا لهجمات مجددًا، فسيُلقَى باللوم على هؤلاء الشباب المزعجين بقدر ما سيُلقَى على آل سعود.»

اتهمنا كذلك قادة حركة مناهضة الحرب بأننا عناصر ذات آراء متطرفة، وظهر شخص على شاشة التليفزيون ليقول إننا مجندون من وزارة الأمن الوطني لتشويه سمعتهم.

عقدت وزارة الأمن الوطني مؤتمرًا صحفيًّا من جانبها لتعلن أنها ستضاعف قواتها الأمنية في سان فرانسيسكو، وأعلنت عن عثورها على ناسخ لشرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية في مكان ما، وتمت تجربته علنًا باستخدامه في تمثيل سرقة سيارة، ونصحت الوزارة الجميع بضرورة الحذر من الشباب الذين يتصرفون تصرفات مشبوهة، خاصةً الذين لا تظهر أيديهم للعيان.

كان ذلك أمرًا جادًّا. أنهيت بحثي عن كيرواك، وبدأت في بحث عن حركة «صيف الحب»، وهو صيف عام ١٩٦٧؛ حيث تجمع الهيبيز وأعضاء الحركة المناهضة للحرب إلى سان فرانسيسكو. إن من أسسوا شركة «بين آند جيريز» — والذين كانوا من الهيبيز أنفسهم — شيدوا متحفًا للهيبيز في شارع هايت، بالإضافة إلى المعارض وسجلات المحفوظات التي يمكن الاطلاع عليها بأنحاء المدينة.

لكن التجول في الأرجاء لم يكن يسيرًا. بحلول نهاية الأسبوع، كنت قد خضعت للتفتيش أربع مرات في المتوسط يوميًّا. تحقق رجال الشرطة من بطاقة هويتي، وطرحوا عليَّ الأسئلة بشأن سبب وجودي في الشارع، مع قراءة متأنية لخطاب مدرسة شافيز الموضَّح فيه أنني موقوف عن الدراسة.

حالفني الحظ، ولم يُلقَ القبض عليَّ، لكن باقي أعضاء شبكة إكس نت لم يكونوا بالقدر نفسه من الحظ. وكل ليلة، كانت وزارة الأمن الوطني تعلن اعتقالها لعدد أكبر من «زعماء الفتنة» و«العملاء السريين» بشبكة إكس نت، أشخاص لم أعرفهم أو أسمع عنهم من قبل امتلأت بهم شاشات التليفزيون ومعهم أجهزة كشف عن شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، وغير ذلك من المعدات التي كانت في جيوبهم. وأعلنوا أن الناس يرشدون عن أسماء بعينها ضمن «شبكة إكس نت»، وأنه من المتوقع القبض على المزيد من الناس قريبًا. واسم «مايكي» كان متداولًا.

أحب أبي ذلك. شاهدنا الأخبار معًا، وهو يحدق بإعجاب، وأنا منكمش من الخوف. قال أبي: «يجدر بك أن ترى ما سيفعلونه مع هؤلاء الشباب. لقد رأيت ذلك بعيني. سيأتون ببعض هؤلاء الشباب، ويتحققون من قوائم أصدقائهم على برنامج المراسلات الفورية وأرقام الاتصال السريع على الهواتف الخاصة بهم، ويبحثون عن الأسماء التي

يتكرر ظهورها، والنماذج المتكررة، ليلقوا القبض على المزيد من الشباب. سوف يفككون تلك الشبكة تمامًا.»

ألغيت موعد العشاء مع آنج في مكاننا المفضل، وصرت أقضي مزيدًا من الوقت لديها في المنزل، وأطلقت عليَّ أختها الصغرى تينا اسم «الضيف»، فتقول على سبيل المثال: «هل سيتناول الضيف العشاء معنا الليلة؟» أحببت تينا. كل ما كانت تهتم به هو الخروج، والذهاب إلى الحفلات، والالتقاء بالشباب، لكنها كانت ظريفة ومخلصة تمامًا لآنج. في إحدى الليالي، وبينما كنا نغسل الأطباق معًا، جفَّفت يديها وقالت لتفتح حوارًا معي: «أتعلم يا ماركوس؟ تبدو شخصًا لطيفًا، وأختي مجنونة بك، وأنا أيضًا أحبك. لكن عليَّ أن أخبرك بشيء: إذا تسببت في كسر قلبها، فسأتتبعك وأمزق أحشاءك، وسيكون ذلك سيئًا جدًّا.»

طمأنتها بأن قلت لها إنني أُفضِّل أن أمزق أحشائي بنفسي بدلًا من أن أكسر قلب آنج. فأومأت برأسها وقالت: «إذن، فنحن متفقان على ذلك.»

قلت لآنج: «إن أختك مجنونة!» أثناء استلقائنا على سريرها ثانيةً، وتفقُّدنا لمدونات شبكة إكس نت. كان ذلك ما نفعله أغلب الوقت: المغازلة وقراءة ما يرد على شبكة إكس نت.

«هل حادثتك عن «تمزيق الأحشاء»؟ أكره فعلها لذلك. إنها تحب التحدث على هذا النحو لا أكثر. لا يتعلق الأمر بك.»

قبَّلتها، وواصلنا القراءة.

قالت: «استمع إلى ذلك. ستعلن الشرطة نهاية هذا الأسبوع عن القبض على أربعمائة إلى ستمائة شخص فيما تعتبره أكبر حملة مُنسَّقة على منشقي شبكة إكس نت حتى الآن.»

شعرت أنني سأتقيأ.

قلت لآنج: «علينا إيقاف ذلك. تعلمين أن هناك أناسًا يجرون مزيدًا من التشويش ليظهروا أنهم ليسوا خائفين. أليس ذلك جنونًا؟»

فقالت: «أعتقد أنها شجاعة. لا يمكننا أن نسمح لهم بإخضاعنا عن طريق إخافتنا.»

«ماذا؟ لا يا آنج، لا. لا يمكننا أن نسمح بدخول المئات من الناس إلى السجن. أنت لم تدخليه، لكنني دخلته. إنه أسوأ مما تظنين. إنه أسوأ مما تتخيلينه.»

«يمكنني التخيل جيدًا.»

«توقفي عن ذلك، حسنًا؟ فلتتحدثي بجدية للحظة. لن أفعل ذلك، لن أرسل الناس للسجن ثانيةً. إذا فعلت ذلك، فأنا الشخص الذي تتحدث عنه فان.»

«أنا أتحدث بجدية يا ماركوس. أتعتقد أن الناس لا يعلمون أنه يمكن أن يدخلوا السجن؟ إنهم يؤمنون بالقضية، وكذلك أنت. فلتجعلهم يعرفون ما هم مقدمون عليه. لست أنت من يقرر ما المخاطر التي يمكنهم خوضها أو لا.»

«إنها مسئوليتي لأنني إذا طلبت منهم أن يتوقفوا، فسيفعلون.»

«ظننت أنك لست القائد.»

«لست القائد، بالطبع لست كذلك. لكن بإمكاني المساعدة إذا لجئوا إليَّ للحصول على إرشاد. وطالما يفعلون ذلك، فأنا مسئول عن مساعدتهم في البقاء آمنين. تفهمين ما أعنيه، أليس كذلك؟»

«كل ما أفهمه هو أنك ستهرب عند ظهور بوادر وقوع أول مشكلة. أعتقد أنك خائف من أن يكتشفوا هويتك. أعتقد أنك خائف على نفسك.»

قلت، وأنا أستقيم في جلستي وأبتعد عنها: «هذا ليس منصفًا.»

«حقًّا؟ مَن كاد يصاب بأزمة قلبية عندما علم أن هويته السرية قد كُشِف عنها؟»

«كان ذلك مختلفًا. لم يكن الأمر يتعلق بي، تعلمين ذلك. لماذا تتصرفين هكذا؟»

«لماذا تتصرف «أنت» هكذا؟ لماذا لا تريد أن تكون الشاب الذي واتته الشجاعة ليبدأ كل ذلك؟»

«هذه ليست شجاعة، وإنما انتحار.»

«ميلودراما مراهقين رخيصة يا مايكي.»

«لا تناديني بهذا الاسم!»

«أي اسم؟ «مايكي»؟ لماذا يا مايكي؟»

ارتديت حذائي، وحملت حقيبتي، وسرت عائدًا إلى المنزل.

«لماذا لا أقوم بالتشويش؟»

«لن أخبر أحدًا بعد ذلك بما عليه فعله؛ لأنني لست قائدًا لأحد، بغض النظر عما تراه فوكس نيوز.»

«لكنني سأخبرَك بما أخطط لفعله. وإذا رأيتَ أن ذلك الصواب، فقد تفعله أنتَ أيضًا.»

«لن أقوم بالتشويش. ليس هذا الأسبوع، وربما ليس الأسبوع التالي أيضًا، وليس لأنني خائف، وإنما لأنني بالذكاء الكافي لأعلم أن وجودي خارج السجن أفيد كثيرًا من دخولي إياه. لقد علموا كيف يوقفون خطتنا؛ ولذا علينا أن نتوصل

إلى خطة جديدة. لا أهتم ما الخطة، لكنني أريدها أن تنجح. من الغباء التعرض للاعتقال؛ فالأمر لا يتعدى التشويش إذا أفلتَّ من العقاب.»

«ثمة سبب آخر لعدم ممارسة التشويش؛ إذا قُبِض عليكَ، فقد يستخدمونكَ للقبض على أصدقائكَ، وأصدقائهم، وأصدقاء أصدقائهم. وقد يلقون القبض على أصدقائكَ حتى وإن لم يكونوا من مستخدمي شبكة إكس نت؛ وذلك لأن وزارة الأمن الوطني تشبه الثور الهائج، ولا يعنيهم إن كان من قبضوا عليه هو الشخص المطلوب أم لا.»

«لا أملي عليكَ ما تفعله.»

«لكن رجال وزارة الأمن الوطني أغبياء، ونحن أذكياء. التشويش يثبت أنه ليس بوسعهم مكافحة الإرهاب؛ لأنه يؤكد أنهم لا يمكنهم إيقاف مجرد مجموعة من الشباب. فإذا أُلقي القبض عليكَ، فسيجعلهم ذلك يَبدون وكأنهم أذكى منا.»

«ليسوا أذكى منَّا! العكس هو الصحيح. لنكن أكثر ذكاءً. لنصل إلى طريقة للتشويش عليهم، بغض النظر عن عدد الحمقى الذين ينشرونهم في مدينتنا.»

أرسلت ذلك، وذهبت للنوم.

افتقدت آنج.

لم أتحدث أنا وآنج على مدى الأيام الأربعة التالية، والتي تضمنت عطلة نهاية الأسبوع، وعدت بعد ذلك إلى المدرسة. اتصلت بها كثيرًا، وكتبت لها الآلاف من رسائل البريد الإلكتروني والرسائل الفورية التي لم أبعث بها.

عدت إلى حصة الدراسات الاجتماعية، رحبت بي السيدة آندرسن بانحناءة ساخرة، وسألتني برقة كيف كانت «الإجازة» خاصتي. جلست، ولم أنطق بشيء. كان بإمكاني سماع صوت تشارلز وهو يضحك ضحكة خافتة.

كان الدرس عن «القدر المحتوم» المتمثل في فكرة أن الأمريكيين مُقدَّر لهم الهيمنة على العالم بأكمله (أو على الأقل هذا ما جعلت آندرسن الأمر يبدو عليه). وكان من الواضح أنها تحاول إثارتي كي أقول شيئًا ما لتتمكن من طردي.

شعرت بأن العيون جميعها في الفصل موجهة إليَّ، وذكرني ذلك بمايكي ومن ينظرون إليه نظرة تبجيل. سئمت من العيون المعلقة عليَّ، وشعرت بأنني أفتقد آنج.

قضيت ما تبقى من اليوم دون أن يخلف أي شيء أي تأثير عليَّ، ولا أظن أنني قد نطقت بثماني كلمات كاملة.

وأخيرًا، انتهى اليوم، وركلت الأبواب متوجهًا نحو البوابات، وحي ميشن السخيف ومنزلي الفاتر.

لم أكد أخرج من البوابة حتى اصطدم بي شخص ما. كان شابًّا متشردًا ربما يماثلني في العمر أو يكبرني قليلًا، وكان يرتدي معطفًا طويلًا ملوثًا بالشحم، وبنطال جينز فضفاضًا، وحذاءً رياضيًّا متآكلًا كما لو كان قد دخل جهازًا لتقطيع الخشب. انسدل شعره الطويل على وجهه، وغطت لحية شعثة عنقه في غير انتظام وصولًا إلى ياقة السترة المحبوكة عديمة اللون.

لمحت كل هذه التفاصيل أثناء استلقائي بجواره على الرصيف، والناس يمرون بجانبنا ويرمقوننا بنظرات غريبة. يبدو أنه قد اصطدم بي أثناء ركضه بشارع فالينسيا، وانحنى مع حمل حقيبة الظهر التي خرجت محتوياتها بجواره على الرصيف، وقد غطته أقلام التحديد في رسوم هندسية عابثة.

نهض ليجلس على ركبتيه، وأخذ يتأرجح للأمام والخلف، كما لو كان تحت تأثير الخمر أو اصطدمت رأسه.

قال: «آسف، لم أرك، هل أصبت بسوء؟»

نهضت أنا أيضًا، لم أشعر بأنني أصبت بسوء.

«كلا، لم يحدث شيء.»

وقف وابتسم. كانت أسنانه مستقيمة وناصعة البياض كما لو كانت في إعلان عن عيادة لتقويم الأسنان. مدَّ يده نحوي، واتسمت قبضته بالقوة.

«أنا عن جد آسف.» كان صوته أيضًا واضحًا ودالًّا على الذكاء. توقعت أن يكون صوته كالسكارى الذين يتحدثون مع أنفسهم أثناء تجولهم في حي ميشن في وقت متأخر من الليل، لكن صوته بدا كموظف مطلع في متجر للكتب.

قلت له: «لا بأس.»

مدَّ يده مرة أخرى.

قال: «زيب.»

فقلت: «ماركوس.»

«تشرفت بلقائك يا ماركوس. أتمنى أن ألقاك مصادفةً ثانيةً!»

حمل حقيبة ظهره ضاحكًا، واستدار ومضى سريعًا.

سرت ما تبقى من الطريق إلى المنزل في حالة من الارتباك. كانت والدتي تجلس على طاولة المطبخ. تبادلنا أطراف الحديث عن أشياء غير مهمة، وما كانت عليه أحوالنا قبل أن يتغير كل شيء.

صعدت إلى غرفتي، ارتميت بتثاقل على الكرسي. وهذه المرة، لم أرغب في تسجيل الدخول على شبكة إكس نت. كنت قد دخلت عليها صباح ذلك اليوم قبل الذهاب إلى المدرسة، واكتشفت أن ملاحظتي قد أثارت جدلًا واسع النطاق بين مَن اتفقوا معي ومن انزعجوا — ومعهم العذر في ذلك — من أنني أطلب منهم التخلي عن نشاطهم المفضل.

كنت في خضم العمل على مشروعات عديدة عندما بدأ كل ذلك؛ فقد كنت أصمم كاميرا ذات ثقب من مكعبات الليجو، وأمارس التصوير الفوتوغرافي بالطائرات الورقية باستخدام كاميرا رقمية قديمة ذات زر يبرز من موضع غريب يمتد للخارج عند الإطلاق، ويرجع للخلف ببطء إلى شكله الأصلي ليحرك مصراع الكاميرا على فترات زمنية منتظمة. كان لديَّ مكبر معتمد على صمامات مُفرَّغة وضعته داخل علبة زيت زيتون صدئة متبعجة قديمة للغاية، والذي بدا ككشف أثَري. وما إن انتهيت منه حتى خطَّطت لتصميم قاعدة شحن لهاتفي، ومجموعة من مكبرات الصوت من علب التونة.

تفقدت طاولة العمل الخاصة بي، وأمسكت أخيرًا بالكاميرا ذات الثقب. من الناحية المنهجية، تمتعت بالسرعة المناسبة لتركيب مكعبات الليجو.

خلعت ساعة يدي، والخاتم الفضي السميك الذي يوضع في إصبعين، وكان على شكل قرد ومقاتل نينجا متأهبَين للقتال. ألقيت بالساعة والخاتم في الصندوق الصغير الذي احتفظت فيه بكل الأشياء التي كنت أحملها في جيوبي وحول عنقي قبل الخروج لقضاء يومي: الهاتف، والمحفظة، والمفاتيح وجهاز البحث عن إشارات الواي فاي، والنقود الفكة، والبطاريات، والكابلات القابلة للسحب … إلخ. أفرغت كل ذلك في الصندوق، ووجدتني أمسك بشيء آخر لا أذكر وضعي له في جيبي.

كان قطعة ورق رمادية ناعمة الملمس مثل النسيج الصوفي الناعم، وخشنة عند الأطراف حيث المكان الذي مُزِّقت منه من ورقة أكبر حجمًا. ومكتوب على الورقة بخط دقيق ومكتوب بعناية تفوق أي خط آخر رأيته من قبل. فتحت الورقة، ورفعتها. غطت الكتابة جانبي الورقة من الزاوية اليسرى العليا بأحد الوجهين وصولًا إلى توقيع غير مقروء بالجانب الأيمن الأدنى بالوجه الآخر.

وما كان في التوقيع سوى اسم: «زيب».

رفعت الورقة، وبدأت أقرأ ما فيها:

«عزيزي ماركوس»

«أنت لا تعرفني، لكنني أعرفك. على مدار الشهور الثلاثة الماضية، منذ تفجير جسر باي، كنت مسجونًا على جزيرة «تريجر آيلاند»، وقد كنت في الفناء في ذلك اليوم الذي تحدثت فيه مع فتاة آسيوية الأصل، وأُمسِك بك. أحييك على شجاعتك في ذلك.»

«أُصِبت بانفجار في الزائدة الدودية في اليوم التالي، وانتهى بي الحال في المستشفى. وفي السرير المجاور لي رقد شاب يدعى داريل. ظللنا معًا في مرحلة نقاهة لفترة طويلة، وعندما استعدنا عافيتنا، كان من المحرج للغاية لهم أن يطلقوا سراحنا.»

«ومن ثم، قرروا أننا مذنبون بما لا يدع مجالًا للشك. أخذوا يستجوبوننا كل يوم. لقد خضعت لاستجواباتهم على ما أعتقد. تخيل استمرار ذلك شهورًا. انتهى بي الحال مع داريل في زنزانة واحدة، وكنا نعلم أنهم يتنصتون علينا؛ ولذلك لم نتحدث إلا في الأمور غير ذات الصلة بالموضوع. لكن في الليل، وبينما نحن مستلقيان على سريرينا، كنا نتراسل في هدوء بنظام مورس (علمت أن أيام ممارستي لهواية اللاسلكي ستؤتي ثمارها يومًا ما).»

«في البداية، كانت أسئلتهم لنا هي الأسئلة الغبية ذاتها: من فعل ذلك؟ وكيف؟ لكن بعد فترة قصيرة، انتقلوا للتحدث عن شبكة إكس نت، وبالطبع لم نكن قد سمعنا عنها من قبل. لكن ذلك لم يجعلهم يكفوا عن سؤالنا عنها.»

«أخبرني داريل أنهم أحضروا له أجهزة لنسخ شرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية، وأجهزة إكس بوكس، وجميع أنواع التقنيات الأخرى، وطلبوا منه إخبارهم بهوية من يستخدمونها، وأين تعلموا تعديلها. أخبرني داريل عن ألعابك، وما تعلمته.»

«سألتنا وزارة الأمن الوطني، على وجه الخصوص، عن أصدقائنا: من نعرفهم؟ وما طبيعتهم؟ وهل لديهم أي انتماءات سياسية؟ هل دخلوا في مشكلات بالمدرسة؟ هل هي مشكلات متعارضة مع القانون؟»

«أطلقنا على السجن اسم «جوانتانامو الخليج». مر أسبوع على خروجي من السجن، وأظن أن الجميع لا يعلمون أن أبناءهم وبناتهم مسجونون وسط الخليج. يمكنك سماع الناس ليلًا يضحكون ويحتفلون على البر الرئيسي.»

«خرجت الأسبوع الماضي. لن أخبرك كيف حدث ذلك خشية أن تقع هذه الورقة في الأيدي الخاطئة. وربما ينهج نهجي آخرون.»

«أخبرني داريل كيف أجدك، وجعلني أعده بأن أخبرك بما علمته عند عودتي. والآن، وبعد أن فعلت ذلك، سأرحل عن هنا كما فعلت العام المنصرم. بطريقة أو بأخرى، سأرحل عن هذا البلد. اللعنة على أمريكا.»

«لتتحلَّ بالقوة. إنهم يهابونك، فلتنتقم لي منهم، واحرص على ألا يُقبَض عليك.»

«زيب»

اغرورقت عيناي بالدموع مع انتهائي من قراءة الرسالة. كانت لدي قداحة في مكان ما على مكتبي، كنت أستخدمها أحيانًا لصهر المادة العازلة على الأسلاك. أخرجتها، ووضعتها بجوار الرسالة. علمت أنني أدين لِزيب بتدميرها والتأكد من ألا يراها أحد غيري، خشية أن تؤدي إلى توصل الشرطة إليه، أيًّا كان المكان الذي سيقصده.

حملت الشعلة والرسالة، لكنني لم أستطع فعل ذلك.

داريل.

لقد نسيته تمامًا وسط كل ما أعيشه من مشكلات: شبكة إكس نت، وآنج، ووزارة الأمن الوطني. لقد صار شبحًا كما لو كان صديقًا عرفته قديمًا وانتقل بعيدًا أو سافر ضمن برنامج لتبادل الطلاب. طوال ذلك الوقت، كانوا يستجوبونه، ويطلبون منه الوشاية بي، وشرح شبكة إكس نت والمشوشين على عملهم. لقد كان على جزيرة «تريجر آيلاند»، تلك القاعدة العسكرية المهجورة التي تقع في منتصف الطريق على امتداد جسر باي المدمَّر. لقد كان قريبًا لدرجة أنه كان بإمكاني السباحة وصولًا إليه.

أنزلت القداحة من يدي، وقرأت الرسالة مرة أخرى. وعندما انتهيت منها، وجدت نفسي أبكي وأنشج. عاودتني ذكرى كل شيء: السيدة ذات الشعر القصير، والأسئلة التي طرحتها عليَّ، ورائحة البول الكريهة، وتيبس سروالي بعد أن جففه البول ليحوله إلى قماش خشن.

«ماركوس!»

كان باب غرفتي مفتوحًا بعض الشيء، ووالدتي تقف عنده تشاهدني، وارتسمت على وجهها نظرة قلقة. كم مضى على وجودها هناك؟

مسحت الدموع من على وجهي، وتنشقت مخاط أنفي. قلت لها: «مرحبًا، أمي!»

دخلت الغرفة، وعانقتني. سألتني: «ما بك؟ هل ترغب في التحدث معي؟»

كانت الرسالة على الطاولة.

«هل هذه رسالة من صديقتك؟ هل كل شيء على ما يرام؟»

أعطتني بذلك حجة؛ وكان بإمكاني إلقاء اللوم في حالتي على وقوع مشكلات مع آنج، وبذلك، ستخرج من غرفتي وتتركني لحالي. فتحت فمي لفعل ذلك، وما قلته كان:

«لقد كنت في السجن، بمكان ما خلف الجسر. كنت في السجن طوال تلك الفترة.»

النشيج الذي صحب حديثي بدَّل صوتي بصوت آخر، فبدا كصوت حيوان، حمار مثلًا أو مواء قطة ضخمة في الليل. أصابني ذلك النشيج باحتراق وألم في حلقي، وأخذت ألهث.

ضمتني أمي بين ذراعيها كما كانت تفعل عندما كنت طفلًا صغيرًا، وأخذت تمرر يدها في شعري. همست في أذني، وأخذت تهزني حتى تبدد النشيج تدريجيًّا وبهدوء.

أخذت نفسًا عميقًا، وأحضرت لي أمي كوبًا من الماء. جلستُ على طرف سريري، وجلست هي على كرسي مكتبي، وأخبرتها بكل شيء.

كل شيء.

حسنًا، معظمه.

الفصل السادس عشر

أهدي هذا الفصل إلى متجر بوكسميث في سان فرانسيسكو بحي هايت-آشبيري ذي الطابع التاريخي الذي لا يبعد عن متجر بن آند جيريز سوى بضعة مبانٍ على ناصية شارعي «هايت» و«آشبيري» بالضبط. يعرف العاملون في ذلك المتجر كيف يقيمون حفلات رائعة خاصة بالكُتَّاب. عندما كنت أعيش في سان فرانسيسكو، اعتدت الذهاب إلى هناك دومًا لسماع أحاديث بعض الكُتَّاب العظام (لا يمكنني نسيان حديث ويليام جيبسن). ويصدر المتجر أيضًا بطاقات قابلة للجمع والتبادل تشبه تلك الخاصة بلاعبي البيسبول لكل مؤلف؛ لدي بطاقتان من حفلين أُقيما لي هناك.

* * *

في البداية، بدت أمي مصدومة، ثم غاضبة، وأخيرًا لم يعد وجهها يعبر عن أي شيء، ولم تُبدِ أي تعبير سوى أن فغرت فاها فقط أثناء روايتي لها عن الاستجواب، وتبليلي لسروالي، والكيس الذي وُضِع على رأسي، وداريل. أعطيتها الرسالة.

«لماذا ...؟»

حملت تلك الكلمة كل اتهام مضاد وجهته لنفسي ليلًا، وكل لحظة افتقرت فيها للشجاعة اللازمة لأن أخبر العالم بالسبب الحقيقي وراء ما كنت أفعله، ولماذا كنت أناضل، وما ألهمني حقًّا لتصميم شبكة إكس نت.

التقطت نفسًا، وقلت لها:

«هددوني بالزج بي في السجن إذا تحدثت عن الأمر. ولن أظل هناك لأيام، بل للأبد. وقد كنت ... كنت مرعوبًا.»

ظلت أمي جالسةً معي فترة طويلة دون أن تنبس ببنت شفة، ثم قالت أخيرًا: «ماذا عن والد داريل؟»

كان سؤالها كغرز إبرة في صدري. والد داريل؟ لا بد أنه افترض موت ابنه منذ وقت طويل.

أَوَلَمْ يكن ميتًا بالفعل؟ فهل يُعقَل أن تطلق وزارة الأمن الوطني سراحك بعد اعتقالها لك دون سبب قانوني لمدة ثلاثة أشهر؟

لكن زيب خرج. لعل داريل سيخرج أيضًا. وربما يمكنني أنا وشبكة إكس نت أن نساعد داريل في أن يخرج.

أجبتها: «لم أخبره.»

بكت أمي حينذاك، ولم تكن بالشخص الذي يبكي بسهولة؛ فهذا أحد الطباع البريطانية. فجعل ذلك نشيجها المختنق أسوأ.

تمكنت أخيرًا من أن تتحدث قائلةً: «سوف تخبره. سوف تفعل.»

«سأفعل.»

«لكن علينا أولًا أن نخبر والدك.»

لم يعد لأبي موعد محدد للرجوع إلى المنزل؛ فبين العملاء الذين يقدم لهم الاستشارات — الذين زاد حجم أعمالهم كثيرًا الآن حتى إن وزارة الأمن الوطني بدأت عمليات تنقيب عن البيانات على شبه الجزيرة — والمسافة الطويلة إلى بيركلي، كان من الممكن أن يعود للمنزل في أي وقت بين السادسة مساءً ومنتصف الليل.

تلك الليلة، اتصلت به أمي وأخبرته أن يحضر للمنزل حالًا. قال لها شيئًا، فما كان منها إلا أن كررت كلمة «حالًا».

وعند وصوله للمنزل، كنا قد تهيئنا في غرفة المعيشة وبيننا الرسالة على الطاولة الصغيرة.

كانت رواية ما حدث أيسر في المرة الثانية؛ فالسر لم يعد يثقل صدري كما كان من قبل. لم أُزيِّن حديثي، ولم أخفِ أي شيء. أفضيت بكل ما بداخلي.

سمعت من قبل عن راحة الإفضاء بكل ما بداخل المرء، لكنني لم أفهم قط ما يعنيه ذلك إلى أن فعلته. إن كتم سر بداخلي لوَّث روحي، فأصابني بالخوف والخزي، وجعلني أمر بكل ما كانت آنج تقول إنني سأمر به.

تسمَّر أبي في مكانه طوال الوقت أثناء تحدثي، ووجهه كالمنحوت من الصخر. عندما أعطيته الرسالة، قرأها مرتين، ثم وضعها ثانيةً بحذر على الطاولة.

هزَّ رأسه، ونهض متوجهًا ناحية الباب الأمامي.

سألته أمي في انزعاج: «إلى أين أنت ذاهب؟»

كل ما تمكن والدي من لفظه لاهثًا وبصوت متهدج: «أحتاج للتمشية قليلًا.»

حدقت أنا وأمي كلٌّ منا في الآخر في ارتباك، وانتظرنا عودته إلى المنزل. حاولت تخيل ما يدور في رأسه. لقد صار شخصًا آخر منذ وقوع التفجيرات، وعلمت من أمي أن ما غيَّره الأيام التي ظن فيها أنني قد لقيت حتفي؛ فقد ظن أن الإرهابيين قتلوا ابنه؛ ما أصابه بالجنون.

أصابه بجنون جعله يفعل أي شيء تمليه عليه وزارة الأمن الوطني، من الانتظام في صف كخروف صغير مطيع والسماح لهم بالتحكم فيه وتوجيهه.

وقد علم الآن أن تلك الوزارة هي التي ألقت بي في السجن، وتحفظت على شباب سان فرانسيسكو في سجن جوانتانامو الخليج. كان الأمر منطقيًّا تمامًا بعد أن فكرت فيه. بالطبع، كانت جزيرة «تريجر آيلاند» هي التي اعتُقِلت فيها، فما المكان الآخر الذي يبعد عن سان فرانسيسكو بعشر دقائق بالقارب؟

عندما عاد أبي، بدا أكثر غضبًا من أي وقت مضى في حياته قاطبة.

صاح فيَّ: «كان عليك أن تخبرني!»

تدخلت أمي بيني وبينه، وقالت له: «أنت تلوم الشخص الخطأ. ليس ماركوس من اختطف وأرهب.»

هزَّ رأسه، وضرب الأرض بقدمه، وقال: «إنني لا ألوم ماركوس. أعلم بالضبط من ينبغي أن ألومه؛ إنه أنا. أنا ووزارة الأمن الوطني الغبية. فلتلبسا حذاءيكما، وتأتيا بمعطفيكما.»

«إلى أين نحن ذاهبون؟»

«سنذهب لزيارة والد داريل، ثم إلى باربارا ستراتفورد.»

أعلم اسم باربارا ستراتفورد من مكان ما، لكنني لا أتذكر من أين. اعتقدت أنها ربما تكون صديقة قديمة لوالديَّ، لكنني لم أستطع تحديد هويتها بالضبط.

في تلك الأثناء، توجهنا إلى منزل والد داريل. لم أشعر بالراحة قط في وجود هذا الرجل الذي كان يعمل مشغلًا للاسلكي في البحرية، ويدير منزله إدارة عسكرية. لقد عَلَّم داريل

نظام مورس عندما كان صغيرًا، ما اعتبرته دومًا أمرًا رائعًا. وهو الأمر الذي جعلني أثق في خطاب زيب. لكن في مقابل الأمور الجيدة مثل نظام مورس، كان لوالد داريل نظام عسكري جنوني بدا أنه يتبعه من أجله نفسه، مثل الإصرار على طي ملاءات الأسِرَّة طية عسكرية، وحلق الذقن مرتين يوميًّا. وكانت هذه الأمور تزعج داريل كثيرًا.

لم تحب والدة داريل ذلك أيضًا؛ فغادرت المنزل عائدةً لأسرتها في مينيسوتا عندما كان داريل في العاشرة من عمره. وكان داريل يقضي إجازات الصيف وأعياد الميلاد هناك.

كنت أجلس في المقعد الخلفي بالسيارة، وكان بوسعي رؤية مؤخرة رأس أبي أثناء قيادته. كانت عضلات عنقه متوترة، وظلت تنتفض مع طحنه لأسنان فكيه.

أبقت أمي يدها على ذراعه، أما أنا فلم يكن هناك أحد للتخفيف عني. كم كنت أتمنى الاتصال بآنج، أو خولو، أو فان. لعلي سأفعل ذلك في نهاية اليوم.

قال أبي أثناء صعودنا المنعطفات الحادة لتَلِّي «توين بيكس» وصولًا إلى الكوخ البسيط الذي كان يعيش فيه داريل ووالده: «لا بد أنه قد دفن ابنه في عقله.» خيم الضباب على تَلِّي توين بيكس، كعادته ليلًا في سان فرانسيسكو؛ ما جعل المصابيح الأمامية للسيارة تعكس نورها علينا. وفي كل مرة انعطفنا فيها عند ناصية، رأيت أودية المدينة تمتد تحتنا، كمصابيح من الأضواء الوامضة تتبدل في السديم.

«هل هذا هو المنزل؟»

أجبت: «نعم، هذا هو.» مرت شهور منذ آخر مرة ذهبت فيها لداريل، لكنني قضيت ما يكفي من الوقت هنا على مدار الأعوام الماضية لأتعرف عليه فور رؤيته.

وقف ثلاثتنا حول السيارة لبعض الوقت في انتظار من سيقرر الذهاب لقرع جرس الباب. ما أدهشني أنني من قررت فعل ذلك.

قرعت الجرس، وانتظرنا جميعًا دقيقة حبسنا فيها أنفاسنا. قرعته مرة أخرى، كانت سيارة والد داريل أمام المنزل، ورأينا كذلك ضوءًا في غرفة المعيشة. أوشكت على قرعه للمرة الثالثة إلا أنه فُتِح.

قال والد داريل: «ماركوس؟» اختلف تمامًا عن آخر مرة رأيته فيها. كان يرتدي برنُس حمام، غير حليق الذقن، حافي القدمين، وكانت أظافر قدميه طويلة وعيناه حمراوين. زاد وزنه، وترهل جلد ذقنه تحت فكه العسكري القوي. وأصبح شعره الخفيف هشًّا وغير منتظم.

أجبته: «سيد جلوفر.» وقف والداي خلفي بالباب.

قالت أمي: «مرحبًا، رون!»
وقال أبي: «رون.»
«وأنتَ أيضًا؟ ما الخطب؟»
«هل تسمح لنا بالدخول؟»

بدت غرفة المعيشة كأحد الأقسام الإخبارية التي تعرض لأطفال مُتخلًّى عنهم من قبل من يرعونهم والذين قضوا شهرًا محبوسين قبل إنقاذ الجيران لهم؛ فملأت الغرفة عبوات الطعام المجمد، وعلب الجعة وزجاجات العصير الفارغة، وأكوام الصحف وأواني حبوب الفطور المتعفنة. فاحت في المكان رائحةُ بول قطط كريهةٌ، وسحقت أقدامنا ركامًا مبعثرًا. ودون بول القطط، كانت الرائحة لا تُحتمَل مثل دورات مياه محطات الحافلات.

غطت الأريكة ملاءات وسخة، ووسادتان ملوثتان بالشحم. ووسائد الأريكة منبعجة، وتظهر عليها علامات النوم.

وقفنا جميعًا هناك لحظةً صامتين، والإحراج يطغى على كل شعور آخر لنا. بدا والد داريل وكأنه يتمنى الموت.

أبعد ببطء الملاءات عن الأريكة، وأزاح صوانيَّ الطعام المكدسة والمشحمة عن كرسيين، وحملها إلى المطبخ، وسمعنا صوت وقوعها على الأرض.

جلسنا بحذر شديد في الأماكن التي نظفها، ثم عاد وجلس معنا.

قال بصوت مبهم: «آسف، ليست لدي أية قهوة لأقدمها لكم. سيصلني المزيد من البقالة غدًا؛ لذلك فليس لدي ...»

قال أبي: «رون، استمع لما سنقوله لك. لدينا شيء نريد أن نخبرك به، وهو ليس بالأمر الهين.»

جلس كالتمثال أثناء تحدثي معه، وحملق في الرسالة، وقرأها دون أن يبدو عليه أنه فهمها، ثم قرأها مرة أخرى، وأعادها إليَّ.

كان يرتعش.

«إنه ...»

فقلت له: «داريل حي ... إنه حي ومُعتقَل على جزيرة «تريجر آيلاند».»

وضع قبضته في فمه، وأصدر أنينًا بشعًا.

قال أبي: «لدينا صديقة تكتب في صحيفة «باي جارديان». إنها صحفية استقصائية.»

عرفت حينذاك أين سمعت ذلك الاسم. كانت عادةً صحيفة «جارديان» الأسبوعية المجانية تخسر الصحفيين العاملين بها بانتقالهم للعمل على الإنترنت والصحف اليومية الكبرى، لكن باربارا ستراتفورد ظلت هناك. أتذكَّر على نحو مبهم تناول العشاء معها عندما كنت صغيرًا.

قالت أمي: «سنذهب إليها الآن. هل تأتي معنا يا رون وتخبرها بقصة داريل؟»

وضع وجهه بين يديه، وأخذ نفسًا عميقًا. حاول أبي وضع يده على كتفيه، لكن السيد جلوفر أزاحها بعنف.

وقال: «إنني بحاجة لتنظيف نفسي. لتنتظروني قليلًا.»

نزل السيد جلوفر من الدور العلوي رجلًا آخر؛ فقد حلق ذقنه، ومشط شعره للخلف باستخدام الجِل، وارتدى زيًّا عسكريًّا تعلوه مجموعة من أوشحة المعارك على الصدر. توقف عند نهاية السلم، وأومأ إلى الزي.

قال: «ليست لدي ملابس نظيفة وأنيقة حاليًّا، وبدا هذا الزي ملائمًا في حال أرادت التقاط صور أو شيء من هذا القبيل.»

ركب هو ووالدي في المقعدين الأماميين، في حين جلست أنا في الخلف وراء السيد جلوفر. وباقترابي منه، شممت رائحة جعة تفوح منه كما لو كانت تصدر من مسام جسده.

كنا في منتصف الليل عندما وصلنا إلى منزل باربارا ستراتفورد؛ فكانت تعيش خارج المدينة في «ماونتن فيو». لم ينطق أيٌّ منا بكلمة طوال سيرنا سريعًا بالسيارة على طريق ١٠١، ومرورنا بجوار مباني التكنولوجيا المتقدمة الممتدة على جانبي الطريق السريع.

كانت هذه منطقة مختلفة من الخليج عن تلك التي كنت أعيش فيها؛ إذ كانت أشبه بضواحي أمريكا التي أراها أحيانًا على شاشة التليفزيون: تملؤها الطرق الحرة والتقسيمات الفرعية التي هي عبارة عن منازل متماثلة ... مدن تخلو من أي مشردين يدفعون عربات التسوق على الأرصفة ... لم تكن هناك أرصفة في الأساس!

هاتفتْ أمي باربارا ستراتفورد أثناء انتظارنا نزول السيد جلوفر من الطابق العلوي. كانت الصحفية نائمة، لكن أمي وصلت إلى درجة من التوتر جعلتها تنسى تمامًا الآداب البريطانية وما يمثله إيقاظ سيدة من النوم من إحراج. فأيقظتها، وأخبرتها بتوتر أنها تريد التحدث معها بشأن أمر ما، وأنها يجب أن تقابلها شخصيًّا.

أثناء صعودنا إلى منزل باربارا ستراتفورد، أول ما ورد في ذهني المنزل في المسلسل الكوميدي «برادي بانش»، وهو منزل منخفض أمامه جدار عازل من الطوب، ومرجة مربعة نظيفة. كان نمط تنظيم الطوب بالجدار العازل تجريديًّا، وثمة هوائي تليفزيون ذو تردد فائق العلو خلفه. سرنا وصولًا للمدخل، ورأينا أن ثمة أضواء بالفعل داخل المنزل.

فتحت الصحفية الباب قبل أن نقرع الجرس. كانت في مثل سن والديَّ تقريبًا. سيدة رفيعة طويلة ذات أنف كمنقار الصقر وعينين حادتين يوجد الكثير من التجاعيد على جانبيها. كانت ترتدي بنطال جينز من الطراز السائد، حتى إنه يمكن رؤيته متاحًا في المتاجر الصغيرة في شارع فالينسيا، وبلوزة قطنية هندية فضفاضة تصل إلى فخذيها. وعلى وجهها نظارة ذات عدسات مستديرة عكست الضوء في رواق المنزل.

ابتسمت لنا ابتسامة مصطنعة.

قالت: «لقد اصطحبتِ الجميع كما أرى.»

أومأت أمي برأسها، وقالت: «ستفهمين السبب حالًا.» وظهر السيد جلوفر من خلف أبي.

«واستدعيتِ البحرية أيضًا.»

«وكل ذلك في وقت قصير.»

قدم كلٌّ منا نفسه لها. تمتعت بقبضة يد قوية وأصابع طويلة.

فُرِش منزلها على الطراز الياباني؛ إذ احتوى على عدد قليل للغاية من قطع الأثاث المتناسبة بدقة، وسلال فخارية كبيرة من الخيزران لامست السقف. هذا إلى جانب ما بدا كقطعة كبيرة صدئة من محرك ديزل فوق قاعدة رخامية مصقولة. أحببت ذلك الطراز. كانت الأرضية خشبية قديمة، مصنفرة ومطلية، لكنها غير مغطاة بالطلاء بالكامل بحيث يمكن رؤية الشقوق والحُفر تحت الطلاء. أحببت ذلك حقًّا، خاصةً عندما سرت عليه بقدميَّ اللتين تغطيهما الجوارب.

قالت: «لدي قهوة، من يريد بعضًا منها؟»

رفعنا جميعًا أيدينا. وحملقتُ في والديَّ متحديًا.

فقالت: «حسنًا.»

اختفت في غرفة أخرى، وعادت بعد قليل تحمل صينية من الخيزران الخشن عليها إبريق حافظ للحرارة سعة حوالي لتر ونصف، وستة أكواب ذات تصميم دقيق لكن تعلوها رسوم غير متقنة وغير مستوية. أعجبني ذلك أيضًا.

قالت وهي تصب القهوة وتقدمها لنا: «والآن، أسعدتني رؤيتكم جميعًا. أعتقد أن آخر مرة رأيتك فيها، يا ماركوس، كنت في السابعة تقريبًا من عمرك. وكما أتذكر، كنت متحمسًا للغاية بشأن ألعاب الفيديو الجديدة خاصتك التي عرضتها لي.»

لم أتذكر كل ذلك، لكن هذا ما كنت عليه وأنا في السابعة من عمري. خمنت أن ما كانت تتحدث عنه هو لعبة «سيجا دريمكاست».

أخرجَتْ مسجل شرائط، وإضمامة ورق صفراء، وقلمًا، وأدارت القلم. «أنا هنا لأستمع إلى كل ما ستخبرونني به، ويمكنني أن أعدكم بالحفاظ على سرية هذه المعلومات، لكن ليس بإمكاني أن أعدكم بأنني سأفعل أي شيء بها، أو أنها ستنتشر.» أسلوبها في قول ذلك جعلني أدرك أن أمي قد قدمت لنا خدمة هائلة باتصالها بتلك السيدة وإيقاظها من النوم، سواء أكانت صديقة أم لا. لا بد أنه أمر مزعج للغاية أن يكون المرء صحفيًّا استقصائيًّا مهمًّا؛ فهناك على الأرجح أعداد هائلة من الناس يرغبون في أن تتولى قضاياهم.

أومأت أمي برأسها لي. ورغم أنني كنت قد رويت القصة ثلاث مرات تلك الليلة، عُقِد لساني؛ فقد كان ذلك مختلفًا عن روايتها لوالديَّ ووالد داريل. لقد كان ذلك أشبه ببدء حركة جديدة في اللعبة.

بدأت ببطء، وشاهدت باربارا وهي تسجل الملاحظات. شربتُ كوبًا كاملًا من القهوة أثناء شرحي لألعاب الواقع البديل، وخروجي من المدرسة للعبها. استمع أبي وأمي والسيد جلوفر بتركيز لهذا الجزء. صببت لنفسي كوبًا آخر، وشربته أثناء شرحي كيف قُبِض علينا. ومع انتهائي من القصة بالكامل، كنت قد أفرغت الإبريق واشتدت حاجتي للتبول كثيرًا.

افتقر الحمام للأثاث مثل غرفة المعيشة، وكان به صابون عضوي بني اللون وقد بدت رائحته مثل رائحة الطمي النظيف. عدت إليهم، ووجدتهم يراقبونني في هدوء.

روى السيد جلوفر قصته بعد ذلك. لم يكن لديه شيء ليقوله بشأن ما حدث، لكنه أوضح أنه من المحاربين القدامى وابنه فتى صالح. وتحدث عن شعوره عند اعتقاده أن ابنه قد توفي، وعن انهيار مطلقته عندما اكتشفت الأمر ودخولها المستشفى. بكى قليلًا، دون خجل، وتدفقت الدموع على وجهه المليء بالتجاعيد لتسوِّد ياقة الزي الرسمي الذي كان يرتديه.

وعند الانتهاء، دخلت باربارا غرفة مختلفة، وجاءت حاملةً زجاجة ويسكي أيرلندي. قالت، وهي تضع أربعة أكواب صغيرة، مع عدم إحضار كوب لي: «هذه زجاجة بوشميلز معتقة لمدة خمسة عشر عامًا. أعتقد أن الآن وقت مناسب لفتحها.»

صبَّت لكلٍّ منهم كوبًا صغيرًا، ثم رفعت كوبها، وارتشفت منه لتفرغ نصفه. ونهج الباقون نهجها. شربوا ثانيةً وأنهوا أكوابهم، وأخذت هي تصب لهم.

قالت: «حسنًا، إليكم ما يمكنني قوله لكم الآن. إنني أصدقكم، ليس فقط لأنني أعرف ليليان، لكن لأن القصة تبدو صادقة، وتتماشى مع إشاعات أخرى سمعتها. لكن لا يمكنني الاعتماد على شهادتكم فقط، ومن ثم سأحقق في كل جانب من الأمر، وحياتكم ورواياتكم. وينبغي أن أعرف ما إذا كان هناك أي شيء لم تخبروني به، أي شيء يمكن استخدامه لتكذيبكم بعد الإعلان عن ذلك. إنني بحاجة لمعرفة كل شيء. وقد يستغرق الأمر أسابيع قبل أن أكون على استعداد للنشر.

عليكم أيضًا بالتفكير في سلامتكم، وسلامة داريل. إذا كان داريل شخصًا يُنفَى وجوده رسميًّا، فالضغط على وزارة الأمن الوطني يمكن أن يدفعهم لنقله إلى مكان أبعد بكثير، سوريا على سبيل المثال. ويمكنهم أيضًا فعل ما هو أسوأ من ذلك.» قالت ذلك دون أي توضيح. علمت أنها كانت تعني أنهم قد يقتلونه.

«سآخذ هذا الخطاب، وأمسحه ضوئيًّا الآن. أريد صورًا لكما الآن، ولاحقًا ... يمكننا إرسال مصور فوتوغرافي، لكنني أريد توثيق ذلك على أدق نحو ممكن الليلة.»

ذهبت معها إلى مكتبها لإجراء المسح الضوئي. توقعت أن أجد جهاز كمبيوتر حديث الطراز منخفض استهلاك الطاقة يتناسب مع الديكور، لكن ما وجدته كان مكتبًا به سرير احتياطي ومكتظًّا بأجهزة كمبيوتر شخصية حديثة جدًّا، وشاشات مسطحة كبيرة، وماسح ضوئي كبير بما فيه الكفاية لوضع فرخ كامل من ورق الصحف عليه. كانت سريعة للغاية في المسح الضوئي أيضًا. ولاحظت استخدامها لنظام التشغيل «بارانويد لينكس»، الأمر الذي استحسنته. هذه السيدة تأخذ وظيفتها على محمل الجد.

أحدثت مراوح أجهزة الكمبيوتر حاجزًا فعالًا من الضوضاء، لكنني مع ذلك أغلقت الباب واقتربت منها.

«باربارا!»

«نعم.»

«بشأن ما قلتِهِ عما يمكن استخدامه لتكذيبي.»

«نعم؟»

«ما سأخبرك به لن تخبري به أحدًا، أليس كذلك؟»

«نظريًّا. دعني أوضح لك شيئًا؛ لقد دخلت السجن مرتين لأنني لم أشِ بمصدر أخباري.»

«حسنًا، يا إلهي! السجن! حسنًا.» وأخذت نفسًا عميقًا، وقلت لها: «لقد سمعتِ عن شبكة إكس نت ومايكي.»

«نعم.»

«أنا مايكي.»

فقالت: «أوه!» شغَّلَتِ الماسح الضوئي، وقلبت الرسالة لتمسح الوجه الآخر. كانت تجري المسح بدقة وضوح غير معقولة، ١٠٠٠٠ نقطة لكل بوصة أو أكثر. وعلى الشاشة، كانت المخرجات تشبه ناتج ميكروسكوب ماسح نفقي.

«حسنًا، سيغير هذا الأمر كثيرًا.»

«نعم، أظن ذلك.»

«والداك لا يعلمان؟»

«نعم، ولا أعلم إذا كنت أرغب في أن يعلما.»

«هذا أمر عليك أن تتوصل إلى قرار بشأنه. عليَّ التفكير في ذلك. هل يمكنك زيارتي في مكتبي؟ أود التحدث معك بشأن ما يعنيه ذلك بالضبط.»

«هل لديكِ جهاز «إكس بوكس يونيفرسال»؟ يمكنني إحضار برنامج تثبيت.»

«نعم، أثق أنه يمكن ترتيب ذلك. عندما تأتي لمكتبي، أخبر موظفة الاستقبال أنك السيد براون لتتمكن من مقابلتي. يعلمون ما يعنيه ذلك. لن يُسجَّل حضورك، وستُدمَّر تلقائيًّا كلُّ الصور التي تلتقطها كاميرات الأمن في ذلك اليوم، وتُعطَّل الكاميرات حتى ترحل.»

قلت لها: «يا إلهي! تفكرين مثلما أفكر.»

ابتسمت، وربتت على كتفي بقوة وهي تقول: «إنني في خضم هذه الأمور، يا بني، منذ وقت طويل للغاية، وتمكنت خلال تلك الفترة أن أقضي خارج السجن وقتًا يفوق ما قضيته داخله؛ ولذا، فأنا وجنون الارتياب صديقان.»

كنت أشبه بالزومبي في اليوم التالي بالمدرسة؛ فلم أنم سوى ثلاث ساعات فقط، ولم يفلح تناولي لثلاثة أكواب من القهوة التركية في تنشيط ذهني. تكمن مشكلة الكافيين في سهولة التعود عليه؛ ومن ثم ينبغي زيادة الجرعات للوصول إلى ما هو فوق المستوى العادي.

قضيت الليلة الماضية أفكر فيما ينبغي عليَّ فعله. كان الأمر أشبه بالجري في متاهة من الممرات الصغيرة المتعرجة، التي تتشابه جميعها ويؤدي كلٌّ منها إلى النهاية المسدودة

ذاتها. عندما ذهبت إلى باربارا، كانت تلك النهاية. كانت هذه النتيجة بغض النظر عن نظرتي لها.

بانتهاء اليوم الدراسي، كان كل ما أريده هو العودة للمنزل، والدخول إلى السرير. لكن كان لدي موعد في صحيفة «باي جارديان» التي يقع مبناها مواجهًا لشاطئ الخليج. لم أرفع عينيَّ عن قدميَّ أثناء خروجي من البوابة، وعند وصولي إلى شارع ٢٤، لاحظت سير شخص ما بجواري. تعرفت على الحذاء، وتوقفت.

«آنج!»

عكسَ مظهرها حالة مماثلة لحالتي من قلة النوم وانتفاخ العينين، والتجاعيد حول جانبي فمها تعكس حزنها.

قالت: «مرحبًا! مفاجأة. انصرفتُ دون استئذان من المدرسة؛ فلم يعد بإمكاني التركيز بأي حال من الأحوال.»

«امممم.»

«اخرس، وعانقني أيها الأحمق.»

عانقتها، وغمرني شعور جيد، بل رائع. شعرت كما لو أن عضوًا بجسدي قد بُتِر وأعيد إليَّ.

«أحبك يا ماركوس يالو.»

«أحبك يا آنجيلا كارفيلي.»

قالت بصوت متقطع: «حسنًا، أعجبني ما نشرته عن سبب عدم ممارستك للتشويش، وأحترم ذلك. ماذا فعلت بشأن العثور على طريقة للتشويش عليهم دون القبض عليك؟»

«أنا في طريقي لمقابلة صحفية استقصائية ستنشر قصة دخولي السجن، وتدشيني لشبكة إكس نت، واحتجاز داريل غير القانوني من جانب وزارة الأمن الوطني في سجن سري بجزيرة «تريجر آيلاند».»

نظرت حولها، وقالت: «أوه! ألا يمكنك أن تفكر في أي شيء طموح؟»

«أترغبين في المجيء؟»

«نعم، سآتي. وأريد منك أن تشرح لي القصة بالتفصيل إذا لم تكن تمانع.»

مقارنةً بكل المرات التي رويت فيها القصة، كانت تلك المرة التي رويتها لآنج أثناء سيرنا إلى حي بوتريرو ثم شارع ١٥ هي الأسهل. أمسكت بيدي، وضغطت عليها بين الحين والآخر.

صعدنا السلالم معًا بسرعة وصولًا لمكاتب صحيفة «باي جارديان». كان قلبي يدق بعنف. وصلت لمكتب الاستقبال، وقلت للفتاة الضجرة التي كانت تقف خلفه: «أنا هنا لمقابلة باربارا ستراتفورد. اسمي السيد جرين.»

«أعتقد أنك تعني السيد براون؟»

قلت وقد تورد وجهي خجلًا: «نعم، السيد براون.»

فعلت شيئًا بالكمبيوتر أمامها، ثم قالت: «تفضلا بالجلوس، ستخرج باربارا حالًا. هل أجلب لكما أي شيء؟»

قلنا معًا: «قهوة.» من أسباب إعجابي بآنج أيضًا أننا كنا مدمنين للشيء نفسه.

أومأت موظفة الاستقبال برأسها — وقد كانت امرأة جميلة من أصول لاتينية تكبرنا بأعوام قليلة وترتدي ملابس هيبيز قديمة الطراز — وخرجت لتعود بكوبين من القهوة يحملان اسم الصحيفة.

ارتشفنا القهوة في صمت مع مشاهدة الزوار والصحفيين وهم يمرون أمامنا. وأخيرًا، خرجت باربارا لاستقبالنا. كانت ترتدي ما ارتدته الليلة السابقة. كان يليق بها. رفعت حاجبها لي عندما لاحظت إحضاري لصديقتي معي.

قلت لها: «مرحبًا! هذه ...»

قالت آنج، وهي تمد يدها: «السيدة براون.» يا إلهي! نسيت أن هويتنا من المفترض أن تكون سرية. دفعتني دفعة رقيقة بمرفقها وقالت: «أعمل مع السيد جرين.»

قالت باربارا: «هيا بنا إذن.» وسارت أمامنا إلى غرفة اجتماعات ذات حوائط زجاجية طويلة وستائرها مغلقة. وضعت أمامنا صينية تحمل أطعمة عضوية كاملة تشبه بسكويت أوريو، ومسجلًا رقميًّا، وإضمامة ورق صفراء أخرى.

سألَتْ: «هل ترغبان في تسجيل ذلك أيضًا؟»

لم أفكر في ذلك في الواقع. لكنني رأيت أنه قد يفيد في حال أردت تفنيد ما ستنشره باربارا. لكنني إذا لم أكن واثقًا فيها، فأنا هالك على أية حال.

قلت لها: «ما من مشكلة.»

«حسنًا، لنبدأ. اسمي، يا فتاة، باربارا ستراتفورد، وأعمل صحفية استقصائية. أعتقد أنك تعلمين سبب وجودي هنا، ولدي فضول في أن أعرف سبب وجودك أيضًا.»

قالت: «أعمل مع ماركوس على شبكة إكس نت. هل هناك حاجة لمعرفة اسمي؟»

فأجابت باربارا: «ليس الآن، يمكن أن تظل هويتك مجهولة إذا أردتِ ذلك. يا ماركوس، لقد طلبت منك أن تخبرني بهذه القصة لأنني أرغب في معرفة علاقتها بالقصة

التي أخبرتني بها بشأن صديقك داريل، والرسالة التي أريتني إياها، فأعتقد أنها ستكون عاملًا مساعدًا جيدًا؛ ويمكنني القول إن ذلك كان هو السبب وراء شبكة إكس نت: الرغبة في الانتقام. لكن تحريًا للأمانة، أفضل عدم نشر هذه القصة إذا لم أكن مضطرة لذلك.

أفضل نشر قصة صادقة لطيفة عن السجن السري الذي لا يبعد كثيرًا عن مدينتنا، دون الحاجة للدخول في مناقشة بشأن ما إذا كان السجناء في ذلك السجن من النوعية التي يمكن أن تخرج من هناك لتؤسس حركة سرية تعمد لزعزعة استقرار الحكومة الفيدرالية. إنني على ثقة من قدرتك على تفهم ذلك.»

لقد تفهمته بالفعل. إذا كانت شبكة إكس نت جزءًا من القصة، فسيرى بعض الناس أن من الأجدر اعتقال هؤلاء الشباب وإلا فسيثيرون الشغب.

قلت لها: «الأمر بيدك. أعتقد أنه ينبغي لك إخبار العالم عن داريل. وعندما تفعلين ذلك، ستعلم وزارة الأمن الوطني أنني قد كشفت السر، وحينذاك سيأتون للقبض عليَّ، ولعلهم سيكتشفون بذلك أن لي علاقة بشبكة إكس نت، ويربطون بيني وبين مايكي. ما أعنيه هو أنه بمجرد نشرك لقصة داريل، فستكون هذه نهايتي بأي حال. وليست لدي مشكلة في ذلك.»

فقالت: «معك حق؛ وهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها؟! حسنًا، اتفقنا. أريد منكما أن تخبراني بكل شيء يمكنكما إخباري به بشأن تأسيس شبكة إكس نت وتشغيلها، وأريد بعد ذلك شرحًا مفصلًا: فيمَ تستخدمانها؟ ومَن أيضًا يفعل ذلك؟ وكيف انتشرت؟ ومن صمم البرنامج؟ كل شيء.»

قالت آنج: «سيستغرق ذلك بعض الوقت.»

ردت باربارا: «لدي متسع من الوقت.» وشربَت بعض القهوة وأكلت بعضًا من بسكويت أوريو المُقلَّد. «قد تكون هذه القصة من أهم قصص الحرب على الإرهاب، وقد تكون هي التي تطيح بالحكومة. عندما تكون لديك قصة كهذه، عليك التعامل معها بحرص شديد.»

الفصل السابع عشر

أهدي هذا الفصل إلى سلسلة متاجر الكتب القومية بالمملكة المتحدة ووترستونز، وهي سلسلة متاجر، لكنَّ كلًّا منها يحمل طابع متجر مستقل رائع، ويزخر بالعديد من الكتب الرائعة المتنوعة (وبخاصة الكتب الصوتية)، هذا فضلًا عن الموظفين المطلِعين.

* * *

قصصنا عليها كل شيء. وجدت ذلك ممتعًا في حقيقة الأمر. لطالما كان تعليم الناس استخدام التكنولوجيا أمرًا مثيرًا. ومن الجيد مشاهدة الناس وهي تكتشف كيف يمكن استخدام التكنولوجيا من حولهم لتيسير حياتهم. كانت آنج رائعة أيضًا، وشكَّلنا معًا فريقًا ممتازًا. كنا نتبادل شرح كيفية عمل الشبكة. وقد كانت باربارا بارعة في هذه الأمور بالطبع.

عرفنا حينذاك أنها قد غطت حروب التشفير صحفيًّا، وهي الحروب التي وقعت في بداية التسعينيات عندما ناضلت جمعيات الحريات المدنية، مثل مؤسسة الحدود الإلكترونية، لضمان حق الأمريكيين في استخدام التشفير القوي. كانت معرفتي بتلك الفترة محدودة، لكن باربارا شرحتها على نحو اقشعر له بدني.

لا يُعقَل الأمر الآن، لكن في وقت ما مضى صنفت الحكومة التشفير كنوع من العتاد الحربي، وجرَّمت أي أحد يقوم بتصديره أو استخدامه، وذلك بدافع حماية الأمن الوطني. هل تفهم ما قلته؟ كان هناك نوع محظور قانونًا من «العمليات الرياضية» في بلادنا.

كانت وكالة الأمن القومي المحرك الحقيقي وراء هذا الحظر. كان لديهم معيار للتشفير قالوا إنه قوي لدرجة تكفي لأن يستخدمه موظفو البنوك وعملاؤهم، لكنه ليس

بالقدر الكافي من القوة بحيث لا تتمكن المافيا من الاحتفاظ بسرية سجلاتها عنهم. كان يقال إن هذا المعيار — وهو معيار تشفير البيانات (المعتمد على مفتاح تشفير بطول ٥٦ بت) — لا يمكن كسره على الإطلاق. بعد ذلك، صمم أحد مؤسسي مؤسسة الحدود الإلكترونية الأغنياء جهازًا بتكلفة قيمتها ٢٥٠ ألف دولار يمكنه كسر الشفرات المعتمدة على هذا المعيار في ساعتين.

ومع ذلك، جادلت وكالة الأمن القومي أنها يجب أن تتمتع بالقدرة على منع الأمريكيين من الاحتفاظ بأسرار لا يمكنها انتزاعها منهم. بعد ذلك، ضربت مؤسسة الحدود الإلكترونية ضربتها القاضية؛ ففي عام ١٩٩٥، رفعت قضية بالنيابة عن طالب رياضيات بالدراسات العليا من بيركلي يُدعَى دان بيرنستاين. كان بيرنستاين قد كتب مقالة عن التشفير تتضمن كودًا يمكن استخدامه لتصميم شفرة أقوى من شفرات معيار تشفير البيانات بملايين المرات. ومن منظور وكالة الأمن القومي، فقد حوَّل هذا مقالته إلى سلاح، ومن ثم لم يعد بإمكانه نشرها.

حسنًا، قد يكون من الصعب العثور على قاضٍ يفهم التشفير، وما يعنيه. لكن ما حدث هو أن القاضي العادي بمحكمة الاستئناف لم يكن متحمسًا بشأن إخبار طلاب الدراسات العليا بنوعية المقالات التي يُسمَح لهم بكتابتها. انتهت حروب التشفير بانتصار أصحاب الحق، وذلك عندما حكمت محكمة استئناف الدائرة التاسعة بأن الكود هو نوع من التعبير يخضع لحماية التعديل الأول من الدستور ... «لا يحق للدستور وضع أي قانون يحد من حرية التعبير.» إذا اشتريت شيئًا ما عبر الإنترنت، أو بعثت برسالة سرية، أو تحققت من حسابك المصرفي، فقد استخدمت التشفير الذي أتاحته مؤسسة الحدود الإلكترونية. من الأمور الجيدة أيضًا أن وكالة الأمن القومي ليست بهذا القدر من الذكاء. أي شيء يعلمون كيف يفكون شفرته، يمكنك أن تتأكد من أن الإرهابيين وأعضاء العصابات الإجرامية يمكنهم التحايل عليه أيضًا.

كانت باربارا ممن حققوا الشهرة بتغطية تلك القضية، وبدأت حياتها المهنية بتغطية نهاية حركة الحقوق المدنية في سان فرانسيسكو، ومن ثم عرفت التشابه بين الصراع من أجل الدستور في العالم الواقعي والصراع في فضاء الإنترنت.

ولذلك، فقد فهمت الفكرة. لا أعتقد أنه كان بإمكاني شرح هذا الأمر لوالديَّ، لكنه كان بالأمر اليسير لباربارا؛ فقط طرحت أسئلة جيدة عن بروتوكولات التشفير والإجراءات الأمنية التي نستخدمها، وتضمن ذلك بعض الأسئلة التي لم أعرف الإجابة عليها، وبعضها يشير إلى نقاط ضعف محتملة في إجراءاتنا.

شغلنا جهاز إكس بوكس، ودخلنا على شبكة إكس نت. كانت هناك أربع عُقد واي فاي متاحة في غرفة الاجتماعات، فوجهت الجهاز للتغيير بين هذه العقد على فترات زمنية عشوائية، وقد أدركت ذلك أيضًا ... بمجرد أن تدخل على شبكة إكس نت فعليًّا، يكون الأمر أشبه بالدخول على الإنترنت، فيما عدا أن بعض الأمور تكون أبطأ فقط، وكل شيء يكون مجهول الهوية ولا يمكن تتبعه.

وبينما كان نشاطنا يتراجع، قلت سائلًا: «وماذا الآن؟» جف ريقي من الكلام وشعرت بحموضة شديدة بسبب القهوة. هذا فضلًا عن أن آنج ظلت تضغط على يدي تحت الطاولة على نحو جعلني أرغب في الهروب معها وإيجاد مكان آخر يتمتع بالخصوصية لإنهاء معركتنا الأولى.

«عليكما الآن المغادرة، وسأتولى مهمتي الصحفية، والبحث عن كل الأمور التي أخبرتماني بها، ومحاولة التأكد منها قدر استطاعتي. سأسمح لكما برؤية ما سأنشره، وسأخبركما بموعد النشر. وأفضِّل ألا تتحدثا عن ذلك مع أي شخص آخر الآن؛ لأنني أبغي السبق الصحفي، وأريد التأكد من أنني سأحصل على الخبر قبل تلويثه بالتوقعات الصحفية وتلفيق وزارة الأمن الوطني.

سأتصل بوزارة الأمن الوطني وأطلب منهم التعليق قبل النشر، لكنني سأفعل ذلك على نحو يوفر لك الحماية إلى أقصى حد ممكن، وسأحرص أيضًا على إطلاعك على ما يحدث قبل حدوثه.

ثمة شيء واحد يجب أن أوضحه: لم تعد هذه قصتك بعد الآن، بل قصتي. لقد كنت كريمًا للغاية في إفصاحك عنها لي، وسأحاول رد الجميل لك. لكن ليس لك الحق في تحريرها أو تغييرها أو إيقافي. صار ذلك الآن أمرًا واقعًا، ولن يتوقف. هل تفهم ذلك؟»

لم أفكر في الأمر على هذا النحو، لكنها عندما قالت ذلك، كان واضحًا. لقد أطلقت الصاروخ، وصار الآن في الهواء، ولا يمكنني إعادته للأرض. سوف يسقط حيث يهدف، أو يحيد عن مساره. لكنه الآن في الهواء ولا يمكن تغيير ذلك. في وقت ما بالمستقبل القريب، سأتخلى عن شخصية ماركوس ... سأصبح شخصية عامة، سأكون الشخص الذي أبلغ عما تفعله وزارة الأمن الوطني.

سأهلك لا محالة.

أعتقد أن آنج كانت تفكر في الأمر نفسه؛ إذ تلون وجهها بين الأبيض والأخضر.

وقالت: «لنخرج من هنا.»

مرة أخرى لم تكن والدة آنج وأختها في البيت، ما سهل علينا تحديد المكان الذي سنذهب إليه ذلك المساء. كان الوقت قد تجاوز موعد العشاء، لكن والديَّ كانا يعلمان أنني سأقابل باربارا، ولن تزعجهما عودتي للمنزل متأخرًا.

عندما وصلت مع آنج إلى منزلها، لم تكن لدي رغبة في تشغيل جهاز إكس بوكس؛ فكنت قد نلت كفايتي من شبكة إكس نت ليوم واحد. كل ما كان بوسعي التفكير فيه هو آنج، وآنج فقط. كنت أفكر قبل ذلك الحين في العيش بدونها، وأنها غاضبة مني، وأنني لن أتحدث معها أو أقبِّلها ثانيةً.

وهي أيضًا كانت تفكر في الأمر نفسه. كان بوسعي رؤية ذلك في عينيها عند إغلاقها باب غرفة النوم، ونظر كلٌّ منا للآخر. كم كنت مشتاقًا إليها شوقًا يشبه جوع الصائم عن الطعام لأيام، أو التوق لكوب ماء بعد لعب كرة القدم ثلاث ساعات متواصلة.

رغم ذلك، فلم يشبه شعوري أيًّا من ذلك. لقد كان شعورًا لم أختبره من قبل قط. لقد أردت افتراسها.

حتى ذلك الحين، كانت هي دومًا الطرف الأكثر إثارة من الناحية الجنسية في علاقتنا، فكنت أدعها تضبط الإيقاع وتتحكم فيه. وقد كان من المثير للغاية أن تمسك بي، وتخلع عني قميصي، وتجذب وجهي ناحية وجهها.

لكنني في تلك الليلة، لم أكن قادرًا على التحكم في نفسي ... وما كنت لأفعل.

سمعت صوت باب الغرفة وهو يُغلَق فأمسكت طرف قميصها وجذبته بقوة، لا أكاد أمنحها وقتًا لترفع ذراعيها وأنا أمرر القميص عبر رأسها. خلعت أنا الآخر قميصي بعنف، منصتًا إلى صوت قرقعة القطن أثناء انفتاق عقد الخيط.

كانت عيناها تلتمعان، وفمها مفتوحًا، وأنفاسها متسارعة وقصيرة. كذلك كانت أنفاسي؛ كان لأنفاسي وقلبي ودمي جميعًا زئير صائت في أذنيَّ.

خلعتُ عنا بقية ملابسنا بحماسة مماثلة، ملقيًا إياها على أكوام الغسيل المتسخ والنظيف على الأرضية. كانت هناك كتب وأوراق متناثرة على السرير، فأزحتها جانبًا. بعد ثانية من ذلك، استلقينا على فرش السرير غير المرتب، يلف كل منا الآخر بذراعيه، ثم عانقنا بعضنا البعض بقوة. تأوهتْ في فمي وأنا كذلك، وشعرت بأن صوتها يطن في أحبالي الصوتية، وهو شعور أكثر حميمية من أي شعور مررت به من قبل.

أفلتت مني ووصلت إلى الطاولة التي بجانب السرير، وفتحت بقوة الدرج وألقت كيس صيدلية أبيض على السرير أمامي. نظرت بداخله، فوجدت علبة من العوازل الذكرية. كانت العلبة لا تزال مغلقة. ابتسمت في وجهها وردت هي الابتسامة وفتحت العلبة.

كنت أفكر منذ فترة طويلة فيما ستكون عليه هذه العملية، وكنت أتخيلها مئات المرات كل يوم. وفي بعض الأيام، كنت في الواقع لا أفكر في سواها.

إنها لم تكن قط كما تصورت. جوانب منها كانت أفضل، والكثير منها أسوأ. في أثنائها شعرت أنها ستدوم طويلًا، لكن بعد ذلك اتضح لي أنها انتهت في طرفة عين.

انتهى الأمر وشعرت بعدها أن شيئًا لم يتغير، لكنني أيضًا شعرت باختلاف. كان شيئًا قد تغير بيننا.

كان الأمر غريبًا، كنا خجلين ونحن نرتدي ملابسنا، ورحنا نتسكع في الغرفة، يدير كلٌّ منا نظره عن الآخر دون أن تلتقي عيوننا، ثم ذهبتُ إلى الحمام ووضعت العازل الذكري في منديل وألقيته في صندوق القمامة.

عندما عدت إلى الغرفة، كانت آنج تجلس على السرير وتلعب بجهاز إكس بوكس الخاص بها. جلست بحذر بجانبها، وأمسكت بيدها. استدارت لتواجهني، وابتسمت. كنا منهكي القوى ونرتعش.

قلت لها: «شكرًا.»

لم تقل شيئًا، وأدارت رأسها ناحيتي. ارتسمت على وجهها ابتسامة كبيرة، لكن ثمة دموع سالت على وجنتيها.

عانقتها، واحتضنتها بقوة. فهمست: «أنت رجل صالح يا ماركوس يالو. شكرًا لك.»

لم أعلم ما ينبغي أن أقوله، لكنني احتضنتها بقوة. وأخيرًا، افترقنا. اختفت دموعها، وظلت ابتسامتها على وجهها.

أشارت لجهاز إكس بوكس الخاص بي الموجود على الأرض بجوار السرير. فهمت ما عنته، التقطتُه، وقمت بتشغيله وسجلت الدخول.

لم يكن من شيء جديد؛ الكثير من رسائل البريد الإلكتروني والمشاركات الجديدة بالمدونات، ورسائل غير مرغوب فيها، الكثير منها. كان صندوق بريدي السويدي يتلقى العديد من الرسائل غير المرغوب فيها؛ إذ استُخدِم كعنوان رد للرسائل غير المرغوب فيها المرسَلة إلى مئات الملايين من حسابات الإنترنت، ومن ثم عادت إليَّ كل رسائل الاستياء والبريد المرتد. لم أكن أعرف من يقوم بهذا. ربما تحاول وزارة الأمن الوطني إغراق بريدي بالرسائل حتى يتوقف عن العمل، أو ربما يحاول الناس فقط خداعي. لكن حزب القراصنة كانت لديه فلاتر جيدة للغاية، وكانوا يمنحون لأي شخص يرغب فيها ٥٠٠ جيجا بايت من سعة تخزين البريد الإلكتروني؛ ومن ثم لم يكن من المحتمل أن يتم إغراق بريدي الإلكتروني في أية لحظة.

عمدت إلى التخلص من كل الرسائل، بالضغط على مفتاح الحذف. كان لدي صندوق بريد منفصل للأمور التي كانت تصل مشفرة باستخدام مفتاحي العام؛ إذ كان من المحتمل أن يكون لها علاقة بشبكة إكس نت، ولها طبيعة حساسة. لم يدرك مرسلو البريد غير المرغوب فيه أن استخدام المفاتيح العامة من شأنه جعل بريدهم أكثر قابلية للتصديق، ومن ثم كان الأمر ناجحًا حتى ذلك الحين.

وصلتني كذلك العشرات من الرسائل المُشفَّرة من أناس في شبكة الثقة. تصفحتها سريعًا؛ كانت روابط لصور ومقاطع فيديو تعرض انتهاكات جديدة لوزارة الأمن الوطني، وروايات مرعبة عن حالات هروب تمت بصعوبة، وتعنيفًا على أمور نشرتها بالمدونة. كلها أمور معتادة.

وصلت بعد ذلك إلى رسالة شُفِّرت باستخدام مفتاحي العام فقط، وقد عنى ذلك أنه ما من أحد يمكنه قراءتها غيري، لكن لم تكن لدي أية فكرة عمن كتبها. اسم المُرسِل الموضَّح بها هو ماشا، وهو ما يمكن أن يكون اسمًا أو اسمًا مستعارًا ... ما من سبيل للتأكد من ذلك.

«مايكي»

«أنت لا تعرفني، لكنني أعرفك.»

«قُبِض عليَّ يوم تفجير الجسر، وخضعت للاستجواب، وتقررت براءتي. عرضوا عليَّ وظيفة؛ وهي مساعدتهم في القبض على الإرهابيين الذين قتلوا جيراني.»

«بدا اتفاقًا جيدًا في حينه، لكنني لم أدرك أن وظيفتي الحقيقية ستكون التجسس على الشباب الذين رفضوا تحوُّل مدينتهم إلى دولة شرطية.»

«لقد تسللت إلى شبكة إكس نت يوم تدشينها. وتضمني شبكة الثقة الخاصة بك. إذا أردت الإفصاح عن هويتي، فكان بإمكاني إرسال بريد إلكتروني لك من عنوان تثق فيه، بل ثلاثة عناوين في الواقع؛ فأنا جزء لا يتجزأ من شبكتك مثل أي شاب في السابعة عشرة من عمره. بعض من البريد الإلكتروني الذي وصلك تضمن معلومات خاطئة مني ومن رؤسائي.»

«إنهم يجهلون هويتك، لكنهم أوشكوا على معرفتها؛ فهم لا ينفكون يستقطبون ويساومون الناس. إنهم ينقبون في مواقع الشبكات الاجتماعية، ويستخدمون التهديدات لتحويل الشباب إلى واشين. هناك المئات من الناس

يعملون لحساب وزارة الأمن الوطني على شبكة إكس نت في الوقت الحالي. لدي أسماؤهم وأسماؤهم المستعارة ومفاتيحهم: العامة والخاصة.»

«في خلال أيام من تدشين شبكة إكس نت، عملنا على استغلال نظام «بارانويد لينكس». وعمليات الاستغلال حتى الآن صغيرة وواهية، لكن هذا لن يدوم طويلًا. وبمجرد أن يحدث هذا، ستهلك.»

«أعتقد أنه من الآمن أن أقول إنه إذا علم رؤسائي أنني أكتب ذلك، فسوف يلقون بي في جوانتانامو الخليج إلى أن يشيب رأسي.»

«حتى وإن لم يخترقوا نظام «بارانويد لينكس»، فثمة نسخ مقلدة منتشرة من أجهزة «بارانويد إكس بوكس»، ولا تتماشى مع بيانات التدقيق، لكن كم من الناس ينظرون لهذه البيانات غيري وغيرك؟ الكثير من الشباب هالكون بالفعل، وإن لم يعلموا ذلك.»

«ولم يعد أمام رؤسائي سوى اختيار أفضل وقت للقبض عليك والخروج بخبر عظيم في وسائل الإعلام. سيحدث ذلك عاجلًا، وليس آجلًا. صدقني.»

«لا ريب أنك تتساءل الآن عن سبب إخباري لك بذلك.»

«وأنا أيضًا.»

«إليك السبب: لقد كُلِّفت بمحاربة الإرهابيين، لكنني — بدلًا من ذلك — أتجسس على الأمريكيين الذين يؤمنون بأمور لا تروق لوزارة الأمن الوطني. أتجسس على ناس لا يخططون لتفجير جسور، وإنما هم محتجُّون. ولا يمكنني الاستمرار في ذلك.»

«لكن لا يمكنك أنت أيضًا الاستمرار، سواء أكنت تعلم ذلك أم لا؛ فكما أقول لك، إنها مسألة وقت فقط وستعود مكبلًا بالأصفاد إلى جزيرة «تريجر آيلاند». إنها ليست مسألة احتمال، وإنما وقت.»

«انتهى ما لدي. هناك بعض الناس في لوس أنجلوس قالوا إنهم سيوفرون لي الأمان إذا أردت الابتعاد عن هنا.»

«أريد الابتعاد.»

«سأصطحبك معي إذا أردت ذلك. المقاتل أفضل من الشهيد. إذا تعاونت معي، يمكننا أن نتوصل إلى كيفية نحقق بها النصر معًا. أنا ذكية مثلك، صدقني!»

«ما رأيك؟»
«إليك مفتاحي العام.»
«ماشا»

«عند الوقوع في مشكلة، أو الشعور بالشك، تحرَّك في دوائر، صِح، واصرخ.»

هل سمعت هذه النصيحة من قبل؟ إنها ليست نصيحة جيدة، لكنها على الأقل سهلة التنفيذ. نهضت من على السرير، وأخذت أسير جيئة وذهابًا. دقَّ قلبي بعنف، وكذلك دمي مثلما كان الحال عندما وصلت إلى المنزل مع آنج. لكن هذه المرة لم تكن الإثارة الجنسية هي السبب، وإنما الخوف الخالص.

سألتني آنج: «ماذا هناك؟ ماذا حدث؟»

أشرت إلى الشاشة الموجودة عند طرف السرير الذي أجلس عنده، فاقتربت وأمسكت لوحة المفاتيح، وحركت بنانها على لوحة التأشير، وأخذت تقرأ في صمت.

وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

قالت آنج: «كل هذه أكاذيب، لا شك؛ فوزارة الأمن الوطني تحاول التلاعب برأسك.»

نظرت إليها، كانت تقضم شفتها. بدا عليها عدم التصديق.

«هل تعتقدين ذلك؟»

«بالتأكيد. لا يمكنهم هزيمتك؛ ولذلك فهم يطاردونك باستخدام إكس نت.»

«نعم.»

عاودت الجلوس على السرير، وتسارعت أنفاسي ثانيةً.

قالت آنج: «لتهدأ! ليست سوى محاولة للتلاعب بك. فلتعطني هذه!»

لم تأخذ لوحة المفاتيح من يدي من قبل، لكن ثمة نوع جديد من الحميمية بدأ بيننا. ضغطت على زر الرد، وكتبت:

«محاولة جيدة!»

كانت تكتب باسم مايكي الآن أيضًا. اختلفت العلاقة بيننا عما مضى.

«هيا، وقع. سنرى ما ستقوله.»

لم أعرف إذا كان هذا هو التصرف السليم أم لا، لكن لم تكن لدي أية أفكار أفضل من ذلك. وقعت الرسالة، وشفرتها باستخدام مفتاحي الخاص والمفتاح العام الذي قدمته ماشا لي.

وجاء الرد في الحال.

«ظننت أنك ستقول شيئًا من هذا القبيل.»

«إليك نوعًا من القرصنة لم تفكر فيه من قبل. يمكنني النقل النفقي لمقطع فيديو مجهول المصدر عبر بروتوكول نظام أسماء النطاقات (دي إن إس). إليك بعض الروابط لمقاطع قد ترغب في الاطلاع عليها قبل أن تقرر أن ما أقوله هراء. يسجل هؤلاء الناس لبعضهم البعض، طوال الوقت، كنوع من الضمان ضد الخيانة، ومن اليسير للغاية التجسس عليهم أثناء تجسسهم على بعضهم البعض.»

«ماشا»

أرفقت الكود الأساسي لبرنامج بسيط بدا أنه يقوم بما ادَّعت ماشا بالضبط: نقل فيديو عبر بروتوكول دي إن إس.

لأتوقف هنا لحظات، وأوضح شيئًا ما. في نهاية كل يوم، لا يكون كل بروتوكول من بروتوكولات الإنترنت سوى تسلسل من النص يُرسَل جيئة وذهابًا بترتيب مُحدد، ويشبه ذلك الإتيان بشاحنة، ووضع سيارة داخلها، ثم وضع دراجة بخارية داخل صندوق السيارة، وبعد ذلك ربط دراجة بمؤخرة الدراجة البخارية، ثم تعليق حذاء تزلج بمؤخرة الدراجة. بدلًا من ذلك، يمكنك — إذا أردت — ربط الشاحنة بحذاء التزلج مباشرةً.

ومثال على ذلك بروتوكول إرسال البريد البسيط (إس إم تي بي) الذي يُستخدَم لإرسال البريد الإلكتروني.

فيما يلي نموذج محادثة بيني وبين خادم البريد الإلكتروني الخاص بي أثناء إرسال رسالة إلى نفسي:

– مرحبًا littlebrother.com.se.

mail.pirateparty.org.se 250 مرحبًا mail.pirateparty.org.se يسعدني لقاؤك.

– رسالة من: m1k3y@littlebrother.com.se.

250 2.1.0 m1k3y@littlebrother.com.se ... تم تحديد المرسل.

– إلى: m1k3y@littlebrother.com.se.

250 2.1.5 m1k3y@littlebrother.com.se ... تم تحديد المرسل إليه.

– بيانات.
354 أدخل رسالة تنتهي بـ «.» على سطر منفصل.
– عند الوقوع في مشكلة أو الشعور بالشك، تحرك في دوائر، صِح، واصرخ.
– .
250 2.0.0 k5SMW0xQ006174 قُبِلت الرسالة للإرسال.
إنهاء.
221 2.0.0 mail.pirateparty.org.se يغلق الاتصال.
أُنهي الاتصال بواسطة مضيف أجنبي.

تحددت قواعد هذه المحادثة في عام ١٩٨٢ على يد جون بستيل، أحد المساهمين الأساسيين في ظهور الإنترنت، والذي عمل على تشغيل أهم الخوادم بشبكة الإنترنت تحت مكتبه في جامعة جنوب كاليفورنيا في الحقبة الماضية.

والآن، لتتخيل أنك قد أوصلت خادم بريد بإحدى جلسات المراسلة الفورية. يمكنك إرسال رسالة فورية إلى الخادم الذي أرسل عبارة: «مرحبًا littlebrother.com.se»، وسيكون رده: «250 mail.pirateparty.org.se مرحبًا mail.pirateparty.org.se، يسعدني لقاؤك.» بعبارة أخرى، يمكنك أن تجري المحادثة نفسها بالرسائل الفورية مثلما تفعل عبر بروتوكول إس إم تي بي. وبإجراء التعديلات السليمة، يمكن إتمام كل ما يحدث في خادم البريد داخل محادثة، أو جلسة على الويب، أو أي شيء آخر.

يسمَّى ذلك بـ «النقل النفقي». تضع بروتوكول إس إم تي بي داخل «نفق» محادثة، ويمكنك حينئذٍ إعادة وضع المحادثة داخل نفق بروتوكول إس إم تي بي، هذا إن كنت غريب الأطوار؛ فهذا يعني وضع النفق في نفق آخر.

في الواقع، كل بروتوكول من بروتوكولات الإنترنت عرضة لهذه العملية. وهذا رائع؛ إذ يعني أنك إذا كنت بشبكة لا يمكن الدخول عليها إلا من الويب، يمكنك إحداث نقل نفقي لبريدك عبر هذه الشبكة، ويمكنك أيضًا وضع شبكة الند للند المفضلة لديك داخلها، بل ويمكنك أيضًا وضع شبكة إكس نت داخلها (وهي الشبكة التي تعد نفقًا للعشرات من البروتوكولات).

وبروتوكول دي إن إس بروتوكول إنترنت قديم ومثير للاهتمام يعود تاريخه إلى عام ١٩٨٣، وهو الوسيلة التي يغير بها الكمبيوتر الخاص بك اسم كمبيوتر، مثل pirateparty.org.se، إلى رقم بروتوكول الإنترنت الذي تستخدمه أجهزة الكمبيوتر فعليًّا

للتواصل بعضها مع البعض عبر الإنترنت، مثل ٢٠٤.١١.٥٠.١٣٦. يعمل هذا البروتوكول بشكل عام على نحو سريع وفعال، رغم تضمنه الملايين من الأجزاء المتحركة. فكل مزود خدمة إنترنت يشغل خادمًا لهذا البروتوكول، كما هو الحال مع معظم الحكومات والعديد من جهات تشغيل الخدمة الخاصة. تتصل كل هذه الخوادم معًا، وتصدر طلبات وتملؤها بعضها لبعض. وبذلك، مهما كان الاسم الذي تعطيه لجهاز الكمبيوتر الخاص بك مبهمًا، فسيتمكن من تحويله إلى رقم.

قبل هذا البروتوكول، كان هناك ملف HOSTS. ولك أن تصدق أو لا، هذا الملف كان مستندًا واحدًا يدرج اسم كل كمبيوتر متصل بالإنترنت وعنوانه. وكل كمبيوتر عليه نسخة من هذا الملف. وفي النهاية، أصبح ذلك الملف كبيرًا للغاية بحيث لا يمكن تناقله؛ ولذلك صُمِّم بروتوكول دي إن إس، وتم تشغيله على خادم كان موجودًا تحت مكتب جون بستيل. وإذا حرك عمال النظافة القابس، فقد الاتصال بالإنترنت. هذه حقيقة!

الفكرة هي أن بروتوكول دي إن إس منتشر للغاية الآن. كل شبكة بها خادم لهذا البروتوكول، وكل هذه الخوادم مهيَّأة للاتصال بعضها بالبعض وبأفراد عشوائيين بجميع أنحاء الإنترنت.

ما فعلته ماشا هو التوصل إلى طريقة لإحداث نقل نفقي لفيديو عبر بروتوكول دي إن إس. وكانت تقسم الفيديو إلى ملايين من الأجزاء، وتخبِّئ كل جزء في رسالة عادية على أحد خوادم بروتوكول دي إن إس. وبتشغيل الكود الذي صممته، تمكنت من نقل الفيديو من كل هذه الخوادم بجميع أنحاء الإنترنت وبسرعة هائلة. لا بد أن ذلك بدا غريبًا على المدرجات الإحصائية التكرارية بالشبكة، كما لو كنت أبحث عن عنوان كل كمبيوتر في العالم.

بيد أنه كان يتمتع بميزتين قدَّرتهما في آن واحد؛ ألا وهما أنني كنت قادرًا على الحصول على الفيديو بسرعة البرق؛ بمجرد أن نقرت على الرابط الأول، بدأت في تلقي صور بملء الشاشة دون الانتظار طويلًا، وأنني لم تكن لدي فكرة عن مكان استضافة هذا الفيديو. لقد كان الفيديو مجهول المصدر كليةً.

في البداية، لم ألاحظ حتى محتوى الفيديو؛ فقد أربكتني براعة هذه القرصنة. نقل فيديو عبر بروتوكول دي إن إس! كان ذلك بارعًا وغريبًا، بل في الواقع منحرفًا.

تدريجيًّا، بدأت أدرك ما كنت أراه أمامي.

كنت أشاهد طاولة بغرفة اجتماعات صغيرة معلقة بها مرآة على أحد الحوائط. جلست من قبل في تلك الغرفة، وذلك عندما أجبرتني السيدة صاحبة الشعر القصير على

الإفصاح بكلمة المرور الخاصة بي. وحول الطاولة خمسة كراسيَّ وثيرةٍ يجلس على كلٍّ منها شخص يبدو عليه الارتياح ويرتدي زي وزارة الأمن الوطني. إلى جانب السيدة ذات الشعر القصير، تعرفت أيضًا على اللواء جرايام سانذرلاند، قائد منطقة الخليج التابعة لوزارة الأمن الوطني. أما الآخرون، فلم أرهم من قبل. كانوا جميعًا يشاهدون شاشة فيديو عند نهاية الطاولة يظهر بها وجه مألوف أكثر لي.

اشتهر كيرت روني على المستوى القومي بالخبير الاستراتيجي الأول لرئيس الجمهورية، وهو من أعاد الحزب لفترة حكم ثالثة، ويتقدم بحماس نحو فترة رابعة، وقد أُطلِق عليه لقب «عديم الرحمة». شاهدت تقريرًا صحفيًّا ذات مرة عن مدى صرامته في السيطرة على العاملين معه؛ فلا ينفك يتصل بهم ويراسلهم بالرسائل الفورية ويتتبع كل حركة يقومون بها ويتحكم في كل خطوة لهم. كان كبيرًا في السن، تعلو وجهه التجاعيد، لون عينيه رمادي باهت، أنفه مسطح ذو فتحتين واسعتين، وشفتاه رقيقتان، بدا وجهه مكفهرًّا.

كان هو الموجود على الشاشة. كان يتحدث والآخرون يركزون في الشاشة، ويسجلون ملاحظات بأقصى سرعة ممكنة، محاولين أن تبدو عليهم البراعة.

«... بفرض أنهم غاضبون من السلطة، ينبغي أن نوضح للشعب أن من يقع عليه اللوم هم الإرهابيون وليس الحكومة. هل تفهمونني؟ إن الشعب لا يحب هذه المدينة؛ فهي في نظره مثل مدن المثليين والملحدين الذين يستحقون الهلاك في نار جهنم. السبب الوحيد لاهتمامه بسان فرانسيسكو هو أنها قد حالفها الحظ في هجوم الإرهابيين الإسلاميين عليها.

اقترب هؤلاء الشباب بشبكة إكس نت من أن يكونوا مفيدين لنا؛ فكلما زاد تطرفهم، زاد إدراك الشعب لانتشار التهديدات في كل مكان.»

انتهى المشاهدون من الكتابة.

قالت السيدة ذات الشعر القصير: «أعتقد أنه بوسعنا التحكم في ذلك. أحدث عملاؤنا في شبكة إكس نت تأثيرًا كبيرًا. يدير كل مدون من المدونين المنشوريين ما يصل إلى خمسين مدونة تتدفق بقنوات المحادثة، وتربطهم ببعضهم البعض، مع الاعتماد في الغالب على خط الحزب الذي أعده مايكي هذا. لكنهم أثبتوا أنهم بوسعهم إثارة أفعال متطرفة، حتى عندما يوقفهم مايكي.»

أومأ اللواء سانذرلاند برأسه، وقال: «كنا نخطط لتركهم يعملون في الخفاء حتى شهر قبل الانتخابات النصفية. هذا ما تنص عليه الخطة الأصلية، لكن يبدو أن ...»

قال روني: «لدينا خطة أخرى للانتخابات العامة النصفية. ومن نافلة القول أنه سينبغي لكم — على الأرجح — ألا تخططوا للسفر لمدة شهر قبل ذلك الحين. لتطلقوا العنان لشبكة إكس نت الآن، في أقرب وقت ممكن. فكلما استمروا في الاعتدال، صاروا عائقًا. لِنَدَعْهم متطرفين.»

وتوقف مقطع الفيديو.

جلست أنا وآنج على طرف السرير ونحن ننظر إلى الشاشة. أعادت آنج تشغيل الفيديو، وشاهدناه مرة أخرى. وكان أسوأ في المرة الثانية.

أزحت لوحة المفاتيح جانبًا، ونهضت.

قلت لها: «لقد سئمت الخوف حقًّا. لنطلع باربارا على هذا الفيديو ونطلب منها أن تنشر الأمر، وترفع كل شيء على الإنترنت ليعتقلوني. على الأقل، سأعرف ما سيحدث حينئذٍ. على الأقل، سيكون هناك بعض اليقين في حياتي.»

جذبتني آنج نحوها، عانقتني، وهدأت من روعي. قالت لي: «أعلم، يا حبيبي، أعلم. الأمر برمته بشع. لكنك لا تفكر إلا في الجانب السيئ، وتتجاهل الجانب الجيد. لقد أسست حركة، وخدعت حمقى البيت الأبيض ومحتالي وزارة الأمن الوطني. لقد وضعت نفسك في موقف يمكنك أن تتولى فيه مسئولية كشف الستار عن كافة أعمال وزارة الأمن الوطني القذرة.

بالطبع، سيسعون لإلقاء القبض عليك. هل شككت لحظة في ذلك؟ لطالما علمت أنهم سيفعلون ذلك. لكنهم، يا ماركوس، لا يعرفونك. فلتفكر في الأمر: كل هؤلاء الناس، والأموال، والأسلحة، والجواسيس لمواجهتك أنت طالب الثانوية البالغ من العمر سبعة عشر عامًا ... لا تزال الغلبة لك. إنهم لا يعلمون أي شيء عن باربارا، أو زِيب. لقد شوشت على عملهم في شوارع سان فرانسيسكو، وأحرجتهم أمام العالم؛ لذا، فلتتوقف عن التفكير على هذا النحو الكئيب، ألا تفعل؟ أنت المنتصر عليهم.»

«لكنهم سيلقون القبض عليَّ. هل تفهمين ما أقوله؟ سيزجون بي في السجن للأبد. وليس السجن فقط، بل سيخفونني عن الأنظار، مثلما فعلوا بداريل. وربما ما هو أسوأ، ربما سيرسلونني إلى سوريا. لماذا يتركونني في سان فرانسيسكو؟ طالما أنا موجود في الولايات المتحدة، أنا عائق في طريقهم.»

جلست آنج على السرير بجانبي.

وقالت: «هل هذا ما تقصده؟»

«نعم.»

«حسنًا، تعلم ما عليك فعله، أليس كذلك؟»

سألتها: «ماذا؟» فنظرت إلى لوحة المفاتيح الخاصة بي. كان بوسعي رؤية الدموع تسيل على وجنتيها. قلت لها: «كلا! لقد فقدت صوابك. هل تعتقدين أنني سأهرب مع مجنونة عرفتها على الإنترنت؟ جاسوسة؟»

«هل لديك فكرة أفضل من هذه؟»

ركلت كومة من ملابسها المعدة للغسيل في الهواء، وأنا أقول: «حسنًا، سأستمر في التحدث معها.»

فقالت آنج: «نعم، تحدث معها، وأخبرها أنك وصديقتك ستهربان.»

«ماذا؟»

«اخرس أيها الأحمق. هل تظن نفسك في خطر؟ لا يقل الخطر الذي أتعرض له عما تتعرض له يا ماركوس. يُعرَف ذلك بالجرم بالتبعية. عندما تغادر، سأغادر معك.» برز فكها للخارج على نحو متمرد. «أنت وأنا ... صرنا معًا الآن. عليك أن تفهم ذلك.»

جلسنا على السرير معًا.

قالت أخيرًا بصوت خفيض: «إلا إذا لم تكن تريدني.»

«أنت تمزحين، أليس كذلك؟»

«هل أبدو مازحة؟»

«ما كنت لأرحل بدونك أبدًا، يا آنج، لو كان لي الاختيار. وما كنت لأطلب منك المجيء معي، لكن فرحتي بعرضك هذا لا توصَف.»

ابتسمت لي، وأعطتني لوحة المفاتيح.

«لترسل رسالة بريد إلكتروني لهذه المدعوة ماشا. لنرَ ما يمكنها أن تقدمه لنا.»

أرسلت لها رسالة مُشفَّرة، وانتظرت الرد. فداعبتني آنج بأنفها وبادلتها القبل، وتعانقنا. جعلني الخطر الذي نحن بصدده، واتفاقنا على الهروب معًا أنسى شعور الحرج الذي انتابني عند مضاجعتها، وأشعر بإثارة شديدة ورغبة في القيام بذلك مرة أخرى.

كنا قد خلعنا نصف ملابسنا بالفعل عندما وصلت رسالة ماشا:

«اثنان؟ يا إلهي! كما لو أن الأمر بحاجة لمزيد من التعقيد.»

«لا يمكنني الرحيل إلا لإجراء استخبارات ميدانية بعد وقوع حدث ضخم على شبكة إكس نت. هل تفهمني؟ يراقب رؤسائي كل تحركاتي، لكنني أتحرر من هذه المراقبة عندما يقع حادث جلل لمستخدمي شبكة إكس نت. عندئذٍ، أُرسَل للعمل الميداني.»

«لتحقق شيئًا ما مهمًّا؛ فأُرسَل للعمل الميداني، ونغادر جميعًا. نغادر نحن الثلاثة، إذا كنت مُصرًّا على ذلك.»

«لكن عليك أن تسرع. لا يمكنني إرسال الكثير من رسائل البريد الإلكتروني إليك، أتفهم ما أعنيه؟ فهم يراقبونني، وأوشكوا على التوصل إليك. ليس أمامك متسع من الوقت. أسابيع، ربما أيام فقط.»

«أنا بحاجة إليك لأتمكن من الهرب، وهذا السبب وراء فعلي ذلك، إن كنت تتساءل عن السبب. لا يمكنني الهرب وحدي. إنني بحاجة لإلهاء كبير على شبكة إكس نت، وهذا تخصصك. لا تخذلني يا مايكي، وإلا فسنصير — نحن الاثنين — في عداد الموتى. وكذلك فتاتك.»

«ماشا»

رنَّ هاتفي، فانتفض كلانا. كانت أمي ترغب في معرفة متى سأعود للمنزل. أخبرتها أنني في الطريق. لم تذكر باربارا؛ فقد اتفقنا على ألا نتحدث في هذه الأمور في الهاتف. كانت تلك فكرة أبي. لعله يعاني من جنون الارتياب مثلي.

قلت لآنج: «يجب أن أذهب.»

«آباؤنا سوف ...»

فقاطعتها قائلًا: «أعلم، لقد رأيت ما حدث لوالديَّ عندما ظنا أنني لقيت حتفي. ولن يكون الوضع أفضل إذا علما أنني هارب. لكن أن أكون هاربًا أفضل من أن أكون مسجونًا في نظرهما. هذا ما أظنه. بأي حال، ما إن نختفي حتى تتمكن باربارا من نشر كل شيء دون أن تقلق من إيقاعنا في مشكلات.»

تبادلنا القبل عند باب غرفتها، لكن ليس بالحرارة نفسها التي نقبل بها بعضنا البعض عند الفراق. هذه المرة كانت قبلة لطيفة بطيئة، قبلة وداع.

تجعلك الرحلات بشبكة بارت متأملًا عميق الفكر. عندما يهتز القطار جيئةً وذهابًا، وتحاول ألا تنظر في عيون الركاب الآخرين، وألا تقرأ الإعلانات عن الجراحات التجميلية،

والضامنين واختبارات الكشف عن الإيدز، وتحاول تجاهل الجرافيتي وألا تنظر بتركيز إلى فرش الأرض، حينئذٍ يبدأ رأسك يموج بالأفكار.

يهتز جسدك جيئةً وذهابًا، وتفكر في كل شيء تجاوزت عنه من قبل، ويمر أمام عينيك شريط حياتك بما فيه من لحظات جبن، أو حماقة، أو سذاجة.

يتوصل عقلك لنظريات من قبيل:

«إذا أرادت وزارة الأمن الوطني القبض على مايكي، فهل من سبيل أفضل من جذبه لمكان مفتوح، وإرهابه لينظم حدثًا عامًّا ضخمًا على شبكة إكس نت؟ ألا يستحق ذلك تسريب فيديو مشبوه؟»

يتوصل عقلك إلى هذه الأمور حتى وإن لم يسر القطار سوى محطتين أو ثلاث محطات. وعندما تنزل، وتبدأ في التحرك، تجري الدماء ثانية في عروقك، وأحيانًا يساعدك عقلك في الخلاص ثانيةً.

وأحيانًا، إلى جانب المشكلات، يمنحك عقلك حلولًا.

الفصل الثامن عشر

أهدي هذا الفصل إلى متجر صوفيا بوكس متعدد اللغات في مدينة فانكوفر، ذلك المتجر المثير والمتنوع الزاخر بأفضل صور الثقافة الشعبية الغريبة والمثيرة من كافة الأنحاء. كان متجر صوفيا بجوار الفندق الذي كنت أقيم فيه أثناء زيارتي لفانكوفر لإلقاء محاضرة في جامعة سايمون فريزر، وأرسل لي القائمون على المتجر رسالة بريد إلكتروني لكي أعرج عليهم وأوقع الكتب التي كانوا يعرضونها بينما كنت في الجوار. عندما وصلت هناك، اكتشفت مجموعة نفيسة من الأعمال التي لم أرها من قبل في مجموعة مذهلة من اللغات، بدءًا من الروايات المصورة ووصولًا إلى الأبحاث الأكاديمية الضخمة، ويشرف عليها فريق عاملين حَسنِي الطباع (بل ومرحين أيضًا)، من الواضح أنهم كانوا يستمتعون بعملهم، الأمر الذي يدركه كل عميل يدخل من الباب.

* * *

مرَّ عليَّ وقت كانت أحبُّ الأمور فيه إلى قلبي على الإطلاق هي ارتداء حَرمَلة والذهاب إلى الفنادق، متظاهرًا أنني مصاص دماء خفي يحدق فيه الجميع.

الأمر معقد، وليس غريبًا مثلما يبدو لك. جمعت ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعيٍّ أفضلَ عناصر لعبة «سجون وتنانين» ولعب الأدوار الدرامية ومؤتمرات الخيال العلمي.

أعلم أن ذلك قد لا يجعلها تبدو جذابة لك كما كانت في نظري وأنا في الرابعة عشرة من عمري.

أفضل الألعاب كانت تلك التي نمارسها في معسكرات الكشافة خارج المدينة: المئات من المراهقين من الجنسين، يواجهون ازدحام مرور يوم الجمعة، ويتبادلون القصص، ويلعبون بالألعاب التي تُحمل باليد، ويتفاخرون لساعات. بعد ذلك يترجلون عن المركبات ليقفوا وسط الحشائش أمام مجموعة من الرجال والسيدات الأكبر سنًّا يرتدون دروعًا سيئة مصنوعة في المنزل، متبعجة ومليئة بالخدوش، مثلما كان حال الدروع في الزمن الماضي، ليست كما تصورها الأفلام السينمائية، وإنما كما يبدو زي الجندي الذي ظل شهرًا في الأحراش.

كان هؤلاء الأفراد يتلقون أجرًا مقابل إدارة الألعاب، لكن لا يمكن أن تُعيَّن في هذه المهمة إلا إذا كنت من النوع الذي يمكن أن يؤديها دون مقابل. كانوا يقسموننا إلى فريقين بناءً على الاستبيانات التي كنا نملؤها سلفًا، ثم يخبروننا بمهام فريقنا بعد ذلك، مثل تقسيمنا لفريقَي بيسبول.

تحصل بعد ذلك على تعليمات توجيهية تشبه تلك التي يحصل عليها الجواسيس في الأفلام السينمائية؛ وتتضمن بداخلها هويتك، ومهمتك، والأسرار التي تعلمها عن المجموعة.

يلي ذلك العشاء: نيران متوهجة، لحم يتقلب في الأسياخ، توفو يئز على المقلاة (في شمال كاليفورنيا، النظام الغذائي النباتي ليس اختيارًا)، وأسلوب الأكل والشرب لا يمكن وصفه إلا بأنه شَرَهٌ.

يبدأ بعد ذلك المتحمسون في تقمص الشخصية التي يلعبونها. أول لعبة مارستها أديت فيها دور ساحر، فحملت كيسًا به العديد من أكياس حبات الفول التي من المفترض أن تمثل تعاويذ سحرية. فكنت عندما ألقي واحدًا منها، أصيح باسم التعويذة التي ألقيها (كرة نار، صاروخ سحري، مخروط ضوء)، ويسقط اللاعب أو «الوحش» الذي ألقيه عليه إذا نجحت في الرمية. وإن لم أنجح، كنا نلجأ أحيانًا إلى أحد المُحكِّمين للتسوية بيننا، بيد أننا كنا غالبًا نتحرى النزاهة في اللعب، فلا أحد يحب اللجوء لمُحكِّم وسيط.

وبحلول موعد النوم، نكون قد تقمصنا جميعًا الشخصيات التي من المفترض أن نلعبها. عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، لم أكن على يقين تام من نبرة الصوت التي من المفترض أن يتحدث بها الساحر، لكن كان بإمكاني أن أستشف بعض الأشياء عنها من الأفلام والروايات، فكنت أتحدث بنبرة صوت تتسم بالبطء والروية، مع الحفاظ على تعبير غامض مناسب على وجهي، والتفكير في أمور غامضة.

كانت المهمة الموكلَة إلينا معقدة؛ إذ كان علينا استعادة أثر مقدس سرقه غول عمد لإخضاع الناس لإرادته. لم يهم ذلك كثيرًا، وإنما ما كان يهم هو أنني لدي مهمة خاصة؛

ألا وهي الإمساك بعفريت صغير ليعمل مساعدًا لي، وهناك أيضًا خَصْمٌ سري عتيد، وهو لاعب آخر في الفريق شارك في غارة قُتِلت فيها أسرتي عندما كنت طفلًا صغيرًا ولا يعلم بأنني سأعود عازمًا على الانتقام. كان هناك، بالطبع، في مكان ما لاعب آخر يكِّن لي الضغينة نفسها، ومن ثم كان عليَّ دومًا الاحتراس من أن أُطعن من الخلف، أو يُدَسَّ لي طعام مسموم.

على مدار اليومين التاليين، مارسنا اللعبة. مرت بعض الأوقات في نهاية الأسبوع كان اللعب فيها مثل الغمضية، وأخرى مثل تمارين النجاة في البرية، وأخرى مثل حل ألغاز الكلمات المتقاطعة. وكان أداء الفائزين رائعًا. ولا بد أن تكون صديقًا للآخرين في المهمة. كان داريل الهدف في أول جريمة قتل أرتكبها، وقد بذلت أقصى جهدي في تلك المهمة، رغم أنه كان صديقي. كان شخصًا لطيفًا، كم كنت آسفًا لاضطراري أن أقتله.

ألقيت عليه كرة النار أثناء بحثه عن الكنز بعد قضائنا على مجموعة من الوحوش، بممارسة لعبة «حجر – ورقة – مقص» مع كل وحش لتحديد من سيفوز في الصراع. هذا أكثر متعة مما يبدو عليه.

كان الأمر أشبه بمعسكر صيفي لعشاق الدراما؛ فقد كنا نتحدث حتى أوقات متأخرة من الليل في الخيام، ونتطلع للنجوم، ونقفز في النهر عند شعورنا بالحرارة، ونضرب البعوض بأيدينا؛ فتجمع بيننا بعد ذلك صداقة حميمة، أو عداء أبدي.

لا أعلم لماذا أرسل والدا تشارلز ابنهما لممارسة ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي، فلم يكن من النوع الذي يستمتع حقًّا بهذه الأنشطة، وإنما بأنشطة سادية مثل نزع أجنحة الذباب. وربما لا، لكنه لم يكن من النوع الذي يمارس لعبة في الغابات مرتديًا زيًّا تمثيليًّا. قضى تشارلز وقته في المعسكر متسكعًا في الأرجاء، مستهزئًا بكل شيء وكل شخص، محاولًا إقناع الجميع أننا لا نقضي وقتًا جيدًا كما نظن. لا ريب أنك قد قابلت هذا النوع من الناس من قبل، هذا النوع الذي يسعى دومًا لأن يؤكد أن الجميع غيره يقضون وقتًا سيئًا.

مشكلة تشارلز الأخرى هي أنه لم يكن باستطاعته استيعاب فكرة الصراع الزائف؛ فما إن تبدأ بالجري في الغابة، وتمارس هذه الألعاب الموسعة شبه العسكرية حتى يصبح من السهل للغاية أن تتحمس لدرجة قد تمزق فيها عنق شخص آخر. وليس هذا بالأمر الجيد عندما تحمل سيفًا أو هراوة أو رمحًا أو أية أداة أخرى غير حقيقية؛ ولذلك، لا يُسمَح أبدًا بالضرب في هذه الألعاب تحت أي ظرف. فعندما تقترب من أي شخص لمقاتلته، تبدأ

سريعًا دورين للعبة «حجر – ورقة – مقص» مع التعديلات بناءً على خبرتك، وأسلحتك، وحالتك. ويسوي المحكِّمون الخلافات. فالأمر متحضر تمامًا، وغريب بعض الشيء. تركض خلف شخص ما في الغابة، وتمسك به، وتكشر عن أنيابك، ثم تجلسان معًا لتلعبا «حجر – ورقة – مقص»! لكنه ناجح، ويحافظ على المتعة والسلامة للجميع.

ما كان بإمكان تشارلز استيعاب ذلك في الحقيقة. أعتقد أنه كان قادرًا تمامًا على فهم أن القاعدة هي عدم التلامس، لكنه في الوقت نفسه قرر أن القاعدة لا تهم، وأنه لن يتقيد بها. طالبه بها المحكِّمون عدة مرات أثناء نهاية الأسبوع، وظل يعدهم بالالتزام بها، ويحنث بعهده بعد ذلك. كان من أضخمنا بنية هناك، ويحب طرح الآخرين أرضًا «مصادفةً» في نهاية أي سباق. ولا يكون الأمر ممتعًا عندما تقع على أرض غابة تملؤها الصخور.

كنت قد سددت ضربة قاتلة لداريل في أرض صغيرة مقطوعة الشجر في الغابة حيث كان يبحث عن الكنز، وأخذنا نضحك قليلًا على براعتي في التعقب خلسة. وشرع داريل في لعب دور أحد الوحوش كان بإمكان اللاعبين المقتولين الانتقال لممارسة دور الوحوش، ما عنى أنه كلما طالت مدة اللعب، زاد عدد الوحوش التي تطاردك، الأمر الذي عنى بدوره أن الجميع كان عليهم الاستمرار في اللعب، وصارت معارك اللعبة أكثر ملحمية.

حينذاك، خرج تشارلز خلفي من الأحراش، وطرحني أرضًا بقوة، فلم أتمكن من التنفس للحظات. صاح: «أمسكت بك!» لم أعلم أنه هو إلا قبل أن يصيح بلحظات. لم أهتم به كثيرًا قبل ذلك الحين، لكنني كنت على استعداد لقتله آنذاك. نهضت ببطء لأقف على قدميَّ، ونظرت إليه وهو يلهث ويقول مبتسمًا: «أنت هالك لا محالة، لقد نلت منك!»

ابتسمت، وشعرت بألم في وجهي. لمست شفتي العليا، فوجدتها ملطخة بالدماء. كان أنفي يدمى وشفتي مجروحة؛ إذ جرحها جذر وقعت عليه بوجهي عندما طرحني تشارلز أرضًا.

مسحت الدم في بنطالي، وابتسمت. تظاهرت بظني أن ما حدث كان مزحة. ضحكت قليلًا، وسرت نحوه.

لم ينخدع تشارلز بذلك، وبدأ يتراجع بالفعل محاولًا الاختفاء بين الأشجار. تحرك داريل لمهاجمته من أحد جانبيه، في حين هاجمته أنا من الجانب الآخر، لكنه استدار فجأة وركض. عرقله داريل، وأسقطه لينبطح أرضًا. هجمنا عليه سريعًا لنسمع في تلك اللحظة صفارة أحد المحكمين.

لم ير المحكم تشارلز وهو يخالف قواعد اللعبة معي، لكنه رأى أداء تشارلز في عطلة نهاية الأسبوع تلك. أعاد تشارلز إلى مدخل المعسكر، وأخبره أنه خارج اللعبة. احتج تشارلز بقوة، لكن المحكِّم لم يستمع إلى أيٍّ مما كان يقوله، الأمر الذي أسعدنا. وما إن أُبعِد تشارلز حتى أخذ المحكِّم يوبخنا نحن أيضًا، مخبرًا إيانا أن انتقامنا لم يكن مبرَّرًا شأنه شأن هجوم تشارلز علينا.

سار الأمر على ما يرام. وفي تلك الليلة، ما إن انتهت الألعاب حتى حصلنا جميعًا على حمام ساخن في حمامات الكشافة. سرقت أنا وداريل ملابس تشارلز ومنشفته. ربطناها في عقد وألقينا بها في المبولة. سعد الكثير من الفتية بالمشاركة في نقع ملابسه معنا في المبولة؛ فقد كان تشارلز متحمسًا في طرح الآخرين أرضًا.

كم كنت أتمنى أن أراه وهو يخرج من الدُّش ليكتشف ما حدث لملابسه، فالقرار صعب: إما أن تجري عاريًا بأنحاء المعسكر، أو تفك العُقَد المحكَمة المبللة بالبول في ملابسك، وترتديها.

فاختار تشارلز العري. ولعلني كنت سأختار الشيء ذاته لو كنت مكانه. اصطففنا جميعًا على الطريق بين الحمامات والسقيفة حيث الحقائب، وأخذنا نصفق له. تقدمت الصف والتصفيق.

لم تكن معسكرات الكشافة بعطلات نهاية الأسبوع تقام سوى ثلاث أو أربع مرات في العام، ما جعلني أنا وداريل — وكثيرين غيرنا من ممارسي ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي — نعاني من افتقار شديد لهذه الألعاب في حياتنا.

لكن لحسن الحظ كانت تُمارَس في فنادق المدينة ألعاب «ضوء الشمس اللعين»، وهي نوع آخر من ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي بين جماعات متنافسة من مصاصي الدماء وصائديهم. وكانت لها قواعد غريبة. يحصل اللاعبون على بطاقات لتساعدهم في تسوية المناوشات، ومن ثم فإن كل مناوشة تتضمن القليل من ممارسة لعبة ورق استراتيجية. ويمكن لمصاصي الدماء أن يصبحوا غير مرئيين بتغطية أنفسهم، ووضع أذرعهم متقاطعة على صدورهم، وعلى جميع اللاعبين الآخرين التظاهر بأنهم لا يرونهم، والاستمرار في محادثاتهم بشأن خططهم وما إلى ذلك. والاختبار الحقيقي للاعب الماهر هو ما إذا كنت أمينًا بما فيه الكفاية لتكشف أسرارك أمام المنافس «غير المرئي» دون التصرف وكأنه في الغرفة.

كانت تُقام لعبة «ضوء الشمس اللعين» بشكل واسع مرتين كل شهر، وكان منظمو اللعبة على علاقة جيدة بفنادق المدينة، ويعلنون عن أنهم سيشغلون عشر غرف غير محجوزة ليلة الجمعة، ويملئونها باللاعبين الذين يركضون في أنحاء الفندق، ويمارسون لعبة «ضوء الشمس اللعين» ممارسة هادئة في الأروقة، وحول حوض السباحة، وما إلى ذلك، ويتناولون الطعام في مطعم الفندق، ويدفعون مقابل استغلال شبكة الواي فاي بالفندق. كانوا يغلقون باب الحجز بعد ظهيرة يوم الجمعة، ويرسلون لنا بريدًا إلكترونيًّا، ونتوجه مباشرةً من المدرسة إلى الفندق الذي يختارونه ومعنا حقائب الظهر لننام ستة أو ثمانية أفراد في الغرفة في عطلة نهاية الأسبوع، ونعيش على الأغذية السريعة، ونلعب حتى الثالثة صباحًا. كانت وسيلة متعة جيدة وآمنة حتى إن آباءنا كانوا يشجعوننا على ممارستها.

كان المنظمون جهة خيرية تعليمية شهيرة تقيم ورش عمل تعليم الكتابة والدراما وما إلى ذلك للصغار. واستمرت إدارتهم للألعاب لعشر سنوات دون وقوع أي حادث؛ فلم تكن هناك أية خمور أو مخدرات حتى لا يُلقَى القبض على المنظمين بسبب فساد بعض القُصَّر. وكان عدد اللاعبين يصل ما بين عشرة إلى مائة، حسب نهاية الأسبوع. وبمقابل تكلفة مشاهدة فيلمين سينمائيين، يمكنك الحصول على متعة خالصة لمدة يومين ونصف.

لكن في أحد الأيام، حالفهم الحظ في الحصول على مجموعة غرف في موناكو، وهو فندق بحي تِندرلوين الذي يقدم خدماته للسائحين كبار السن من مدعي المعرفة بالفن؛ حيث تتضمن كل غرفة حوضًا به أسماك ذهبية، ويمتلئ رواق الاستقبال بأناس كبار في السن بهيِّي الطلعة حَسنِي الملبس، يتباهون بنتائج العمليات التجميلية التي خضعوا لها.

عادةً ما كان الأرضيون — الاسم الذي كنا نطلقه على غير اللاعبين — يتجاهلوننا؛ إذ ينظرون إلينا على أننا شباب عابثون. لكن في نهاية الأسبوع تلك، تصادف وجود محرر بإحدى المجلات السياحية الإيطالية، واهتم بما كنا نفعله. أوقفني عند أحد الأركان أثناء سيري خِلسة في الرواق، آملًا في تحديد مكان قائد الفريق المنافس لي، والانقضاض عليه، ومصِّ دمائه. كنت أقف قبالة الحائط مع طي ذراعيَّ على صدري، متظاهرًا بأنني غير مرئي، عندما اقترب مني ذلك المحرر وسألني بإنجليزية بلكنة غريبة عما كنت أنا أفعله مع أصدقائي في الفندق في عطلة نهاية الأسبوع تلك.

حاولت صدَّه، لكنه لم يتراجع؛ لذلك فكرت في اختلاق قصة ما ليرحل عني.

لم أتخيل أنه سينشر ما قلته، أو تتداوله الصحافة الأمريكية بالفعل.

قلت له: «نحن هنا لأن أميرنا مات، فكان علينا المجيء إلى هنا للبحث عن حاكم جديد.»

«أمير؟»

فأجبته متماديًا في التظاهر: «نعم، نحن «الشعب القديم». جئنا إلى أمريكا في القرن السادس عشر، وتأسست منذ ذلك الحين عائلتنا الملكية في غابات بنسلفانيا. نعيش حياة بسيطة في الغابات، ولا نستخدم التكنولوجيا الحديثة. لكن الأمير كان آخر فرد في الأسرة الحاكمة، وتوفي الأسبوع الماضي جراء مرض مسبب للهزال. فخرج شباب عشيرتي للعثور على سلالة عمه الأكبر الذي كان قد ترك العشيرة لينضم للمجتمع المتحضر في عصر جدي. ويُقال إنه أنجب، ومن ثم سنعثر على آخر أفراد سلالته ونعيدهم إلى وطنهم الصحيح.»

لقد قرأت الكثير من روايات الفانتازيا، فاختلقت تلك القصة بسهولة.

«عثرنا على امرأة تعلم أفراد هذه السلالة، وأخبرتنا أن أحدهم يقيم في هذا الفندق؛ ولذلك جئنا للعثور عليه. لكن تتبعتنا جماعة منافسة تسعى لمنعنا من جلب أميرنا للديار، والإبقاء علينا ضعفاء تسهل السيطرة علينا؛ ومن ثم، يلزم علينا الحفاظ على السرية، فلا نتحدث إلى «الشعب الجديد» إذا استطعنا ذلك. والتحدث معك الآن يسبب لي إزعاجًا شديدًا.»

نظر إليَّ نظرة ماكرة. كنت قد حررت يديَّ، ما عنى أنني صرت «مرئيًّا» لمصاصي الدماء المنافسين، وكانت إحدى مصاصات الدماء تتسلل ببطء آنذاك ناحيتنا. وفي اللحظة الأخيرة، استدرت ورأيتها وهي باسطة ذراعيها وتصدر صوت استهجان ناحيتنا مع رفعه بشدة.

فتحت ذراعيَّ، ورددت عليها بصوت استهجان، ثم ركضت عبر الرواق قافزًا فوق أريكة جلدية وملتفًّا حول أصيص جعلها تطاردني. اكتشفت طريقًا للهروب عبر بئر السلم وصولًا للنادي الصحي في الدور السفلي، فسلكته وهربت منها.

لم أر ذلك المحرر ثانيةً في عطلة نهاية الأسبوع تلك، لكنني رويت ما حدث لأحد رفاقي في لعبة تقمص الأدوار في إطار طبيعي، وقد أضاف مبالغات لها ورواها مرات عدة على مدار نهاية الأسبوع.

كانت هناك محررة في المجلة الإيطالية أعدت رسالة الماجستير الخاصة بها عن جماعات الآميش المناهضة للتكنولوجيا في ريف بنسلفانيا، ورأت قصتنا مثيرة للاهتمام بشدة. واعتمادًا على الملاحظات واللقاءات المسجلة على شرائط لرئيسها في العمل أثناء

رحلته بسان فرانسيسكو، كتبت تلك المحررة مقالًا مذهلًا ومحزنًا عن أهالي العشيرة المراهقين غريبي الأطوار الذين قطعوا أمريكا باحثين عن «أميرهم». يا إلهي! يمكن نشر أي شيء هذه الأيام.

لكن الفكرة أن مثل هذه القصص يتم تداولها وإعادة نشرها. أولًا: المدونون الإيطاليون، ثم بعض المدونين الأمريكان. أبلغ الناس بجميع أنحاء البلاد عن رؤيتهم لأفراد «الشعب القديم». ولا أعلم ما إذا كانوا يختلقون ذلك، أم أن آخرين كانوا يمارسون اللعبة ذاتها.

انتشرت القصة في وسائل الإعلام وصولًا لصحيفة «نيويورك تايمز» التي تهتم كثيرًا — لسوء الحظ — بالتحقق من حقيقة الأخبار. والمحرر الذي تولى الخبر فيها وصل في النهاية إلى فندق موناكو الذي أوصله بمنظمي ألعاب تقمص الأدوار في إطار طبيعي، والذين أفصحوا له عن كل شيء وهم يضحكون.

عندئذٍ، صارت ممارسة تلك الألعاب أقل إثارة للاهتمام. وصرنا نُعرَف بأكبر المخادعين في البلاد، وبأننا نعاني من كذب مرضي وبأننا غريبو الأطوار. والصحافة التي خدعناها دون قصد وتناولت قصة «الشعب القديم» صارت آنذاك مهتمة بتبرئة نفسها عن طريق الإخبار عن مدى غرابتنا كممارسين لهذه الألعاب. حينذاك، أخبر تشارلز الجميع في المدرسة أنني وداريل أهم لاعبين لتلك الألعاب في المدينة.

لم تكن تلك الفترة جيدة بالنسبة لي. بعض أعضاء الفريق لم يهتموا بما حدث، لكننا اهتممنا. فكانت المضايقات عديمة الرحمة، وتزعمها تشارلز. فعثرت على مخالب بلاستيكية في حقيبتي، وأخذ بعض الشباب في المدرسة يصدرون أصواتًا كأصوات مصاصي الدماء في أفلام الكرتون استهزاءً بي كلما مررت بهم، أو يتحدثون بلهجة أهالي ترانسيلفانيا (موطن دراكولا) عند وجودي بجوارهم.

بعد ذلك بفترة وجيزة، انتقلنا لألعاب الواقع البديل. كانت أكثر متعة من نواحٍ عدة، وأقل غرابة جدًّا. لكنني كنت أشعر بحنين، بين الحين والآخر، لارتداء حرملة مصاصي الدماء وقضاء عطلات نهاية الأسبوع في الفندق.

إن المضاد لمفهوم «روح السُّلَّم» هو عودة المواقف المحرجة في الحياة لأذهاننا كثيرًا، حتى بعد مرور فترة طويلة على وقوعها. يمكنني تذكر كل شيء أحمق قلته أو فعلته، وبوضوح كامل. فعندما كنت أشعر بالإحباط، كنت أبدأ في تذكر اللحظات الأخرى التي راودني فيها الشعور ذاته، وتتتابع صور الإهانات واحدة تلو الأخرى في عقلي.

فبينما كنت أحاول التركيز على ماشا وهلاكي الوشيك، ظلت تطاردني ذكريات حادثة «الشعب القديم». فراودني آنذاك شعور غامر مماثل بالهلاك، فبتزايد تداول الصحافة لقصتي، تزايد احتمال اكتشاف شخص ما لحقيقة أنني من اختلقت القصة التي أخبرتها للمحرر الإيطالي الغبي الذي كان يرتدي بنطال جينز يحمل اسم مصمم أزياء شهير به درزات معقوفة، وقميصًا منشًّى بلا ياقة، ونظارة كبيرة الحجم بإطار معدني.

ثمة ما يمكنك فعله بدلًا من التركيز على أخطائك؛ ألا وهو التعلم منها.

نظرية جيدة على أية حال. فلعل سبب استعادة عقلك الباطن لكل هذه الذكريات البائسة هو رغبته في التخلص منها حتى لا ترد على ذهنك ثانيةً. ظل عقلي الباطن يعيد عليَّ هذه الذكريات على أمل أن أفعل شيئًا لأنساها تمامًا.

طوال الطريق للمنزل، سيطرت عليَّ تلك الذكرى، وفكرة ما كان عليَّ فعله بشأن «ماشا» في حال كانت تتلاعب بي. أردت تأمينًا ما.

وعندما وصلت إلى المنزل — وغمرتني الأحضان الحزينة من أبي وأمي — توصلت إلى الحل.

تمثلت الحيلة في ضبط الوقت لكي يحدث ذلك سريعًا على نحو لا تتمكن معه وزارة الأمن الوطني من الاستعداد له، لكن مع تحديد فترة انتظار طويلة بما فيه الكفاية ليكون لدى مستخدمي شبكة إكس نت ما يكفي من الوقت للتجمع معًا في مكان واحد.

تمثلت الحيلة في إعداد ذلك بحيث يحول عددنا الكبير دون القبض علينا جميعًا، وأن يكون ذلك في مكان ما يستطيع الصحافة والبالغون رؤيته، وبذلك لا تتمكن وزارة الأمن الوطني من مهاجمتنا بالغاز ثانيةً.

تمثلت الحيلة في التوصل إلى شيء يؤيده الإعلام مثل رفع البنتاجون في الهواء، وفي إعداد شيء يمكننا التجمع حوله، مثل طلاب بيركلي البالغ عددهم ٣٠٠٠ طالب، الذين رفضوا السماح بأن يعتقل أيٌّ منهم ويُزج به إلى داخل سيارة شرطة.

تمثلت الحيلة في وضع الصحافة هناك لتكون على استعداد لأن تعلن عما فعلته الشرطة مثلما فعلت في عام ١٩٦٨ في شيكاجو.

وسوف تكون هناك خدعة ما.

غادرت المدرسة مبكرًا ساعة في اليوم التالي، مستخدمًا أساليبي الاعتيادية للخروج منها، مع عدم الاهتمام بما إذا كان ذلك سيثير نوعًا جديدًا من أساليب مراقبة وزارة الأمن الوطني من شأنه أن يؤدي لحصول والديَّ على إخطار ما.

على أية حال، آخر ما كان سيفكر فيه والداي بعد الغد هو ما إذا كنت أعاني من مشكلة في المدرسة أم لا.

التقيت بآنج في منزلها. كان عليها الخروج من المدرسة في موعد أسبق مني، لكنها تظاهرت بإصابتها بمغص مؤلم وأنها أوشكت على أن يغشى عليها، فأرسلوها إلى المنزل.

بدأنا في نشر الخبر على شبكة إكس نت. أرسلناه بالبريد الإلكتروني إلى أصدقائنا موضع الثقة، وأرسلته في رسائل فورية إلى قوائم أصدقائنا المقربين. تجولنا بجميع أرجاء لعبة «كلوك وورك بلاندر» وأطلعنا رفاقنا في الفريق. كانت هناك صعوبة في منح الجميع معلومات كافية ليحضروا الحدث، لكن ليس بما فيه الكفاية لفضح أنفسنا أمام وزارة الأمن الوطني، لكن أعتقد أنني حققت التوازن الصحيح:

«تجمع مصاصي الدماء غدًا.»

«إذا كنت قوطيًّا، فلترتدِ ملابس مبهرة. وإذا لم تكن قوطيًّا، فاعثر على قوطي، واقترض منه بعض الملابس. لتفكر كما لو كنت مصاص دماء.»

«يبدأ اللعب الساعة الثامنة صباحًا بالضبط. لتحضروا جميعًا وتتأهبوا للتقسيم إلى فرق. تستمر اللعبة لمدة ثلاثين دقيقة، ومن ثم سيكون لديكم متسع من الوقت للرجوع للمدرسة بعد ذلك.»

«سنعلن عن المكان غدًا. لترسلوا مفاتيحكم العامة على العنوان التالي: m1k3y@littlebrother.pirateparty.org.se، وتتحققوا من رسائلكم الساعة السابعة صباحًا للاطلاع على أي تحديث. وإذا كان ذلك مبكرًا للغاية في نظركم، فلتظلوا دون نوم طوال الليل. هذا ما سنفعله.»

«ستكون هذه أفضل متعة تحصلون عليها طوال العام ... أضمن لكم ذلك.»

«صدقوني.»

«مايكي»

أرسلت بعد ذلك رسالة قصيرة إلى ماشا:

«غدًا»

«مايكي»

فأرسلت لي الرد بعد دقيقة:

«هكذا ظننت. تجمع مصاصي دماء، أليس كذلك؟ إيقاعك سريع. ارتدِ قبعة حمراء، وخفف من أمتعتك.»

ماذا تحمل معك عند الهروب؟ حملت من الحقائب الثقيلة في معسكرات الكشافة ما يكفي لأن أعرف أن كل جرام زائد يضيف لما يقع على عاتقك من حمل بكل ما يعنيه ذلك من قوة جاذبية ساحقة تزيد مع كل خطوة تخطوها ... لا يكون ذلك جرامًا واحدًا، وإنما جرام تحمله لملايين الخطوات. إنه طن.

قالت آنج: «نعم، معك حق. ولا يجدر بك أن تأخذ من الملابس ما يكفي لأكثر من ثلاثة أيام، فيمكنك غسل ملابسك في أي حوض. فأن تكون هناك بقعة على التي شيرت الخاص بك أفضل من أن تحمل حقيبة أكبر وأثقل من أن تستطيع إخفاءها تحت مقعد الطائرة.»

كانت قد خلعت حقيبة كتف من النايلون الباليستي، والتي كانت تمر حمالتها على صدرها بين نهديها — ما جعلني أتعرق قليلًا — وتتعلق بانحراف على ظهرها. اتسمت تلك الحقيبة باتساعها من الداخل. وضعتها على السرير، وأخذت تكدس الملابس بها الآن.

«أعتقد أن ثلاثة تي شيرتات وبنطالًا وبنطالًا قصيرًا وثلاث قطع ملابس داخلية وثلاثة أزواج من الجوارب وسترة واحدة؛ ستفي بالغرض.»

أخرجت محتويات حقيبة الألعاب الرياضية خاصتها، والتقطت مساحيق التجميل، وقالت: «سأتذكر وضع فرشاة الأسنان صباح غد قبل التوجه إلى مركز المدينة.»

كانت مشاهدتها أثناء حزمها لحقائبها مثيرة للإعجاب؛ فقد اتسمت آنج بقوتها. كان أمرًا مخيفًا أيضًا؛ إذ جعلني أدرك أنني سأرحل في اليوم التالي. وربما يكون ذلك لفترة طويلة، وربما للأبد.

سألتني: «هل أحضر جهاز إكس بوكس الخاص بي؟ فثمة أمور كثيرة أحتفظ بها على محرك الأقراص الصلبة: ملاحظات ومسودات وبريد إلكتروني. لا أريد أن تقع هذه الأشياء في الأيدي الخطأ.»

فأجبتها: «جميعها أمور مشفرة. هذا المعتاد مع نظام «بارانويد إكس بوكس». فلتتركي جهاز الإكس بوكس، سنجد الكثير من هذه الأجهزة في لوس أنجلوس. عليكِ فقط بإنشاء حساب بحزب القراصنة، وإرسال رسالة بريد إلكتروني لنفسك تحمل نسخة من محرك الأقراص الصلبة. هذا ما سأفعله أنا أيضًا عندما أعود للمنزل.»

ففعلت ما أخبرتها به، وانتظرت إرسال الرسالة. كان الأمر سيستغرق بضع ساعات لتُضغَط البيانات عبر شبكة الواي فاي الخاصة بأحد جيرانها، وتصل إلى السويد.

أغلقت بعد ذلك غطاء الحقيبة، وأحكمت غلق أربطة الضغط. وبذلك، صار يتدلى على ظهرها شيء بحجم كرة القدم. حدقت فيه بإعجاب. يمكنها السير في الشارع وهذه الحقيبة تحت كتفها، ولن يلتفت أحد إليها؛ فهي تبدو كما لو كانت في طريقها للمدرسة.

«بقي شيء واحد»، قالت ذلك وتوجهت ناحية الطاولة الموجودة بجوار السرير، وأخرجت كيس العوازل الذكرية. أخرجتها من الكيس، وفتحت الحقيبة ووضعتها بداخلها، ثم ضربتني على مؤخرتي.

قلت لها: «والآن، ماذا؟»

«الآن، نذهب إلى منزلك، ونحزم أغراضك. حان الوقت لألتقي بوالديك، أليس كذلك؟»

تركت الحقيبة وسط أكوام الملابس والأشياء المهملة المبعثرة على الأرض، وكانت مستعدة لأن تترك كل شيء وتهرب، فقط حتى تبقى معي، حتى تدعم قضيتنا. وقد جعلني هذا أشعر بالشجاعة أيضًا.

كانت أمي لا تزال في المنزل عند وصولنا، وكانت قد فتحت الكمبيوتر المحمول الخاص بها على مائدة المطبخ، وأخذت ترد على البريد الإلكتروني أثناء التحدث في سماعة الرأس المتصلة بالكمبيوتر. كانت تساعد أحد الرجال من يوركشاير وعائلته في التأقلم مع العيش في لويزيانا.

دخلت من الباب، وتبعتني آنج، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها كالمجانين، لكن مع إحكام قبضتها على يدي في الوقت نفسه حتى إنني شعرت بطحن عظامي لبعضها البعض. لم أعلم ما كان يقلقها إلى هذا الحد، فما كانت ستقضي وقتًا طويلًا مع والدَيَّ بعد ذلك، حتى وإن لم تنجح الخطة.

أنهت أمي الحديث مع الرجل عند دخولنا.

قالت لي وهي تقبلني على وجنتي: «مرحبًا يا ماركوس. من هذه؟»

«أمي، هذه آنج. آنج، هذه أمي ليليان.» وقفت أمي وعانقت آنج.

وقالت وهي تنظر لها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها: «سعدت للغاية بلقائك عزيزتي.» أعتقد أن مظهر آنج كان مقبولًا للغاية؛ فقد كانت ملابسها جيدة وبسيطة، ومظهرها يعكس ما هي عليه من فطنة.

قالت آنج بصوت تملؤه الثقة بالنفس: «سعدت بلقائك يا سيدة يالو.» كانت أفضل مني بكثير مقارنة بما كنت عليه عندما التقيت بوالدتها.

فردت عليها أمي قائلةً مع تفحصها جيدًا: «لتناديني ليليان يا عزيزتي. هل ستتناولين العشاء معنا؟»

«أحب ذلك.»

«هل تأكلين اللحم؟» تأقلمت أمي للغاية مع العيش في كاليفورنيا.

«آكل أي شيء لا يأكلني أولًا.»

فقلت: «إنها مدمنة صلصة حارة. يمكنكِ أن تقدمي لها إطارات قديمة، وستأكلها إذا طهوتها في صلصة حارة.»

فلكمتني آنج لكمة خفيفة في كتفي.

قالت أمي: «كنت سأطلب طعامًا تايلانديًّا. سأضيف إلى الطلب طبقين حارين.»

شكرتها آنج بأدب، وانطلقت أمي في ابتهاج بأنحاء المطبخ لتحضر لنا كوبي عصير وطبقًا من البسكويت. وسألتنا ثلاث مرات إذا كنا نريد بعض الشاي. ارتبكت قليلًا.

قلت لها: «شكرًا يا أمي. سنصعد إلى أعلى قليلًا.»

ضاقت عينا أمي لحظات، ثم ابتسمت ثانيةً، وقالت: «بالطبع، سيأتي والدك في خلال ساعة، وحينها سنأكل.»

كانت جميع أغراض لعبة مصاصي الدماء مكوَّمة في الجزء الخلفي من خزانتي. سمحت لآنج بفحصها واختيار الأنسب منها بينما أنا فعلت ذلك مع ملابسي. لم أكن ذاهبًا لمكان أبعد من لوس أنجلوس حيث المتاجر وكل ما قد أحتاج إليه من ملابس. وبالتالي، كل ما كنت بحاجة إليه هو جمع ثلاثة أو أربعة تي شيرتات أفضِّلها، وبنطالي المفضل، ومزيل للعرق، وخيوط لتنظيف الأسنان.

صحت: «مال!»

فقالت آنج: «نعم، سأسحب كل ما في حسابي المصرفي أثناء عودتي للمنزل من إحدى ماكينات الصرف الآلي. تبلغ مدخراتي نحو خمسمائة دولار تقريبًا.»

«حقًّا؟»

«علام سأنفقها؟ منذ استخدامي لشبكة إكس نت، ولم أعد بحاجة لدفع أي رسوم خدمة.»

«أعتقد أن معي نحو ثلاثمائة دولار.»

«حسنًا! لتسحبها في طريقنا إلى مركز المدينة صباحًا.»

كانت لدي حقيبة كتب كبيرة أستخدمها عند التنقل بأغراض كثيرة بأنحاء المدينة، فكانت أقل وضوحًا من حقيبة التخييم خاصتي. فحصت آنج أكوام أغراضي بعنف، واختارت من بينها ما تفضله.

وما إن حزمنا الحقيبة ووضعناها تحت السرير حتى جلسنا معًا عليه.

قالت آنج: «يلزم علينا الاستيقاظ مبكرًا للغاية غدًا.»

«نعم، الغد يوم مهم.»

كانت الخطة هي إرسال رسائل توضح مجموعة من المواقع الزائفة لتجمع مصاصي الدماء غدًا، مع بعث اللاعبين إلى مواقع معينة تبعد عن مركز المدينة بضع دقائق سيرًا على الأقدام. أعددنا روسمًا للطلاء بالرش، عليه عبارة «مركز المدينة لتجمع مصاصي الدماء». وعزمنا على طلائه في تلك المواقع الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا. كان ذلك من شأنه أن يحول دون إغلاق وزارة الأمن الوطني لمركز المدينة قبل أن نصل إلى هناك. كان نظام الرد الآلي على رسائل البريد الإلكتروني الخاص بي مستعدًّا لإرسال الرسائل في السابعة صباحًا، وكل ما عليَّ هو الإبقاء على جهاز إكس بوكس الخاص بي قيد التشغيل عند خروجي.

قالت آنج: «كم من الوقت ...» ثم تراجعت عن إكمال حديثها.

فأجبتها: «هذا ما كنت أفكر فيه أيضًا. أعتقد أن الأمر قد يستغرق وقتًا طويلًا. لكن من يعلم؟ بنشر مقال باربارا ...» كنت قد أعددت رسالة بريد إلكتروني لتُرسَل إليها في الصباح التالي أيضًا ... واستطردت: «وكل ذلك، ربما سنكون أبطالًا في غضون أسبوعين.»

فقالت: «ربما»، وتنهدت.

طوقتها بذراعي، وشعرت بارتعاد كتفيها.

قلت لها: «إنني مذعور. أعتقد أنه من الجنون ألا نصاب بالذعر.»

«نعم، نعم.»

استدعتنا أمي لتناول العشاء. صافحت آنج أبي. بدا قلقًا غير حليق الذقن. هكذا كان حاله منذ ذهبنا لمقابلة باربارا. لكن عند التقائه بآنج، عادت بعض ملامحه القديمة. قبَّلَته على وجنته، وأصر على أن تدعوه درو.

كان العشاء جيدًا حقًّا. وتلاشى التحفظ عندما أخرجت آنج رذاذ الصلصلة الحارة وأضافتها إلى طبقها، وأخذت تشرح ما تعنيه وحدات السكوفيل. حاول والدي تذوق ملء

شوكة من طبقها، وترنح سريعًا إلى المطبخ ليشرب قدرًا كبيرًا من الحليب. العجيب أن أمي حاولت ذلك بعد أبي، وعبَّرت عن حبها له. واتضح أن أمي كانت لها قدرة عجيبة على تناول الطعام الحار لم يُكشَف عنها بعد ... قدرة طبيعية.

قبل أن تغادر آنج، أصرت على منح والدتي رذاذ الصلصة الحارة، وقالت لها: «لدي زجاجة أخرى بالمنزل.» كنت قد رأيتها وهي تضعها في حقيبة ظهرها. واستطردت قائلةً: «يبدو أنك من نوع السيدات التي يجب أن تحصل على هذه.»

الفصل التاسع عشر

أهدي هذا الفصل إلى متجر كتب مطبعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهو المتجر الذي لم تفُتْنِي زيارته في كل رحلة لي إلى بوسطن على مدار السنوات العشر الماضية. بالطبع معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا هو أحد المراكز المذهلة للثقافة الفكرية العالمية، ومتجر الكتب الموجود في حرم ذلك المعهد يرتقي للتوقعات المذهلة التي كانت لديَّ عندما وطئَتْه قدماي أول مرة. فإلى جانب ما يحتويه من كتب رائعة نشرتها مطبعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، يضم كذلك أكثر ما نُشِر في مجال التكنولوجيا المتطورة إثارة في العالم، بدءًا من مجلات القرصنة الإلكترونية مثل «٢٦٠٠» ووصولًا إلى مجموعات الكتب الأكاديمية المختارة حول تصميم ألعاب الفيديو. وهو أحد المتاجر التي أضطر فيها لطلب توصيل مشترياتي منه لأن حقيبتي لا تتسع لها.

* * *

فيما يلي نص رسالة البريد الإلكتروني التي بُعِثت اليوم التالي الساعة السابعة صباحًا، بينما كنت أنا وآنج نطلي بالرش عبارة «مركز المدينة لتجمع مصاصي الدماء» في أماكن استراتيجية بأنحاء المدينة.

«قواعد تجمع مصاصي الدماء»

«أنت من أفراد عشيرة مصاصي دماء ضوء النهار. اكتشفت سر البقاء حيًّا في ضوء الشمس الساطع. السر هو شرب دماء مصاصي الدماء الآخرين؛ فدم مصاص دماء آخر يمكن أن يمنحك القوة اللازمة للسير وسط الأحياء.»

«تحتاج لعضِّ أكبر عدد ممكن من مصاصي الدماء الآخرين لتظل في اللعبة. وإذا مرت دقيقة واحدة دون أن تعض فيها أحدًا، فستخرج من اللعبة. وعندما تخرج من اللعبة، عليك أن تعكس اتجاه القميص الذي ترتديه، وتصير حكمًا؛ أي تراقب اثنين أو ثلاثة من مصاصي الدماء لترى ما إذا كانوا يمارسون العض أم لا.»

«ولعض مصاص دماء آخر، عليك أن تقول: «عض!» خمس مرات قبل أن يقولها هو. فتركض إلى مصاص دماء، وتتواصل معه بالعين، وتصيح «عض، عض، عض، عض، عض!» وإن قلتها قبل أن يفعل هو ذلك، تَعِشْ ويتحول هو إلى رماد.»

«مصاصو الدماء الآخرون الذين تلتقي بهم بالموعد هم فريقك وعشيرتك. دمهم ليس غذاءً لك.»

«يمكنك أن تصير «غير مرئي» بالوقوف ثابتًا، وطي ذراعيك على صدرك. ولا يمكنك عض مصاصي دماء غير مرئيين، والعكس بالعكس.»

«تُمارَس هذه اللعبة بنظام الشرف. يكمن الهدف في الاستمتاع، وتقمص دور مصاص الدماء، وليس الفوز.»

«ستكون هناك حركة أخيرة باللعبة تتناقلها الألسن بمجرد بدء ظهور الفائزين، فيبدأ الفائزون حملة تهامس بين اللاعبين عندما يحين الوقت المناسب. ويلزم عليك نشر الهمسات بأسرع ما يمكنك، وانتظار الإشارة.»

«مايكي»

«عض عض عض عض عض!»

كنا نأمل في أن يرغب مائة فرد في ممارسة لعبة تجمع مصاصي الدماء، وأرسلنا نحو مائتي دعوة، لكنني عندما نهضت لأجلس مستقيمًا في الرابعة صباحًا، وأمسكت بجهاز إكس بوكس، كان هناك ٤٠٠ رد ... أربعمائة!

أدخلت تلك العناوين في نظام الرد الآلي على رسائل البريد الإلكتروني، وتسللت خلسة من المنزل. هبطت السلالم مستمعًا لغطيط أبي في نومه، وأمي وهي تتقلب في السرير. أغلقت الباب خلفي.

في الرابعة والربع صباحًا، كانت بتريرو هيل في هدوء الريف. كانت هناك بعض أصوات بعيدة لسيارات، ولم تمر بجواري سوى سيارة واحدة. توقفتُ عند إحدى ماكينات

الصرف الآلي، وسحبتُ مبلغ ٣٢٠ دولارًا فئة ٢٠ دولارًا. لففتها، ووضعت رباطًا مطاطيًّا حولها، وأدخلتها في جيب يفتَح لأعلى في جانب بنطال مصاص الدماء الذي كنت أرتديه.

كنت أرتدي ثانية حرملة مصاصي الدماء، وقميصًا متغضنًا، وبنطال بذلة سهرات عُدِّل ليحتوي على ما يكفي من الجيوب لحمل جميع أغراضي الصغيرة. هذا إلى جانب حذاء عالي الرقبة مدقق الطرف بأبازيم فضية على شكل جماجم. ومشطت شعري في صورة لفات سوداء مضغوطة حول رأسي. كانت آنج ستحضر مسحوق التجميل الأبيض، ووعدتني بأن تحدد عينيَّ بقلم التحديد، وتطلي أظافري باللون الأسود. ولمَ لا؟ فمن يدري متى سألعب مرتديًا زيًّا كهذا ثانيةً؟

قابلتني آنج أمام منزلها. كانت تحمل حقيبة ظهرها أيضًا، وترتدي سروالًا شبكيًّا ضيقًا، وفستانًا مجعدًا لخادمة قوطية لعوب. لونت وجهها بطلاء أبيض، ووضعت مسحوق تجميل تمثيلي واضح بعينيها، وامتلأ عنقها وأصابعها بمجوهرات فضية.

قلت لها: «تبدين رائعة!» وقالت لي العبارة ذاتها في نفس اللحظة، ثم ضحكنا بهدوء، وسرنا خلسة في الشوارع وفي جيوبنا عبوات الطلاء بالرش.

أثناء تفقدي لمركز المدينة، فكرت فيما سيبدو عليه عندما يتجمع فيه ٤٠٠ من ممارسي لعبة تجمع مصاصي الدماء. توقعت وصولهم خلال عشر دقائق أمام مجلس المدينة. كانت الساحة العامة الكبيرة تعج بالفعل بالمترددين عليها الذين تجنبوا ببراعة المشردين المتسولين في المكان.

لطالما كرهت مركز المدينة؛ فهو مجموعة من المباني الضخمة متعددة المستويات، مثل المحاكم، والمتاحف، والمباني المدنية مثل مجلس المدينة. اتسمت الأرصفة باتساعها، والمباني بلونها الأبيض. تحتوي الأدلة السياحية لسان فرانسيسكو على صور لهذه المباني لتبدو مثل مدينة إبكوت الترفيهية؛ أي مستقبلية وبسيطة.

أما على أرض الواقع، فهي وسخة ومثيرة للاشمئزاز. ينام المشردون على جميع المقاعد، ويخلو الحي من أي أحد بحلول الساعة السادسة مساءً فيما عدا السكارى ومدمني المخدرات. ولما لم يكن بالمكان سوى نوع واحد من المباني، لم يكن هناك سبب منطقي لتواجد الناس في المكان بعد غروب الشمس. فهو أشبه بمركز تجاري أكثر من كونه حيًّا، والأعمال الوحيدة هناك هي متاجر الخمور، والأماكن التي تقدم الخدمات لأسر المحتالين الخاضعين للمحاكمة، والمشردين الذين يتخذون من المكان منزلًا لهم في الليل.

استوعبت كل ذلك عندما قرأت تقريرًا لمقابلة مع مخططة عمرانية عجوز رائعة تُدعَى جين جيكوبس، وهي أول من وضع يده بالفعل على الخطأ في تقسيم المدن بالطرق السريعة، مع حشر جميع الفقراء في مشروعات الإسكان، واستخدام قوانين التقسيم إلى مناطق للتحكم المتزمت في من يفعل ماذا وأين.

أوضحت جيكوبس أن المدن الحقيقية متناسقة الأجزاء، وتزخر بتنوع كبير ما بين أغنياء وفقراء، أصحاب بشرة بيضاء وبشرة داكنة، أنجلو أمريكيين ومكسيكيين، مناطق تجارية وسكنية، بل وصناعية أيضًا. حي كهذا يجمع كافة أصناف البشر يمرون بأرجائه بجميع الأوقات ليلًا أو نهارًا، ومن ثم تجد أعمالًا تلبي كافة الاحتياجات، وأناسًا يسيرون بالأنحاء طوال الوقت يراقبون الطرقات.

لا بد أنك مررت بذلك من قبل. سرت في حي قديم بمدينة ما، واكتشفت أنه مملوء بأفضل المتاجر، والرجال المتأنقين، والأناس الذين يرتدون أحدث الأزياء، والمطاعم الراقية، والمقاهي الحديثة، وربما إحدى قاعات السينما الصغيرة، ومنازل تبرز عليها أعمال الطلاء. ربما يكون هناك أيضًا بالطبع فرع لمقهى «ستاربكس»، لكنَّ هناك أيضًا سوقًا أنيقًا للفاكهة، وتاجرة زهور تبدو وكأنها تبلغ من العمر أرذله وهي تدور بعناية بين الزهور بنوافذ المتجر. إنه النقيض لمنطقة مخطَّطة مثل المراكز التجارية. وتمنحك شعورًا بأنك في حديقة برية أو غابة تنمو أشجارها.

لا يناقض تلك الصورة مكان أكثر من مركز المدينة. قرأت لقاءً مع جيكوبس تحدثت فيه عن الحي القديم العظيم الذي هدموه ليبنوا هذا الحي. كان حيًّا أقيمت مبانيه دون تصريح أو تناغم أو تخطيط.

قالت جيكوبس إنها تتوقع في غضون أعوام قليلة أن يصير مركز المدينة أحد أسوأ الأحياء في المدينة، فيكون ليلًا كمدن الأشباح، مكانًا يمتلئ بمتاجر الخمور والمخدرات والموتيلات المليئة بالبراغيث. وفي اللقاء، لم تبدُ سعيدة بأنها أثبتت صحة ما قالته، وإنما بدت وكأنها تتحدث عن صديق متوفًّى وهي تصف ما آل إليه حال مركز المدينة.

صرنا في ساعة الذروة، وامتلأ مركز المدينة عن آخره. تشكل محطة بارت بمركز المدينة أيضا المحطة الرئيسية لخطوط الترام بالمدينة، ونقطة التحويل من خط لآخر. وفي الثامنة صباحًا، يكون هناك الآلاف من الناس يصعدون أو يهبطون على السلالم، ويدخلون سيارات الأجرة والحافلات أو ينزلون منها. توقفهم نقاط تفتيش وزارة الأمن الوطني الموجودة في مختلف المباني المدنية، ويحيط بهم المتسولون العدوانيون من كل

مكان. تفوح منهم رائحة الشامبو وماء الكولونيا، وقد خرجوا لتوهم من تحت الدش، وارتدوا بذل العمل، وحملوا حقائبهم الجلدية وحقائب الكمبيوتر المحمول. في الثامنة صباحًا، يكون مركز المدينة مركزًا للأعمال.

حضر بعد ذلك مصاصو الدماء. نحو ثلاثين جاءوا من فان نيس، والعدد نفسه من ماركت. وتدفق المزيد من الجانب الآخر لماركت، والمزيد من فان نيس. وصلوا إلى جانب المباني، والطلاء الأبيض على وجوههم، وعيونهم محددة باللون الأسود، ويرتدون ملابس سوداء وسترات جلدية وأحذية ضخمة عالية الرقبة للنقر على الأرض، وقفازات شبكية عديمة الأصابع.

بدءوا يملئون الساحة العامة. رمقهم بعض رجال الأعمال بنظرات عاجلة، ثم أشاحوا بنظرهم بعيدًا غير راغبين في أن يتدخل هؤلاء الغرباء في واقعهم الشخصي أثناء تفكيرهم في الهراء الذي كانوا على وشك خوضه على مدى الساعات الثماني التالية. تحرك مصاصو الدماء في دوائر، غير واثقين متى ستبدأ اللعبة. تجمعوا في مجموعات كبيرة في مكان واحد مع ارتداء ملابس سوداء اللون؛ ما جعلهم يبدون كتسرب زيت لكن في الاتجاه المعاكس. ارتدى كثيرون منهم قبعات قديمة الطراز، وقبعات مستديرة سوداء، وقبعات رسمية. وارتدى الكثير من الفتيات أزياء الخادمات القوطيات اللعوبات الأنيقة الكاملة وأحذية ذات نعال سميكة.

حاولت تقدير الأعداد، فوجدتها ٢٠٠. وبعد خمس دقائق، أصبحت ٣٠٠ ثم ٤٠٠. وما زالوا يتدفقون. اصطحب مصاصو الدماء أصدقاءهم.

أمسك شخص ما بظهري، استدرت فرأيت آنج تضحك بشدة حتى إنها انحنت للأمام من شدة الضحك.

لفظت لاهثة: «انظر إليهم يا فتى، انظر إليهم جميعًا!» تضاعف عدد الناس في الميدان مقارنةً ببضع دقائق مضت. لم تكن لدي أية فكرة عن عدد مستخدمي شبكة إكس نت، لكن ١٠٠٠ منهم — بلا ريب — حضروا إلى حفلتي الصغيرة. يا إلهي!

بدأ ضباط شرطة سان فرانسيسكو ووزارة الأمن الوطني في التجول بالأرجاء، وهم يتحدثون في اللاسلكي ويتجمعون في مجموعات. سمعت صوت صفارة إنذار آتيًا من بعيد.

قلت وأنا أهز ذراع آنج: «هيا، هيا، لنذهب.»

اخترقنا الحشد معًا، وعند مقابلة أول مصاصي الدماء أمامنا، قلنا معًا بصوت عالٍ: «عض عض عض عض!» كانت الضحية فتاة مندهشة — لكن جميلة — مرسومًا

على يديها نسيج عنكبوت، ولطخات من طلاء الأهداب تسيل على وجنتيها. قالت: «اللعنة!» وابتعدت مدركةً أنني قد نلت منها.

انتشرت صيحة «عض عض عض عض عض» بين مصاصي الدماء الآخرين بجوارنا، فهاجم البعض منهم آخرين، في حين تحرك آخرون بحثًا عن ستار لهم يختبئون وراءه. كنت قد حصلت على ضحيتي لتلك الدقيقة، ومن ثم حاولت التواري عن الأنظار مستخدمًا الأرضيين كستار لي. الجميع حولي يصرخون «عض عض عض عض عض!» وتعالت الهتافات والضحكات والسباب.

انتشر الصوت كالنار في الهشيم. علم جميع مصاصي الدماء أن اللعبة قد بدأت الآن، ومن شكلوا تجمعات أخذوا يتساقطون كالذباب. كانوا يضحكون، ويلعنون، ويسيرون مبتعدين، ليعلم بذلك مَن ما زالوا داخل اللعبة ببدء اللعب. وتزايدت أعداد مصاصي الدماء مع كل لحظة.

الساعة ٨:١٦، حان وقت اصطياد مصاص دماء آخر. انحنيت لأسفل، وتحركت بين أرجل من يسيرون مستقيمي القامة أثناء توجههم ناحية سلالم محطة بارت. اهتزت أجسامهم من الدهشة، وانحرفوا في سيرهم لتجنبي. تعلقت عيناي بمجموعة من الأحذية السوداء عالية الرقبة مزينة بأشكال تنانين على الأصابع؛ ومن ثم، لم أتوقع ما حدث عندما قابلت مصاص دماء آخر وجهًا لوجه. كان شابًّا يبلغ من العمر ١٥ أو ١٦ عامًا، وقد صفف شعره بالجِل للخلف، وارتدى سترة جلدية مزينة بعقود من أنياب زائفة منقوشة عليها رموز مبهمة.

ما إن بدأ الفتى في اللفظ بعبارة «عض عض عض …» حتى تعثر به أحد الأرضيين، وانبطحا أرضًا معًا. زحفت إليه، وصحت: «عض عض عض عض عض!» قبل أن يتمكن من تحرير نفسه.

استمر توافد المزيد من مصاصي الدماء؛ ما أصاب الموظفين المتأنقين بالذعر. غمرت اللعبة الرصيف، ووصلت إلى داخل فان نيس لتنتشر في اتجاه شارع ماركت. علت أصوات السيارات والترام. سمعت المزيد من صفارات الإنذار، لكن حركة المرور تشابكت الآن في كل اتجاه.

كان ذلك رائعًا بحق.

عض عض عض عض عض!

صدر الصوت من كل مكان حولي. امتلأ المكان بمصاصي الدماء الذين أخذوا يلعبون بعنف، وكان صوتهم أشبه بالهدير. خاطرت بالوقوف منتصبًا، والنظر حولي؛ فوجدتني في منتصف حشد ضخم من مصاصي الدماء وصل إلى أقصى امتداد نظري.

عض عض عض عض عض!

كان ذلك أفضل من حفل متنزه دولوريس؛ فالحفل كان غاضبًا وصاخبًا، أما هذا ... حسنًا، «ممتع» هو الوصف الملائم. كان أشبه بالعودة إلى ساحة اللعب، وألعاب المطاردات المثيرة التي كنا نلعبها في استراحات الغداء مع شروق الشمس، مع مطاردة مئات الأفراد لبعضهم البعض. والبالغون والسيارات زادوا الأمر متعة.

«متعة» هي الكلمة المناسبة لوصف تلك اللعبة. فصرنا جميعًا نضحك آنذاك.

أخذ الضباط يحتشدون، وسمعت صوت المروحيات. سينتهي الأمر في أية لحظة الآن. حان الوقت للحركة الأخيرة باللعبة.

أمسكت بأحد مصاصي الدماء.

«الحركة الأخيرة باللعبة: عندما يأمرنا الضباط بالتفرق، نتظاهر بالاختناق بالغاز. انشر الأمر. ماذا قلت لك للتو؟»

كانت فتاة نحيلة قصيرة القامة حتى إنني ظننت أنها صغيرة السن حقًّا، لكن بدا من وجهها وابتسامتها أنها كانت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. قالت: «يا إلهي! هذا تصرف شرير.»

«ماذا قلت لك؟»

«الحركة الأخيرة باللعبة: عندما يأمرنا الضباط بالتفرق، نتظاهر بالاختناق بالغاز. انشر الأمر. ماذا قلت لك للتو؟»

«بالضبط، فلتنشريها الآن.»

اختفت الفتاة وسط الحشد، وأمسكت أنا بمصاص دماء آخر، وقلت له العبارة ليمضي بعد ذلك لنشرها وسط الحشد.

علمت أن آنج كانت تفعل ذلك أيضًا في مكان ما وسط الحشد. ربما تضمن الحشد بعض المتسللين؛ أي مستخدمين مزيفين لشبكة إكس نت. لكن ما جدوى تلك المعلومة لهم؟ ليس أمام الضباط خيار آخر. سيأمروننا بالتفرق ولا جدال في ذلك.

لزم عليَّ الوصول إلى آنج. خططنا للالتقاء عند تمثال «المؤسس» في الساحة، لكن الوصول إلى هناك كان صعبًا. لم يعد الحشد يتحرك، بل كان يموج مثل الحشد الذي كان

في الأسفل بمحطة بارت يوم وقوع التفجيرات. حاولت جاهدًا اختراقه، وحينذاك انطلق الصوت من مكبر الصوت المعلق أسفل الطائرة المروحية.

«هذه وزارة الأمن الوطني. تفرقوا في الحال!»

سقط المئات من مصاصي الدماء حولي على الأرض، وأخذوا يمسكون بأعناقهم ويفركون في عيونهم ويلهثون. كان من السهل التظاهر بالإصابة بالغاز، فقد حظي جميعنا بفرصة التدقيق في المشاهد المصورة للمحتفلين في متنزه دولوريس بحي ميشن تحت سحب رذاذ الفلفل.

«تفرقوا في الحال!»

سقطت على الأرض، وحميت حقيبتي. مددت يدي إلى قبعة البيسبول الحمراء الملوية في حزام بنطالي، وثبتها بإحكام على رأسي، ثم أمسكت بعنقي، وأطلقت أصواتًا مروعة متظاهرًا بمحاولة التقيؤ.

لم يبق أحد واقفًا سوى الأرضيين؛ أي الموظفين الذين كانوا يحاولون الوصول إلى أعمالهم. نظرت إليهم قدر ما تمكنت بينما كنت أمثل أنني أختنق وألهث.

«هذه وزارة الأمن الوطني. نأمركم بالتفرق في الحال. تفرقوا في الحال!» أصابني ذلك الصوت بألم في بطني، وضروسي، وعظام فخذي، وعمودي الفقري.

أصيب الموظفون بالرعب، وكانوا يتحركون بأقصى سرعة لديهم، لكن ليس في اتجاه معين. بدت المروحيات وكأنها فوق رأسك أينما وقفت. كان الضباط يقتحمون الحشد في تلك اللحظات، وقد ارتدوا خوذاتهم، وحمل بعضهم دروعًا، في حين ارتدى البعض أقنعة للوقاية من الغاز. أخذت ألهث على نحو أكثر شدة.

أخذ بعد ذلك الموظفون يركضون. لعل هذا ما كنت سأفعله أنا أيضًا لو كنت مكانهم. شاهدت رجلًا يخلع سترة يبلغ ثمنها ٥٠٠ دولار، ويلفها حول وجهه قبل أن يتوجه جنوبًا ناحية حي ميشن، فما كان إلا أن تعثر وتمدد على الأرض، وامتزج سبابه بالأصوات المختنقة.

لم يكن من المفترض حدوث ذلك؛ فكان المقصود من ادعاء الاختناق هو مفاجأة الناس وإرباكهم، وليس إصابتهم بالذعر وفرارهم على هذا النحو.

علت الصرخات الآن، صرخات عرفتها جيدًا منذ ليلة المتنزه؛ إنها أصوات أناس مذعورين يركضون متخبطين في بعضهم البعض أثناء محاولتهم المستميتة للفرار.

بدأت بعد ذلك صفارات إنذار الغارات الجوية.

لم أسمع ذلك الصوت منذ وقوع الانفجارات، لكنني لم أنسَهُ مطلقًا. ارتعدت له فرائصي. جعلتني تلك الصفارات أرغب في الهروب فزعًا. وقفت على قدميَّ، والقبعة الحمراء على رأسي، وعقلي لا يفكر إلا في أمر واحد فقط، ألا وهو: آنج وتمثال «المؤسس».

وقف الجميع الآن منتصبي القامة، وأخذوا يركضون في جميع الأنحاء وهم يصرخون. دفعت الناس بعيدًا عن طريقي، محكمًا قبضتي على حقيبتي وقبعتي، ومتوجهًا ناحية تمثال «المؤسس». كانت ماشا تبحث عني، في حين كنت أبحث أنا عن آنج. كانت آنج في مكان ما.

أخذت أدفع في الناس، وأطلق السباب. دفعت أحدهم بمرفقي، في حين وطئ آخر على قدمي بقوة جعلتني أشعر كما لو أن شيئًا قد تكسر بها. دفعته، فنزل على الأرض. حاول النهوض، لكن شخصًا ما سار فوقه. أخذت أشق طريقي دافعًا الناس بعيدًا.

بسطت ذراعي بعد ذلك لأدفع شخصًا آخر، فأمسكتْ يدان قويتان بمعصمي ومرفقي في حركة واحدة مرنة، وأعادت ذراعي خلف ظهري. شعرت بأن كتفي كادت تنخلع، فانحنيت على الفور وصرخت بصوت عالٍ كاد لا يُسمع وسط جلبة الحشد، وصوت المروحيات، وعويل صفارات الإنذار.

استقمت مرة أخرى، بفعل اليدين القويتين اللتين جذبتاني من الخلف وصارتا تتحكمان فيَّ كما لو كنت دمية متحركة. كانت القبضة محكمة للغاية، حتى إنه لم يكن بإمكاني التفكير في الخلاص منها. لم أعد أفكر في الضجيج أو المروحيات أو آنج. كل ما كان بوسعي التفكير فيه هو التحرك في الاتجاه الذي أرادني الشخص الذي أمسك بي أن أتحرك فيه. أدارني فصرت مواجهًا له.

كانت فتاة وجهها حاد الملامح شبيه بالقوارض وشبه مخبَّأ خلف نظارة شمس ضخمة. وفوق النظارة كتلة كثيفة من الشعر ذي اللون الوردي البراق الناتئ في جميع الاتجاهات.

قلت لها: «أنتِ!» كنت أعرفها، فهي من التقطت صورتي وهددتني بأن تشي بي لمراقبي المتهربين من المدرسة. وكان ذلك قبل انطلاق صفارات الإنذار بخمس دقائق. كانت هي بعنفها ومكرها. ركضنا معًا من تلك البقعة في تِندرلوين بينما النفير المزعج ينطلق خلفنا، وقبضت علينا الشرطة معًا. كنت معاديًا، فقررت الشرطة أنني عدو.

أما هي — ماشا — فصارت حليفتهم.

همست في أذني كما لو كنا عاشقين: «مرحبًا يا مايكي!» شعرت برجفة في ظهري. تركت ذراعي، وهززتها أنا بعنف.

قلت لها: «يا إلهي! هذه أنتِ!»

فقالت: «نعم، أنا! سيمطروننا بالغاز بعد دقيقتين، لنهرب سريعًا!»

«آنج صديقتي تنتظرني عند تمثال «المؤسس».»

ألقت ماشا نظرة على الحشد، وقالت: «مستحيل! سنهلك إذا حاولنا الوصول إلى هناك. سنُمطَر بالغاز خلال دقيقتين، إذا لم تصب به في المرة الأولى.»

توقفت عن الحركة، وقلت لها: «لن أرحل بدون آنج.»

هزَّت كتفيها، وصاحت في أذني: «كما تشاء! ستهلك.»

بدأتْ في الاندفاع عبر الحشد مبتعدةً في اتجاه الشمال ناحية وسط المدينة. وواصلتُ الدفع للوصول إلى تمثال «المؤسس». وبعد لحظات، عادت ذراعي مثبتةً بالخلف ببشاعة، وأُدِرت للخلف، ودُفِعت للأمام.

قالت الفتاة: «إنك تعرف الكثير أيها اللعين! لقد رأيت وجهي، ستأتي معي.»

صحت فيها، وأخذت أقاوم إلى أن شعرت بأن ذراعي كادت تنخلع، لكنها ظلت تدفعني للأمام. شعرت بألم مبرح في قدمي مع كل خطوة، وبأن كتفي كادت تنخلع.

تقدمنا جيدًا عبر الحشد مع استخدامها لي كأداة لدفع من أمامها. تغير صوت المروحيات، ودفعتني الفتاة على نحو أقوى. صاحت: «اركض! إنهم يلقون الغاز!»

تغير أيضًا صوت الحشد؛ فأخذت تعلو أصوات الاختناق والصراخ. سمعت هذه الدرجة من الصوت المرتفع من قبل؛ كنا حينها في المتنزه. أطلقوا علينا قنابل الغاز من أعلى؛ فكتمت أنفاسي، وركضت.

تجاوزنا الحشد، وتركت الفتاة ذراعي، فهززتها بعد تحررها. مشيت مترنحًا بأسرع ما يمكنني على الرصيف حيث أخذت أعداد الناس تقل. كنا نتوجه ناحية مجموعة من ضباط وزارة الأمن الوطني يحملون دروعًا ضد الشغب ويرتدون أقنعة وخوذات. ومع اقترابنا منهم، تحركوا ليمنعونا من المرور، لكن ماشا رفعت شارة، فتنحوا جانبًا كما لو كانت شخصية «أوبي وان كينوبي» بسلسلة أفلام حرب النجوم، وتقول لهم: «ليس هؤلاء من تبحثون عنهم.»

قلت لها ونحن نسرع في شارع ماركت: «أيتها الحقيرة، علينا العودة إلى آنج.»

زمَّت شفتيها، هزَّت رأسها، وقالت: «أشعر بك يا صديقي، فلم أرَ صديقي منذ شهور. ويظن على الأرجح أنني قد لقيت حتفي. إنها أقدار الحرب. إذا عدنا إلى صديقتك آنج، فسنصير في عداد الموتى. لكن مع مواصلة المسير، لدينا فرصة في النجاة. وطالما لدينا

فرصة، يكون أمامها هي أيضًا فرصة. هؤلاء الشباب لن يذهبوا إلى سجن جوانتانامو الخليج، وإنما ستقبض الشرطة على بضع مئات على الأرجح ليستجوبوهم، وسيرسلون البقية إلى منازلهم.»

كنا نسير الآن في شارع ماركت، ومررنا بنوادي التعري حيث يجلس السكارى والمدمنون وتفوح منهم رائحة كريهة تشبه رائحة المراحيض المفتوحة. أرشدتني ماشا إلى فجوة صغيرة في باب مغلق لأحد نوادي التعري. خلعت سترتها، وقلبتها. كانت بطانتها على شكل خطوط خفيفة، ومع عكس فتحات السترة، صارت مختلفة. أخرجت بعد ذلك قبعة صوفية من جيبها، ووضعتها على شعرها، مع تركها له ينسدل بأناقة. أخرجت بعد ذلك بعض المناديل لإزالة مساحيق التجميل، وأخذت تزيل ما كان على وجهها وأصابع يديها. وفي لحظات، صارت فتاة مختلفة.

قالت: «تغيير الملابس. الآن حان دورك. لتتخلص من الحذاء، والسترة، والقبعة.» فهمت ما كانت تقصده. ستبحث الشرطة بعناية عن أي أحد يبدو من مظهره أنه أحد أفراد تجمع مصاصي الدماء. تخلصت من القبعة تمامًا؛ لم ترق لي قط قبعات البيسبول. أقحمت بعد ذلك السترة في حقيبتي، وأخرجت تي شيرت طويل الأكمام عليه صورة روزا لوكسمبورج، وارتديته على التي شيرت الأسود الذي كنت أرتديه. سمحت لماشا بإزالة مساحيق التجميل من على وجهي، وتنظيف أظافري. وبعد لحظات، صرت نظيفًا.

قالت: «أغلق هاتفك. هل تحمل أية شرائح لتحديد الهوية بالموجات اللاسلكية؟»

كنت أحمل بطاقة هوية الطالب، وبطاقة الصرف الآلي، وبطاقة «فاست باس». وضعت ماشا كل ذلك في حقيبة فضية اللون كانت تحملها، كانت محفظة فاراداي مقاومة للموجات اللاسلكية. لكن ما إن وضعت تلك المحفظة في جيبها حتى أدركت أنني قد سلمتها بطاقة هويتي. وإذا كانت من الأعداء …

بدأت أستوعب حجم ما حدث للتو. تخيلت آنج معي في تلك اللحظة. كنا سنصير اثنين أمام واحد، وكانت ستساعدني في أن أرى ما إذا كان هناك أي شيء خطأ، وإذا لم تكن ماشا كما ادعت.

«ضع هذه الحصوات في حذائك قبل أن تلبسه …»

«لا حاجة لها، لقد التوت قدمي. ما من برنامج تعرف على المشية يمكنه التعرف عليَّ الآن.»

أومأت برأسها مرة واحدة إيماءة محترف لآخر، وعلقت حقيبتها. حملت حقيبتي أيضًا، وتحركنا. لم يستغرق تغيير ملابسنا أكثر من دقيقة. صرنا كشخصين آخرين في مظهرنا ومشيتنا.

نظرت في ساعتها، هزت رأسها، وقالت: «هيا! علينا أن نجري المقابلة. إياك والتفكير في الهرب! لديك خياران الآن: أنا أو السجن. سيعملون على تحليل المشاهد المصورة لهذا الحشد لأيام. لكن ما إن ينتهوا من فعل ذلك حتى يدخل كل وجه ظهر بها في قاعدة بيانات. وسينتبهون إلى مغادرتنا المكان. نحن الآن مجرمان مطلوبان للعدالة.»

أخرجتنا ماشا من شارع ماركت عند المربع السكني التالي لنعود إلى تِندرلوين. كنت أعرف هذا الحي، فهناك ذهبنا نبحث عن نقطة وصول مفتوحة بشبكة الواي فاي في اليوم الذي كنا نلعب فيه لعبة «هاراجوكو فان مادنس».

سألتها: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

فأجابتني: «نحن على وشك اللحاق بركوبة. اصمت، ودعني أركز.»

تحركنا سريعًا، وتصبب العرق على وجهي تحت شعري، وامتد إلى ظهري وصولًا إلى مؤخرتي وفخذيَّ. اشتد الألم في قدمي، ورأيت شوارع سان فرانسيسكو ونحن نمر بها، ربما للمرة الأخيرة على الإطلاق.

لم يتحسن الأمر بشق طريقنا صعودًا التل، والتحرك تجاه المنطقة التي تصل بين تِندرلوين الخصبة وعقارات نوب هيل الرائعة. تهدجت أنفاسي. وكانت أغلب الطرق التي قادتني إليها ماشا مجازات ضيقة، ولم تسر في شوارع واسعة إلا للانتقال من مجاز ضيق لآخر.

كنا قد خطونا لتونا إلى داخل أحد هذه المجازات، واسمه «سابين بليس» عندما ظهر شخص ما فجأة خلفنا، وقال بصوت شابته فرحة شريرة: «توقفا مكانكما!» توقفنا واستدرنا للخلف.

عند مدخل المجاز، وقف تشارلز يرتدي زيًّا لتجمع مصاصي الدماء يدل على عدم الحماس مكونًا من بنطال جينز وتي شيرت أسود اللون، وعلى وجهه مساحيق بيضاء. قال: «مرحبًا يا ماركوس، هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟» ابتسم ابتسامة عريضة، وواصل حديثه: «من صديقتك؟»

«ماذا تريد يا تشارلز؟»

«لقد دخلت على شبكة إكس نت الخائنة تلك منذ شاهدتك وأنت توزع أقراص الفيديو الرقمية في المدرسة. وعندما علمت بأمر لعبة تجمع مصاصي الدماء، فكرت في الانضمام لها، والمراقبة من بعيد لأرى ما إذا كنت ستحضر أم لا وما كنت تفعله. وتعلم ماذا رأيت؟»

لم أنطق. حمل هاتفه في يده، وأشار إلينا. كان يسجل كل ما أقوم به. ولعله كان على استعداد لطلب رقم النجدة ٩١١. وبجانبي ماشا، وقفت كلوح الخشب.

«رأيتك وأنت تتزعم ما حدث، وسجلت كل شيء يا ماركوس؛ ولذلك، سأطلب الآن الشرطة، وسننتظرها هنا. وسيُزج بك في السجن لفترة طويلة للغاية.»

خطت ماشا للأمام.

فقال لها: «توقفي مكانك أيتها الجميلة! لقد رأيتك وأنتِ تساعدينه على الهرب. لقد رأيت كل شيء ...»

أخذت خطوة أخرى للأمام، وخطفت الهاتف من يده. وضعت يدها الأخرى خلف ظهرها، وأخرجتها ممسكة بمحفظة مفتوحة.

وقالت موجهة حديثها لتشارلز: «وزارة الأمن الوطني، أيها الغبي! أعمل مع وزارة الأمن الوطني، وقد ساعدت هذا الساذج على الهرب لأوصله إلى رؤسائه. «كان» هذا ما أفعله، وقد أفسدت الآن كل شيء. ثمة اسم لذلك، وهو «إعاقة عمل الأمن الوطني». ستتردد هذه العبارة على سمعك كثيرًا منذ الآن.»

تراجع تشارلز خطوة للوراء رافعًا يديه أمامه. وقد ازداد شحوبًا من وراء مساحيق التجميل. قال: «ماذا؟ كلا! أعني ... لم أكن أعلم! كنت أحاول تقديم المساعدة!»

«آخر ما نحتاجه هو مجموعة من المخبرين بالسنة قبل النهائية من المرحلة الثانوية «تقدم المساعدة» يا صاح. يمكنك إخبار القاضي بذلك.»

تراجع أكثر للوراء، لكن ماشا كانت سريعة، أمسكت بمعصمه، ولوته بأسلوب لاعبي الجودو نفسه الذي اتبعته معي في مركز المدينة. أدخلت يدها في جيبها بالخلف، فأخرجت شريطًا بلاستيكيًّا، شريطًا لتقييد اليدين، لفَّته سريعًا حول معصميه.

كان ذلك آخر ما رأيته إذ انطلقت هاربًا.

كنت قد وصلت إلى نهاية المجاز قبل أن تصل إليَّ، وتعرقلني من الخلف، وتلقي بي أرضًا. لم أتمكن من التحرك سريعًا بسبب الألم في قدمي ووزن حقيبتي. سقطت على وجهي على الأرض، انزلقت، واحتكت وجنتي بالأسفلت الوسخ.

قالت: «يا إلهي! يا لك من غبي! هل صدقت ذلك حقًّا؟»
خفق قلبي في صدري. كانت تجثم فوقي، وسحبتني لأعلى ببطء.
«هل أنا بحاجة لتقييد يديك يا ماركوس؟»
وقفت على قدميَّ. شعرت بالألم في كل جسمي، وأردت الموت.
قالت لي: «هيا! إنها لم تعد تبعد كثيرًا.»

اتضح لي فيما بعد أن ماشا كانت تعني بـ «إنها» شاحنة متحركة بشارع جانبي في منطقة نوب هيل، شاحنة بست عشرة عجلة تماثل في حجمها شاحنات وزارة الأمن الوطني المنتشرة في كل مكان، والتي لا تزال متواجدة بنواصي شوارع سان فرانسيسكو وتنتصب فوقها أجهزة الهوائي.

لكن تلك الشاحنة حملت على جانبها عبارة «ثلاثة رجال وعربة تتحرك»، والرجال الثلاثة كانوا واضحين للغاية، أخذوا يسيرون جيئةً وذهابًا من مبنى سكني طويل ذي مظلة خضراء وإليه. كانوا يحملون أثاثًا موضوعًا في صناديق تحمل أسماءً مطبوعة بعناية. أخذوا يشحنون الصندوق تلو الآخر إلى الشاحنة، ويرصونها بعناية فيها.

سارت بنا حول الشاحنة مرة واحدة، وظهر عليها عدم الرضا بشيء ما. وفي المرة التالية، تواصلت بعينها مع الرجل الذي كان يراقب الشاحنة، وهو رجل أسود كبير السن يرتدي حزامًا عريضًا واقيًا وقفازين سميكين. كان وجهه سمحًا. ابتسم لنا بينما كانت ماشا تقودنا سريعًا على درجات الشاحنة الثلاث ثم إلى داخلها. قال الرجل: «تحت الطاولة الكبيرة ... تركنا لكما مكانًا هناك.»

كانت الشاحنة نصف ممتلئة، لكن كان هناك ممر ضيق حول طاولة كبيرة ملقاة فوقها بطانية مُضَرَّبة، ومغلَّفة أرجلها بغلاف فقاعات هوائية.

سحبتني ماشا أسفل الطاولة. كان المكان فاسد التهوية، وهادئًا، ومغبرًا أسفلها. كتمت عطسة أثناء انحشارنا بين الصناديق. كان المكان ضيقًا للغاية، حتى إن كلًّا منا التصق بالآخر. أظن أن آنج ما كان ليتسع لها هذا المكان.

قلت لماشا وأنا أنظر إليها: «أيتها الساقطة!»

«اخرس! من المفترض أن تلعق حذائي شكرًا لي. لولاي، لكنت ستُلقَى في السجن في خلال أسبوع. وليس في جوانتانامو الخليج، وإنما في سوريا. أعتقد أنهم يرسلون إلى سوريا مَن يريدونهم أن يختفوا حقًا.»

وضعت رأسي على ركبتيَّ، وحاولت التنفس بعمق.

«لماذا ترتكب شيئًا بهذا القدر من الغباء بإعلان الحرب على وزارة الأمن الوطني؟»

فأجبتها. أخبرتها عن إلقاء القبض عليَّ، وعن داريل.

تحسست جيوبها، وأخرجت هاتفًا. كان هاتف تشارلز. قالت: «الهاتف الخطأ!» ثم أخرجت هاتفًا آخر. قامت بتشغيله، وملأ النور الصادر من الشاشة حصننا الصغير. وبعد تحريك إصبعها عليه للحظة، جعلتني أشاهد ما على الشاشة.

كانت الصورة التي التقطتها لنا قبيل وقوع التفجيرات. كانت الصورة التي تجمع بيني أنا وخولو وفان و...

داريل.

كنت أحمل في يدي دليلًا على أن داريل كان معنا قبل دقائق من تحفظ وزارة الأمن الوطني علينا، إثباتًا على أنه كان حيًّا ومعافى ومرافقًا لنا.

قلت لها: «يجب أن تعطيني نسخة من هذه الصورة. أنا بحاجة إليها.»

فقالت لي، وهي تخطف الهاتف من يدي: «سأعطيها لك عندما نذهب إلى لوس أنجلوس، وتعرف كيف تكون هاربًا دون أن تتسبب في القبض على كلينا، وإرسالنا إلى سوريا. لا أريدك أن تفكر في إنقاذ هذا الفتى؛ فهو في أمان حيث يوجد ... في الوقت الراهن.»

فكرت في محاولة أخذه منها بالقوة، لكنها استعرضت من قبل مهارتها البدنية. لعلها حاصلة على حزام أسود أو شيء من هذا القبيل.

جلسنا في الظلام نستمع للرجال الثلاثة أثناء تحميلهم الصناديق واحدًا تلو الآخر في الشاحنة، وربطهم إياها، والأصوات المنبعثة منهم إثر ما يبذلونه من جهد. حاولت النوم، لكنني لم أستطع. أما ماشا، فلم تُعانِ من مشكلة في ذلك. كانت تغط في نومها.

كان لا يزال هناك ضوء يمر عبر المجاز الضيق المليء بالمعوقات الذي يؤدي إلى الهواء المنعش في الخارج. حدقت فيه عبر الظلام وفكرت في آنج.

آنج حبيبتي. شعرها الذي يمس كتفيها برفق وهي تدير رأسها من جانب لآخر، وتضحك على شيء ما فعلته. وجهها عندما رأيتها آخر مرة وهي تسقط بين الحشد بلعبة تجمع مصاصي الدماء. كل هؤلاء الناس في اللعبة — مثل مَن كانوا في المتنزه — منبطحون على الأرض ويتلوون، ورجال الأمن الوطني يتدخلون بالهراوات. أولئك الذين اختفوا.

داريل المحتجز على جزيرة «تريجر آيلاند» وجانبه المقطَّب. يُخرَج من زنزانته ليخضع لسلسلة لا متناهية من الاستجوابات بشأن الإرهابيين.

والد داريل المحطم، الثمل، غير حليق الذقن، الذي اغتسل وارتدى زيَّه «لتلتقَط صورته»، يبكي كالطفل الصغير.

والدي، وكيف تغير باختفائي على جزيرة «تريجر آيلاند». لقد تحطم شأنه شأن والد داريل، لكن على طريقته الخاصة. ووجهه، عندما أخبرته أين كنت.

علمت حينذاك أنه لا يمكنني الهرب، وأنه ينبغي لي البقاء والمواجهة.

كانت أنفاس ماشا عميقة ومنتظمة، لكنني عندما وصلت ببطء حذر إلى جيبها لأحصل على هاتفها، علا صوت أنفاسها، وبدَّلت وضعها. تسمرت مكاني، ولم أتنفس لمدة دقيقتين كاملتين.

عادت في تؤدة تتنفس بعمق ثانيةً. جذبت الهاتف من جيب سترتها ببطء شديد، وذراعي وأصابعي ترتعش من المجهود الذي أبذله في التحرك بهذا البطء.

ثم حصلت عليه. كان يشبه قطعة الشوكولاتة الصغيرة.

استدرت لأواجه الضوء، وجالت بخاطري حينذاك ذكرى: تشارلز يخرج هاتفه، يهزه في اتجاهنا، ويوبخنا. كان هاتفه يشبه قطعة الشوكولاتة، فضي اللون، ملصقة عليه شعارات العشرات من الشركات التي دعمت تكلفة الهاتف من خلال الشركة المصنعة للهاتف. وكان من النوع الذي تضطر للسماع فيه إلى إعلان تجاري في كل مرة تجري فيها اتصالًا.

كان المكان داخل الشاحنة حالك الظلمة؛ وحال دون رؤيتي للهاتف بوضوح، لكن كان بإمكاني الشعور به. هل كانت هذه ملصقات للشركة على جوانبه؟ نعم، فما سرقته من ماشا كان هاتف تشارلز.

عدت إلى ماشا ثانية ببطء شديد إلى أن وصلت إلى جيبها الخلفي. كان هاتفها أكبر وأكثر سمكًا، وبه كاميرا أفضل. ومن يعلم ماذا أيضًا؟

فعلت ذلك مرة من قبل؛ ما جعله أيسر بعض الشيء. مرة أخرى ببطء شديد إلى أن أخرجته من جيبها. توقفت مرتين عندما تنفست بصوت مسموع وارتجف جسدها.

أخرجت الهاتف من جيبها، وكنت على وشك الرجوع للخلف عندما مدت يدها فجأة وبسرعة كالأفعى لتمسك بمعصمي بقوة، وأطراف أصابعها تطحن العظام الصغيرة الضعيفة أسفل يدي.

لهثتُ وحدقتُ في عينَي ماشا المحملِقتين الواسعتين.

قالت مخاطبةً إياي وهي تأخذ الهاتف مني، وتضغط على لوحة مفاتيحه بيدها الأخرى: «يا لك من أحمق! كيف كنت تخطط لفتح ذلك ثانيةً؟»

ابتلعت ريقي. شعرت بطحن العظام في معصمي. قضمت شفتي لأمنع نفسي من الصراخ.

استمرت في الضغط على المفاتيح باستخدام يدها الأخرى، ثم سألتني وهي تظهر لي صورتي مع داريل وخولو وفان: «هل هذا ما اعتقدت أنك ستهرب به؟ هذه الصورة؟»

لم أنطق، وشعرت بأن معصمي سيتكسر.

«لعل من الأفضل أن أمسحها، وأمنعها من إغوائك.» تحركت يدها الحرة أكثر، وأظهر الهاتف رسالة تأكُّد من رغبتها في الحذف؛ فكان عليها النظر إليه للعثور على الزر الصحيح.

وفي تلك اللحظة، تحركت. كان تليفون تشارلز لا يزال في يدي. أنزلته على يدها التي تعصر بها معصمي بأقصى قوتي، لترتطم مفاصل أصابعي بالطاولة أعلانا. ضربت يدها بقوة لدرجة أن الهاتف تبعثرت أجزاؤه، وصرخت عاليًا، وضعفت يدها. ظللت أتحرك، فوصلت ليدها الأخرى للحصول على هاتفها الذي صار الآن غير مغلق، وإبهامها لا يزال فوق زر «نعم». تشنجت أصابعها في الهواء أثناء انتزاع الهاتف من يدها.

تحركت إلى المجاز الضيق زحفًا على يديَّ وركبتيَّ متوجهًا ناحية الضوء. شعرت بيديها تضربانني على قدميَّ وكاحليَّ مرتين، ولزم عليَّ إزاحة بعض الصناديق التي كانت تحيط بنا كمقابر الفراعنة. سقط بعضها خلفي، وسمعت صوت ماشا تتأوَّه.

كان باب الشاحنة الدوار مفتوحًا بعض الشيء، فزحفت حتى وصلت تحته. كانت الدرجات قد أُزيحت، ووجدت نفسي متدليًا فوق الطريق، وسقطت على الأسفلت برأسي أولًا، محدثًا صوتًا رن في أذني مثل قرع الأجراس. وقفت على قدميَّ ممسكًا بممتص الصدمات، وسحبت مقبض الباب بعناء مغلقًا إياه. صرخت ماشا داخل الشاحنة ... لا بد أنني قد أغلقت الباب على أطراف أصابعها. شعرت بالرغبة في التقيؤ، لكنني لم أفعل.

بل أغلقت باب الشاحنة بالقفل.

الفصل العشرون

أهدي هذا الفصل إلى ذا تاترد كافر، متجر الكتب المستقل المذهل في دِنفر. عثرت على ذلك المتجر بالصِّدفة البحتة؛ إذ كنت أنا وآليس قد وصلنا لتونا إلى دِنفر عائدَين من لندن. كان الوقت مبكرًا، والطقس باردًا، وأردنا بعض القهوة؛ فأخذنا نتجول كثيرًا دون وجهة، وحينذاك لمحت لافتة ذا تاترد كافر. أثار الاسم شيئًا في ذهني ... لقد سمعت عن هذا المكان من قبل. توقفنا عند مقهى على الطريق (وحصلنا على القهوة)، ثم دخلنا المتجر ... مكان خلاب من الخشب داكن اللون، أركان منعزلة للقراءة تمنحك الشعور وكأنك في المنزل، وأرفف كتب على امتداد البصر.

* * *

لم يكن هناك أيٌّ من الرجال الثلاثة في هذه اللحظة، فانطلقت هاربًا. شعرت بألم شديد في رأسي حتى ظننت أنني أنزف بالتأكيد، لكنني عندما وضعت يديَّ على رأسي لم تكن هناك أي دماء. تيبس كاحلي الملتوي في الشاحنة، ومن ثم ركضت كدمية متحركة مكسورة، ولم أتوقف سوى مرة واحدة فقط لإلغاء حذف الصورة على هاتف ماشا. وأوقفت تشغيل اللاسلكي للحفاظ على شحن البطارية ولأحول دون استخدامه في تعقبي. وضبطت مؤقت الخمول على ساعتين، أطول فترة متاحة في الإعدادات. وحاولت ضبطه على ألا يطلب كلمة مرور لإيقاف وضع الخمول، لكن ذلك نفسه تطلب كلمة مرور. كان سيلزم عليَّ الضغط على لوحة المفاتيح مرة واحدة على الأقل كل ساعتين إلى أن أتمكن من الوصول إلى كيفية إخراج الصورة من الهاتف. وبالتالي، كنت بحاجة لشاحن.

لم تكن لدي خطة. كنت بحاجة لواحدة، كنت بحاجة للجلوس والدخول على الإنترنت لأكتشف ما كنت سأفعله بعد ذلك. سئمت من السماح للآخرين بوضع الخطط لي. لم

أرغب في التصرف بناء على ما فعلته ماشا أو بسبب وزارة الأمن الوطني أو والدي ... أو آنج! حسنًا، ربما أفعل شيئًا بسبب آنج. لا بأس في ذلك على الإطلاق في الحقيقة.

نزلت نحو أسفل التل مارًّا في المجازات الضيقة متى استطعت مندمجًا مع الجموع في تِندرلوين. لم تكن لدي أية وجهة في ذهني. ومع كل بضع دقائق، كنت أضع يدي في جيبي، وأمس برفق أحد المفاتيح بهاتف ماشا لأحول دون دخوله في وضع الخمول. كان بارزًا على نحو غريب وهو مفتوح في سترتي.

توقفت، واستندت إلى حائط أحد المباني. شعرت بألم شديد في كاحلي. أين كنت على أية حال؟

«أوفيريل»، شارع هايد، أمام مركز تدليك آسيوي مريب. قدماي الخائنتان أوصلتاني إلى نقطة البداية ... لقد أوصلتاني إلى حيث التُقِطت الصورة الموجودة بهاتف ماشا قبل انفجار جسر باي بثوانٍ، وتغيُّر حياتي للأبد.

أردت أن أجلس على الرصيف وأصيح بأعلى صوتي، لكن ذلك ما كان ليحل مشكلاتي. كان عليَّ الاتصال بباربارا ستراتفورد، وإخبارها بما حدث، وإطلاعها على صورة داريل.

فيم كنت أفكر؟ كان عليَّ إطلاعها على الفيديو الذي أرسلته إليَّ ماشا، ذلك الفيديو الذي تأمل فيه مدير مكتب رئيس الجمهورية في حبور الهجمات على سان فرانسيسكو، واعترف بأنه يعلم أين ومتى ستقع الهجمات التالية، وأنه لن يوقفها لأنها ستساعد في إعادة انتخاب رئيس الجمهورية.

كانت هذه هي الخطة إذن: الاتصال بباربارا، وإعطاءها المستندات لتنشرها. لا شك أن تجمع مصاصي الدماء قد أصاب الناس بالذعر، وجعلهم يعتقدون أننا مجموعة من الإرهابيين حقًّا. بالطبع، عندما كنت أخطط لتلك اللعبة، كنت أفكر كم ستكون وسيلة إلهاء جيدة، وليس كيف سينظر إليها الآباء التقليديون في نِبراسكا.

عزمت على الاتصال بباربارا، والتحلي بالذكاء عند فعل ذلك. فكنت سأتصل بها من هاتف عمومي، مع وضع قلنسوة سترتي على رأسي حتى لا تلتقط كاميرات الدوائر التليفزيونية المغلقة المتعذر اجتنابها صورة لي. أخرجت ربع دولار من جيبي، ومسحته في ذيل قميصي لأزيل بصمات أصابعي من عليه.

توجهت أسفل التل إلى أن وصلت إلى محطة بارت والهواتف العمومية هناك. سرت إلى محطة الترام، وهناك لمحت غلاف صحيفة «باي جارديان» لذلك الأسبوع، وقد تكدست نسخ الصحيفة في كومة عالية بجوار رجل أسود متشرد ابتسم في وجهي، وقال: «تفضل، اقرأ الغلاف، فهو مجاني ... أما تصفح ما بداخل الصحيفة، فسيكلفك خمسين سنتًا.»

كان العنوان الرئيسي مكتوبًا بحجم لم أره منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ونصه:

«داخل سجن جوانتانامو الخليج»

وتحته بخط أصغر حجمًا بعض الشيء:

«كيف احتجزت وزارة الأمن الوطني أبناءنا وأصدقاءنا في سجون سرية بالقرب منا.»

«بقلم باربارا ستراتفورد، حصريًّا لصحيفة باي جارديان.»

هزَّ بائع الصحف رأسه، وقال: «هل تصدق ذلك؟ هنا في سان فرانسيسكو. يا لها من حكومة حقيرة!»

نظريًّا، توزع تلك الصحيفة مجانًا، لكن من الواضح أن ذلك الرجل قد حصل مبكرًا على عدد من النسخ من السوق المحلية. كان في يدي ربع دولار. ألقيت به في الكوب الذي كان يمسك به، وبحثت عن آخر. لم أهتم هذه المرة بمسح بصمات أصابعي من عليه.

«لقد أخبرونا بأن العالم قد تغير للأبد بعد تفجير جسر باي على يد مجهولين. لقي الآلاف من أصدقائنا وجيراننا حتفهم في ذلك اليوم. ولم يُنقَذ أيٌّ منهم تقريبًا؛ ومن المفترض أن بقاياهم ترقد في قاع ميناء المدينة.

لكن ثمة رواية مذهلة استمعت إليها هذه الصحفية من شاب ألقت وزارة الأمن الوطني القبض عليه بعد دقائق من التفجير، وهذه الرواية تشير إلى أن حكومتنا قد احتجزت على نحو مخالف للقانون الكثيرين ممن يُعتقَد أنهم قد لقوا حتفهم على جزيرة «تريجر آيلاند»، التي أُخليت ومُنِع دخول المدنيين إليها بعد التفجيرات بفترة قصيرة ...»

جلست على أحد المقاعد لأقرأ المقال كاملًا؛ لاحظت ما أصابني بقُشَعْريرة في بدني، وهو أنني أجلس على المقعد ذاته الذي جعلنا داريل يستريح عليه بعد هروبنا من محطة بارت. بذلت جهدًا هائلًا لكي لا أنفجر في البكاء في تلك اللحظة. عثرت باربارا على بعض الصور التي تجمع بيني أنا وداريل ونحن نتسكع معًا، ووضعتها بجانب الخبر. ربما مضى على تلك الصور عام واحد، لكنني بدوت أصغر سنًّا بكثير فيها، كما لو كنت في العاشرة أو الحادية عشرة. لقد كبرت كثيرًا في الشهرين الماضيين.

برعت باربارا في كتابة المقال؛ فشعرت بالغضب من أجل الشباب المساكين الذين كتبت عنهم، ثم تذكرت أنها كانت تكتب عني. ضمت المقالة أيضًا رسالة زيب بعد تكبير حجم خط يده المُبهَم لتشغل نصف صفحة في الصحيفة. توصلت باربارا إلى المزيد من المعلومات عن شباب آخرين فُقِدوا واعتُقِد أنهم لقوا حتفهم. قائمة طويلة. وتساءلت باربارا كم من الشباب احتُجِزوا على تلك الجزيرة والتي تقع على بُعد بضعة أميال فقط من آبائهم.

أخرجت ربع دولار آخر من جيبي، ثم بدلت رأيي؛ فمن المؤكد أن هاتف باربارا مُراقَب. ما كنت لأتصل بها الآن، ليس مباشرةً. كنت بحاجة إلى وسيط للاتصال بها ودعوتها لمقابلتي في مكان ما بالجنوب. عناصر كثيرة لإعداد خطة.

ما كنت بحاجة إليه حقًّا هو شبكة إكس نت.

كيف كان لي أن أدخل على الإنترنت؟ أخذ جهاز البحث عن شبكة الواي فاي في هاتفي يومض بشدة؛ فالشبكة اللاسلكية حولي في كل مكان، لكن لم يكن لدي جهاز إكس بوكس أو تليفزيون أو قرص فيديو رقمي لنظام بارانويد إكس بوكس للبدء. شبكة واي فاي، واي فاي في كل مكان ...

حينذاك لمحتهما: شابَّين من نفس عمري تقريبًا، يتحركان بين جمع الناس أعلى سلالم محطة بارت.

ما لفت نظري هو الطريقة التي كانا يتحركان بها. كانت حركتهما خرقاء بعض الشيء، يدفعان المارة والسائحين برفق، وكلٌّ منهما يضع إحدى يديه في جيبه، وعندما تلتقي عيناهما يضحكان ضحكة مكتومة. كان من الواضح تمامًا أنهما يقومان بالتشويش، لكن الناس من حولهما غفلوا عن ذلك. عندما تكون في ذلك الحي، تتوقع أن تصادف مجانين ومشردين؛ لذلك لا تنظر في عين أحد، ولا تنظر حولك على الإطلاق إذا تمكنت من ذلك.

اقتربت من أحد الشابين. بدا صغيرًا للغاية، لكن لا يمكن أن يكون أصغر مني.

قلت له: «مرحبًا! هل يمكنكما المجيء إلى هنا للحظات؟»

تظاهر بأنه لا يسمعني، فلم يلتفت إليَّ مثلما يفعل المرء مع أي شخص مشرد.

قلت له: «هيا! ليس أمامي متسع من الوقت.» أمسكت بكتفه، وهمست في أذنه: «تسعى الشرطة ورائي، أنا أحد أعضاء شبكة إكس نت.»

بدا الذعر عليه الآن، وبدا كما لو كان يرغب في الهرب، وحينذاك اقترب صديقه منا. قلت لهما: «أنا جاد فيما أقوله. لتسمعا ما لديَّ فقط.»

اقترب صديقه، كان أطول منه ومكتنزًا ... مثل داريل. سأل: «مرحبًا، ما الخطب؟»
همس صديقه في أذنه، وبدا الاثنان وكأنهما على وشك الهروب.

أمسكت صحيفة «باي جارديان» التي كنت أضعها تحت ذراعي، وحركتها سريعًا أمامهما، وقلت لهما: «انتقلا إلى الصفحة ٥.»

ففعلا، ونظرا إلى العنوان، والصورة ... إنها صورتي.

قال الأول: «يا إلهي! نحن تافهان حقًّا!» ابتسم في وجهي كالمجنون، في حين ضربني المكتنز ضربة خفيفة على ظهري.

وقال: «مستحيل! أنت م ...»

وضعت يدي على فمه، وقلت: «هلا تأتيان إلى هنا؟»

اصطحبتهما إلى المقعد الذي كنت أجلس عليه. لاحظت بقعة قديمة بُنِّية اللون على الرصيف تحت المقعد. هل هذا دم داريل؟ أصابتني الفكرة بقشعريرة. جلسنا.

قلت لهما: «أنا ماركوس.» ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أفصح عن اسمي الحقيقي لهذين الشابين اللذين يعرفان أنني مايكي. لقد كشفت عن نفسي، لكن «باي جارديان» كانت قد ربطت بين الشخصيتين بالفعل.

قال ضئيل الجسم: «اسمي نيت»، في حين قال الآخر: «وأنا ليام. يا له من شرف أن نلتقي بك! أنت أعظم الأبطال في نظرنا ...»

قاطعته: «لا تقل ذلك ... لا تقل ذلك. إن ما تفعلانه كما لو كنتما تعلنان بوضوح: «نحن نمارس التشويش، لتزجوا بنا في سجن جوانتانامو الخليج.» لا يمكن أن تكونا أكثر وضوحًا.»

بدا ليام وكأنه على وشك البكاء.

«لا تقلقا، فلم يُقبَض عليكما. سأعطيكما بعض النصائح فيما بعد.» فابتهج ثانيةً. الأمر الغريب الذي اتضح لي أن هذين الشابين كانا يمجدان مايكي حقًّا، وكانا ليفعلان أي شيء أخبرهما به. كانا يبتسمان كالأغبياء. أزعجني ذلك، وأشعرني بالغثيان.

«اسمعا! أنا بحاجة للدخول على شبكة إكس نت الآن دون أن أذهب إلى المنزل أو أي مكان بالقرب منه. هل تعيشان بالقرب من هنا؟»

فقال نيت: «أنا أعيش بالقرب من هنا، أعلى شارع كاليفورنيا. سنسير قليلًا ... أعلى التلال المرتفعة.» كنت قد نزلت عنها لتوي، وماشا لا تزال هناك بأعلى. لكن ذلك أفضل ما يمكنني توقعه على الإطلاق.

قلت لهما: «هيا بنا!»

أعارني نيت قبعة البيسبول الخاصة به، وتبادلنا السترات معًا. لم أكن بحاجة للقلق بشأن التعرف على المشية مع اهتزاز كاحلي؛ فقد كنت أعرج مثل ممثل ثانوي في أحد أفلام رعاة البقر.

كان نيت يعيش في شقة ضخمة بها أربع غرف نوم أعلى نوب هيل، وكان للبناية بواب يرتدي معطفًا أحمر اللون مطرزًا باللون الذهبي. لمس قبعته، وقال لنيت: «سيد نيت!» ورحب بنا جميعًا. كان المكان نظيفًا تمامًا، وفاحت منه رائحة طلاء الأثاث. حاولت ألا أحدق ببله في ذلك البيت الذي يساوي نحو مليوني دولار.

فسر نيت الأمر قائلًا: «كان والدي مصرفيًّا في بنك استثماري، وكان لديه العديد من بوليصات التأمين على الحياة. توفي عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، وحصلنا على قيمة كل هذه البوليصات، وقد جعل أمي المستفيدة منها رغم طلاقهما منذ سنوات.»

ومن النافذة التي تصل من الأرضية إلى السقف، كان بإمكانك رؤية منظر رائع للجانب الآخر من نوب هيل وصولًا إلى منطقة فيشرمانز وارف والهيكل القبيح لجسر باي، وحشد الرافعات والشاحنات. وسط الضباب، تمكنت من أن ألمح جزيرة «تريجر آيلاند». والنظر إلى أسفل من هذه المسافة العالية جعلني أشعر برغبة مجنونة في القفز.

دخلت على الإنترنت باستخدام جهاز إكس بوكس الخاص به وشاشة بلازما ضخمة في حجرة المعيشة. أوضح لي كم من شبكات الواي فاي كانت مرئية من موقعه العالي المتميز ... فكان هناك نحو عشرين أو ثلاثين شبكة. كانت بقعة جيدة بالنسبة لأي مستخدم لشبكة إكس نت.

امتلأ صندوق بريد مايكي بالرسائل؛ ٢٠٠٠٠ رسالة جديدة منذ غادرت أنا وآنج منزلها ذلك الصباح، والكثير من هذه الرسائل كان من جهات صحفية تطلب مقابلات متابعة، لكن أغلبها كان من مستخدمي شبكة إكس نت، أفراد قرءوا الخبر بصحيفة «باي جارديان» وأرادوا إخباري بأنهم سيفعلون أي شيء لمساعدتي، أي شيء أحتاج إليه.

كان هذا كافيًا. بدأت الدموع تنسال على وجنتيَّ.

تبادل نيت وليام النظرات. حاولت التوقف، لكن دون جدوى. وتحول البكاء إلى نشيج. توجه نيت إلى خزانة كتب من خشب البلوط بأحد الجدران، وأخرج خزانة خمر من أحد أرففها ليكشف عن صف لامع من الزجاجات. صبَّ لي كأسًا من زجاجة ذات لون بني ذهبي، وجلبها إليَّ.

قال: «ويسكي أيرلندي نادر ... المفضل لدى أمي.»

كان مذاقه كالنار، كالذهب. رشفته محاولًا ألا أصاب بالاختناق. لم أحب في الواقع المشروبات الكحولية الثقيلة، لكن ذلك كان مختلفًا. أخذت عدة أنفاس عميقة.

وقلت له: «شكرًا يا نيت.» فارتسمت على وجهه نظرة كما لو كنت قد منحته وسامًا للتو. كان فتى صالحًا.

قلت وأنا أمسك بلوحة المفاتيح: «حسنًا!» راقبني الشابان بافتتان بينما كنت أتصفح بريدي على الشاشة الضخمة.

أهم شيء كنت أبحث عنه هو رسالة من آنج، فمن المحتمل أن تكون قد هربت، وهذا احتمال قائم دائمًا.

مجرد الأمل في ذلك كان حماقة مني. لم يكن هناك أي شيء منها. بدأت في تفقد البريد بأسرع ما يمكنني، مستبعدًا طلبات الصحافة، ورسائل المعجبين، ورسائل الكراهية، والبريد غير المرغوب فيه ...

حينذاك وجدت رسالة من زيب.

«ليس لطيفًا أن أستيقظ هذا الصباح لأجد الرسالة التي ظننت أنك ستتخلص منها على صفحات الجرائد. ليس لطيفًا على الإطلاق. أشعرني ذلك بأنني ... خُدِعت.

لكنني استوعبت بعد ذلك السبب وراء ما فعلته. لا أعلم إذا ما كان بإمكاني الموافقة على خططك أم لا، لكن من اليسير لي أن أرى أن دوافعك كانت سليمة.

إذا كنت تقرأ هذه الكلمات، فذلك يعني أنك قد تمكنت على الأرجح من الاختفاء، وليس ذلك بالأمر السهل. لقد تعلمت ذلك، وغيره الكثير.

بوسعي مساعدتك، وينبغي لي فعل ذلك من أجلك، فأنت تفعل ما بوسعك من أجلي. (وإن لم تكن تفعله بإذن مني.)

رد عليَّ إذا وصلتك هذه الرسالة، وكنت بالطريق ووحدك، أو رد إذا كان مقبوضًا عليك، وتخضع لقبضة أصدقائنا في جوانتانامو، وتبحث عن وسيلة لإيقاف الألم الذي تشعر به. إذا قبضوا عليك، فسوف تفعل ما يملونه عليك. أعلم ذلك، وسأخوض المخاطرة.

من أجلك يا مايكي.»

زفر ليام قائلًا: «يا إلهي!» أردت صفعه. استدرت لأقول له شيئًا بشعًا ولاذعًا، لكنه كان يحدق فيَّ بعينين متسعتين كما لو كان على وشك الجثو على ركبتيه وتقديسي.

قال نيت: «هل أستطيع أن أقول ... هل أستطيع أن أقول إن مساعدتي لك هي أعظم شرف لي في حياتي كلها؟ هل يمكنني قول هذا فقط؟»

تورد وجهي خجلًا. لم يكن هناك داعٍ لذلك. هذان الاثنان مفتونان بي بالكامل، رغم أنني لست نجمًا، على الأقل ليس من وجهة نظري.

بلعت ريقي وقلت: «هل يمكن أن ... هل تسمحان لي ببعض الخصوصية هنا؟»

خرجا في هدوء من الغرفة كجروين أساءا التصرف، وشعرت بأنني آلة. أخذت أكتب سريعًا.

«لقد هربت يا زيب، وأنا الآن هارب. أحتاج إلى كل مساعدة يمكنني الحصول عليها. أريد إنهاء ذلك الآن.» تذكرت أن أخرج هاتف ماشا من جيبي، وأضغط على أزراره لأمنعه من الدخول في وضع الخمول.

سمح لي الفتيان بالاغتسال، ومنحاني ملابس وحقيبة ظهر جديدة مليئة بجميع مستلزمات الطوارئ من حلوى الطاقة، والأدوية، والكمادات الساخنة والباردة، وحقيبة نوم قديمة. وضعا كذلك جهاز «إكس بوكس يونيفرسال» فائضًا لديهما مزودًا بنظام بارانويد إكس بوكس. كانت لمسة لطيفة منهما.

أخذت أتفقد بريدي الإلكتروني لأرى ما إذا كان زيب قد رد عليَّ. بعثت برد على رسائل الإعجاب، ورسائل الصحافة، وحذفت رسائل الكراهية. توقعت إلى حد ما أن أرى رسالة من ماشا، لكنها كانت على الأرجح في منتصف الطريق إلى لوس أنجلوس، وأصابع يديها تؤلمها، وفي وضع لا يسمح لها بالكتابة. لمست مفاتيح هاتفها ثانيةً.

نصحني الفتيان بالنوم قليلًا. وللحظة قصيرة مخجلة، دفعني جنون الارتياب للظن بأنهما يفكران في تسليمي للشرطة بمجرد أن أستغرق في النوم. كانت فكرة غبية؛ إذ كان بإمكانهما تسليمي بالقدر نفسه من السهولة وأنا مستيقظ. لم يكن بوسعي فقط استيعاب أنهما يبجلانني بشدة. كنت أدرك أن هناك من سيتبعون ما يقوله مايكي. وقد التقيت ببعضهم ذلك الصباح يهتفون «عض عض عض عض عض» ويؤدون دور مصاصي الدماء في مركز المدينة. لكن إعجاب هذين الشابين كان شخصيًّا على نحو أكبر. كانا شابين ساذجين لطيفين، وكان من الممكن أن يكونا من أصدقائي في فترة ما قبل إكس نت، مجرد فتيين يخوضان مغامرات مراهقين. وقد تطوعا للانضمام إلى صفوف جيشي؛ ومن ثم فأنا مسئول عنهما. إذا تُرِكا لحالهما، فسيُقبَض عليهما. وليس ذلك سوى مسألة وقت. فهما ساذجان للغاية.

قلت لهما: «استمعا لما سأقوله يا شباب! ثمة شيء خطير أود أن أخبركما به.»

كادا يقفان من فرط الانتباه. كان ذلك فكاهيًّا، إذا لم يكن مخيفًا للغاية.

«إليكما ما أريد قوله. صار الأمر خطيرًا للغاية الآن بعد أن ساعدتماني. إذا أُلقي القبض عليكما، فسيلقَى القبض عليَّ كذلك، وسيحصلون على ما يريدونه منكما ...» رفعت يدي لأستبق اعتراضهما، وواصلت حديثي: «كلا، توقفا، فأنتما لم تمرا بهذه التجربة. الجميع يفصح بما لديه، الجميع ينهار. إذا أُلقي القبض عليكما، فسوف تخبرانهم بكل شيء على الفور، وبأسرع ما يمكنكما، وبأكبر قدر تعرفانه. سوف يحصلون على كل المعلومات في النهاية بأي حال. هذا أسلوبهم.

لكن لن يُلقَى القبض عليكما؛ هل تعلمان لماذا؟ لأنكما لستما مشوشين بعد الآن. لقد توقفتما عن هذا النشاط. أنتما ...» أخذت أبحث في ذاكرتي عن مصطلحات من أفلام الجاسوسية، وتابعت حديثي: «... خلية نائمة. توقفا عما تفعلانه، عودا إلى حياتكما الطبيعية. فبطريقة أو بأخرى، سأنهي كل هذا. وإلا فسوف يُقضَى عليَّ في النهاية. إذا لم تسمعا عني أي أخبار خلال ٧٢ ساعة، فاعتبراني مقبوضًا عليَّ، ولكما أن تفعلا أي شيء حينها. لكن على مدار الأيام الثلاثة التالية — وللأبد إذا فعلت ما أحاول فعله — عليكما بالتوقف عن ممارسة التشويش. هل تعدانني بذلك؟»

وعداني بكل إجلال، وسمحت لهما بأن يدلاني على المكان الذي سأنام فيه قليلًا، لكنني جعلتهما يقسمان بأن يوقظاني مرة كل ساعة؛ فقد كان عليَّ الضغط على أزرار هاتف ماشا، والتحقق من رد زيب عليَّ.

كان موعدنا في إحدى عربات قطارات بارت؛ ما أصابني بالعصبية؛ فتلك القطارات مليئة بالكاميرات، لكن زيب كان يعلم ما يفعله. جعلني أقابله في العربة الأخيرة لقطار خرج من محطة شارع باول في وقت اكتظت فيه العربة بالركاب. سار بجانبي وسط الحشد، وأفسح له الركاب مكانًا مثلما تفعل دومًا مع المشردين.

غمغم وهو يواجه باب العربة: «يسعدني لقاؤك ثانيةً.» عندما نظرت في زجاج الباب داكن اللون، رأيت أنه ما من أحد قريب منا بما فيه الكفاية ليسترق السمع — ليس بدون أجهزة ميكروفون عالية الكفاءة. وإذا كانوا بالمعرفة الكافية ليدخلوا هنا بمثل هذه الأجهزة، فنحن في عداد الموتى على أية حال.

فأجبته: «وأنا أيضًا يا صديقي. أنا ... أنا آسف، أنت تعلم؟»

«اخرس، ولا تتأسف. لقد كنت أشجع مني. هل أنت مستعد للاختفاء الآن؟»

«فيما يتعلق بهذا الشأن ...»

«ماذا؟»

«ليس هذا ما أخطط له.»

«حقًّا؟»

«فلتستمع إليَّ! معي صورة ومقطع فيديو، أشياء تثبت شيئًا ما حقًّا.» أدخلت يدي في جيبي، وضغطت على أزرار هاتف ماشا. كنت قد اشتريت شاحنًا له من ميدان يونيون في طريقي إلى المحطة، وتوقفت بأحد المقاهي، ووضعته في الكهرباء ما يكفي من الوقت لتنشيط البطارية تنشيطًا شبه كامل. «أحتاج إلى توصيل هذه الأشياء إلى باربارا ستراتفورد، تلك السيدة التي تعمل في صحيفة «باي جارديان». لكنهم يراقبونها بالتأكيد ليروا ما إذا كنت سأذهب إليها أم لا.»

«ألا تعتقد أنهم سيكونون في انتظاري أنا أيضًا؟ إذا كنت تخطط لأن أقترب من منزل تلك السيدة أو مكتبها مسافة تقل عن الميل ...»

«أريدك أن تقنع فان بالمجيء لمقابلتي. هل أخبرك داريل من قبل عن فان؟ الفتاة ...»

«نعم، لقد أخبرني. ألا تظن أنها تحت المراقبة أيضًا، مثلكم جميعًا ممن قُبِض عليهم؟»

«أعتقد أنهم يراقبونها، لكن ليس بالقدر نفسه. هذا فضلًا عن أن فان ليست مدانة بأي شيء؛ فهي لم تشارك قط في أيٍّ من ...» بلعت ريقي وواصلت الحديث: «... مشروعاتي؛ ومن ثم، فقد لا يهتمون لأمرها كثيرًا. وإذا طلبت إجراء لقاء مع صحيفة «باي جارديان» لتوضح لهم كيف أنني مليء بالتفاهات، فسيسمحون لها بذلك.»

حدق في الباب فترة طويلة من الوقت.

«أتعلم ما سيحدث عند القبض علينا ثانيةً؟» لم يكن ذلك سؤالًا.

أومأت برأسي.

«هل أنت متأكد؟ بعض ممن كانوا على جزيرة «تريجر آيلاند» معنا تم ترحيلهم على متن مروحيات إلى خارج البلاد. ثمة دول يمكن لأمريكا تصدير معتقليها إليها ليتذوقوا العذاب ألوانًا، دول يمكن أن تمضي فيها ما تبقى لك من عمر، حيث تتمنى أن ينهوا حياتك بسرعة، بأن يأمروك بحفر خندق، ثم يطلقون الرصاص عليك في رأسك من الخلف وأنت تقف عليه.»

بلعت ريقي وأومأت برأسي.

«هل يستحق الأمر المخاطرة؟ يمكننا الاختفاء لفترة طويلة للغاية هنا. ويومًا ما قد نستعيد بلادنا. يمكننا انتظار تلك اللحظة.»

هززت رأسي معترضًا، وقلت له: «لا يمكنك إنجاز شيء بدون فعل أي شيء. هذه بلادنا، وقد سلبونا إياها. الإرهابيون الذين هاجمونا لا يزالون أحرارًا ... على عكسنا. لا يمكنني الاختفاء لعام أو عشرة أعوام أو حياتي بأكملها منتظرًا أن تُقدَّم لي الحرية على طبق من فضة. الحرية شيء عليك أن تغتنمه بيديك.»

بعد ظهيرة ذلك اليوم، غادرت فان المدرسة كعادتها، وجلست في المقعد الأخير بالحافلة مع مجموعة من صديقاتها تضحك وتمزح كعادتها دومًا. لاحظها الركاب الآخرون في الحافلة؛ إذ كان صوتها عاليًا جدًّا، وكانت ترتدي تلك القبعة الضخمة الخرقاء خاصتها، والتي بدت وكأنها إحدى قطع ملابس مسرحية مدرسية عن محاربي عصر النهضة حاملي السيوف. وفي لحظة تجمَّعن معًا والتصقن ببعضهن البعض، ثم استدرن لينظرن من النافذة الخلفية للحافلة، وأخذن يشرن بأصابعهن ويقهقهن. والفتاة التي صارت ترتدي قبعة فان الآن كانت في نفس طولها تقريبًا، ومشابهة لها من ظهرها.

لم يُعِر أحد اهتمامًا لفتاة آسيوية هادئة تنزل من الحافلة قبل محطة بارت ببضع محطات. كانت ترتدي زيًّا مدرسيًّا قديمًا بسيطًا، وتنظر لأسفل في خجل وهي تنزل من الحافلة. هذا فضلًا عن أنه في تلك اللحظة، شهقت الفتاة الكورية ذات الصوت المرتفع، وتبعتها صديقاتها، وأخذن يضحكن بصوت عالٍ لدرجة جعلت سائق الحافلة نفسه يبطئ من سرعته، ويستدير في مقعده ليرمقهن بنظرة احتقار.

سارت فان سريعًا خافضة رأسها، وشعرها مربوط من الخلف، وأنزلت ياقة سترتها قديمة الطراز. كان كعب حذائها عاليًا؛ ما جعلها أطول ببوصتين على نحو غريب. خلعت العدسات اللاصقة، وارتدت نظارتها ذات العدسات الضخمة التي لم تكن تفضلها، والتي غطت نصف وجهها. رغم أنني كنت أنتظرها في محطة الحافلات، وأتوقع رؤيتها، بالكاد تعرفت عليها. نهضتُ، وسرت خلفها لنعبر الشارع ونتجاوز مسافة نصف مربع سكني.

من كانوا يمرون بجانبي تحاشوا النظر إليَّ بأسرع ما يمكن؛ فقد بدوت كشاب متشرد يحمل لافتة كرتونية قذرة ويرتدي معطفًا مكسوًّا بسخام الشوارع، ويحمل حقيبة ظهر ضخمة مليئة بالأغراض وشريط لاصق يرأب شقوقها. لا أحد يرغب في النظر لفتى مشرد؛ لأنه إذا لقيت عيناه عينيك، فقد يطلب منك بعض الفكة. سرت في أرجاء أوكلاند طيلة ظهيرة ذلك اليوم، ولم يتحدث معي أحد سوى أحد شهود يهوه وأحد أتباع حركة العِلمولوجيا، وكلاهما كان يحاول إقناعي بتغيير مذهبي. كان شيئًا مثيرًا للاشمئزاز مثل أن يتحرش بك شخص منحرف جنسيًّا.

اتبعت فان الإرشادات التي كتبتها لها بعناية. أعطاها لها زيب بالطريقة نفسها التي أعطاني بها الرسالة خارج المدرسة؛ فاصطدم بها أثناء انتظارها للحافلة، واعتذر لها كثيرًا. كتبت الرسالة بوضوح وبساطة: «أعلم أنك لن توافقي، وأتفهم ذلك. لكن هذه أهم خدمة سأطلبها منك على الإطلاق. أرجوك، أرجوك، أرجوك.»

وجاءت. كنت أعلم أنها ستفعل؛ فنحن يجمعنا تاريخ طويل، ولم يكن يروق لها أيضًا ما حدث للعالم. بالإضافة إلى ذلك، أخبرني صوت شرير في رأسي بأنها صارت محل شبهات الآن بعد نشر مقال باربارا.

ظللنا سائرين على هذا النحو حتى تجاوزنا ستة أو سبعة مربعات سكنية، مع الانتباه للأشخاص والسيارات التي كانت تسير بجوارنا. أخبرني زيب عن أسلوب في التعقب يتناوب فيه خمسة أفراد مختلفين تعقبك؛ ما يجعل تعيينهم أمرًا شبه مستحيل؛ ومن ثم، ينبغي الذهاب إلى مكان مهجور تمامًا بحيث يتضح فيه أي شخص وضوحًا تامًا.

كان الممر الفوقي للطريق السريع ٨٨٠ على بعد بضعة مربعات سكنية فقط من محطة كوليسيم التابعة لشبكة بارت. ورغم كثرة اللف والدوران الذي كانت تفعله فان، فلم يستغرق الأمر طويلًا لنصل إليه. كانت الضوضاء من أعلى تصم الآذان. لم يكن هناك أحد آخر في الجوار على حد علمي. كنت قد حضرت إلى ذلك المكان قبل أن أقترحه على فان في الرسالة، مع الاهتمام بالتحقق من الأماكن التي يمكن لأحد الاختفاء فيها. لم يكن هناك أي أماكن من هذا القبيل.

ما إن توقفت عند المكان المتفق عليه حتى تحركت سريعًا للحاق بها. نظرت إليَّ والذعر يملأ عينيها من وراء نظارتها.

شهقت باسمي واغرورقت عيناها بالدموع. اكتشفت أنني كنت أبكي أنا أيضًا. كنت أشبه بالهاربين شَعِثي الهيئة حقًّا، الأمر المثير للغاية للمشاعر.

عانقتني بقوة لدرجة جعلتني لا أقوى على التنفس، وعانقتها على نحو أقوى.

ثم قبلتني.

ليس على وجنتي وليس كأختي، وإنما على شفتيَّ. قبلة ساخنة ملتهبة بدت وكأنها ستستمر للأبد. غمرتني العاطفة تمامًا …

كلا، هذا كذب. فقد كنت أعرف بالضبط ما كنت أفعله؛ لقد قبَّلتها بدوري.

توقفت بعد ذلك، وتراجعت دافعًا إياها تقريبًا بعيدًا عني. نطقت لاهثًا: «فان!»

فقالت: «آسفة!»

كرَّرت ثانيةً: «فان!»

فقالت: «آسفة! أنا ...»

ثمة شيء حدث لي حينها، شيء أظن أنه كان ينبغي لي أن أراه منذ زمن طويل جدًّا.

«أنتِ معجبة بي، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها في خزي، وقالت: «منذ سنوات.»

يا إلهي! داريل كان مغرمًا بها طوال هذه السنين، بينما كانت هي واقعة في حبي وتريدني أنا طوال هذا الوقت. وفي النهاية، ارتبطتُ بآنج. قالت آنج إنها كانت على خلاف دائم مع فان. وأنا أركض هنا وهناك موقعًا نفسي في المشكلات.

«آسف للغاية يا فان.»

فقالت وهي تشيح بنظرها بعيدًا: «فلتنس الأمر. أعرف أنه ما من أمل. أردت فقط أن أفعل ذلك لمرة واحدة، وذلك في حالة ألا ...» ثم قطعتْ حديثها.

«فان، أريدك أن تفعلي شيئًا من أجلي، شيئًا مهمًّا. أريدك أن تقابلي باربارا ستراتفورد، الصحفية في «باي جارديان» التي كتبت المقال. أريدك أن تعطيها شيئًا ما.» وشرحت لها ما يتعلق بهاتف ماشا، وأخبرتها بشأن الفيديو الذي أرسلته لي.

«وما نفع ذلك يا ماركوس؟ ما الفائدة؟»

«كنت مُحِقَّة يا فان، جزئيًّا على الأقل. لا يمكننا إصلاح العالم من خلال تعريض الآخرين للخطر. أريد حل المشكلة بالإفصاح عما أعرفه. كان ينبغي لي فعل ذلك من البداية، كان ينبغي أن أتوجه مباشرة من الحجز إلى منزل والد داريل لأخبره بما أعلم. لكنني الآن معي أدلة. وهذه الأدلة من شأنها تغيير العالم. هذا أملي الأخير، الأمل الوحيد في أن أحرر داريل، وأنعم بحياة لا أقضيها متخفيًا هاربًا من الشرطة. وأنتِ الشخص الوحيد الذي يمكنني الوثوق به لفعل ذلك.»

«لماذا أنا؟»

«تمزحين، أليس كذلك؟ انظري كيف تمكنت من الوصول إلى هنا. أنتِ محترفة، والأفضل منا جميعًا في هذا الشأن. أنتِ الشخص الوحيد الذي يمكنني الوثوق به؛ لهذا اخترتك أنتِ.»

«لماذا لم تعهد بذلك لصديقتك آنج؟» نطقت اسمها دون أي تغيير في نبرة صوتها على الإطلاق، وكأنها قالب طوب.

نظرت لأسفل، وقلت لها: «ظننت أنكِ تعلمين. لقد ألقي القبض عليها، وهي الآن في جوانتانامو على جزيرة «تريجر آيلاند». لقد مر على وجودها هناك أيام إلى الآن.» حاولت ألا أفكر في ذلك، وما قد يكون يحدث لها. لكنني لم أستطع التماسك في تلك اللحظة، وبدأت أبكي بحرقة. شعرت بألم في بطني كما لو كنت قد تعرضت للركل. أمسكت بخصري لأحاول التماسك. انحنيت هناك، ووجدت نفسي بعد ذلك ملقى على جانبي على الحجارة المتكسرة تحت الطريق السريع، محاولًا التماسك وأنا أبكي.

ركعت فان بجانبي، وقالت بصوت غاضب: «أعطني الهاتف!» أخرجته من جيبي، وأعطيته لها.

شعرت بالخجل، توقفت عن البكاء واعتدلت في جلستي. أعرف أن المخاط كان ينزل على وجهي. نظرت إليَّ فان باشمئزاز واضح. قلت لها: «يجب أن تمنعيه من الدخول في وضع الخمول. معي شاحن هنا.» بحثت في حقيبتي. لم أنم طوال الليل منذ حصلت عليه. ضبطت المنبه ليدق كل ٩٠ دقيقة، ويوقظني لأتمكن من إيقافه من الدخول في وضع الخمول. «ولا تغلقيه أيضًا.»

«ومقطع الفيديو؟»

قلت لها: «هذا أصعب. لقد أرسلت نسخة منه لنفسي بالبريد الإلكتروني، لكن لم يمكنني الدخول على شبكة إكس نت بعد ذلك.» إذا كانت هناك ضرورة ملحة، كان بإمكاني العودة إلى نيت وليام، واستخدام جهاز إكس بوكس الخاص بهما ثانيةً، لكنني لم أرد المجازفة بفعل ذلك. واصلت حديثي معها قائلًا: «سأخبركِ باسم المستخدم وكلمة المرور لحسابي على خادم بريد حزب القراصنة. سيكون عليكِ استخدام أحد موجهات الاتصال المجهول (تور) للدخول عليه … تعمل وزارة الأمن الوطني على التحقق ممن يسجلون الدخول على بريد حزب القراصنة.»

قالت وقد بدت عليها الدهشة بعض الشيء: «اسم المستخدم وكلمة المرور!»

«أنا أثق بكِ يا فان. أعلم أنه بإمكاني الوثوق بكِ.»

هزَّت رأسها، وقالت: «أنت لا تفصح عن كلمات مرورك أبدًا يا ماركوس.»

«لا أعتقد أن ذلك يهم بعد الآن. إذا لم تنجحي في مهمتك، فستكون تلك نهايتي … نهاية ماركوس يالو. لعلي سأحصل على هوية جديدة، لكنني لا أظن ذلك. أظن أنهم سيمسكون بي. أعتقد أنني عرفت دومًا أنهم سيقبضون عليَّ يومًا ما.»

نظرت إليَّ بغضب الآن: «يا لها من خسارة! وما الهدف من ذلك كله على أية حال؟»

جرحتني تلك العبارة أكثر من أي شيء آخر كان من الممكن أن تقوله. كانت أشبه بركلة أخرى في البطن. الأمر كله غير ذي جدوى ولا طائل منه. داريل وآنج مفقودان، وقد لا أرى أسرتي ثانيةً، ولا يزال الأمن الوطني يخضع مدينتي وبلادي لجنون لا حدود له يمكن في خضمه فعل أي شيء تحت اسم إيقاف الإرهاب.

بدت فان وكأنها تنتظر مني قول شيء ما، لكنني لم يكن لدي ما أقوله. فرحلتْ وتركتني هناك.

وجدت زيب قد أحضر البيتزا لي عندما عدت إلى «المنزل». كان المنزل عبارة عن خيمة نصبها زيب لقضاء الليلة تحت ممر فوقي لطريق سريع في حي ميشن. كان لديه خيمة صغيرة من مخلفات الجيش، مطبوعة عليها عبارة «مجلس التنسيق المحلي لمساعدة المشردين بسان فرانسيسكو».

كانت البيتزا من مطعم «دومينوز»، باردة ومتخثرة، لكنها لذيذة رغم كل ذلك. «هل تحب الأناناس على البيتزا؟»

ابتسم زيب بلطف في وجهي، وقال: «ليس أمام من يحصلون على الطعام المجاني خيار.»

«طعام مجاني؟»

ابتسم ثانيةً وقال: «نعم، طعام مجاني ... من متجر الطعام المجاني.»

«هل سرقت هذه؟»

«لا يا أحمق. إنها من المتجر الآخر. ألا تعرف ذلك الصغير الموجود بالخلف، ومصنوع من الصلب الأزرق؟ ذلك الذي تفوح منه رائحة كريهة؟»

«هل أحضرتها من القمامة؟»

دفع رأسه للخلف وقهقه، ثم قال: «نعم، بالطبع. كان عليك أن ترى وجهك. لا بأس يا صديقي. إنها ليست متعفنة أو أي شيء من هذا القبيل. لقد كانت طازجة ... مجرد طلب خاطئ، ورُمي في صندوق القمامة. إنهم يرشون سم فئران فوق كل شيء في وقت الإغلاق، لكنك إذا أسرعت في الوصول إلى هناك، فستكون بأمان. عليك أن ترى ما يتخلص منه متاجر البقالة! انتظر حتى موعد الفطور. سأعد لك سلطة فواكه لن تصدقها! فما إن تصاب إحدى ثمرات الفراولة في الصندوق بالعطب حتى يتخلصوا من الصندوق بالكامل ...»

تجاهلت حديثه. كانت البيتزا جيدة، فوجودها في صندوق القمامة ما كان ليلوثها أو أي شيء من هذا القبيل. إذا كان هناك ما يثير الاشمئزاز فيها، فهو أنها من مطعم دومينوز ... أسوأ مطعم بيتزا في المدينة. لم أحب طعامه قط من قبل، وقاطعته تمامًا عندما علمت أنه يمول مجموعة من الساسة المخابيل الذين يظنون أن الاحتباس الحراري والتطور مخططان شيطانيان.

رغم ذلك، كان من الصعب التخلص من شعور الاشمئزاز.

لكن كان ثمة سبيل آخر للنظر إليه. كشف لي زيب سرًّا ... شيئًا لم أتوقعه؛ وهو أن هناك عالمًا كاملًا خفيًّا في الخارج، أسلوب حياة دون المشاركة في النظام.

«طعام مجاني من القمامة، ها؟»

فقال وهو يومئ برأسه بقوة: «وزبادي أيضًا ... لسلطة الفواكه. إنهم يلقون به في القمامة في اليوم التالي لانتهاء تاريخ صلاحيته، لكنه ما كان ليتحول للون العفن الأخضر بحلول منتصف الليل. أعني أنه زبادي؛ أي لبن متعفن في المقام الأول.»

بلعت ما بفمي. كان طعم البيتزا غريبًا. سم فئران. زبادي تالف. فراولة عطبة. سيستغرق ذلك وقتًا إلى أن أعتاد عليه.

تناولت قضمة أخرى. في الواقع، تكون بيتزا دومينوز أقل بشاعة عند الحصول عليها مجانًا.

كانت حقيبة النوم الخاصة بليام وثيرة دافئة بعد يوم طويل مرهق انفعاليٍّ. لا بد أن فان قد اتصلت بباربارا الآن، وصارت الصورة ومقطع الفيديو بحوزة باربارا. سوف أتصل بها في الصباح، وأعرف منها ما يجب عليَّ فعله بعد ذلك. سيكون عليَّ المشاركة بعد أن تنتشر الخبر لكي أدعم كل ما فيه.

فكرت في ذلك وأنا أغلق عينيَّ. فكرت ما سيكون عليه الحال عندما أسلم نفسي، والكاميرات تتابع مايكي سيئ السمعة في كل مكان حتى يصل إلى أحد تلك المباني الكبيرة ذات الأعمدة في مركز المدينة.

وبغيابي عن الوعي، تحول صوت السيارات على الممر الفوقي إلى ما يشبه صوت المحيط. كانت هناك خيام أخرى في الجوار بها أفراد مشردون. قابلت بعضهم بعد ظهيرة ذلك اليوم قبل حلول الظلام، وتراجعنا جميعًا لنربض بالقرب من خيامنا. كانوا جميعًا أكبر مني سنًّا، ومظهرهم فظ قاسٍ. لكن لم يبدُ أيٌّ منهم مجنونًا أو عنيفًا، بل مجرد أشخاص تعسر حظهم أو اتخذوا قرارات خاطئة أو كلا الأمرين.

لا بد أنني استغرقتُ في النوم؛ إذ لا أتذكر أي شيء آخر حتى انعكس ضوء براق على وجهي. كان براقًا لدرجة أعمتني.

نطق صوت من خلف الضوء قائلًا: «هذا هو.»

فرد صوت آخر: «ضعوا الكيس على وجهه.» كان صوتًا سمعته من قبل، سمعته مرارًا وتكرارًا في أحلامي يوبخني ويطلب مني كلمات المرور الخاصة بي. لقد كانت السيدة ذات الشعر القصير.

غطى الكيس وجهي سريعًا، وأُحكِم ربطه عند عنقي ما جعلني أشعر بالاختناق وأتقيأ ما تناولته من بيتزا مجانية. ومع إصابتي بالتشنج والاختناق، ربطت أيادٍ عتية معصميَّ، ثم كاحليَّ. وُضِعت على نقالة، ورُفِعت، ثم حُمِلت إلى داخل سيارة صعودًا على بعض الدرجات المعدنية التي تصدر رنينًا عند الصعود عليها. ألقوني على أرضية مبطنة. لم يكن هناك أي صوت على الإطلاق في مؤخرة الشاحنة عند إغلاقهم للأبواب؛ فالتبطين بالعربة غطى على كل الأصوات فيما عدا صوت اختناقي.

قالت: «حسنًا، مرحبًا بك ثانيةً.» شعرت بتمايل العربة عند دخولها إليَّ. كنت لا أزال أختنق، محاولًا التقاط أي نفس. ملأ القيء فمي وسال في قصبتي الهوائية.

تابعت حديثها قائلةً: «لن ندعك تموت. إذا توقفت عن التنفس، فسنحرص على أن تعاوده ثانيةً؛ لذلك لا تقلق!»

شعرت بتزايد الاختناق. حاولت استنشاق أي هواء، وبعضه كان يدخل بالفعل إليَّ. السعال العميق والمهلك رجَّ صدري وظهري، وطردت المزيد من القيء. التقطت مزيدًا من الأنفاس.

قالت: «أرأيت؟ ليس الأمر شديد السوء. مرحبًا بك ثانية، مايكي. لدينا مكان مميز للغاية سننقلك إليه.»

استلقيت على ظهري، وشعرت باهتزاز الشاحنة. كانت رائحة قيء البيتزا نافذة في البداية، لكن مع جميع المنبهات القوية الأخرى، اعتاد عليها مخي تدريجيًّا، وأخذ يخرجها من نطاق أنفي إلى أن صارت رائحة ضعيفة فقط. واهتزاز الشاحنة يكاد يبعث على الراحة.

حينذاك، طغت عليَّ حالة من الهدوء العميق المذهل كما لو كنت أتمدد على الشاطئ، ومياه المحيط وصلت إليَّ وأخذت تهدهدني برقة كأب يهدهد ابنه، وحملتني عاليًا لتجرني إلى البحر الدافئ تحت أشعة الشمس الدافئة. بعد كل ما حدث، قُبِض عليَّ، لكن ذلك لا

يهم. لقد أوصلت المعلومات إلى باربارا، وأسست شبكة إكس نت. لقد ربحت. وإذا لم أكن قد ربحت، فقد فعلت كل ما بوسعي، بل أكثر مما تخيلت يومًا أنه بوسعي فعله. أخذت أسترجع كل ما حدث أثناء تحرك السيارة، متذكرًا كل ما حققته، بل حققناه. المدينة والدولة والعالم كله مليء بأناس لا يقبلون بالحياة التي تريدنا وزارة الأمن الوطني أن نحياها. سنظل نناضل إلى الأبد، ولن يمكنهم حبسنا جميعًا.

تنهدت وابتسمت.

ما أدركته بعد ذلك أنها كانت تتحدث طوال تلك الفترة. كنت غائبًا تمامًا في خيالي السعيد حتى إن صورتها تلاشت تمامًا من أمامي.

«... فتى ذكي مثلك، من المفترض أن تعلم أنه من الأفضل لك ألا تعبث معنا. نحن نراقبك منذ أطلقنا سراحك. وكنا سنقبض عليك حتى وإن لم تذهب لتبكي لتلك الصحفية السحاقية الخائنة. إنني لا أفهم فحسب ما حدث ... لقد كان بيننا اتفاق، أنا وأنت ...»

مرَّت الشاحنة على لوح معدني، واهتزت، ثم تغير الاهتزاز. صرنا فوق الماء، نتوجه إلى جزيرة «تريجر آيلاند». يا إلهي! آنج هناك، وكذلك داريل ... ربما.

لم ينزعوا الكيس عن رأسي إلى أن وصلت إلى الزنزانة. ولم يهتموا بفك الأصفاد عن معصميَّ وكاحليَّ، فما كان منهم إلا أن ألقوني من النقالة على الأرض. كان المكان مظلمًا، لكنني تمكنت من أن أرى في ضوء القمر — الذي يدخل إلى الغرفة من نافذة واحدة عالية صغيرة — أن المرتبة قد نُزِعت من على السرير. لم تحتوِ الزنزانة إلا على مرحاض وهيكل سرير وحوض وأنا فقط.

أغلقت عينيَّ، وتركت خيالي يأخذني بعيدًا. كان بوسعي توقع ما سيحدث بعد ذلك؛ التبول في ملابسي ... مجددًا. كنت أعرف ما يكون عليه الأمر؛ فقد حدث لي من قبل. فاحت مني رائحة كريهة، وشعرت بحكة وخزي، مثل الأطفال الصغار.

لكنني تعايشت من قبل مع كل ذلك.

ضحكت ... بدا الصوت غريبًا، فأعادني إلى واقعي من جديد. أخذت أضحك وأضحك. لقد وصلت إلى أسوأ ما يمكنهم فعله بي، ونجوت منه، بل وتغلبت عليهم لشهور عدة وجعلتهم يظهرون بمظهر الحمقى والمستبدين. لقد انتصرت.

أطلقت العنان لمثانتي؛ فقد كانت موجعة وممتلئة على أية حال، وما من وقت أفضل من الآن.

أخذني خيالي بعيدًا ثانيةً.

وفي الصباح، فك حارسان يتسمان بالكفاءة والتجرد من المشاعر الأصفاد عن معصميَّ وكاحليَّ. ظللت غير قادر على السير ... عندما وقفت، كنت أشبه بالدمية المتحركة بلا خيوط. فقد جلست في وضعية واحدة لفترة طويلة للغاية. جذب الحارسان ذراعيَّ ليضعاهما على كتفيهما، وسحباني كما لو كانا يحملانني في الرواق المألوف. التفت وتدلت رموز الباركود الموجودة على الأبواب بفعل الهواء المحمل بالأملاح.

خطرت لي فكرة؛ فهتفت: «آنج! داريل!» فأسرع الحارسان في جذبي. كان من الواضح أنهما انزعجا، لكنهما لم يعلما ما ينبغي لهما فعله. واصلت الهتاف: «هذا أنا، ماركوس! تمسكا بالحرية!»

سمعت نشيجًا خلف أحد الأبواب، وصاح شخص آخر بلغة بدت كالعربية، ثم علت أصوات متنافرة، الآلاف من الأصوات المختلفة تدوي عاليًا.

جلبني الحارسان إلى غرفة جديدة كانت في السابق مخصصة للاستحمام؛ إذ كانت لا تزال رشاشات الدُّش معلقة فيها.

قالت السيدة ذات الشعر القصير: «مرحبًا يا مايكي! يبدو أن صباحك كان مليئًا بالأحداث.» وأبدت اشمئزازًا من الرائحة.

فقلت مبتهجًا: «لقد تبولت في ملابسي. ينبغي أن تجربي ذلك.»

قالت: «لعله ينبغي لنا السماح لك بالاغتسال.» أومأت برأسها، فحملني الحارسان لنقالة أخرى. احتوت هذه النقالة على أشرطة مُقيِّدة بطولها. ألقيا بي عليها، كانت باردة كالثلج ومبللة تمامًا. وقبل أن أدرك، كانا قد أحكما الأربطة على كتفيَّ وفخذيَّ وكاحليَّ. وبعد لحظات، ربطا ثلاثة أربطة أخرى. أمسكت يد رجل الحواجز الموجودة عند رأسي، وفكت بعض السقَّاطات. وبعد لحظات، كنت قد انحنيت لأسفل، وصار رأسي أسفل قدميَّ.

قالت السيدة ذات الشعر القصير: «لنبدأ بشيء بسيط.» رفعت رأسي لأراها. كانت قد جلست على مكتب يعلوه جهاز إكس بوكس متصل بتليفزيون مسطح الشاشة يبدو باهظ الثمن. واصلت حديثها قائلةً: «أريدك أن تخبرني، رجاءً، باسم المستخدم وكلمة المرور لبريدك الإلكتروني بحزب القراصنة.»

أغلقت عينيَّ، وجُلت بخيالي بعيدًا.

أعادني صوتها إلى الواقع، وهي تسألني: «هل تعلم ما التعذيب بالغمر بالماء يا مايكي؟ هو أن تُقيَّد على هذا النحو، ونصب الماء فوق رأسك إلى أن يصل إلى أنفك وينزل

في فمك. لا يمكنك الحيلولة دون حدوث المنعكس البلعومي، ويُعرَف ذلك بالإعدام الزائف. ومن موقعي هذا بالغرفة، يمكنني القول بأنك لن تتمكن من مقاومة الشعور بأنك تموت.»

حاولت الابتعاد بخيالي، لكنني كنت قد سمعت من قبل عن التعذيب بالغمر بالماء. لقد كان هذا هو، تعذيب حقيقي. ولم تكن هذه سوى البداية فقط.

لم أستطع الابتعاد بخيالي، فشعرت بضيق في صدري، وارتعشت رموش عينيَّ. وكان بإمكاني الشعور بمياه البول على ساقيَّ والعرق في شعري. وشعرت بحكة في جلدي بسبب البول الجاف.

ظهرت فوقي، وقالت: «لنبدأ باسم المستخدم.»

أغلقت عينيَّ بقوة.

قالت: «فلتغمراه بالمياه.»

سمعت صوت أشخاص يتحركون، فأخذت نفسًا عميقًا وحبسته.

بدأت المياه تتقاطر على رأسي، ملء مغرفة من الماء يُسكَب برقة على ذقني وشفتيَّ وصولًا إلى فتحتي أنفي المرتفعتين لأعلى. نزلت المياه في حلقي، وبدأت تخنقني، لكنني لم أسعل أو ألهث، وأدخلتها في رئتيَّ. حبست أنفاسي، وأحكمت إغلاق عينيَّ على نحو أقوى.

كان هناك اضطراب خارج الغرفة، صوت أشخاص يرتدون أحذية عالية الرقبة، وصيحات غاضبة حانقة. سُكِبت المغرفة على وجهي.

سمعت السيدة ذات الشعر القصير تقول شيئًا لشخص ما في الغرفة، ثم وجهت حديثها لي قائلةً: «اسم المستخدم فقط يا ماركوس، هذا طلب بسيط؛ فما الذي يمكنني فعله باسم المستخدم الخاص بك على أية حال؟»

هذه المرة، كان ما نزل عليَّ مرةً واحدة دلو كامل من الماء، فيض لا يتوقف، لا ريب أنه كان دلوًا ضخمًا. لم أستطع التحمل؛ فلهثت ولفظت الماء في رئتيَّ. سعلت وسحبت المزيد من الماء. كنت أعلم أنهم لن يقتلوني، لكنني لم أستطع إقناع جسمي بذلك. كل ذرة في كياني علمت أنني سأموت. لم أستطع حتى أن أبكي ... فلم يتوقف صب المياه عليَّ.

توقفت بعد ذلك، وأخذت أسعل. لكن من الزاوية التي جلست فيها، سعلت المياه لتعود إلى أنفي ثانيةً، وجعلتني أشعر بحريق في جيوبي الأنفية.

كان السعال عميقًا حتى إنه أشعرني بالألم في ضلوعي وفخذيَّ عندما التوى جسدي في اتجاه معاكس له. لكم كرهت خداع جسمي لي، وعجز عقلي عن التحكم في جسمي، لكنني لم أستطع فعل شيء حيال ذلك.

وأخيرًا، خفَّ السعال بما يكفي لأن أستوعب ما كان يحدث حولي. علا صياح كما لو كان هناك من يتشاجر ويتصارع. فتحت عينيَّ وطرفت في الضوء البراق، ثم رفعت عنقي، وأنا لا أزال أسعل قليلًا.

زاد عدد من كانوا في الغرفة عما كان عليه عند بدء التعذيب، وكان أغلبهم يرتدون دروعًا واقية للجسم، وخوذات، وأقنعة من البلاستيك رمادي اللون. كانوا يصيحون في حراس الجزيرة الذين أخذوا يصيحون بدورهم وقد برزت العروق في أعناقهم.

قال واحد ممن ارتدوا دروعًا واقية: «سلموا أنفسكم! وارفعوا أيديكم لأعلى، فأنتم رهن الاعتقال!»

كانت السيدة ذات الشعر القصير تتحدث في هاتفها. لمحها أحد الرجال ذوي الدروع الواقية، وتحرك سريعًا إليها ليدفع الهاتف بعيدًا بيديه اللتين غطاهما القفاز. خيم الصمت على الجميع بينما الهاتف يطير في الهواء عبر الغرفة الصغيرة ليرتطم أخيرًا بالأرض ويتهشم تمامًا.

قُطِع الصمت بدخول ذوي الدروع الواقية إلى الغرفة. أمسك اثنان منهما بمن كانا يعذبانني. وتمكنت بالكاد من الابتسام عند رؤيتي وجه السيدة ذات الشعر القصير عندما أمسك بها رجلان من كتفيها، وأداراها، وكبَّلا معصميها بأصفاد بلاستيكية.

تحرك أحد الرجال ذوي الدروع للأمام من مدخل الباب. كان يحمل على كتفه كاميرا فيديو. كانت كاميرا ثقيلة تصدر ضوءًا أبيض يعمي العيون. كان يصور الغرفة بأكملها، ودار حولي مرتين أثناء تصويره لي. وجدت نفسي أنتظر ساكنًا تمامًا كما لو كان أحد يرسم لي صورة.

كان أمرًا سخيفًا.

تمكنت من التحدث ولكن بصوت مختنق بعض الشيء: «هل يمكنك تحريري؟»

تحرك اثنان من ذوي الدروع نحوي، أحدهما سيدة، وبدآ في فك الأربطة عني. رفعا الأقنعة عن وجهيهما وابتسما في وجهي. لاحظت وجود صلبان حمراء على كتفيهما وخوذتيهما.

وتحت الصلبان الحمراء شارتان أخريان، كانتا شارتي «دورية كاليفورنيا للطرق السريعة». لقد كانا من شرطة الولاية.

بدأت أتساءل ما كانت هذه القوات تفعله هناك، حينذاك رأيت باربارا ستراتفورد. كان من الواضح أنها قد مُنِعت من التقدم وظلت واقفة في الرواق، لكنها أخذت تدفع

من أمامها وتشق طريقها بصعوبة في تلك اللحظة. قالت وهي تركع بجانبي وتمسك بي لتعانقني أطول وأقوى عناق شهدته في حياتي: «ها أنت ذا!»

عندئذٍ علمت ما حدث؛ جوانتانامو الخليج وقع في أيدي أعدائه. لقد نجوت.

الفصل الحادي والعشرون

أهدي هذا الفصل إلى متجر كتب بيدجز بوكس في تورونتو بكندا. يقع هذا المتجر — الذي طالما مثَّل علامة مميزة بشارع كوين ويست — أمام مبنى المحطة التليفزيونية «سيتي تي في» وعلى بُعد بضع خطوات من متجر باكا القديم الذي سبق لي العمل فيه. أحببنا في باكا تواجد متجر بيدجز بوكس بالقرب منا؛ فما كنا نمثله في مجال الخيال العلمي، كان بيدجز يمثله في كل مجال آخر. احتوى المتجر على كل ما لا يمكنك أن تجده في أي مكان آخر؛ أشياء لا تعلم أنك تبحث عنها إلى أن تراها أمام عينيك. يحتوي أيضًا على أحد أفضل أماكن عرض الصحف والمجلات التي رأيتها في حياتي، صفوف يعلو بعضها بعضًا من الصحف والمجلات الرائعة من جميع أنحاء العالم.

* * *

تركوني مع باربارا في الغرفة، واستخدمت رشاش الدُّش الذي لا يزال يعمل لأنظف نفسي؛ إذ شعرت فجأة بالإحراج لما غطى جسدي من بول وقيء. وعندما انتهيت، وجدت باربارا تبكي.

شرعت في الحديث قائلةً: «إن والديك ...»

شعرت بأنني سأتقيأ مجددًا. يا إلهي! والداي المسكينان! لا بد أنهما عانيا كثيرًا.

«هل هما هنا؟»

فأجابت: «كلا، الأمر معقد.»

«ماذا؟»

«أنت لا تزال رهن الاعتقال يا ماركوس. الجميع هنا كذلك. لا يمكن لهذه القوات اقتحام المكان وفتح الأبواب على مصاريعها للجميع. كل المتواجدين هنا سيخضعون لنظام العدالة الجنائية، وقد يستغرق ذلك شهورًا.»

«سأضطر للبقاء هنا شهورًا؟»

أمسكت بيديَّ، وقالت: «لا، وأعتقد أننا سنتمكن من استدعائك للمحاكمة وإخراجك بكفالة سريعًا. لكن «سريعًا» مصطلح نسبي، فلا أتوقع حدوث أي شيء اليوم. ومع ذلك، فلن يكون المكان كما كان تحت سيطرة هؤلاء. سيتسم بالإنسانية، وستحصل على طعام حقيقي. لن تكون هناك تحقيقات، وسيتمكن ذووك من زيارتك.

واستبعاد وزارة الأمن الوطني لا يعني أنك ستخرج من هنا بهذه السهولة. ما حدث هنا هو أننا تخلصنا من الصورة الغريبة لنظام العدالة الذي أسسه هؤلاء الناس، واستبدلنا به النظام القديم؛ النظام الذي يتضمن قضاة ومحامين ومحاكمات علنية.

ومن ثم، يمكننا أن نحاول نقلك إلى إحدى دور تأهيل الأحداث في البر الرئيسي. لكن الحياة في هذه الأماكن شاقة للغاية يا ماركوس. قد يكون هذا أفضل مكان لك إلى أن نخرجك بكفالة.»

خروج بكفالة! بالطبع، لقد كنت مجرمًا. لم توجَّه لي اتهامات بعد، لكن هناك العديد من الاتهامات التي يمكنهم التفكير فيها؛ فأن تراودك أفكار سيئة عن الحكومة أمر مخالف للقانون.

ضغطت على يدي مجددًا، وقالت: «أعلم أن ذلك سيئ، لكن هكذا يجب أن تسير الأمور. الفكرة هنا هو أن ما كنا بصدده قد انتهى؛ فالحاكم طرد رجال الأمن الوطني من الولاية، وألغى جميع نقاط التفتيش. أما النائب العام، فأصدر أوامر بإلقاء القبض على ضباط تنفيذ القانون المتورطين في «الاستجوابات تحت الضغط» والحبس السري. سيدخلون السجن يا ماركوس، وكل ذلك بفضل ما قمت به.»

لم يُحدِث ما سمعته أي أثر في نفسي. سمعت الكلمات، لكنها خلت من أي معنى تقريبًا. فبشكل ما، انتهى الأمر ولم ينتهِ.

واصلت حديثها قائلةً: «انظر يا ماركوس، أمامنا ساعة أو ساعتان تقريبًا قبل الانتهاء من كل ذلك، وقبل أن يعودوا ويأخذوك مجددًا. ما الذي تريد فعله؟ السير على الشاطئ؟ تناول الطعام؟ غرفة العاملين هنا مذهلة. لقد مررنا عليها في طريقنا إلى هنا، ووجدنا بها أفضل أصناف الطعام.»

أخيرًا سؤال أود الإجابة عنه. قلت لها: «أريد العثور على آنج وداريل.»

حاولت استخدام جهاز كمبيوتر كنت قد عثرت عليه للبحث عن أرقام زنزانتيهما، لكنه كان بحاجة لكلمة مرور، ومن ثم انتقلنا للسير في الأروقة ونحن نهتف باسميهما. وخلف أبواب الزنزانات، أخذ السجناء يصرخون أو يبكون أو يتوسلون إلينا لكي نخرجهم. لم يدركوا بعد ما حدث، ولم يتمكنوا من رؤية حراسهم السابقين وقد ساقتهم فرق المهام الخاصة التابعة لولاية كاليفورنيا إلى أرصفة السفن بعد تقييدهم بالأصفاد البلاستيكية.

أخذت أهتف بصوت يعلو الضجيج: «آنج! آنج كارفيلي! داريل جلوفر! هذا أنا ماركوس!»

اجتزنا مجموعة الزنزانات بالكامل، ولم يجب أحد. شعرت برغبة في البكاء. لقد رُحِّلا إلى خارج البلاد، لعلهما في سوريا أو مكان أسوأ. لن أراهما ثانية أبدًا.

جلست متكئًا على حائط الرواق، ووضعت يديَّ على وجهي. رأيت وجه السيدة ذات الشعر القصير وبسمتها المتكلفة وهي تسألني عن كلمة المرور الخاصة بي. هي من فعلت ذلك. ستذهب إلى السجن، لكن ذلك ليس كافيًا. لو رأيتها مجددًا، لربما قتلتها؛ فهي تستحق ذلك.

قالت باربارا: «هيا! هيا يا ماركوس، لا تستسلم، لا يزال هناك الكثير من الزنزانات هنا، هيا!»

كانت محقة؛ فجميع الأبواب التي مررنا عليها قديمة وصدئة يعود تاريخها للفترة التي بُنيت فيها القاعدة أول مرة. لكن في نهاية الرواق، كان هناك باب أمني حديث سميك مفتوح بعض الشيء. جذبناه لنفتحه، وغامرنا بالدخول إلى الرواق المظلم بالداخل.

كانت لا تزال هناك أربعة أبواب زنزانات أخرى، ولا تحمل رموز باركود. كل باب عليه لوحة مفاتيح إلكترونية صغيرة معلقة عليه.

ناديت: «داريل؟ آنج؟»

«ماركوس؟»

كان صوت آنج يهتف باسمي من وراء أقصى باب في الرواق. إنها آنج، ملاكي!

صحت: «آنج! هذا أنا!»

فقالت بصوت متهدج، ثم أخذت تبكي: «يا إلهي! ماركوس.»

قرعت الأبواب الأخرى بعنف وأنا أصيح: «داريل، داريل، هل أنت هنا؟»

فسمعت صوتًا ضعيفًا أجشَّ جدًّا يقول: «أنا هنا ... أنا آسف، آسف بحق. أرجوك، أنا آسف جدًّا.»

بدا وَهِنًا ... محطمًا.

قلت وأنا أميل على باب زنزانته: «هذا أنا يا دي، أنا ماركوس. لقد انتهى كل شيء؛ قبضت الشرطة على الحراس، وطردوا رجال الأمن الوطني من هنا. سنخضع للمحاكمات، محاكمات علنية. وسنشهد ضدهم.»

فرد عليَّ قائلًا: «أنا آسف. أرجوك، أنا آسف.»

حينذاك، حضر رجال دورية كاليفورنيا إلى باب زنزانته. كانت كاميرا الفيديو لا تزال تصور ما يحدث. قال أحدهم: «آنسة ستراتفورد؟» كان قناع وجهه مرفوعًا، وبدا كأي شرطي آخر جاء لحبسي وليس إنقاذي.

فقالت باربارا: «كابتن سانشيز! لقد حددنا موقع اثنين من المساجين المهمين هنا. أرغب في إطلاق سراحهما والتحقق منهما بنفسي.»

أجابها: «لم نحصل بعد، يا سيدتي، على شفرات دخول هذه الأبواب.»

فرفعت يدها، وقالت: «لم يكن هذا ما اتفقنا عليه؛ لقد اتفقنا على أن أتمكن من دخول كافة أرجاء هذا المكان، وهذه أوامر مباشرة من حاكم الولاية. لن نتزحزح من هنا إلى أن تفتح هاتين الزنزانتين.» علا الهدوء التام وجهها، دون أي توتر، وقد كانت تعني ما تقول.

بدا الضابط بحاجة للنوم. قطب جبينه، وقال: «سأرى ما يمكنني فعله.»

أخيرًا وبعد نصف ساعة، تمكنوا من فتح الزنزانات. حاولوا ثلاث مرات، لكنهم في النهاية توصلوا للشفرات الصحيحة، وطابقوا بينها وبين شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية الموجودة على شارات الهوية التي نزعوها من على ملابس الحراس الذين ألقوا القبض عليهم.

دخلوا زنزانة آنج أولًا. كانت ترتدي ملابس مرضى المستشفيات المفتوحة من الخلف، وزنزانتها أكثر خلوًّا من زنزانتي؛ فما كان بها سوى حشية واحدة فقط، ولم يكن هناك سرير أو حوض أو إضاءة. خرجت تطرف بعينيها في الرواق، وكاميرا الشرطة مسلطة عليها وضوؤها البراق يرتكز على وجهها. وقفت باربارا بيننا وبين الكاميرا لتحمينا منها. خرجت آنج مترددة من زنزانتها، متثاقلة بعض الشيء في مشيتها. كان بعينيها ووجهها خطب ما. كانت تبكي، لكن ليس هذا هو الخطب.

قالت: «لقد خدروني عندما لم أتوقف عن الصراخ في طلب محامٍ.»

حينذاك احتضنتها. كانت ضعيفة، لكنها بادلتني العناق. فاحت منها رائحة بول وعرق. لم أكن أفضل حالًا منها. لم أرد أن أتركها من بين يدي قط.

وفي تلك اللحظة، فتح رجال الشرطة زنزانة داريل.

كان قد مزق رداء المستشفى والتف حول نفسه عاري الجسد في نهاية الزنزانة، محاولًا حجب نفسه عن عدسة الكاميرا وعيوننا. ركضت إليه.

همست في أذنه: «دي، هذا أنا ماركوس. لقد انتهى كل شيء، وأُلقي القبض على الحراس. سنخرج بكفالة، ونعود إلى منازلنا.»

ارتجف، وأغلق عينيه بقوة، وقال هامسًا: «أنا آسف»، ثم أشاح بوجهه بعيدًا.

أبعدني بعد ذلك شرطي يرتدي درعًا واقيًا ومعه باربارا، وأعاداني إلى زنزانتي وأغلقا الباب لأقضي تلك الليلة فيها.

لا أتذكر الكثير عن ذهابي إلى قاعة المحكمة. كبَّلتني الشرطة مع خمسة مساجين آخرين مضى على وجودهم جميعًا في السجن مدة أطول مما قضيتها فيه. أحدهم فقط كان يتحدث العربية؛ كان رجلًا كبير السن، وكان يرتعد. أما الآخرون، فكانوا جميعًا شبابًا. كنت الوحيد الأبيض البشرة بينهم. وما إن تجمعنا على ظهر المعدية حتى لاحظت أن جميع من في سجن جزيرة «تريجر آيلاند» داكنو اللون بدرجات متفاوتة.

لم يمضِ على وجودي بذلك السجن سوى ليلة واحدة، لكنها كانت طويلة للغاية. سقطت علينا بعض الأضواء، كانت من ذلك النوع الذي يجعلني أحني كتفي وأنظر إلى أسفل، لكنني اليوم رفعت رأسي مثل الجميع للنَّظر إلى السماء الرمادية مترامية الأطراف، مستمتعين أثناء ركضنا وصولًا إلى أرصفة المعديات.

نقلتنا الشرطة في حافلات كان من العسير الصعود إليها ونحن مكبلون بالأصفاد، فاستغرق صعود الجميع وقتًا طويلًا. لم يهتم أحد بذلك. لم نكن نحاول حل معضلة كيفية صعود ستة أشخاص مكبلين في سلسلة واحدة على ممشى حافلة ضيق، وإنما ننظر إلى المدينة من حولنا والمباني أعلى التل.

لم يشغل بالي سوى العثور على داريل وآنج، لكنني لم أرَ أيًّا منهما. كان الحشد كبيرًا، ولم يكن مسموحًا لنا بالتحرك فيه بحرية. اتسم رجال شرطة الولاية بالرفق، لكنهم كانوا مع ذلك ضخام البنية ويحملون الدروع والأسلحة. أخذت أتخيل رؤيتي لداريل وسط الجمع، لكنه كان دومًا شخصًا آخر له نفس هيئة الأحدب المرهق التي بدا عليها داريل في زنزانته. لم يكن الوحيد المحطم في ذلك المكان.

وفي قاعة المحكمة، ساقونا إلى غرف المقابلات ونحن مكبلون بالأصفاد. حصلت محامية تابعة للاتحاد الأمريكي للحريات المدنية على إفادتنا، وطرحت علينا بضعة أسئلة — وعندما وصلت إليَّ، ابتسمت في وجهي ووجهت لي التحية بالاسم — ثم قادتنا إلى قاعة المحكمة لنمثل أمام القاضي. كان القاضي يرتدي رداء القضاة المعروف، وبدا في حالة مزاجية جيدة.

كان من الجلي أن الاتفاق الذي تم التوصل إليه هو أن كلَّ من كان لديه فرد في العائلة يمكنه دفع الكفالة له، سيُطلَق سراحه، في حين يُحبَس الآخرون. تحدثت محامية الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية طويلًا مع القاضي، وطلبت منه السماح ببضع ساعات تُجمَع خلالها أسر السجناء لتحضر إلى قاعة المحكمة. تقبل القاضي الأمر جيدًا، لكنني عندما تذكرت أن بعضًا من أولئك السجناء كانوا رهن الاعتقال منذ تفجير الجسر، واعتبرتهم أسرهم في عداد الموتى، دون محاكمة، وتعرضوا للاستجواب والعزل والتعذيب؛ أردت كسر أغلالهم بنفسي وتحريرهم جميعًا.

عندما مثلت أمام القاضي، نظر لأسفل نحوي وخلع نظارته. بدا مرهقًا، وكذلك محامية الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية وحُجَّاب المحكمة. سمعت خلفي همهمة مفاجئة عندما نطق الحاجب باسمي. دقَّ القاضي بمطرقته مرة واحدة دون أن يبعد نظره عني، ثم فرك عينيه.

قال: «ترى جهة الادعاء، يا سيد يالو، أنك قد تغادر البلاد وتشكل خطرًا على العدالة، وأعتقد أن لديهم حقًّا في ذلك؛ فمما لا شك فيه أن لديك ما يمكن أن نطلق عليه «تاريخًا» أطول من باقي المتهمين هنا؛ ومن ثم، فستظل محجوزًا لتخضع للمحاكمة مهما كانت الكفالة التي يمكن لوالديك تقديمها.»

شرعت المحامية تتحدث، لكن القاضي أسكتها بنظرة، وفرك عينيه.

«هل لديك ما ترغب في قوله؟»

أجبته: «كانت لدي فرصة للهرب. كان ذلك الأسبوع الماضي عندما عرضت عليَّ فتاة تهريبي وإخراجي من المدينة ومساعدتي في الحصول على هوية جديدة. لكنني سرقت هاتفها، وهربت من الشاحنة. وسلمت الهاتف — الذي احتوى على دليل عن صديقي داريل جلوفر — إلى إحدى الصحفيات، واختفيت هنا في المدينة.»

«أسرقت هاتفًا؟»

«لقد قررت عدم الهروب، وأن عليَّ مواجهة العدالة ... قررت أن حريتي لا تساوي شيئًا إذا كنت رجلًا مطلوبًا من العدالة، أو كانت المدينة تحت سيطرة وزارة الأمن الوطني وأصدقائي محتجزين. قررت أن حريتي ليست بقدر أهمية حرية البلد.»

«لكنك سرقت هاتفًا.»

فأومأت برأسي، وقلت: «نعم، فعلت. عزمت على إعادته لصاحبته إن وجدتها.»

قال القاضي: «حسنًا، شكرًا على هذه الخطبة، سيد يالو. إنك لرجل مفوَّه حقًّا»، ثم حدق في ممثل الادعاء، وواصل حديثه: «وقد يراك البعض شجاعًا أيضًا للغاية. بثت الأخبار هذا الصباح مقطع فيديو يوضح أنه كان لديك سبب مشروع للهروب من السلطات. وفي ضوء ذلك، وحديثك الآن، سأسمح لك بالخروج بكفالة، لكنني سأطلب من ممثل الادعاء إضافة جنحة سرقة بسيطة لحساب الكفالة بسبب سرقتك للهاتف. وبذلك، أتوقع زيادة الكفالة بمبلغ ٥٠٠٠٠ دولار.»

دقَّ بمطرقته مرة أخرى، وأمسكت المحامية بيدي بقوة.

نظر القاضي إليَّ مجددًا، وارتدى نظارته. ظهر قشر شعره على كتفَي الرداء الذي كان يرتديه، ونزل المزيد منه على نظارته عندما لمست شعره المتجعد.

«يمكنك المغادرة الآن أيها الفتى، وابتعد عن المشكلات.»

استدرت لأغادر، فأمسك بي شخص ما، كان أبي. حملني — بكل ما تحمله الكلمة من معنى — وعانقني بقوة حتى صرَّت ضلوع جسدي. عانقني كما كان يعانقني عندما كنت صبيًّا صغيرًا، ويدور بي في ألعاب الطيران الباعثة على القيء، والتي كانت تنتهي برميه لي في الهواء ثم التقاطه لي وعناقي بقوة تكاد تؤلمني.

انتزعتني برفق من بين ذراعيه يدان أكثر نعومة. كانت أمي. أمسكت بي على بُعد للحظات، باحثةً في وجهي عن شيء ما دون أن تنطق بأية كلمة، والدموع تغرق وجهها. ابتسمت وعلا صوت بكائها، ثم عانقتني هي أيضًا، وأحاطنا والدي بذراعيه.

وعندما تركاني، تمكنت أخيرًا من أن أنطق قائلًا: «داريل؟»

«التقيت بوالده في مكان ما؛ إنه في المستشفى.»

«متى يمكنني رؤيته؟»

فأجاب أبي بوجه متجهم: «سنذهب إليه الآن. إنه لا ...» ثم توقف، واستطرد قائلًا بصوت مختنق: «إنهم يقولون إنه بخير.»

«ماذا عن آنج؟»

«اصطحبتها والدتها إلى المنزل. أرادت انتظارك هنا، لكن ...»

تفهمت ما حدث. فقد صرت متفهمًا ما تشعر به أسر جميع المحتجزين. ملأ المحكمة العناق والدموع، وما تمكن الحُجَّاب أنفسهم من إيقافه.

قلت لهما: «لنذهب لزيارة داريل. وهل لي في استخدام الهاتف؟»

تحدثت إلى آنج ونحن في طريقنا إلى المستشفى حيث احتُجِز داريل — كان مستشفى سان فرانسيسكو العام في نفس الشارع الذي نحن فيه — واتفقت على مقابلتها بعد العشاء. تحدثت بهمس سريع؛ فوالدتها لم تقرر بعد ما إذا كانت ستعاقبها أم لا، لكن آنج أرادت المخاطرة.

وقف اثنان من شرطة الولاية في الرواق الذي توجد به غرفة داريل. كانا يمنعان حشدًا من الصحفيين الذين وقفوا متأهبين جدًّا ليسترقوا النظر من حول الضابطين ويلتقطوا الصور. برقت أضواء الكاميرات في عيوننا، فهززت رأسي للتخلص منها. كان والداي قد أحضرا لي ملابس نظيفة ارتديتها في المقعد الخلفي بالسيارة، لكنني شعرت بالاشمئزاز من نفسي، حتى بعد أن نظفت نفسي في حمامات المحكمة.

نادى بعض الصحفيين عليَّ؛ فقد صرت مشهورًا الآن، ونظر إليَّ ضابطا الولاية أيضًا، إما لأنهما تعرفا على وجهي أو لهتاف الصحفيين باسمي.

قابلنا والد داريل عند باب غرفته بالمستشفى وهو يتحدث بصوت هامس تعذر على الصحفيين سماعه. كان يرتدي ملابس مدنية: بنطال جينز وسترة اعتدت رؤيته بهما، لكن ظلت أوسمة خدمته معلقة على صدره.

قال: «إنه نائم، استيقظ منذ فترة بسيطة وبدأ يبكي، ولم يستطع التوقف؛ فأعطاه الأطباء دواءً لمساعدته على النوم.»

تقدمنا إلى داخل الغرفة حيث كان داريل. كان شعره نظيفًا وممشطًا، وينام وفمه مفتوح. كانت هناك مادة بيضاء عند جانبي فمه. رقد معه في الغرفة ذاتها رجل أكبر سنًّا ذو ملامح عربية في الأربعين من عمره. أدركت بعد ذلك أنه الرجل الذي كان مقيدًا معي عند رحيلنا من جزيرة «تريجر آيلاند». لوح كلٌّ منا للآخر بخجل.

تحولت بعد ذلك إلى داريل، وأمسكت بيده. كانت أظافره مقضومة عن آخرها. كان يحب قضم أظافره عندما كان طفلًا، لكنه أقلع عن ذلك عند دخولنا المدرسة الثانوية. أعتقد أن فان هي من جعلته يتوقف عن هذه العادة بأن أخبرته أن وضعه لأصابعه في فمه طوال الوقت أمر مثير للاشمئزاز.

سمعت والديَّ ووالد داريل يبتعدون عنا ويغلقون الستائر من حولنا. وضعت رأسي بجوار رأسه على الوسادة. كانت له لحية شعثة مرقعة ذكرتني بزيب.

قلت: «مرحبًا دي! لقد نجوت، وستصير بخير.»

غط في نومه قليلًا، وكدت أقول له: «أحبك!» وهي العبارة التي لم أنطق بها إلا لشخص واحد ليس من أفراد العائلة، عبارة كان من الغريب قولها لشاب مثلي. وفي النهاية، ما كان مني إلا أن أمسكت يده الأخرى وضغطت عليها. داريل المسكين!

خاتمة

أهدي هذا الفصل إلى منافذ بيع الكتب هَدسن بوكسِلرز التي تنتشر تقريبًا في كافة مطارات الولايات المتحدة. أغلب هذه المنافذ لا تعرض سوى عدد قليل من الكتب (وإن كانت في الغالب متنوعة على نحو مدهش). لكن المنافذ الكبيرة منها — مثل المنفذ الموجود بمطار أوهير بشيكاجو — لا تقل جودة عن أي متجر كتب بأي حي. إن لديها قدرة هائلة على إضفاء طابع شخصي على أي مطار، وقد أنقذ منفذ هَدسن عقلي في أكثر من مرة توقفت فيها لفترة طويلة في مطارات شيكاجو أثناء رحلات الطيران التي قمت بها.

* * *

اتصلت بي باربارا في المكتب في عطلة نهاية أسبوع الرابع من يوليو. لم أكن الوحيد الذي ذهبت للعمل في عطلة نهاية أسبوع عيد الاستقلال، لكنني الوحيد الذي كان عذره هو أن برنامج إطلاق السراح المشروط الخاص بي لا يسمح لي بمغادرة المدينة.

لقد أدانوني، في النهاية، بسرقة هاتف ماشا. أمر لا يصدقه عقل! عقدت جهة الادعاء اتفاقًا مع المحامية الخاصة بي لإسقاط كافة التهم الموجهة إليَّ والمتعلقة بكلٍّ من «الإرهاب الإلكتروني» و«إثارة الشغب» في مقابل أن أعترف بجنحة سرقة بسيطة. وحُكِم عليَّ بثلاثة أشهر في برنامج إطلاق سراح مشروط مع الإقامة منتصف اليوم في دار لتأهيل الأحداث المذنبين في حي ميشن، فكنت أنام في تلك الدار حيث أتشارك المهجع مع مجموعة من المجرمين الحقيقيين، وأفراد العصابات ومدمني المخدرات، وبعض المجانين بحق. أما فترة النهار، فكانت لي «الحرية» في الخروج والذهاب إلى «العمل».

قالت باربارا: «سيطلقون سراحها يا ماركوس.»

«مَن؟»

«جونستون، كاري جونستون. برَّأت المحكمة العسكرية في جلساتها السرية ساحتها من أي جُرم، وأُغلِق الملف، وستعود للخدمة من جديد. سيرسلونها إلى العراق.»

كاري جونستون هو اسم السيدة ذات الشعر القصير. كُشِف عن ذلك الاسم في جلسات الاستماع التمهيدية بمحكمة كاليفورنيا العليا، لكن ذلك هو كل ما كُشِف عنها؛ فلم تنطق بكلمة عمن كانت تتلقى منهم الأوامر، وما فعلته، ومن سُجِن، ولماذا. فكانت تجلس صامتة تمامًا طوال الوقت في قاعة المحكمة.

أما المسئولون الفيدراليون، فقد علت أصواتهم المعارضة المتذمرة لغلق الحاكم «غير القانوني وأحادي الجانب» لسجن جزيرة «تريجر آيلاند»، وإجلاء المحافظ لضباط الشرطة الفيدرالية من سان فرانسيسكو. انتهى الحال بالكثير من هؤلاء الضباط في سجون الولاية، مع حراس سجن جوانتانامو الخليج.

وفي أحد الأيام، لم يصدر أي بيان عن البيت الأبيض، أو حكومة الولاية. وفي اليوم التالي، انعقد مؤتمر صحفي مشترك شابَهُ التوتر والتحفظ أمام مقر الحاكم؛ حيث أعلن الحاكم ووزير الأمن الوطني عن توصلهما «لتفهم مشترك».

كانت وزارة الأمن الوطني ستعقد محاكمة عسكرية سرية الجلسات للتحقيق في «أخطاء التقدير المحتملة» التي وقعت بعد الهجوم على جسر باي. ومن شأن المحكمة استخدام كل أداة متاحة لديها لضمان العقاب المناسب لكل عمل إجرامي. وفي المقابل، سيتناول مجلس الشيوخ بالولاية التحكم في عمليات وزارة الأمن الوطني في كاليفورنيا، بحيث يكون للمجلس القدرة على وقف كل تلك العمليات في الولاية، والتفتيش عليها، وإعادة تحديد أولوياتها.

علت أصوات الصحفيين بشدة، وطرحت باربارا السؤال الأول: «سيدي الحاكم، مع كامل احترامي لك، لدينا مقطع فيديو غير قابل للجدل يوضح أن ماركوس يالو — أحد مواطني هذه الولاية، والمولود على أرضها — قد تعرض لإعدام زائف من جانب ضباط وزارة الأمن الوطني، الذين يعملون كما هو واضح بناء على أوامر من البيت الأبيض. هل ترغب الولاية حقًّا في التخلي عن أي ادعاء بالعدالة لمواطنيها في مجابهة التعذيب الهمجي غير القانوني؟» ارتعش صوتها، لكنه ظل واضحًا.

بسط الحاكم يديه، وقال: «ستحقق المحاكم العسكرية العدالة. إذا أراد السيد يالو — أو أي شخص آخر لديه سبب لإدانة وزارة الأمن الوطني — مزيدًا من العدالة، فلديه

الحق بالطبع في اللجوء للقضاء لإقامة دعوى — فيما يتعلق بالأضرار التي لحقت به — ضد الحكومة الفيدرالية.»

وهذا ما فعلته. رُفِع ما يزيد عن عشرين ألف قضية مدنية ضد وزارة الأمن الوطني في الأسبوع الذي تلا تصريح الحاكم. تولى قضيتي الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية الذي قدم طلبات للاطلاع على نتائج المحاكمات العسكرية السرية. وحتى ذلك الحين، تعاطفت المحاكم للغاية مع الأمر.

لكنني لم أتوقع ذلك.

«أطلقوا سراحها دون أي عقاب!»

«لم يكشف البيان الصحفي عن الكثير: «بعد تقصٍّ دقيق للأحداث التي وقعت في سان فرانسيسكو، ومركز الاعتقال الخاص بمكافحة الإرهاب بجزيرة «تريجر آيلاند»، توصلت المحكمة إلى أن أفعال السيدة جونستون لا تقتضي أي إجراء تأديبي آخر.» تضمن البيان كلمة «آخر» كما لو كانوا قد أنزلوا بها عقوبة بالفعل!»

ماذا؟! لقد حلمت بكاري جونستون كل ليلة منذ إطلاق سراحي من جوانتانامو الخليج. رأيت وجهها أمامي، وتلك الابتسامة النزقة ترتسم على وجهها وهي تخبر الرجل أن يعذبني بالماء.

قالت باربارا: «ماركوس ...» لكنني قاطعتها.

«لا بأس، لا بأس. سأسجل مقطع فيديو عن ذلك، وسأنشره في عطلة نهاية الأسبوع. يشاهد الجميع مقاطع الفيديو أيام الإثنين؛ فالجميع عائدون من إجازات نهاية الأسبوع يبحثون عن شيء مسلٍّ يتداولونه بأنحاء المدرسة أو المكتب.»

كنت أتردد على طبيب نفسي مرتين في الأسبوع كجزء من برنامجي في دار التأهيل، وعندما توقفت عن اعتبار ذلك نوعا من العقاب، بدأت أشعر بأنه أمر جيد. لقد ساعدني ذلك الطبيب في التركيز على الأشياء البنَّاءة عند غضبي، بدلًا من تركه يسيطر عليَّ. وكانت مقاطع الفيديو وسيلة مساعدة لي.

قلت لباربارا وأنا أحاول عدم إظهار مشاعري في صوتي: «يجب أن أذهب.»

«اعتنِ بنفسك يا ماركوس.»

احتضنتني آنج من الخلف بينما كنت أنهي المكالمة، وقالت: «قرأت الخبر لتوي على الإنترنت.» قرأت آنج الملايين من الأخبار؛ إذ كانت تحصل عليها من أداة استعراض أخبار توفر الأخبار متى ظهرت على الشبكة. كانت المدوِّنة الرسمية لنا، وقد برعت في ذلك؛ إذ

كانت تختار القصص المثيرة، وترفعها على الإنترنت كما لو كانت طاهية تقدم طلبات الفطور سريعًا.

استدرت بين ذراعيها لأواجهها وأعانقها. الحقيقة أننا لم يكن لدينا الكثير من العمل في ذلك اليوم، ولم يكن مسموحًا لي بالخروج من دار التأهيل بعد موعد العشاء، ولا يمكنها هي أيضًا زيارتي هناك. كنا نلتقي في المكتب، لكن عادةً ما يكون حولنا الكثير من الناس، الأمر الذي وضع عقبات أمام عناقنا، ووجودنا وحدنا في المكتب كان فيه إغواء كبير، فحمل الكثير من الإثارة؛ فكنا نتغازل أثناء عملنا أحدنا بجوار الآخر.

قلت لها: «سأصمم مقطع فيديو، وأريد أن أنشره اليوم.»

«حسنًا، لنفعل ذلك.»

قرأت آنج البيان الصحفي. ووضعت حوارًا بصوتي بالتزامن مع التصوير الشهير لي في مكان التعذيب بالغمر بالماء، وعيناي غاضبتان في إضاءة الكاميرا المزعجة، والدموع تتدفق على وجهي، وشعري يلوثه ويجدله القيء.

«هذا أنا، في مكان التعذيب بالغمر بالماء، أتعرض للتعذيب بما يسمى الإعدام الزائف، ويُشرِف على عملية التعذيب سيدة تدعى كاري جونستون. تعمل جونستون لدى الحكومة. قد تتذكرونها من هذا الفيديو.»

أضفت بعد ذلك مقطع الفيديو الذي تظهر فيه جونستون وكيرت روني: «هذه جونستون وكيرت روني، الخبير الاستراتيجي الأول لرئيس الجمهورية.»

«إن الشعب لا يحب هذه المدينة؛ فهي في نظره مثل مدن المثليين والملحدين الذين يستحقون الهلاك في نار جهنم. السبب الوحيد لاهتمامه بسان فرانسيسكو هو أنها قد حالفها الحظ في هجوم الإرهابيين الإسلاميين عليها.»

«إنه يتحدث عن المدينة التي أعيش فيها. وفقًا لآخر الإحصائيات، لقي ٤٢١٥ من جيراني مصرعهم في اليوم الذي يتحدث عنه. لكن بعضهم ربما لم يلقوا مصرعهم، وإنما اختفوا في السجن ذاته الذي تعرضت فيه للتعذيب. بعض الآباء والأمهات والأطفال والمحبين والإخوة والأخوات لن يروا ذويهم ثانيةً؛ وذلك لأنهم قد اعتُقِلوا في سجن غير قانوني هنا في خليج سان فرانسيسكو. لقد نقلتهم السفن إلى الخارج. السجلات دقيقة، لكن كاري جونستون لديها مفاتيح التشفير.» عدت إلى فيديو كاري جونستون وهي تجلس على طاولة الاجتماعات مع روني وهما يضحكان.

أضفت بعد ذلك فيديو جونستون أثناء إلقاء القبض عليها. «عندما ألقوا القبض عليها، ظننت أن العدالة ستتحقق لكل من أهانتهم وأخفتهم من على خريطة الوجود.

لكن الرئيس ...» وأوقفت الفيديو على صورة ثابتة للرئيس وهو يضحك ويلعب الجولف في إحدى إجازاته العديدة «... وخبيره الاستراتيجي الأول ...» والآن صورة ثابتة لروني وهو يصافح قائدًا إرهابيًّا سيئ السمعة كان دومًا في «صفنا» «... تدخَّلا. لقد أرسلاها إلى محكمة عسكرية سرية، وقد برَّأت الآن تلك المحكمة ساحتها. بطريقة ما، لم تر المحكمة خطأً في ذلك كله.»

ركَّبت بالفيديو المئات من اللقطات للسجناء في زنزاناتهم التي نشرتها باربارا على موقع صحيفة «باي جارديان» يوم تحريرنا. «نحن من انتخبنا هؤلاء، ونحن من يدفع لهم رواتبهم. من المفترض أن يكونوا في صفنا. من المفترض أن يدافعوا عن حرياتنا. لكنهم ...» ثم سلسلة من اللقطات لجونستون والآخرين الذين قُدِّموا للمحاكمة «... خانوا ثقتنا. لم يتبقَّ على موعد الانتخابات سوى أربعة أشهر، وهذه فترة طويلة تكفي لأن تخرجوا من بيوتكم وتبحثوا عن خمسة من جيرانكم ... خمسة أشخاص قرروا التخلي عن حقهم في الإدلاء بأصواتهم لأن جميع المرشحين المتاحين أمامهم لا يروقون لهم.

تحدثوا إلى جيرانكم. اجعلوهم يعدونكم بالتصويت. اجعلوهم يعدونكم باسترداد البلاد من المعذِّبين والسفاحين ... من هؤلاء الذين سخروا من أصدقائي ودماؤهم لم تجف بعد في قاع الميناء. لِيعِدوكم بالتحدث إلى جيرانهم.»

«أغلبنا لا يريد أيًّا من هؤلاء المرشحين. وهذا لن يجدي نفعًا. يجب أن تختاروا ... اختاروا الحرية.

اسمي ماركوس يالو. وقد تعرضت للتعذيب من قبل بلادي، لكنني لا أزال أحبها. أبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وأريد أن يتقدم بي العمر في بلاد حرة. أريد أن أعيش في بلاد حرة.»

جعلت الصورة تتلاشى تدريجيًّا وصولًا إلى شعار الموقع الإلكتروني، صممته آنج بمساعدة من خولو الذي قدم لنا كل خدمات الاستضافة المجانية التي يمكننا أن نحتاج إليها على موقع «بيجسبلين».

كان المكتب مكانًا مثيرًا للاهتمام. عُرِفنا، من الناحية النظرية، باسم «ائتلاف المصوتين لتحرير أمريكا»، لكن الجميع أطلق علينا اسم «مستخدمو شبكة إكس نت». تأسست المنظمة — الخيرية غير الهادفة للربح — بالتعاون بين باربارا وبعض من أصدقائها المحامين بعد تحرير جزيرة «تريجر آيلاند» مباشرةً. قُدِّم التمويل من بعض المليونيرات الذين يعملون في مجال التكنولوجيا ولم يمكنهم التصديق أن مجموعة من

الفتيان ممارسي القرصنة قد تغلبوا على وزارة الأمن الوطني. طلبوا منا في بعض الأحيان الذهاب إلى طريق ساند هيل؛ حيث يوجد جميع مستثمري رأس المال المخاطر، وتقديم عرض قصير عن تقنية شبكة إكس نت. وكان هناك أعداد مهولة من المستثمرين المبتدئين الذين يحاولون جني المال على شبكة إكس نت.

أيًّا كان ما يحدث ... لم تكن لي علاقة به. لقد أصبح لدي مكتب بواجهة تطل على الطريق بشارع فالينسيا؛ حيث وزعنا أقراص «بارانويد إكس بوكس» المضغوطة، وأقمنا ورش عمل حول تصميم أجهزة هوائي واي فاي أكثر كفاءة. وقد توافد علينا عدد مذهل من الناس العاديين لتقديم التبرعات التي تمثلت إما في أموال نقدية أو أجهزة (يمكن تشغيل نظام «بارانويد لينكس» على أية أجهزة، وليس فقط «إكس بوكس يونيفرسال»). لقد أحبونا.

تمثلت خطتنا الكبرى في طرح لعبة «الواقع البديل» الخاصة بنا في سبتمبر؛ أي في وقت الانتخابات بالضبط، وربطها بحشد الناخبين وإرشادهم إلى صناديق الاقتراع. فلم يصوِّت في اقتراعات الانتخابات الأخيرة سوى ٤٢ في المائة من الأمريكيين فقط؛ أي إن الأغلبية العظمى لغير المصوتين. حاولت كثيرًا دعوة داريل وفان إلى إحدى جلسات التخطيط التي أقمناها، لكنهما استمرَّا في رفض الدعوة. كانا يقضيان وقتًا طويلًا معًا، وأصرَّت فان على أن الأمر لا علاقة له بالعواطف على الإطلاق. لم يعد داريل يتحدث معي كثيرًا، وإن كان يرسل إليَّ رسائل بريد إلكتروني طويلة عن أي شيء لا علاقة له بالإرهاب أو السجن أو فان.

ضغطت آنج على يدي، وقالت: «يا إلهي! كم أكره هذه المرأة!»

فأومأت برأسي، وقلت لها: «إنها إحدى الجرائم التي ترتكبها هذه البلاد في حق العراق. إذا أرسلوا تلك المرأة إلى مدينتي، فسأصير على الأرجح إرهابيًّا.»

«لقد صرت إرهابيًّا بالفعل عندما أرسلوها إلى مدينتك.»

«نعم، بالفعل.»

«هل ستذهب لجلسة استماع السيدة جالفيس يوم الإثنين؟»

«بالتأكيد!» كنت قد قدمت آنج للسيدة جالفيس قبل ذلك الوقت بأسبوعين، وذلك عندما دعتني السيدة جالفيس على العشاء. وأعد اتحاد المعلمين جلسة استماع لها أمام مجلس قطاع المدارس الموحدة لتعود إلى وظيفتها القديمة. وقد قِيل إن فريد بينسان قد قطع تقاعده (المبكر) ليشهد ضدها. كنت أتطلع لرؤيتها ثانيةً.

«هل ترغبين في تناول البوريتو؟»

فأجابت: «بالتأكيد.»

وأضافت: «سأحضر صلصتي الحارة.»

تحققت من بريدي الإلكتروني مرة أخرى؛ بريد حزب القراصنة الخاص بي، والذي لا أزال أستقبل عليه عددًا من الرسائل من مستخدمين سابقين لشبكة إكس نت لم يعثروا بعد على عنواني الخاص بائتلاف المصوتين.

كانت الرسالة الأخيرة من عنوان بريد إلكتروني مؤقت من أحد البرامج البرازيلية الجديدة المضادة للتتبع.

«وجدتها، شكرًا لك. لم تخبرني أنها مثيرة هكذا.»

سألتني آنج: «ممن هذه الرسالة؟»

ضحكت، وأجبتها: «زيب. هل تتذكرينه؟ أعطيته عنوان بريد ماشا الإلكتروني. فكرت في أنه بما أن الاثنين متخفيان، يمكنني أن أعرفهما أحدهما على الآخر.»

«وهل يرى ماشا لطيفة؟!»

«لتعذريه، فمن الواضح أن الأحداث قد أثرت على عقله.»

«وأنت؟»

«أنا؟»

«نعم، هل أثرت الأحداث على عقلك؟»

أمسكت بآنج من بعيد، وأخذت أنظر إليها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، ثم أمسكت بوجنتيها، وحدقت عبر نظارتها سميكة الإطار في عينيها المائلتين اللعوبتين، ومررت أصابعي في شعرها.

«آنج، لم يكن تفكيري بهذا السداد من قبل في حياتي كلها.»

قبَّلتني حينذاك، وقبَّلتها. ومر بعض الوقت قبل أن نخرج لتناول البوريتو.

كلمة أخيرة بقلم بروس شناير

أعمل خبيرًا تكنولوجيًّا في مجال الأمن؛ وظيفتي هي تأمين الناس.

أنظر في الأنظمة الأمنية وكيفية اختراقها، ثم كيفية جعلها أكثر أمنًا، ويشمل ذلك أنظمة الكمبيوتر الأمنية، وأنظمة المراقبة، وأنظمة الطائرات الأمنية، وأنظمة التصويت الإلكتروني، وشرائح تحديد الهوية باستخدام الموجات اللاسلكية وما إلى ذلك.

وقد دعاني كوري دوكتورو لكتابة كلمة أخيرة لهذه الرواية؛ لأنه أرادني أن أُطلِع قُرَّاءه على كم المتعة التي تنطوي عليها فكرة التأمين. إنه أمر ممتع على نحو مذهل، أشبه بمطاردات القط والفأر؛ من سيتفوق على من، الصياد أم الطريدة. أعتقد أنه أكثر الأعمال متعة على الإطلاق. فإذا أمتعتك مغامرة ماركوس في خداع كاميرات التعرف على المشية بوضع الحصى في حذائه، ففكر في كم المتعة التي قد تشعر بها إذا كنت أول من يفكر في هذه الخدعة على الإطلاق.

والعمل في مجال الأمن يعني الإلمام بالكثير عن التكنولوجيا، وقد يعني المعرفة بالكمبيوتر والشبكات، أو الكاميرات وكيفية عملها، أو كيمياء الكشف عن القنابل. لكن الأمن في حقيقة الأمر هو أسلوب تفكير، وماركوس خير مثال على هذا الأسلوب؛ فهو دومًا يبحث كيف يمكن لنظام أمني أن يفشل في أداء عمله. وأراهن على أنه لا يمكن أن يدخل أي متجر دون أن يحاول الكشف عن وسيلة لسرقة المعروضات فيه. ليس لأنه سيفعل ذلك — فثمة فارق بين معرفة كيفية الاحتيال على نظام أمني والاحتيال عليه بالفعل — ولكن من أجل التأكد أنه يعلم كيف يفعل ذلك.

هكذا يفكر العاملون في مجال الأمن. فنحن ننظر دومًا في أنظمة الأمن وكيفية التحايل عليها؛ ولا يسعنا التوقف عن ذلك.

ومن المهم التفكير على هذا النحو بغض النظر عن الجانب الذي تقف فيه من العملية الأمنية. فإذا عُهِد إليك بمهمة تصميم متجر مؤمَّن ضد السرقة، يجدر بك الإلمام بكيفية القيام بهذا النوع من السرقة. وإذا كنت تصمم نظام كاميرات يكشف عن مشية الأفراد، يجدر بك الوضع في الاعتبار وضع الأفراد للحصى في أحذيتهم؛ وذلك لأنك إن لم تفعل، فلن تصمم شيئًا ذا نفع.

ومن ثم، أثناء تجولك في أي مكان، خصص لحظات للتحقق من النظم الأمنية من حولك. انظر إلى الكاميرات الموجودة في المتاجر التي تتسوق فيها (واسأل نفسك: هل تحول دون وقوع الجرائم حقًّا؟ أو أنها تنقلها فقط للمتاجر المجاورة؟) لاحظ كيفية سير العمل في أحد المطاعم (فإذا كنت تدفع ثمن ما تأكله بعد تناوله، فلماذا لا يغادر الناس المطعم دون دفع ثمن طعامهم؟) لاحظ أمن المطارات (كيف يمكنك إدخال سلاح إلى طائرة ما؟) راقب ما يفعله الصراف في البنك (فنظام البنوك الأمني مصمم لمنع الصرافين من السرقة بالقدر نفسه الذي يمنعك به من فعل ذلك). حملق في كثيب النمل (إن الأمر كله متعلق بالأمن). اقرأ الدستور، ولاحظ كافة السبل التي يؤمن من خلالها الناس من الحكومة. لاحظ إشارات المرور وأقفال الأبواب وجميع النظم الأمنية على شاشة التليفزيون والأفلام. توصل إلى كيفية عملها، والتهديدات التي تساعد هذه النظم في حمايتنا منها وتلك التي لا تساعد في حمايتنا منها، وكيف تفشل في عملها وكيف يمكن استغلالها.

اقضِ ما يكفي من الوقت لفعل ذلك، وستجد نظرتك للعالم قد اختلفت. ستبدأ في ملاحظة أن الكثير من النظم الأمنية لا تفعل حقًّا ما من المفترض أن تفعله، وأن الكثير من نظم أمننا الوطني يُعَد إهدارًا للمال، وسوف تدرك أن الخصوصية على القدر نفسه من الأهمية كالأمن، وليست مناقضة له، وستتوقف عن القلق بشأن الأشياء التي تقلق الآخرين، وتبدأ في القلق بشأن أشياء لا ترد على أذهانهم على الإطلاق.

وفي بعض الأحيان، ستلاحظ شيئًا بشأن الأمن لم يفكر فيه أحد من قبل مطلقًا، وربما ستكتشف طريقة جديدة لاختراق نظام أمني.

فالتصيد الاحتيالي لم يتوصل إليه أحد إلا منذ بضعة أعوام فقط.

هذا ويذهلني عادةً مدى سهولة اختراق بعض النظم الأمنية الشهيرة، وهناك العديد من الأسباب وراء ذلك، لكن أهمها هو أنه من المستحيل إثبات أن شيئًا ما آمن. كل ما يمكنك فعله هو محاولة اختراقه، وإن فشلت، فستعلم أنه آمن بما فيه الكفاية لمنعك من اختراقه، لكن ماذا إذا كان هناك شخص ما يفوقك ذكاءً؟ يمكن لأي شخص تصميم نظام أمني منيع لدرجة أنه نفسه لا يمكنه خرقه.

لتستغرق دقيقة للتفكير في هذا الأمر، فهو ليس واضحًا. ليس هناك أحد مؤهل لتحليل ما يصممه من نظم أمنية بنفسه؛ إذ إنه بذلك سيكون المصمم والمحلل شخصًا واحدًا يعاني من أوجه القصور نفسها؛ ومن ثم، يجب أن يكون من يحلل النظام الأمني شخصًا آخر؛ لأنه يجب أن يكون مؤمَّنًا من أمور لا ترد على ذهن المصمم.

وذلك يعني أننا جميعًا علينا تحليل النظم الأمنية التي يصممها آخرون. وما يثير الدهشة غالبًا أن هناك دومًا من يتمكن من خرق هذه النظم. فما فعله ماركوس ليس بعيد المنال؛ فهو يحدث دومًا. ما عليك إلا الدخول على الإنترنت، والبحث عن «مفتاح يفتح كل الأقفال» أو «فتح قفل كريبتونايت بقلم بيك»؛ وستجد عددًا من القصص المثيرة للغاية عن نظم أمنية منيعة ظاهريًّا لكن تم التغلب عليها بتكنولوجيا بدائية.

عندما يحدث ذلك، احرص على نشره على الإنترنت؛ فالسرية والأمن ليسا مترادفين، وإن كانا كذلك في الظاهر. النظام الأمني السيئ فقط هو الذي يعتمد على السرية، أما النظام الأمني الجيد، فيعمل حتى وإن كانت جميع تفاصيله معلنًا عنها.

والإعلان عن نقاط الضعف يجبر مصممي النظم الأمنية على تصميم نظم أفضل، ويحسِّن من النظم التي نستخدمها. فإذا اشتريت قفل كريبتونايت لدراجة وكان من الممكن التغلب عليه بقلم بيك، فأنت بذلك لا تكون قد حصلت على وسيلة أمنية جيدة مقابل ما دفعته من مال. وبالمثل، إذا كان بإمكان مجموعة من الفتية الأذكياء التغلب على تقنيات مكافحة الإرهاب التي تستخدمها وزارة الأمن الوطني، فلن تؤدي بذلك مهمتها على أفضل نحو في التصدي للإرهابيين الحقيقيين.

من الغباء التضحية بالخصوصية من أجل الأمن، والأكثر غباءً ألا يفضي ذلك إلى توفير أمن فعلي.

لتغلق هذا الكتاب إذن وتنطلق؛ العالم مليء بالنظم الأمنية. لتخترق أحدها!

بروس شناير

http://www.schneier.com

كلمة أخيرة بقلم آندرو «باني» هوانج، أحد مخترقي نظام إكس بوكس

قراصنة الكمبيوتر مستكشفون ... رواد رقميون، تجري في دمائهم نزعة التشكيك فيما هو متعارف عليه، وتثيرهم دومًا المشكلات المعقدة. وأي نظام معقد هو بمثابة تسلية ممتعة في نظر أي قرصان؛ ومن الآثار الجانبية لذلك انجذابهم الطبيعي للمشكلات المتعلقة بالأمن. والمجتمع نظام كبير معقد، وهو بالتأكيد عرضة للقرصنة؛ ومن ثم، صارت الصورة الشائعة لقراصنة الكمبيوتر هي: المحطمون للمعتقدات التقليدية وغير المنسجمين اجتماعيًّا، فهم مَن يتَحَدَّون الأعراف الاجتماعية بغية التحدي ذاته. عندما اخترقت نظام إكس بوكس في عام ٢٠٠٢ أثناء دراستي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، لم يكن هدفي هو التمرد أو إحداث أي ضرر، وإنما كنت أتبع حافزًا طبيعيًّا بداخلي، وهو الحافز ذاته الذي يدفع لإصلاح جهاز «آي بود» معطل أو فحص أسقف معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وأنفاقه.

وللأسف، فإن الجمع بين عدم الامتثال للأعراف الاجتماعية ومعرفة أمور «خطيرة» مثل كيفية قراءة شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية الموجودة على بطاقة الائتمان أو كيفية اختيار الأقفال؛ قد يجعل الناس يخافون قراصنة الكمبيوتر. لكن الدوافع وراء ما يفعله أي قرصان بسيطة تمامًا مثل ما يدفع المرء لأن يكون مهندسًا، وهو أنه يحب تصميم الأشياء. يسألني الناس عادةً: «لماذا اخترقت نظام إكس بوكس الأمني؟» وإجابتي بسيطة؛ أولًا: لأنني مالك ما أشتريه. وإذا أملى عليَّ أحد ما يمكنني ولا يمكنني فعله فيما لدي من أجهزة، فأنا إذن لا أملكها. وثانيًا: لأن ذلك متاح أمامي ... نظام على القدر الكافي

من التعقيد ليمثل اختراقه تسلية جيدة بالنسبة لي. فألهاني كثيرًا عن الليالي التي كنت أسهر فيها لتحضير رسالة الدكتوراه الخاصة بي.

وقد كنت سعيد الحظ؛ فكوني طالبًا بالدراسات العليا بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عند اختراقي لنظام إكس بوكس، أجاز ما فعلته في نظر من لهم الحق في الاهتمام بذلك. لكن الحق في القرصنة يجب ألا يقتصر على الأكاديميين فقط. لقد بدأت عملي بالقرصنة منذ كنت صبيًّا صغيرًا في المدرسة الابتدائية؛ إذ كنت أفكك أي جهاز إلكتروني تصل إليه يداي، وكان والداي يتحملان تكلفة كل ذلك. واشتملت الكتب التي قرأتها على كتب حول تصميم نماذج الصواريخ، وصناعة المتفجرات والأسلحة النووية والمدفعية، وهي الكتب التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة (أظن أن الحرب الباردة قد أثَّرت على اختيارات الكتب في المدارس الحكومية). وقد أدخلت كذلك تعديلات على عدد من الألعاب النارية، وتجولت في مواقع بناء المنازل في الحي الذي كنت أسكن به في وسط غرب أمريكا. ورغم أنه لم تكن من الحكمة فعل هذه الأمور، فقد كانت تجارب مهمة في رحلة نضجي؛ إذ صرت مفكرًا حرًّا بسبب التسامح الاجتماعي والثقة التي اتسم بها مجتمعي.

أما ما نشهده حاليًّا من أحداث، فلا يبشر القراصنة الطموحين بأي خير. وقد أوضحت رواية «الأخ الأصغر» ما يمكن أن نصل إليه في ظل هذه الأوضاع الراهنة من عالم يختفي فيه التسامح الاجتماعي كليةً مع الأفكار الجديدة والمختلفة. ويعكس حادث وقع مؤخرًا كم اقتربنا من دخول عالم «الأخ الأصغر». لقد حالفني الحظ بأن قرأت مسودة مبكرة لهذه الرواية في نوفمبر ٢٠٠٦. وبعد شهرين من ذلك التاريخ — أي في يناير ٢٠٠٧ — اشتبهت شرطة بوسطن في أجهزة تفجيرية وأغلقت المدينة لمدة يوم، واتضح بعد ذلك أن هذه الأجهزة لم تكن سوى لوحات دوائر إلكترونية بها مصابيح صمامات ثنائية باعثة للضوء تُستخدَم للترويج لأحد البرامج على شبكة «كارتون نتورك». والفنانون الذين وضعوا هذا الجرافيتي للترويج للبرنامج قُبِض عليهم باعتبارهم إرهابيين مشتبهًا بهم، وأُدينوا في النهاية بجناية؛ وكان على منتجي الشبكة دفع مليوني دولار كتسوية، واستقال رئيس الشبكة إثر ذلك الحادث.

هل انتصر الإرهابيون بالفعل؟ هل استسلمنا للخوف لدرجة جعلتنا نعتبر أشخاصًا مثل الفنانين وأصحاب الهوايات وقراصنة الكمبيوتر ومحطمي التقاليد، وربما مجموعة متواضعة من الشباب يمارسون لعبة «هاراجوكو فان مادنس»؛ إرهابيين؟

ثمة مصطلح لوصف هذا الاختلال الوظيفي؛ ألا وهو مرض المناعة الذاتية، وفيه يزيد جهد النظام الدفاعي للجسم حتى يصبح غير قادر على التعرف على نفسه ويهاجم خلاياه، وفي النهاية يدمر نفسه ذاتيًّا. وأمريكا الآن على شفا الإصابة بصدمة حساسية مفرطة فيما يتعلق بحرياتها، ونحن بحاجة لوقاية أنفسنا من ذلك. والتكنولوجيا لا تشفي من جنون الارتياب هذا، وإنما في الواقع تزيده؛ إذ تحولنا إلى سجناء له. وإجبار الملايين على خلع ملابسهم الخارجية والسير حفاة عبر أجهزة الكشف عن المعادن كل يوم ليس بحل أيضًا، ولا يفيد ذلك إلا في تذكير الناس كل يوم بأن هناك ما يجب أن يخشوه، في حين أنه لا يقيم في الواقع سوى حاجز واهٍ أمام العدو المحتمل.

الحقيقة هي أنه لا يمكننا الاعتماد على الآخرين في إشعارنا بالحرية، ومايكي لن يكون هناك لينقذنا في اليوم الذي نفقد فيه حرياتنا بسبب جنون الارتياب؛ وذلك لأن مايكي بداخلي وداخلك ... ورواية «الأخ الأصغر» تذكير بأننا بغض النظر عن مدى عدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل، لن نتمتع بالحرية من خلال النظم الأمنية والتشفير وعمليات الاستجواب ونقاط التفتيش، وإنما سنتمتع بها عن طريق التحلي بالشجاعة والاقتناع بالعيش كل يوم بحرية والتصرف كمجتمع حر، بغض النظر عن حجم التهديدات التي تلوح لنا في الأفق.

لتكن مثل مايكي؛ اخرج للعالم ومارس حريتك بشجاعة.

قائمة المراجع

ما من كاتب يبدأ إبداعه من فراغ؛ فجميعنا ينطبق عليه وصف إسحاق نيوتن «الوقوف على أكتاف العظماء»؛ فنحن نستعير، ونقتبس، ونضفي تغييرات على كافة صنوف الفنون والثقافة التي أبدعها مَن حولنا ومَن سبقونا من الأدباء.

إذا كان هذا الكتاب قد نال إعجابك، وترغب في معرفة المزيد عن موضوعه، فهناك العديد من المصادر التي يمكنك اللجوء إليها، سواء على الإنترنت أو في المكتبة أو متجر الكتب المجاور لك.

قرصنة الكمبيوتر موضوع رائع، والعلوم كافة تقوم على إخبار الآخرين بما فعلته ليتمكنوا من التحقق من صحته والتعلم منه وتطويره، والقرصنة خير مثال على هذه العملية؛ ومن ثم، فإن ما نُشِر في هذا الشأن كثير.

لتبدأ بكتاب آندرو «باني» هوانج الذي يحمل عنوان «قرصنة الإكس بوكس» (دار نشر «نو ستارتش»، ٢٠٠٣). وهو كتاب رائع يستعرض قصة باني، وكيف تمكن — عندما كان طالبًا بالدراسات العليا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا — من إجراء هندسة عكسية لآليات نظام إكس بوكس المضادة للعبث، ومهد الطريق بذلك لجميع عمليات القرصنة التالية المذهلة للنظام. وبرواية هذه القصة، أسس باني مرجعًا موثوقًا للهندسة العكسية وقرصنة الأجهزة.

هذا ويُعَد كتابا بروس شناير «أسرار وأكاذيب» (وايلي، ٢٠٠٠) و«ما وراء الخوف» (كوبرنيكس، ٢٠٠٣) من الكتب المبسطة الموجَّهة لغير المتخصصين، والتي تتناول فهم مسألة الأمن والتفكير فيها تفكيرًا نقديًّا. أما كتابه «علم التشفير التطبيقي» (وايلي، ١٩٩٥)، فيظل المصدر الموثوق لفهم علم التشفير. ولبروس قائمة بريدية ومدونة رائعة على العنوان التالي: schneier.com/blog. إن التشفير والأمن هما عالم الهاوي الموهوب،

وحركة «السايفر بانك» (التي تؤمن بأن الاستخدام القوي للتشفير سيضمن الأمن والخصوصية) مليئة بالشباب وربَّات البيوت والمحامين وكافة صنوف الناس الأخرى، الذين يكدون في العمل على الشفرات والبروتوكولات الأمنية.

هناك العديد من المجلات الرائعة المتخصصة في هذا المجال، لكن أفضل مجلتين هما: «٢٦٠٠: ذا هاكر كوارترلي»، والتي تزخر بقصص تباهٍ بعمليات قرصنة موقَّعة بأسماء مستعارة، ومجلة «ميك» التي تعرض إرشادات موثوقة لتنفيذ مشروعات أجهزة خاصة بك في المنزل.

يزخر بلا شك عالم الإنترنت بالمصادر في هذا الموضوع، ومن الأمثلة على ذلك مدونة «فريدوم تو تينكر» (www.freedom-to-tinker.com) لصاحبيها إد فيلتن وأليكس جيه هالدرمن، أستاذَي الهندسة المتميزين بجامعة برينستون، اللذين تتسم كتابتهما في مجال الأمن والتنصت وتكنولوجيا مقاومة النسخ والتشفير بالوضوح.

لا تفوت كذلك زيارة صفحة مشروع ناتالي يريمجينكو «فيرال روبوتيكس» بموقع جامعة كاليفورنيا في سان دييجو (xdesign.ucsd.edu/feralrobots/). تشتري ناتالي وطلابها كلاب روبوت لعبة من متجر «تويز آر أس» ويزودونها بأسلاك جديدة ليحولوها إلى أجهزة بارعة للكشف عن المخلفات السامة، ثم يطلقون لها العنان في المتنزهات العامة حيث تتخلص المؤسسات الكبيرة من مخلفاتها، ليوضحوا بعد ذلك مدى سمية الأرض على نحو يناسب وسائل الإعلام.

هذا ويُعَد النقل النفقي باستخدام بروتوكول دي إن إس حقيقيًّا، شأنه شأن الكثير من عمليات القرصنة الموضحة في هذا الكتاب. وقد نشر تفاصيله الخبير المخضرم في هذا المجال دان كامينسكي في عام ٢٠٠٤ (www.doxpara.com/bo2004.ppt).

أما خبير «صحافة المواطن» دان جيلمور — الذي يدير حاليًّا «مركز إعلام المواطن» في جامعة هارفرد وجامعة كاليفورنيا في بيركلي — فله كتاب رائع حول هذا الموضوع يحمل عنوان «نحن، الإعلام» (أورايلي، ٢٠٠٤).

إذا أردت معرفة المزيد عن قرصنة شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية، فابدأ بمقال «أسرار قرصنة شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية» في مجلة «وايرد» بقلم آنالي نويتس (www.wirednews.com/wired/archive/14.05/rfid.html). ويلقي كتاب «إيفريوير» لجرينفيلد (دار نشر نيو رايدرز، ٢٠٠٦) نظرة مذهلة على مخاطر عالم شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية.

يجري معمل نيل جيرشنفيلد «فاب لاب» في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عمليات قرصنة لأول طابعات ثلاثية الأبعاد رخيصة السعر في العالم يمكنها طباعة أي شيء على الإطلاق، وهذه الحقيقة موثقة في كتاب جيرشنفيلد الرائع حول هذا الموضوع «فاب» (بيزيك بوكس، ٢٠٠٥).

يستعرض كذلك كتاب «تشكيل الأشياء» لبروس ستيرلينج (مطبعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ٢٠٠٥) كيف يمكن استخدام شرائح تحديد الهوية بالموجات اللاسلكية وما شابه لإجبار الشركات على إصدار منتجات لا تتسبب في هلاك العالم.

وعلى ذكر بروس ستيرلينج، فقد ألَّف أول كتاب ذي شأن حول قراصنة الكمبيوتر والقانون بعنوان: «قمع قراصنة الكمبيوتر» (بانتام، ١٩٩٣)، وهو أول كتاب أيضًا يُنشَر من قِبل دار نشر كبرى ويصدر على الإنترنت في الوقت نفسه (هناك عدد كبير من النسخ متاح؛ ارجع إلى الصفحة التالية: (stuff.mit.edu/hacker/hacker.html للحصول على نسخة). وقد كان لقراءة هذا الكتاب الفضل في لفت انتباهي إلى مؤسسة الحدود الإلكترونية التي حالفني الحظ بالعمل معها مدة أربعة أعوام.

مؤسسة الحدود الإلكترونية (www.eff.org) هي منظمة خيرية قائمة على العضوية، وبها مزايا للطلبة. وتنفق هذه المؤسسة الأموال التي يدفعها الأفراد لها للحفاظ على الإنترنت آمنًا؛ أمام الحرية الشخصية، وحرية التعبير، ومراعاة الأصول القانونية، وغير ذلك مما ينص عليه ميثاق الحقوق. وهذه المؤسسة هي أكثر الجهات المدافعة عن الحريات فاعلية على الإنترنت، ويمكنك مشاركتها النضال عن طريق الاشتراك في قائمتها البريدية، والكتابة للمسئولين المنتخبين من قبلك عندما يفكرون في التضحية بك بحجة مكافحة الإرهاب أو القرصنة أو المافيا أو أي أوهام أخرى تثير مخاوفهم. تساعد مؤسسة الحدود الإلكترونية كذلك في تطوير موجهات الاتصال المجهول (تور)، وهي تقنية حقيقية يمكنك استخدامها «الآن» لتجاوز جدران الحماية الرقابية للحكومة أو المدرسة أو المكتبة (tor.eff.org).

ولمؤسسة الحدود الإلكترونية موقع إلكتروني ضخم وزاخر بمعلومات مذهلة موجهة للجمهور من عامة الناس، شأنها في ذلك شأن الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية (aclu.org)، وجمعية المعرفة العامة (publicknowledge.org)، وحركة الثقافة الحرة (freeculture.org)، ومنظمة المشاع الإبداعي (creativecommons.org) وهي الجهات الجديرة جميعها بدعمك. والثقافة الحرة هي حركة طلابية دولية تكلف الطلبة بتأسيس

جماعات محلية خاصة بهم في المدارس الثانوية أو الجامعات التي يدرسون فيها، فيما يُعَد طريقة رائعة للمشاركة وإحداث فارق.

يؤرخ العديد من المواقع الإلكترونية الصراع من أجل الحريات على الإنترنت، لكن هذه المواقع كافة لا تضاهي في نشاطها موقع «سلاشدوت» (slashdot.org).

وينبغي لك بالطبع زيارة ويكيبيديا، تلك الموسوعة القائمة على المشاركة وتتكون من مقالات يتم إرسالها لها عبر الإنترنت بحيث يمكن لأي أحد تحريرها، ويزيد عدد المدخلات فيها على المليون مدخل باللغة الإنجليزية فقط. تتناول ويكيبيديا القرصنة والتمرد على الثقافة السائدة بعمق مذهل وتحديث بسرعة النانوثانية. التحذير الوحيد هنا هو أنه لا يمكنك الاطلاع فحسب على ما يُنشَر على هذه الموسوعة، فمن الأهمية بمكان أن تلقي نظرة على رابطَي «تاريخ الصفحة» و«نقاش» الموجودَين أعلى كل صفحة بالموقع؛ لترى كيف تم التوصل إلى النسخة الحالية من المقال الذي تقرؤه، وتدرك وجهات النظر المتنافسة حوله، وتقرر بنفسك فيمن ستثق.

أما إذا أردت جني معرفة محظورة حقًّا، فعليك بالمرور سريعًا على موقع «كريبتوم» (cryptome.org)، والذي يعد السجل الأكثر إذهالًا في العالم للمعلومات السرية والمحظورة والمتحررة. فيجمع ناشرو هذا الموقع، الذين يتسمون بالشجاعة، المواد التي تم انتزاعها من الدولة بموجب طلبات قانون حرية المعلومات الأمريكي أو تسريبها بواسطة الواشين، وينشرونها.

وأفضل ما أُلِّف في تاريخ التشفير دون منازع رواية «كريبتونوميكون» لمؤلفها نيل ستيفنسن (أفون، ٢٠٠٢). يروي ستيفنسن في هذه الرواية قصة آلان تورينج وجهاز إنيجما النازي، ليقدم لنا بذلك رواية حرب لا يمكن للقارئ تركها من بين يديه قبل إتمام قراءتها.

وحزب القراصنة، الذي ذُكِر في رواية «الأخ الأصغر»، حزب حقيقي وقائم بالفعل — في وقت كتابة هذه السطور (يوليو، ٢٠٠٦) — في السويد (www.piratpartiet.se) والدنمارك والولايات المتحدة وفرنسا. لا يزال التحرر من التقليدية محدود النطاق، لكنه يتبع كافة السبل ليتحقق.

وعلى ذكر التحرر من التقليدية، فقد حاول بالفعل آبي هوفمان والييبيز رفع البنتاجون في الهواء، وإلقاء الأموال في البورصة، والعمل مع مجموعة «ارفع يديك على الحائط أيها السافل». وقد أُعيدَت طباعة كتاب آبي هوفمان المتميز الذي يتحدث فيه

عن خداع النظام ويحمل عنوان «اسرق هذا الكتاب» (فور وولز إيت ويندوز، ٢٠٠٢)، وهو متوفر كذلك على الإنترنت كموقع ويكي تعاوني متاح لمن يرغبون في محاولة تحديثه (stealthiswiki.nine9pages.com).

تُعَد كذلك سيرة هوفمان الذاتية، التي تحمل عنوان «قريبًا على شاشة السينما» (الصادرة أيضًا عن دار نشر فور والز إيت ويندوز)، إحدى السير الذاتية المفضلة لديَّ على الإطلاق، وإن كانت تطغى عليها الصياغة الروائية. كان هوفمان قاصًّا مذهلًا يتمتع بفطرة النشطاء العظماء. لكنك إذا أردت الاطلاع على حياته بحق، فعليك بقراءة كتاب لاري سلومان «اسرق هذا الحلم» (دابلداي، ١٩٩٨).

لمزيد من المتعة من الثقافة المتمردة، عليك بقراءة رواية جاك كيرواك «على الطريق»، ويمكن شراء هذه الرواية من أي متجر كتب قديمة مقابل دولار واحد أو دولارين فحسب. أما قصيدة آلان جينزبرج «عواء»، فهي متوفرة على الإنترنت، ويمكنك سماعها بصوته إذا بحثت عن ملف MP3 الخاص بها على موقع (archive.org). لمزيد من المعلومات، ابحث عن ألبوم «تيندرنس جانكشن» لفرقة فاجز، والذي يتضمن تسجيلًا صوتيًّا لآلان جينزبرج وآبي هوفمان أثناء مراسم رفع البنتاجون.

هذا وما كان الكتاب الذي بين يديك ليرى النور لولا رواية «١٩٨٤»، ذلك العمل الرائع لجورج أورويل الذي غيَّر وجه العالم؛ وهي أفضل رواية نُشِرت على الإطلاق حول انحراف المجتمعات عن الطريق القويم. لقد قرأت هذه الرواية للمرة الأولى وأنا في الثانية عشرة من عمري، ووصل عدد مرات قراءتي لها منذ ذلك الحين ثلاثين أو أربعين مرة، وفي كل مرة أخرج منها بشيء جديد؛ فقد كان أورويل قاصًّا من الطراز الأول، وأثار اشمئزازه الاستبداد الذي ظهر في الاتحاد السوفييتي. وتمثل هذه الرواية الآن نموذجًا لرواية الخيال العلمي المرعبة بحق، وهي إحدى الروايات التي «غيرت العالم» بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى. وصارت الآن كلمة «أورويلي» مرادفًا للدولة المستبدة التي تمارس التعذيب والتفكير المزدوج والرقابة.

تناول العديد من الروائيين أجزاءً من رواية «الأخ الأصغر». ومن الأمثلة على ذلك العملُ الكوميدي الرائع لدانيال بينكووتر «آلان مينديلسون: شاب من المريخ» (المنشور حاليًّا كأحد أجزاء مجموعة «٥ روايات»، الصادر عن دار نشر فارار وستراوس وجيروكس، ١٩٩٧)، وهو كتاب يلزم على كل عاشق للتكنولوجيا قراءته؛ فإذا شعرت يومًا بأنك منبوذ من مجتمعك لكونك شديد الذكاء أو الغرابة، فعليك بقراءة هذا الكتاب. لقد غيَّر حياتي.

ثمة رواية أخرى أكثر معاصرة بعنوان «حدث بالأمس» (ريزوربيل، ٢٠٠٤) بقلم سكوت ويسترفيلد. تستعرض هذه الرواية مغامرات الشباب المبتكرين للاتجاهات الجديدة والداعمين لأسلوب التشويش الإعلاني. وقد كان لسكوت وزوجته جاستين لاربليستير دور في إلهامي بتأليف كتاب للشباب، وتشاركهما في ذلك كاثي كوجا. شكرًا لكم يا رفاق!